القرب من الله والمقربون في القرآن الكريم

تأليف:

محمد بن حسين القرني

تقديم:

فضيلة الشيخ الدكتور:

عائض بن عبد الله القرني

الداعية الإسلامي المعروف

أصل هذا الكتاب رسالة ماجستير نال بها الباحث

درجة الماجستير بتقدير ممتاز من قسم الكتاب والسنة

في جامعة أم القرى عام ١٤٣٧هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

◈ إلى كل مسلم شهد شهادة الحق ابتغاء وجه الله.

◈ إلى كل داعية حمل فوق كاهله هموم الدعوة إلى الله.

◈ إلى كل إمام مسجد تبوَّأ مسؤولية إصلاح المجتمع المسلم.

◈ إلى كل خطيب اعتلى منبر الخطابة وغايته هداية الناس.

تقديم الشيخ الدكتور

عائض بن عبد الله القرني

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فقد طالعت كتاب «القرب من الله والمقربون في القرآن الكريم دراسة موضوعية» للأستاذ محمد بن حسين بن حسن القرني، وهي رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن، وقد سرني في الكتاب ما تميز به المؤلف من حسن توثيق استدلاله بكلام الله وكلام رسول الله ﷺ، ثم نقله لكلام العلماء مع حسن الترتيب والتبويب وجلالة الموضوع لأنه متعلق بكتاب الله ﷻ، ووجدت في هذا الكتاب روح الباحث الصادق الذي استنار بفهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ووجدت في الكتاب بغيةً للداعية والخطيب والمعلم وإمام المسجد حيث أنه ربطهم بالدليل وأحسن في نقل كلام الأئمة واختيار جمل نافعة لعلماء الإسلام، فجعل الله ذلك في ميزان حسناته وبارك فيه وفي جهوده وزادنا الله وإياه فلاحًا نجاحًا وصلاحًا.

عائض بن عبد الله القرني

بسم الله الرحمن الرحيم

د/ عائض بن عبدالله القرني

التاريخ: ٥/ ٢/ ١٤٣٨هـ

الحمدلله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد: فقد طالعت كتاب (القرب من الله والمقربون في القرآن الكريم دراسة موضوعية) للأستاذ مُحَمَّد بن حسين بن حسن القرني وهي رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن وقد سرّني في الكتاب ما تميز به المؤلف من حسن توثيق استدلاله بكلام الله وكلام رسوله ﷺ ثم نقله لكلام العلماء مع حسن الترتيب والتبويب وجلالة الموضوع لأنه متعلق بكتاب الله عز وجل، ووجدتُ في هذا الكتاب روح الباحث الصادق الذي استنار بفهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ووجدتُ في الكتاب بُغيةً للداعية والخطيب والمعلم وإمام المسجد حيث أنه ربطهم بالدليل وأحسن في نقل كلام الأئمة واختيار جمل نافعة لعلماء الإسلام، فجعل الله ذلك في ميزان حسناته وبارك فيه وفي جهوده وزادنا الله وإياه فلاحاً نجاحاً وصلاحا.

عائض بن عبدالله القرني

المملكة العربية السعودية - الرياض - ص.ب ٢٣٠٣٧٩ - الرمز البريدي ١١٣٢١
Kingdom of Saudi Arabia - Riyadh - P.O.Box 230379 - Code No. 11321
E-mail: ayde195@gmail.com

مقدمة

الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، والصلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، رسولنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، ومَن سار على نهجه، واقتفى أثره إلى يوم الدين،

أما بعد:

فإن الاشتغال بالعلم تحصيلًا وتعليمًا وتأليفًا هو خير ما تُفنى فيه الأعمار، وتُطوى فيه ساعات الليل والنهار، كيف لا وقد رفع الله أهله منزلة عالية، وكتب لهم به كرامات عظيمة؟! قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

ثم إن خير العلوم وأشرفها وأجلها ما كان مختصًّا بكتاب الله العزيز، فمَن وفَّقه الله للاشتغال بذلك، وأخلص له النية، وأصلح له السريرة، فقد نال شرف الدنيا، وكرامة الآخرة.

ولطالما كان يحدوني الأمل أن يشرِّفني الله تعالى بالانضمام لقافلة المشتغلين بعلم الكتاب العزيز، وأن يرزقني منه فضلًا أنفع به نفسي وأنفع به أُمتي.

فأخذت أبحث في صفحات الكتاب العزيز، بغية أن أجد موضوعًا يلامس قلوب الناس، ويعالج شيئًا من مشكلات حياتهم، ويزيدهم حبًّا في الآخرة، وزُهدًا في الدنيا.

وبعد تأمُّلٍ وتدبُّر في أحوال الأمة، وتلك الغفلة العظيمة التي خيَّمت على قلوب الكثير من أبنائها، رأيت أن الناس في حاجة لمن يُذكّرهم بطريق رشيد إلى

الاستقامة، ورجوع سديدٍ وإنابة، ووقع في نفسي أنَّ تبصير الناس بقضية القرب من الله هي هَمّ كل داعية يدعو إلى الله، فتاقت نفسي حينئذ لأن أطرق أبواب القرب من الله وأحوال المقربين ببحث علمي سميته "القرب من الله والمقرَّبون في القرآن الكريم". سائلًا الله تعالى الإخلاص والتوفيق والسداد، فهو خير مسؤول، وأعظم مأمول، وهو حسبي ونعم الوكيل، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمد.

محمد بن حسين القرني
ahh258@gmail.com

أهمية الموضوع:

تنطلق أهمية موضوع القرب من الله والمقربين، والاهتمام به، من الأمور التالية:

١- تعلُّق الموضوع بكتاب الله الكريم، الذي حثَّ الله تعالى على تدبُّره وفهمه، وحضَّ رسوله ﷺ على تعلمه وتعليمه.

٢- أن العبد متقلب في ليله ونهاره بين القرب من الله تعالى والبُعد عنه، إما أن يكون قريبًا من ربه وخالقه بفعل الطاعات واجتناب المحرمات، وإما أن يكون بعيدًا عن ربه باستهواء الشياطين والهوى والشهوات.

٣- أنه لا شيء أعظم ولا ألذ للعبد من القرب من الله، فمَن كان من الله أقرب كان به أسعد، وفاز بنعيم الدنيا، ورُزق الأمن والكرامة في الآخرة.

٤- أن العصيان والتمرد والإجرام الظاهر من كثير من الناس ما كان إلا بعد أن نأت الأنفس وابتعدت عن الله تعالى، فلما نسوا ما ذكِّروا به نسيهم الله، وسلَّط عليهم شياطين الإنس والجن، وتحكمت فيهم أهواؤهم وشهواتهم، فضلُّوا وأضَلوا.

٥- أن قلب المؤمن يشتاق لأن يبلغ منازل المقربين من الله السابقين إليه، الذين خصَّهم الله تعالى بخصال عظيمة، فإذا تبينت للعبد المؤمن الوسائل والأسباب التي ينال بها المقامات العظيمة والدرجات العالية، نشطت نفسه لبلوغ منازل المقربين.

٦- الترابط الوثيق بين القرب من الله والقرب من الأرحام وصالح البشر؛ إذ إن حفظ حقوقهم والإحسان إليهم وبرهم وصلتهم سبيل لطاعة الله تعالى والقرب منه، وبركة في العمر ونماء في الرزق.

٧- العقوق العظيم والقطيعة العظيمة التي دبَّت في جسد الأمَّة، نتيجة الجهل الكبير بحقوق الأرحام خاصة، وحقوق المؤمنين عامة، وما يترتب على ذلك من عقوبات دنيوية وأخروية.

٨- أهمية البحث في التفسير الموضوعي في عصرنا الحاضر؛ لما له من فائدة عظيمة في مجال الدعوة إلى الله تعالى.

الخطوات الإجرائية في البحث:

اعتمد الباحث في هذا البحث على الخطوات المتعارف عليها في بحوث التفسير الموضوعي، وبعض المفردات الأخرى المتمثلة فيما يلي:

١- اختيار عبارة «القرب من الله والمقربون في القرآن الكريم» عنوانًا للبحث.

٢- حصر الآيات القرآنية المتعلقة بموضوع البحث.

٣- دراسة الآيات القرآنية ومعرفة مدلولاتها في كتب اللغة والتفسير وما يلحق بها.

٤- تصنيف الآيات القرآنية التي تم جمعها، والاستفادة منها في بناء الهيكل العام للبحث.

٥- **تقسيم البحث إلى أربعة فصول:** يخصص الفصل الأول منه لمفهوم القرب والمقربين ومعانيه وأنواعه وأهميته، ويخصص الفصل الثاني لأسباب القرب من الله وموانعه، والفصل الثالث لصفات المقربين من الله وثمرات القرب وعاقبة تركه، والفصل الرابع للقرب من أصناف الخلق خيارهم وشرارهم وخاصتهم، وأثر ذلك على قرب العبد من ربه.

٦- الاستشهاد بالأحاديث النبوية الصحيحة، وأقوال الصحابة والتابعين، وسائر العلماء الربانيين، المبثوثة في كتب السُّنة وشروحها، وكتب الرقائق والوعظ والزهد قديمها وحديثها، والإفادة منها بما يخدم الموضوع ويبرز مكانته وأهميته.

٧- نقل الأحاديث النبوية مشكولة مع تخريجها من مصادرها الأصلية عند ورودها أول مرة، وذلك بعزو الحديث إلى مصدره في الصحيحين، أو في أحدهما إذا تفرد به أحد الشيخين، فإن لم يكن في الصحيحين فمن كتاب واحد من كتب السنن أو المسانيد، مع الحكم عليه، وذكر الصحابي إن لم يذكر في المتن، وذكر كتاب الحديث وبابه، مع اختصار اسم كتاب الحديث أو بابه إن كان طويلًا، أو كتابة مقدمة كتاب كذا إن كان الحديث مرويًا في مقدمة كتاب، ثم ذكر جزئه وصفحته ورقمه بعد ذلك.

٨- الاكتفاء بذكر الراوي، إن كان الحديث مرويًّا في كتابه المشهور عنه، ولا أذكر اسم الكتاب إلا إن كان الحديث مرويًّا في كتاب آخر غير المشهور، وذلك كتخريج الأحاديث المروية عن البخاري من "الأدب المفرد" مثلًا، فإني أكتب رواه البخاري في "الأدب المفرد".

٩- يجتهد الباحث في عزو آثار الصحابة والتابعين وعلماء الأمة إلى مصادرها الرئيسة، مع اختصار أسماء المصادر الطويلة التي لا تتشابه مع غيرها.

١٠- يدوِّن الباحث في هامش التوثيق ترجمة مختصرة للأعلام، عدا الملائكة والأنبياء والرسل، والتعريف بهم عند ورودهم لأول مرة، وذلك بالاعتماد غالبًا على كتابين كحد أدنى من كتب التراجم والسير، إلا في ترجمة بعض المعاصرين، فأذكر أحيانًا مصدرًا واحدًا اضطرارًا.

١١- يذكر الباحث اسم الكتاب واسم مؤلفه والجزء والصفحة، إذا ورد الكتاب لأول مرة، ولم يكن اسم المؤلف مذكورًا عند موضع الاقتباس في المتن، أما إذا كان اسم المؤلف مذكورًا، أو أن الكتاب قد تكرر ذكره، فيكتفي باسم الكتاب والجزء والصفحة.

١٢- يتم التعريف بما يحتاج إلى تعريف من مصطلحات البحث، مع بيان معاني الألفاظ الغريبة الواردة في ثناياه.

١٣- ذيل الباحث الرسالة بخاتمة شاملة تبين أهم النتائج والتوصيات، وفهارس تفصيلية للآيات والأحاديث والأعلام والمراجع والموضوعات.

خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة، وأربعة فصول، وخاتمة، وفهارس، وهي كما يلي:

➢ **المقدمة وتشمل الآتي:**

- أهمية الموضوع.
- أسباب اختيار الموضوع.
- أهداف البحث.
- الدراسات السابقة.
- حدود الدراسة.
- منهج البحث.
- منهجية الباحث في البحث.

➢ **الفصل الأول:** القرب والمقربون مفهومه وأنواعه وأهميته، وفيه ثلاثة مباحث:

- **المبحث الأول:** مفهوم القرب والمقربين، وفيه ثلاثة مطالب
  - المطلب الأول: مفهوم القرب والمقربين في اللغة
  - المطلب الثاني: معاني القرب في القرآن الكريم
  - المطلب الثالث: مفهوم القرب من الله والمقربين في القرآن الكريم
- **المبحث الثاني:** أنواع القرب، وفيه ثلاثة مطالب
  - المطلب الأول: قرب الله تعالى من خلقه
  - المطلب الثاني: قرب الخلق من الخالق
  - المطلب الثالث: القرب بين الخلق
- **المبحث الثالث:** منزلة القرب من الله وأهميته ومقام المقربين، وفيه مطلبان
  - المطلب الأول: منزلة القرب من الله وأهميته
  - المطلب الثاني: مقامات المقربين عند الله تعالى

➢ **الفصل الثاني**: القرب من الله أسبابه وموانعه، وفيه مبحثان

- **المبحث الأول:** أسباب القرب من الله تعالى، وفيه ثلاثة مطالب
  - المطلب الأول: الإيمان بالله
  - المطلب الثاني: العمل الصالح
  - المطلب الثالث: حسن الخلق
- **المبحث الثاني:** أسباب البعد عن الله تعالى، وفيه ثلاثة مطالب
  - المطلب الأول: الكفر بالله
  - المطلب الثاني: المعاصي والذنوب

- **المطلب الثالث:** سوء الخلق

➢ **الفصل الثالث:** صفات المقربين من الله، وثمرات القرب، وعاقبة البعد عن الله، وفيه ثلاثة مباحث

- **المبحث الأول:** صفات المقربين من الله تعالى، وفيه ثلاثة مطالب
  - **المطلب الأول:** صفات الملائكة المقربين
  - **المطلب الثاني:** صفات الرسل والأنبياء
  - **المطلب الثالث:** صفات أولياء الله الصالحين
- **المبحث الثاني:** ثمرات القرب من الله تعالى، وفيه أربعة مطالب
  - **المطلب الأول:** ثمرة القرب من الله في الحياة الدنيا
  - **المطلب الثاني:** ثمرة القرب من الله عند الموت
  - **المطلب الثالث:** ثمرة القرب من الله في البرزخ
  - **المطلب الرابع:** ثمرة القرب من الله في الآخرة
- **المبحث الثالث:** عاقبة البعد عن الله تعالى، وفيه أربعة مطالب
  - **المطلب الأول:** عاقبة البعد عن الله في الحياة الدنيا
  - **المطلب الثاني:** عاقبة البعد عن الله عند الموت
  - **المطلب الثالث:** عاقبة البعد عن الله في البرزخ
  - **المطلب الرابع:** عاقبة البعد عن الله في الآخرة

➢ **الفصل الرابع:** القرب من أصناف الخلق وأثره على القرب من الله، وفيه ثلاثة مباحث

- **المبحث الأول:** القرب من خيار الخلق، أهميته وأسبابه وثمراته، وفيه أربعة مطالب

- **المطلب الأول:** القرب من الملائكة، أهميته وأسبابه وثمراته
- **المطلب الثاني:** القرب من الأنبياء والرسل، أهميته وأسبابه وثمراته
- **المطلب الثالث:** القرب من الأولياء الصالحين، أهميته وأسبابه وثمراته
- **المطلب الرابع:** موانع القرب من خيار الخلق، وعاقبة ذلك

- **المبحث الثاني:** القرب من القرابات الخاصة، أهميته وأسبابه وثمراته، وفيه ثلاثة مطالب

- **المطلب الأول:** القرب من الأرحام والجيران، أهميته وأسبابه وثمراته
- **المطلب الثاني:** القرب من الأخلاء والأصحاب الصالحين، أهميته وأسبابه وثمراته
- **المطلب الثالث:** موانع القرب من القرابات الخاصة، وعاقبة ذلك

- **المبحث الثالث:** القرب من شرار الخلق، خطورته وأسبابه وعاقبته، وفيه مطلبان

- **المطلب الأول:** القرب من الكفار، خطورته وأسبابه وعاقبته
- **المطلب الثاني:** القرب من الشياطين وسلاطين الضلال، خطورته وأسبابه وعاقبته

➢ الخاتمة، وفيها أهم النتائج والتوصيات:

وفي الختام: أحمد الله سبحانه على الإعانة والتمام، وأشكره جلَّ في علاه على بلوغ المرام، فلولا فضله وجميل إحسانه ما كنت لأحظى بما حرَّرت، ولولا لطفه وعظيم امتنانه ما كنت لأكتب ما سطرت، فله الحمد وله الشكر، وله الثناء الحسن، ثم أثنَّي بعد حمد الله تعال بالشكر لمن كان سببًا بعد الله تعالى في وجودي، ومن رباني ورعاني حتى اشتد عودي، فجزاهما الله عني خير الجزاء، وجعل قبريهما روضتين من رياض الجنة.

كما يسعدني أن أتقدم بالشكر والتقدير لشيخي الفاضل، وأستاذي الجليل، الأستاذ الدكتور: طه عابدين، أستاذ التفسير وعلوم القرآن بقسم الكتاب والسنة بجامعة أم القرى، الذي سخره الله لي ليشرف على هذا العمل، فشكر الله له جهده وبذله ونصحه.

كما أشكر الشيخين الفاضلين: الأستاذ الدكتور/ محمد عبد السلام، والشيخ الدكتور/ عبد الودود حنيف، اللذين شرفاني بمناقشة هذه الرسالة، وإبداء التوجيهات والتوصيات على ما جاء في ثنايها.

كما أتقدم بالشكر الجزيل لكل من أعانني على إتمام هذه الرسالة من مشائخي الفضلاء، وإخوتي الأوفياء، بما بذلوا لي من نصح وإرشاد ومتابعة، مما كان له الأثر البالغ في إخراج هذا البحث.

ولا يفوتني أن أشكر زوجي وأبنائي وزملائي على ما هيأوا لي من وسائل وأسباب، أعانتني على البحث والجد والاجتهاد.

والشكر موصول بعد ذلك لشيخنا الفاضل، وعالمنا الجليل، الشيخ الدكتور/ عائض بن عبد الله القرني، الذي شرفني رغم مشاغله بالإطلاع على هذه الرسالة

وكتابة مقدمتها، فشكر الله له تعاونه، وجزاه الله تعالى عني وعن الأمة خير الجزاء.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفصل الأول

القرب والمقربون:

مفهومه، وأنواعه، وأهميته

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم القرب والمقربين

المبحث الثاني: أنواع القرب

المبحث الثالث: منزلة القرب من الله وأهميته ومقام المقربين

تمهيد

ما من عبدٍ يريد أن يسلك طريقًا يصل به إلى هدف منشود إلا ولا بدَّ له أن يتعرف على معالم ذلك الطريق التي تسهِّل عليه السير فيه، فكيف إذا كان هذا الطريق هو طريق القُرب من الله تعالى، والفوز بكراماته؟!

لا شكَّ أن السائر على هذا الطريق في حاجة ماسَّة إلى وضوح معالمه، واستبانة ركائزه، ولذلك سيفتتح الباحث هذا البحث بفصل في تعريف القرب من الله تعالى، ومعانيه في اللغة وفي القرآن، مع بيان العلاقة بينهما، ثم يحدد بعد ذلك أنواع القُرب التي سيدور حولها الحديث في هذا البحث، ثم يختم الباحث بذكر أهمية القرب من الله، ومنازل المقربين، التي تشحذ هِمم السائرين إلى الله تعالى على المسارعة في الخيرات، والتقرُّب إلى الله تعالى بالأعمال الصالحات.

المبحث الأول:

مفهوم القرب والمقربين

- **المطلب الأول**: مفهوم القرب والمقربين في اللغة
- **المطلب الثاني**: معاني القرب في القرآن الكريم
- **المطلب الثالث**: مفهوم القرب من الله والمقربين في القرآن الكريم

المطلب الأول:

مفهوم القرب والمقربين في اللغة

أولا: القرب في اللغة:

بعد التأمل والتدبر في معاجم اللغة(١) المختلفة، توصل الباحث إلى ما يلي:

القاف والراء والباء: أصل صحيح يدل على خلاف البُعد.

يقال: قَرُبَ يَقْرُبُ قُرْبًا، وقَرُبَ منه، وقَرِبَه، أي: دنا منه.

والاقتراب: الدنو، وقارَبَ الخَطْوَ: داناهُ.

والتَقَرُّبُ: التدني إلى شيء، ومنه كذلك التوصل إلى إنسان بقُربة أو بحق.

وَالْقُرْبَانُ: ما قربت إلى الله تعالى من نسيكة تبتغي بذلك قُربة ووسيلة، قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانًا﴾ [المائدة: ٢٧].

أما قربان الملك وقرابينه: فهم وزراؤه وجلساؤه وخاصته.

وتقارَبَت إبله: إذا قلّت. وتقارب الزرع: إذا دنا إدراكه.

والقُرْبَةُ، والقُرُبَةُ، والقُرْبَى: هم القَرَابَةُ، يقال فلان قريبي، وذو قرابتي: مَن يقرب منك رحمًا.

ويقال: فلان قارب فلانًا في الأمر: إذا ترك الغلو، وقصد السداد، وفي

---

(١) ينظر: كتاب العين، الخليل بن أحمد (٥/١٥٢)، تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري (٩/١٢٢)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري (١/١٩٨)، معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس الرازي (٥/٨٠)، المصباح المنير، أحمد بن محمد الفيومي (٢/٤٩٥)، القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (١/١٢٣).

الحديث: «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا»[1]، أي: اقتصدوا دونما غلو أو تقصير.

وتقول: ما (قَرُبْتُ) هذا الأمر، ولا (أَقْرَبُهُ)، إذا لم تشامّه ولم تلتبس به، أو تدنو من أسبابه أو دواعيه، ومنه قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾[الإسراء: ٣٢].

والْقَرَبُ: هي ليلة ورود الإبل الماء، قال الأصمعي[2] رحمه الله: قلت لأعرابي: ما القَرَب؟ فقال: سير الليل لورد الغد، وذلك أن القوم يسيرون إلى الماء ويرعون، فإذا كان بينهم وبين الماء عشية عجلوا.

وَالْقَارِبُ: سفينة صغيرة تكون مع أصحاب السفن تستخف لحوائجهم، سُميت بذلك لدنوها منهم.

والخيل المُقرَبة: التي ضُمِّرَت للركوب، أو التي تكون قريبًا معدة، أو التي تدنى وتكرم ولا تترك.

وشاةٌ مُقْرِبٌ، وأتان مُقْرِبٌ: إذا قرُب ولادها ودنا نِتَاجُهَا.

والمَقْرَبُ والمَقْرَبَةُ: الطريق المختصر.

والقريب: اسم من أسماء الله الحسنى.

وحاصل ما سبق ذكره من أقوال أهل العلم يتلخص في أن القرب بمشتقاته وتصاريفه لا تخرج في الغالب عن معنى الدنو، حسيًّا كان أو معنويًّا.

---

(١) رواه البخاري، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، (٦٨/٨)، رقم ٦٤٦٣، ورواه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله، (٢١٧١/٤)، رقم ٧٨.

(٢) أبو سعيد، عبد الملك بن قريب بن عبد الملك الأصمعي البصري، أحد أئمة اللغة والغريب والأخبار والملح والنوادر، كان شديد الاحتراز في تفسير الكتاب والسنة، من مؤلفاته: "خلق الإنسان"، و"المترادف"، توفي سنة ست عشرة ومائتين. ينظر: بغية الوعاة (١١٢/٢)، سير أعلام النبلاء (١٧٥/١٠)، وفيات الأعيان (١٧٠/٣).

ثانيًا: المُقرَّب في اللغة:

هو اسم مفعول من قرَّبَ، يقرِّب، تقريبًا.

وقرَّب الشّيء: قدَّرَهُ تقديرًا غير مضبوط. وقرَّب المعنَى: جعله مفْهومًا.

وقرَّب القُرْبانَ لله: قدَّمه.

وقرَّب الكرسيَّ إليه: أدناه منه، كقول الله تعالى: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ [الذاريات: ٢٧]، أي: أدناه منهم.

وقرَّب بين الناس: جعلهم يتصالحون.

وفلان مقرَّب إلى قلبي: قريب عزيز، صفيّ ذو مكانة عندي[(١)].

قال ابن عاشور[(٢)] ﵀: «وَالْمُقَرَّبُ: أبلغ من القريب؛ لدلالة صيغته على الاصطفاء والاجتباء»[(٣)].

ويتبين بما سبق أن الْمُقَرَّبُ يطلق على المدنُو دنوًّا حسيًّا متعلقًا بالمسافة، أو دنوًّا معنويًّا بمعنى المحبة والاصطفاء والمكانة العالية.

الألفاظ المقاربة والألفاظ المقابلة لكلمة قَرُب:

لما كان القرب مشتقًا من الفعل قرب كان من المناسب أن نورد بعض الألفاظ المقاربة والمقابلة لهذا الفعل، فأما أشهر الألفاظ المقاربة لكلمة قَرُب فهي:

---

(١) ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة (١٧٩١/٣).

(٢) محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة، مولده ووفاته ودراسته بها، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة، من أشهر مصنفاته: "مقاصد الشريعة الإسلامية"، و"أصول النظام الاجتماعي في الإسلام"، و"التحرير والتنوير"، توفي سنة تسعين وثلاثمائة وألف. ينظر: الأعلام (٣٢٥/٦).

(٣) التحرير والتنوير (٢٨٨/٢٧).

دنا – جاور – أزِف – لاصق – كَثَب –حاذى – آن– شارف – أوشك – أهدف– أقبل – كاد – حان – أطل – ناهز – حلَّ – وفد – ولي

وأما أشهر الألفاظ المقابلة لكلمة قَرُب فهي:

بَعُد – نأى – قَصي – رحل – بان – شطَّ – فرَّ – نحى – هجر – نفر – هرب – غاب – فارق – ترك – أعرض – فات – نزح – غادر.

المطلب الثاني:

معاني القرب في القرآن الكريم

ورد ذكر القرب في محكم التنزيل بمختلف تصريفاته ستًّا وتسعين مرة، مترددًا معناه بين عدة وجوه، تباينت حولها أقوال العلماء والمفسِّرين بين مقل ومستكثر(١)، إلا أنه بعد النظر والتأمُّل في تلك الأقوال تبيَّن للباحث أن معاني القرب يمكن حصرها فيما يلي:

أولاً: قرب الزمان:

قال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ﴾ [الأنبياء:١]، قال البغوي(٢) رحمه الله: «أي: وقت محاسبة الله إياهم على أعمالهم»(٣).

ثانيًا: قرب المكان:

كما في قول الله تعالى: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾ [ق: ٤١]، قال ابن جرير(٤) رحمه الله: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: واستمع يا محمد صيحة يوم

(١) حصرها الراغب في «مفردات ألفاظ القرآن» في ستة أوجه، وأوصلها الدامغاني في «إصلاح الوجوه والنظائر» إلى أربعة عشر وجهًا، وذكر ابن الجوزي في "نزهة الأعين النواظر" أن بعض المفسرين ذكر فيه عشرة أوجه. ينظر: مفردات ألفاظ القرآن، الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، ص ٦٦٣، إصلاح الوجوه والنظائر، الحسين بن محمد الدامغاني، ص ٣٧٤، نزهة الأعين النواظر، عبد الرحمن بن الجوزي، ص ٤٩٧.

(٢) أبو محمد، الحسين بن مسعود بن محمد البغوي الشافعي، الشيخ، الإمام، العلامة، القدوة، الحافظ، كان إمامًا في التفسير والحديث والفقه، بورك له في تصانيفه، ورزق فيها القبول، كان لا يلقي الدرس إلا على طهارة، وكان قانعًا ورعًا، صنف "شرح السنة"، و"معالم التنزيل"، و"المصابيح"، مات سنة ست عشرة وخمسمائة. ينظر: سير أعلام النبلاء (٤٣٩/١٩)، طبقات المفسرين للسيوطي، ص ٤٩.

(٣) معالم التنزيل (٣٠٩/٥).

(٤) أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد الطبري، صاحب التفسير المشهور، كان إمامًا مجتهدًا في فنون كثيرة، منها التفسير، والحديث، والفقه، والتاريخ، وغير ذلك، طلب العلم بعد الأربعين ومائتين، وأكثر الترحال، =

القيامة، يوم ينادي بها مناديها من موضع قريب»[١].

ثالثًا: الدنو في النسب:

وقد جاء هذا كثيرًا في كتاب الله العزيز، كقوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾ [النساء: ٨].

رابعًا: الحُظوة والكرامة:

قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١]، قال الألوسي[٢] رحمه الله: «والمقربون من القربة بمعنى الحظوة، أي: أولئك الموصوفون بذلك النعت الجليل الذين أنيلوا حظوة ومكانة عند الله تعالى، وقال غير واحد: المراد الذين قربت إلى العرش العظيم درجاتهم»[٣].

خامسًا: قرب علم وقدرة:

كما في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦]، قال ابن جرير رحمه الله: «فقال بعضهم: معناه: نحن أملك به، وأقرب إليه في المقدرة عليه، وقال آخرون: بل معنى ذلك ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ بالعلم بما توسوس به نفسه»[٤].

=ولقي نبلاء الرجال، وكان من أفراد الدهر علمًا وذكاءً، من تصانيفه: تفسيره المشهور "جامع البيان" و"تاريخ الأمم والملوك"، توفي سنة عشر وثلاثمائة من الهجرة. ينظر: وفيات الأعيان (١٤/١٩١)، سير أعلام النبلاء (٤/٢٦٧)، طبقات الشافعية الكبرى (٣/١٢٠).

(١) جامع البيان (٢١/٤٧٤).

(٢) أبو الثناء، محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، شهاب الدين، مفسر، محدث، أديب، من المجددين، كان سلفي الاعتقاد، مجتهدًا، توفي سنة سبعين ومائتين وألف، من مصنفاته: "روح المعاني"، و"غرائب الاغتراب"، و"كشف الطرة عن الغرة". ينظر: الأعلام (٧/١٧٦).

(٣) روح المعاني (١٤/١٣٣).

(٤) جامع البيان (٢١/٤٢٢).

وقال السمرقندي[١] رحمه الله: «يعني في القدرة عليه»[٢].

وقال البغوي رحمه الله: «أعلم به»[٣].

قال شيخ الإسلام[٤] رحمه الله: «هو قرب ذوات الملائكة وقرب علم الله منه، وهو رب الملائكة والروح، وهم لا يعلمون شيئًا إلا بأمره»[٥].

سادسًا: الصدقة والعمل الصالح:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ﴾ [آل عمران: ١٨٣]، قال الثعلبي[٦] رحمه الله: «والقربان: كل ما يتقرب به العبد إلى الله عز وجل من زكاة وصدقة وعمل صالح»[٧].

---

(١) أبو الليث، نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، إمام الهدى، من أئمة الحنفية، ومن الزهاد المتصوفين، له تصانيف نفيسة، منها: "بحر العلوم" في التفسير، و"بستان العارفين" و"تنبيه الغافلين"، توفي سنة خمس وسبعين وثلاثمائة. ينظر: الوافي بالوفيات (٢٧/٥٤)، طبقات المفسرين للأدنه وي (١/٩١)، الأعلام (٨/٢٧).

(٢) بحر العلوم (٣/٢٧١).

(٣) معالم التنزيل (٧/٣٥٨).

(٤) أبو العباس ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم الحراني الدمشقيّ الحنبلي، العلامة المفسر، الفقيه الحافظ، الناقد الفقيه، كان من بحور العلم، أثنى عليه الموافق والمخالف، وسارت بتصانيفه الركبان، أفتى ودرّس وهو دون العشرين، مات مسجونًا بقلعة دمشق سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، له مؤلفات عدة، منها: "الفتاوى"، و"العقيدة الواسطية"، و"الصارم المسلوم على شاتم الرسول". ينظر: تذكرة الحفاظ (٤/١٩٢)، الوافي بالوفيات (٧/١١)، طبقات الحفاظ للسيوطي، ص ٥٢٠، الأعلام (١/١٤٤).

(٥) مجموع الفتاوى (٥/٢٣٦).

(٦) أبو إسحاق، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، كان أوحد زمانه في علم القرآن، حافظًا للغة، بارعًا في العربية، صنَّف "العرائس في قصص الأنبياء"، و"ربيع المذكرين" و"الكشف والبيان"، مات سنة سبع وعشرين وأربعمائة. ينظر: طبقات المفسرين للداودي (١/٦٦)، بغية الوعاة (١/٣٥٦).

(٧) الكشف والبيان عن تفسير القرآن (٣/٢٢٣).

سابعًا: الجماع:

ومنه قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، أي: ولا تجامعوهن وهن حيض[١].

ثامنًا: الصواب والرشد:

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٤]، قال ابن كثير[٢] رحمه الله: «أي: إذا سُئلت عن شيء لا تعلمه، فاسأل الله فيه، وتوجَّه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك»[٣].

تاسعًا: الأكل:

كما في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥]، قال ابن عاشور رحمه الله: «يعني به: ولا تأكلا من الشجرة؛ لأن قربانها إنما هو لقصد الأكل منها، فالنهي عن القربان أبلغ من النهي عن الأكل؛ لأن القرب من الشيء ينشئ داعية وميلًا إليه»[٤].

عاشرًا: ما قبل نزول الموت ومعاينته:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن

---

(١) ينظر: بحر العلوم (١/٢٠٥).

(٢) أبو الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي الشافعي عماد الدين، الإمام، المحدث، الحافظ، المفسر، ذو الفضائل، قدوة العلماء والحفاظ، وعمدة أهل المعاني والألفاظ، صاحب التفسير المشهور، له من المصنفات "تفسير القرآن الكريم"، و"البداية والنهاية" و"الباعث الحثيث إلى معرفة علوم الحديث"، مات في شعبان سنة أربع وسبعين وسبعمائة. ينظر: طبقات الحفاظ للسيوطي، ص ٥٣٣، طبقات المفسرين للداودي (١/١١١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/١٥٠).

(٤) التحرير والتنوير (١/٤٣٢).

قَرِيبٍ﴾ [النساء: ١٧]، قال الضحاك[١] رحمه الله: «كل شيء قبل الموت فهو قريب»[٢].

الحادي عشر: اللين:

قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ [المائدة: ٨٢]، قال أبو حيان[٣] رحمه الله: «أي: هم ألين عريكة وأقرب ودًّا»[٤].

الثاني عشر: الدخول في الصلاة:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣]، ذكر ابن الجوزي[٥] رحمه الله أن فيها قولين: «**أحدهما:** لا تتعرضوا بالسكر في أوقات الصلاة، **والثاني:** لا تدخلوا في الصلاة في حال السكر»[٦].

---

(١) أبو القاسم، الضحاك بن مزاحم البلخي الخرساني الهلالي، المفسر، كان من أوعية العلم، مات بعد المائة. ينظر: ميزان الاعتدال (٢/٣٢٥)، طبقات المفسرين للداودي (١/٢٢٢).

(٢) تفسير عبد الرزاق، عبد الرزاق بن همام الصنعاني (١/٤٤٢).

(٣) أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي أثير الدين الأندلسي، نحوي عصره، ولغويه، ومفسّره، ومحدثه، ومقرئه، ومؤرخه، وأديبه، أكب على طلب الحديث، وأتقنه وبرع فيه، وفي التفسير، والعربية، والقراءات، والأدب، والتاريخ، وأخذ عنه أكابر عصره، له "البحر المحيط" و"الإدراك للسان الأتراك"، توفي سنة خمس وأربعين وسبعمائة. ينظر: طبقات المفسرين للداودي (٢/٢٨٧)، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، ص ٢٥٠، الأعلام (٧/١٥٢).

(٤) البحر المحيط (٤/٨).

(٥) أبو الفرج، عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد الحنبلي، المعروف بابن الجوزي، الواعظ المفسر، يتصل نسبه بالخليفة الراشد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، صاحب التصانيف السائرة في فنون العلم، كتب بخطه الكثير جدًّا، ووعظ من سنة عشرين إلى أن مات، له نحو ثلاثمائة مصنف، من تصانيفه: "زاد المسير"، و"الوجوه والنظائر"، و"صيد الخاطر"، توفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة. ينظر: سير أعلام النبلاء (٢١/٣٦٥)، طبقات الحفاظ للسيوطي، ص ٤٨٠، الأعلام (٣/٣١٦).

(٦) زاد المسير، ص٢٨٥.

العلاقة بين المعنى اللغوي والمعنى القرآني للقرب:

بعد استعراض معاني القرب في اللغة وفي القرآن، تبيَّن للباحث أن المعنى القرآني لمفهوم القرب لم يخرج في طوره العام عن المعنى الوضعي اللغوي المتمثل في دنو شيء من شيء آخر، سواءً كان ذلك الدنو حسيًّا أو معنويًّا، بيد أن القرآن توسَّع في مدلولات لفظ القرب حتى فاقت معانيها اللغوية المعهودة في اللسان العربي، فوظَّف القرآن هذه المفردة البسيطة في معانٍ جديدة أكثر شمولًا، ونقلها من النطاق اللغوي الضيق نسبيًّا إلى نطاق أوسع، مع المحافظة على الأصل الذي دلت عليه اللغة، ففي حين كانت دلالة القرب محدودة الاستعمال في لسان العرب، تجاوز بها القرآن هذه الحدود، حتى تصرفت إلى أكثر من عشرة وجوه، أضافت للعبارة القرآنية ذوقًا بلاغيًّا غاية في الروعة والجمال.

ليس هذا فحسب؛ بل قد تجد القرآن يورد لفظ القرب أو أحد مشتقاته في تركيب يحتمل أكثر من وجه في آن واحد، ولو أدرت اللسان العربي لن تجد أفضل ولا أنسب مما استعمله القرآن في ذلك التركيب، وهذا من أعظم أوجه إعجاز القرآن الكريم.

تأمَّل مثلًا قول الحكيم الخبير: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ ﴾ [النساء: ٤٣]، فقوله تعالى: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ يحتمل أن يكون النهي عن الدخول في الصلاة وإقامتها حال السكر؛ لأن تلك الحالة منافية لصحة الصلاة، ويحتمل أن يكون النهي عن تعاطي الخمر في أوقات الصلاة؛ مظنة خروج وقتها قبل الإفاقة، ويحتمل أن يكون النهي عن قرب المساجد حال السكر؛ لأن المسجد منزَّه عن مثل ذلك[1].

---

(١) ينظر: بحر العلوم (٣٥٦/١)، زاد المسير، ص ٢٨٥، تفسير القرآن العظيم (٣٠٨/٢).

وحاصل القول أن العلاقة بين المعنى اللغوي والمعنى القرآني للفظ القرب تُظهر ما يلي:

١- اتساع المعنى القرآني للفظ القرب ومشتقاته وتعديه إلى مدلولات جديدة، كالعلم والقدرة واللين وغيرها، وهذه خصلة عظيمة تميز بها المعنى القرآني عن المعنى اللغوي.

٢- لا يمكن الوصول لمعاني القرب الجديدة إلا من خلال التأمُّل الجيد في السياق القرآني الوارد فيه اللفظ، فحتى إن كان أول ما يتبادر إلى الذهن عند ورود لفظ القرب أو أحد مشتقاته في القرآن الكريم ذلك المعنى اللغوي البسيط، إلا أنه بتدبُّر النظم القرآني تظهر أوجه جديدة من المعاني غير المدلول الأصلي الذي دلَّت عليه اللغة.

٣- أثر القرآن الكريم على توسيع نطاق مدلولات اللغة، وذلك من خلال الإضافات الجديدة والمفيدة لمعاني الألفاظ والجمل والتراكيب.

٤- أهمية فهم القرآن من خلال البحث والنظر وإعمال العقل في أغوار الألفاظ والنصوص؛ لمعرفة مدلولاتها الخفية، وما تحمله من معانٍ جديدة تبرز روعة التركيب القرآني وأوجه الإعجاز البلاغي فيه.

المطلب الثالث:

مفهوم القرب من الله
والمقربين في القرآن الكريم

لما كان القرب من الله غاية كل مؤمن، كان لا بد من تحديد المعنى الدالِّ على مفهوم القرب والمقربين من الله في القرآن الكريم؛ لتتجلى هذه الغاية العزيزة أمام السائرين على الطريق حتى يصلوا إليها ويحوزوها.

أولاً: مفهوم القرب من الله في القرآن الكريم:

لم يجد الباحث -على حد علمه وبحثه- من عرّف مفهوم القرب من الله تعالى تعريفًا جامعًا إلا أقوالًا عامة لبعض العلماء والمفسرين تدور في مجملها حول معانٍ متقاربة، نذكر منها ما يلي:

١- القرب بالذكر والعمل الصالح:

قال ابن الأثير[١] رحمه الله: «المراد بقرب العبد من الله تعالى القرب بالذكر والعمل الصالح، لا قرب الذات والمكان؛ لأن ذلك من صفات الأجسام، والله يتعالى عن ذلك ويتقدس»[٢].

٢- الحصول على الدرجات العلى:

قال ابن عطية الأندلسي[٣] رحمه الله، في معرض تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَمَن

(١) أبو السعادات، المبارك بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري، الملقب بمجد الدين، القاضي، الرئيس، العلامة، البارع، أشهر العلماء ذكرًا، وأكبر النبلاء قدرًا، صاحب التصانيف المشهورة، منها: "جامع الأصول في أحاديث الرسول" و"النهاية في غريب الحديث" و"الإنصاف في الجمع بين الكشف والكشاف"، مات سنة ست وستمائة. ينظر: سير أعلام النبلاء (٤٨٨/٢١)، وفيات الأعيان (١٤١/٤).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر (٣٢/٤).

(٣) أبو محمد، عبد الحق بن غالب بن عطية الغرناطي، المعروف بابن عطية، كان فقيهًا، عارفًا بالأحكام، =

يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ [طـه: ٧٥]: «﴿ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾: هي القرب من الله تعالى»[١].

٣- الزيادة والإحسان:

قال ابن القيم[٢] رحمه الله: «فحظ العبد من القرب من الله على قدر حظه من مقام الإحسان، وبحسبه تتفاوت الصلاة، حتى يكون بين صلاة الرجلين من الفضل كما بين السماء والأرض، وقيامهما وركوعهما وسجودهما واحد»[٣].

كما فسَّر "الزُّلفى" في قول الله تعالى: «﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص:٢٥]، و"الزيادة" في قول الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] بمنزلة القرب[٤].

ومما ما سبق ذكره، نخلص إلى أن مفهوم القرب من الله هو: **منزلة ينالها العبد بالإيمان والعمل الصالح، ويترقى في درجاتها بحسب قوة إيمانه وجميل إحسانه.**

ويستدل على ذلك بقول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ

=والحديث، والتفسير، بارع الأدب، بصيرًا بلسان العرب، واسع المعرفة، أشهر مصنفاته "المحرر الوجيز"، مات سنة إحدى وأربعين وخمسمائة. ينظر طبقات المفسرين للسيوطي، ص ٦٠، الوافي بالوفيات (١٨/ ٤٠).

(١) المحرر الوجيز (٤/ ٥٤).

(٢) محمد بن أبي بكر الدمشقي شمس الدين ابن قيم الجوزية الحنبلي، من أركان الإصلاح الإسلامي، وأحد كبار العلماء، تتلمذ لشيخ الإسلام وهذب كتبه ونشر علمه، كان واسع العلم، عارفًا بالخلاف ومذاهب السلف، كثير الصلاة والتلاوة، حسن الخلق، من الأئمة الكبار في التفسير والحديث والفروع والعربية، مات سنة إحدى وخمسين وسبعمائة، له من التصانيف "زاد المعاد"، و"إعلام الموقعين عن رب العالمين"، و"بدائع الفوائد". ينظر: الدرر الكامنة (٣/ ٤٠٠)، بغية الوعاة (١/ ٦٣)، الأعلام (٦/ ٥٦).

(٣) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه، ص ٧٠.

(٤) ينظر: مدارج السالكين، شمس الدين ابن قيم الجوزية (٢/ ٧٥).

وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التوبة: ٩٩].

فإن الله تعالى أثنى على صنيع هذه الطائفة من الأعراب الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر ويطلبون منزلة القرب منه بما يبذلونه من حُر أموالهم في سبيل الله، فاستحقوا بذلك القرب من الله، ونالوا شرف الدخول في رحمته، والفوز بمغفرته ورضوانه.

وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ﴾ [العلق: ١٩]، فقرن الله بين الصلاة ثاني أركان الإسلام وبين القرب منه؛ لأنها من أعظم ما يصل به العبد إلى منزلة القرب.

قال القرطبي(١) رحمه الله: «﴿وَٱسۡجُدۡ﴾ أي: صلِّ لله، ﴿وَٱقۡتَرِب﴾ أي: تقرب إلى الله جل ثناؤه بالطاعة والعبادة»(٢).

وقال السعدي(٣) رحمه الله: «﴿وَٱسۡجُدۡ﴾ لربك، ﴿وَٱقۡتَرِب﴾ منه في السجود وغيره

---

(١) أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي المالكي القرطبي، إمام متفنن متبحر في العلم، له تصانيف مفيدة تدل على إمامته، وكثرة اطلاعه، كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين الورعين الزاهدين في الدنيا، المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة، له كتاب التفسير المشهور، و"التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة"، مات سنة إحدى وسبعين وستمائة. ينظر: طبقات المفسرين للسيوطي، ص٩٢، طبقات المفسرين للداودي (٦٩/٢).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٢٨/٢٠).

(٣) عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي التميمي الحنبلي، من علماء نجد، كان مفسرًا ومحدثًا وفقيهًا، مولده ووفاته في عنيزة، وهو أول من أنشأ مكتبة فيها، له نحو ثلاثين مصنفًا، منها: "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان"، و"القواعد الحسان في تفسير القرآن" و"القواعد والأصول الجامعة"، توفي سنة ست وسبعين وثلاثمائة وألف. ينظر: الأعلام (٣٤٠/٣)، معجم المؤلفين (٣٩٦/١٣).

من أنواع الطاعات والقربات، فإنها كلها تُدني من رضاه وتقرب منه»[1].

وقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ ﴾ [الإسراء:٥٧]، أي: يطلبون الزلفة والقربة والدرجة العالية من الله بالطاعة والعبادة، ويتضرعون إليه في طلب الجنة وما يقربهم منه، وينظرون أيهم أقرب من الله فيتوسلون به، وقيل: أيهم أقرب إلى الله يبتغي الوسيلة إليه، ويتقرب إليه بالعمل الصالح[2].

وروى البخاري[3] رحمه الله في صحيحه، من حديث أنس بن مالك[4] رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، فيما يرويه عن ربه قال: «**إِذَا تَقَرَّبَ العَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِذَا أَتَانِي مَشْيًا أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**»[5].

قال ابن القيم رحمه الله: «فذكر من مراتب القرب ثلاثة، ونبَّه بها على ما دونها وما فوقها، فذكر تقرب العبد إليه بالشبر، وتقربه سبحانه إلى العبد ذراعًا، فإذا ذاق العبد حقيقة هذا التقرب انتقل منه إلى تقرب الذراع، فيجد ذوق تقرب الرب إليه

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٩٣٠.

(٢) ينظر: معالم التنزيل (١٠١/٥)، الجامع لأحكام القرآن (٢٧٩/١٠)، فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني (٣٢٩/٣).

(٣) أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل الجعفي، مولاهم البخاري، صاحب الصحيح، كان رأسًا في الذكاء والعلم والورع والعبادة، له مؤلفات عديدة، أشهرها: "الجامع الصحيح" و"التاريخ الكبير" و"الأدب المفرد"، مات سنة ست وخمسين ومائتين. ينظر: تذكرة الحفاظ (١٠٤/٢)، طبقات الحفاظ للسيوطي، ص٢٥٢.

(٤) الصحابي الجليل، أبو حمزة، أنس بن مالك بن النضر الأنصاري رضي الله عنه، خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، أحد المكثرين من الرواية، مات سنة ثلاث وتسعين. ينظر: الاستيعاب (١٠٩/١)، الإصابة (٢٧٥/١).

(٥) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وروايته عن ربه (١٥٧/٩)، رقم ٧٥٣٦، ورواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله (٢٠٦٧/٤)، رقم ٢٠.

باعًا، فإذا ذاق حلاوة هذا القرب الثاني، أسرع المشي حينئذ إلى ربه، فيذوق حلاوة إتيانه إليه هرولة، وهاهنا منتهى الحديث، منبهًا على أنه إذا هرول عبده إليه كان قرب حبيبه منه فوق هرولة العبد إليه، فإما أن يكون قد أمسك عن ذلك لعظيم شاهد الجزاء، أو لأنه يدخل في الجزاء الذي لم تسمع به أذن، ولم يخطر على قلب بشر، أو إحالةً له على المراتب المتقدمة»(١).

وعند البخاري رحمه الله كذلك، من حديث أبي هريرة(٢) رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «**مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الجُمُعَةِ غُسْلَ الجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الخَامِسَةِ، فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الإِمَامُ حَضَرَتِ المَلاَئِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ**»(٣).

فعامة هذه الأدلة تبين طلب المؤمنين لمنزلة القرب بأعمال البر التي على ضوئها تختلف مراتبهم عند الله تعالى، فمَن كان أسرع في القربات، كان أعلى في الدرجات، فهُم في سباق يتقدم فيه المسارعون إلى الخيرات، ويتأخر فيه المفرطون في الطاعات.

---

(١) مدارج السالكين (٣/٢٥٤).

(٢) الصحابي الجليل، أبو هريرة الدوسي، عبد الرحمن بن صخر رضي الله عنه، أكثر الصحابة حديثًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أسلم عام خيبر، وشهدها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم لزمه وواظب عليه رغبة في العلم، فكان يحضر ما لا يحضر سائر المهاجرين.
والأنصار، شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه حريص على العلم والحديث، مات سنة سبع وخمسين. ينظر: الاستيعاب (٤/١٧٦٨)، أسد الغابة (٦/٣١٣).

(٣) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب فضل الجمعة (٢/٣)، رقم ٨٨١، ورواه مسلم، كتاب الجمعة، باب الطيب والسواك يوم الجمعة، (٢/٥٨٢)، رقم ١٠.

ثانيًا: مفهوم المقربين من الله في القرآن الكريم:

قسّم الله المؤمنين الذين اصطفاهم لوراثة كتابه إلى ثلاثة أقسام:

ظالم لنفسه بالمعاصي والآثام، ومقتصد مقتصر على الواجب دون المحرم، ومقرب سابق بالخيرات مكثر من النوافل تارك للمحظور والمكروه، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٢].

والذي يهم الباحث هنا بيان معنى الصنف الثالث، الذي عليه مدار هذه الدراسة، بيد أنه لن يتحرر المعنى الصريح لمفهوم المقربين من الله في القرآن إلا بعد استعراض أقوال المفسرين عن مفهوم المقربين وأحوالهم وصفاتهم التي اشتهروا بها، فيذكر الباحث من تلك الأقوال:

- قول ابن جرير رحمه الله عند تفسيره قول الله تعالى: ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٥]؛ إذ قال: «وأما قوله: ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ فإنه يعني أنه ممن يقربه الله يوم القيامة، فيسكنه في جواره ويدنيه منه»(١).
- وقال ابن فورك(٢) رحمه الله: «المقرب: المدني من مجلس الكرامة يتعمده بها»(٣).
- وقال مكي بن أبي طالب(٤) رحمه الله: «هم الذين يقربهم الله سبحانه منه يوم

(١) جامع البيان (٥/٤١١).

(٢) أبو بكر، محمد بن الحسن بن فورك، شيخ المتكلمين، الأصولي الأديب، النحوي، الواعظ، بلغت مصنفاته قريبًا من مائة، منها: "التفسير"، و"مشكل الحديث وغريبه"، مات سنة ست وأربعمائة. ينظر: سير أعلام النبلاء (١٧/٢١٤)، طبقات المفسرين للداودي (٢/١٣٣)، وفيات الأعيان (٤/٢٧٢)، الأعلام (٦/٨٣).

(٣) تفسير ابن فورك (١/٢٢٩).

(٤) أبو محمد، مكي بن أبي طالب القيسي القيرواني، ثم القرطبي، من أهل التبحر في علوم القرآن والعربية، =

القيامة ويدخلهم جنات النعيم»[١].

○ وقال الزمخشري[٢] رحمه الله: «الذين قربت درجاتهم في الجنة من العرش، وأعليت مراتبهم»[٣].

○ وقال ابن عطية رحمه الله: «﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾: عبارة عن أعلى منازل البشر في الآخرة»[٤].

○ وقال ابن كثير رحمه الله: «وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات»[٥].

وعند تأمُّل ما سبق من الأقوال، يمكن تعريف المقربين من الله بأنهم: **"السابقون بالعمل الصالح مع الإيمان، البالغون بالفرائض والنوافل درجة الإحسان، المبادرون باجتناب المحرمات والمكروهات مع الاقتصاد في المباحات، الحائزون أشرف المقامات وأعلى الدرجات"**.

وقد وصف الله تعالى حالهم في الحياة الدنيا بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١]، أي: الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعات، وبادروا

=كان حسن الفهم والخلق، جيد الدين والعقل، كثير التواليف في علم القرآن، محسنًا لذلك، مجودًا للقراءات السبع عالمًا بمعانيها، من مصنفاته "الهداية إلى بلوغ النهاية"، و"التبصر في القراءات"، و"الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه"، مات سنة: سبع وثلاثين وأربعمائة. ينظر: سير أعلام النبلاء (١٧/٥٩١)، طبقات المفسرين للداودي (٢/٣٣٧).

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية (١١/٧٢٥٩).

(٢) أبو القاسم، محمود بن عمر العلامة الزمخشري، النحوي، اللغوي، المتكلم، المعتزلي، المفسر، يلقب بجار الله؛ لأنه جاور بمكة زمانًا، كان واسع العلم، كثير الفضل، برع في الأدب، والنحو، واللغة، من مصنفاته: "الكشاف في التفسير"، و"الفائق في غريب الحديث"، و"أساس البلاغة"، مات سنة ثمانٍ وثلاثين وخمسمائة. ينظر: بغية الوعاة (٢/٢٧٩)، طبقات المفسرين للسيوطي، ص١٢٠.

(٣) الكشاف، ص ١٠٧٥.

(٤) المحرر الوجيز (٥/٢٤٠).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٧/٥٤٨).

إلى فعل الخيرات، وحازوا الفضائل والكرامات(١)، وذكر فيهم المفسرون خمسة أقوال: **الأول**: السابقون إلى الإيمان من كل أمة، **والثاني**: أنهم الذين صلوا إلى القبلتين، **والثالث**: أهل القرآن، **والرابع**: الأنبياء، **والخامس**: السابقون إلى المساجد وإلى الخروج في سبيل الله.(٢)

قال ابن كثير رحمه الله بعد ذكر أقوال المفسرين في معنى السابقين: «وهذه الأقوال كلها صحيحة، فإن المراد بالسابقين هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا، كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الحديد: ٢١]، فمن سابق إلى هذه الدنيا وسبق إلى الخير، كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة، فإن الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان»(٣).

كما أخبر سبحانه وتعالى عن كرامتهم في الدار الآخرة بقوله: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩]، قال ابن كثير رحمه الله: «فإن من مات مقربًا حصل له جميع من الرحمة والراحة والاستراحة، والفرح والسرور والرزق الحسن ﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٖ﴾»(٤).

وأخبر جل ذكره كذلك عن شرابهم في الجنة فقال: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٧، ٢٨]، والتسنيم: عين في الجنة تنصب عليهم من علو، وهي أشرف شرابٍ في الجنة، يشربها المقربون صرفا لأنهم لم

---

(١) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، عبد الله بن عمر البيضاوي (١٧٨/٥).

(٢) ينظر: زاد المسير، ص ١٣٨٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥١٧/٧).

(٤) المرجع السابق (٥٤٩/٧).

يشتغلوا بغير الله، وتمزج لسائر أهل الجنة(١).

وذكر رسول الله ﷺ علو منازلهم في الجنة، فعن أبي سعيد الخدري(٢) رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَيُونَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَيُونَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ، أَوِ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لاَ يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ قَالَ بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ**»(٣).

ويمكن تصنيف المقربين حسب المعنى السابق إلى صنفين:

١ - صنف خلقهم الله تعالى من نور، وكرمهم وسخرهم لطاعته، وجبلهم على عبادته، وعصمهم من الخطأ والزلل، وهم الملائكة المقربون، الذين نعتهم الله تعالى بقوله: ﴿**لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [التحريم: ٦]، ووصف عبادتهم وتسبيحهم بقوله: ﴿**يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٠]. وصوَّر رسول الله ﷺ شدة ازدحامهم حال سجودهم، فقال: «**أَطَّتِ(٤) السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلاَّ وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ**»(٥).

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٩/٢٦٤)، أنوار التنزيل (٥/٢٩٦).

(٢) الصحابي الجليل، أبو سعيد الخدري، سعد بن مالك بن سنان الأنصاريّ الخزرجيّ رضي الله عنهما، مشهور بكنيته، من الحفاظ المكثرين العلماء الفضلاء العقلاء، روى عن النبي ﷺ الكثير، استصغر بأحد وغزا ما بعدها، مات سنة أربع وسبعين. ينظر: الاستيعاب (٤/١٦٧١)، الإصابة (٣/٦٥).

(٣) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٤/١١٩)، رقم ٣٢٥٦، ورواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف، كما يرى الكوكب في السماء، (٤/٢١٧٧)، رقم ١١.

(٤) الأطيط: صوت الأقتاب، وأطيط الإبل: أصواتها وحنينها. أي أن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطت. وهذا مثل وإيذان بكثرة الملائكة، وإن لم يكن ثم أطيط، ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٥٤).

(٥) رواه الترمذي من حديث أبي ذر رضي الله عنه، أبواب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب في قول النبي ﷺ: «**لو**
=

٢- صنف آخر وفَّقهم الله للطاعة والإيمان، وأعانهم على أداء الواجبات والمستحبات، وحفظهم من قرب المحرمات والمكروهات مع الاقتصاد في المباحات، وهم السابقون إلى الخيرات من أهل الإيمان من النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]، قال ابن كثير رحمه الله في معنى السابق بالخيرات: «وهو: الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات»[١].

وقال السعدي رحمه الله في معناها: «أي: سارع فيها واجتهد، فسبق غيره، وهو المؤدي للفرائض، المكثر من النوافل، التارك للمحرم والمكروه»[٢].

ثالثًا: الفرق بين السابقين المقربين والأبرار أصحاب اليمين:

دلَّت آيات الكتاب العزيز على أن السابقين المقربين والأبرار أصحاب اليمين طائفتان مختلفتان في المنزلة والقرب والجزاء والعدد؛ تبعًا لاختلاف أعمال الفريقين وقرباتهم في الحياة الدنيا، فمن أراد تحرير الفرق بين الطائفتين، لزمه النظر في عدة أمور، هي كما يلي:

الأمر الأول: الفرق في الأعمال:

فالمقربون من المؤمنين هم مَن يتقرب بالفرائض والنوافل، ويجتنب المعاصي

= **تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا»** (٤/١٤٥)، رقم ٢٣١٢. قال أبو عيسى: حسن غريب، وقال الحاكم: على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: المستدرك على الصحيحين (٤/٦٢٣)، رقم ٨٧٢٦، صحيح الجامع (١/٤٨١)، رقم ٢٤٤٩.

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/٥٤٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٦٨٩.

والآثام، ويقتصد في المباحات، وأما أصحاب اليمين فهم مَن يتقرب بالفرائض، ويقصِّر في النوافل والمستحبات، ويفرِّط في تعاطي المباحات، ولهذا منزلتهم في الجنة أدنى من منزلة السابقين.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فالأبرار أصحاب اليمين هم المتقربون إليه بالفرائض، يفعلون ما أوجب الله عليهم، ويتركون ما حرم الله عليهم، ولا يكلفون أنفسهم بالمندوبات، ولا الكف عن فضول المباحات، وأما السابقون المقربون فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض، ففعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، فلما تقربوا إليه بجميع ما يقدرون عليه من محبوباتهم أحبهم الرب حبًّا تامًّا»[1].

الأمر الثاني: الفرق في الجزاء والأجر:

قرَّر الله تعالى في كتابه العزيز جزاء كل طائفة وما أعده لها في مستقر رحمته من الفوز والكرامة، فأخبر ببعض جزاء السابقين المقربين في قوله جلَّ في علاه: ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴾ [الواقعة:١٥-٢٦].

ومما خصَّ الله به هذه الطائفة شرابًا يشربونه يسمَّى تسنيمًا، قال تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٧، ٢٨]، أي: يشرب المقربون صرفًا من شراب في الجنة يقال له تسنيم، وهو أشرف شراب أهل الجنة

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ص ٣٤.

وأعلاه[١].

ثم لما بيَّن الله تعالى حال السابقين، وما أعدَّه لهم من نعيم مقيم، ذكر جزاء الأبرار أصحاب اليمين، فقال جلَّ ذكره: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٢٨ - ٣٧].

ولما كانت هذه الطائفة أقلَّ جزاءً من طائفة المقربين، مزج الله تعالى لهم شراب التسنيم، الذي سقاه المقربين صرفًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٥، ٦]، قال ابن كثير رحمه الله: «هذا الذي مزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفًا بلا مزج ويروون بها»[٢].

الأمر الثالث: الفرق في محبة الله للطائفتين:

لا شك أن المقربين وأصحاب اليمين أحباب الله وأولياؤه، غير أن حب الله تعالى للسابقين المقربين أشد وأعظم من محبته لسائر خلقه، يستدل على ذلك بما رواه البخاري رحمه الله، في صحيحه، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**»[٣].

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٨/٣٥٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/٢٨٧).

(٣) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع (٨/١٠٥)، رقم ٦٥٠٢.

قال ابن رجب[(١)] رحمه الله: «ذكر في هذا الحديث أن أولياء الله على درجتين؛ أحدهما: المتقربون إليه بأداء الفرائض، وهذه درجة المقتصدين أصحاب اليمين.... الدرجة الثانية: درجة السابقين المقربين، وهم الذين تقرَّبوا إلى الله بعد الفرائض بالاجتهاد في نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات بالورع، وذلك يوجب للعبد محبة الله... فمن أحبه الله، رزقه محبته وطاعته والاشتغال بذكره وخدمته، فأوجب له ذلك القرب منه، والزُّلفى لديه، والحظوة عنده»[(٢)].

الأمر الرابع: الفرق في العدد:

نبَّأنا الله تعالى في كتابه العزيز أن أصحاب اليمين أكثر عددًا من السابقين المقربين، فقال سبحانه بعد ذكر كرامتهم ومنزلتهم: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٣٩، ٤٠]، أما المقربون السابقون فأخبر عن عددهم بقوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٣، ١٤]، قال القرطبي رحمه الله: «والثلة مِن ثللت الشيء، أي: قطعته، فمعنى ثلة كمعنى فرقة»[(٣)]، فلما عبَّر سبحانه وتعالى عن عدد أصحاب اليمين بأنهم ثلة بعد ثلة، وأن المقربين قلة بعد ثلَّة، تبين بذلك أن المقربين السابقين أقلُّ من أصحاب اليمين عددًا.

---

(١) زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السلامي الحنبلي، الحافظ، المحدث، الفقيه، الواعظ، صاحب التصانيف المفيدة، له "جامع العلوم والحكم" و"شرح علل الترمذي" و"شرح قطعة من البخاري"، مات سنة خمس وتسعين وسبعمائة. ينظر: طبقات الحفاظ للسيوطي، ص٥٤٠، البدر الطالع (١/٣٢٨).

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/٣٣٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٧/٢٠١).

المبحث الثاني:

أنواع القرب

- **المطلب الأول**: قرب الله تعالى من خَلقه
- **المطلب الثاني**: قرب الخَلق من الخالق
- **المطلب الثالث**: القرب بين الخَلق

المطلب الأول:

قرب الله تعالى من خَلقه

يقترب ربنا جلَّ في علاه من خلقه، إما بذاته وإما بصفاته، ولا يتنافى ذلك مع كونه مستويًا على عرشه، بائنًا من خلقه، ليس كمثله شيء في أسمائه وصفاته وأفعاله، وهو السميع البصير، ولكي يتبين أمر قرب الخالق من خَلقه، سنفصل الحديث في هذا المطلب وفق ما يلي:

الفرع الأول: معنى قرب الله تعالى من خَلقه:

من خلال النظر في الآيات القرآنية الكريمة التي تحدثت عن القرب الإلهي تبيَّن للباحث أن قرب الله تعالى من خلقه ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: قرب خاص من الأولياء الصالحين:

ومعناه: دنو الله تعالى من أوليائه المؤمنين دنوًّا حقيقيًّا لا يدرك كنهه ولا يتعلم كيفيته، ولا يقتضي حلولًا أو اتحادًا[1]، أو دنو بعض صفاته الفعلية المتعلقة باختياره ومشيئته، كالرحمة والنصر والتأييد، إما دنو إجابة أو دنو إثابة، وعلى ضوء هذا المعنى يمكن تقسيم قرب الله الخاص من أوليائه الصالحين إلى ما يلي:

١- قرب ذات.

فهو جل في علاه يقرب من أوليائه الصالحين على الحقيقة متى شاء وكيف

(١) الحلول والإتحاد: هما من مصطلحات الفرق الضالة، كغلاة الصوفية والباطنية، ومن يقولون إن الله تعالى حل في بعض مخلوقاته حلول اللاهوت في الناسوت، أو يقولون إنه ﷻ بذاته في كل مكان، وهذا هو معنى الحلول عندهم، ومنهم من يزعم أن الله تعالى قد اتحد ببعض مخلوقاته، وأن اللاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا كاختلاط الماء واللبن، أو أنه اتحد بكل المخلوقات فيكون الله تعالى هو عين وجود الكائنات، وهذا معنى الاتحاد، تعالى الله عما يقولون علوًا عظيمًا. ينظر: مجموع الفتاوى (١٧٢/٢).

شاء، قربًا يليق بجلاله، لا يقتضي مماسة ولا مخالطة، وهو مع ذلك مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وأما دنوه نفسه وتقربه من بعض عباده، فهذا يثبته مَن يثبت قيام الأفعال الاختيارية بنفسه، ومجيئه يوم القيامة، ونزوله، واستواءه على العرش، وهذا مذهب أئمة السلف وأئمة الإسلام المشهورين وأهل الحديث، والنقل عنهم بذلك متواتر»(١).

أدلة قرب ذاته من أوليائه:

يستدل على قرب الله تعالى من المؤمنين بذاته بقوله الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

قال الطبري رحمه الله: «يعني بذلك جل ثناؤه: وإذا سألك يا محمد عبادي عني أين أنا؟ فإني قريب منهم أسمع دعاءهم، وأجيب دعوة الداعي منهم»(٢).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «وهذا القرب من الداعي هو قرب خاص، ليس قربًا عامًّا من كل أحد، فهو قريب من داعيه، وقريب من عابديه، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وقوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[الأعراف: ٥٥] فيه الإرشاد والإعلام بهذا القرب»(٣).

وقال ابن عثيمين(٤) رحمه الله في معرض حديثه عن فوائد آية سورة (البقرة)

---

(١) شرح حديث النزول، ص ١٠٥.

(٢) جامع البيان (٣/٢٢٢).

(٣) مجموع الفتاوى (١٥/١٧).

(٤) أبو عبد الله، محمد بن صالح آل عثيمين التميمي، محقق، وفقيه، ومفسر، درس التفسير والفقه وأصوله والفرائض ومطلح الحديث والتوحيد على شيخة السعدي، ودرّس في المعهد العلمي بعنيزة، وفرع جامعة =

السابقة: «ومنها إثبات قرب الله ﷻ، والمراد قرب نفسه؛ لأن الضمائر في هذه الآية كلها ترجع إلى الله، وعليه فلا يصح أن يحمل القرب فيها على قرب رحمته، أو ملائكته؛ لأنه خلاف ظاهر اللفظ، ويقتضي تشتيت الضمائر بدون دليل»(١).

ويستدل على هذا القرب كذلك بقول الله تعالى في سياق قصة صالح عليه السلام مع قومه: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١]، أي: قريب من عباده المؤمنين مجيب لدعائهم(٢).

قال ابن جرير رحمه الله: «إن ربي قريب ممن أخلص له العبادة، ورغب إليه في التوبة، مجيب له إذا دعاه»(٣).

وقد جاء في السُّنة الشريفة كذلك ما يدل على قرب الله تعالى من أوليائه قربًا حقيقيًّا، كما في صحيح البخاري رحمه الله، من حديث أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، يرويه عن ربه قال: «**إِذَا تَقَرَّبَ العَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِذَا أَتَانِي مَشْيًا أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**»(٤).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وقربه من العباد بتقربهم إليه مما يقر به جميع مَن

= الإمام في القصيم، وظهرت جهوده العلمية خلال أكثر من خمسين عامًا من العطاء والبذل في التدريس والوعظ والإرشاد، اهتم بالتأليف وتحرير الفتاوى والأجوبة التي تميزت بالتأصيل العلمي، وصدرت له العشرات من الكتب والرسائل، منها: "الشرح الممتع "، و"القواعد المثلى في الأسماء والصفات"، و"الأصول من علم الأصول"، توفي سنة ١٤٢١هـ. ينظر: الدر الثمين في ترجمة فقيه الأمة العلامة ابن عثيمين، عصام بن عبد المنعم المري.

(١) تفسير ابن عثيمين الفاتحة والبقرة (٢/٣٤٤).

(٢) ينظر: معالم التنزيل (٤/١٨٥).

(٣) جامع البيان (١٢/٤٥٤).

(٤) سبق تخريجه، ص ٣٦.

يقول: إنه فوق العرش»[١].

وقال ابن القيم رحمه الله: «مَن تقرب إلى حبيبه بروحه وجميع قواه، وإرادته، وأقواله، وأعماله، تقرب الرب منه سبحانه بنفسه في مقابلة تقرُّب عبده إليه»[٢].

وروى مسلم[٣] رحمه الله، في صحيحه حديث عائشة[٤] رضي الله عنها، قالت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ، مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو، ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمِ الْمَلَائِكَةَ، فَيَقُولُ: مَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ؟»**[٥].

وللبخاري رحمه الله كذلك من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول صلى الله عليه وسلم قال: **«يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»**[٦].

---

(١) شرح حديث النزول، ص ١٠٤.

(٢) مدارج السالكين (٣/٢٥٤).

(٣) أبو الحسين، مسلم بن الحجاج بن مسلم القُشَيري النيسابوري، الحافظ صاحب الصحيح، أحد الأئمة الحفاظ وأعلام المحدثين، له مؤلفات كثيرة، منها: "صحيح الجامع"، و"الأفراد والوحدان"، و"أوهام المحدثين"، توفي سنة إحدى وستين ومائتين. ينظر: تهذيب الكمال (٢٧/٤٩٩)، وفيات الأعيان (٥/١٩٤)، الأعلام (٧/٢٢١).

(٤) الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين أم عبد الله، عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها، زوج النبي صلى الله عليه وسلم، وأشهر نسائه، وأفضلهن إلا خديجة رضي الله عنها، ففي ذلك خلاف، تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة بسنتين، وهي بكر. كانت أفقه النساء مطلقًا، وأحسن الناس رأيًا في العامة، وكان أكابر الصحابة يسألونها عن الفرائض، وهي ممن أكثر الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، توفيت سنة سبع وخمسين. ينظر: الاستيعاب (٤/١٨٨١)، أسد الغابة (٧/١٨٦)، تقريب التهذيب، ص ٧٥٠.

(٥) رواه مسلم، كتاب الحج، باب فضل الحج والعمرة ويوم عرفة (٢/٩٨٢)، رقم ٤٣٦.

(٦) رواه البخاري، كتاب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل (٢/٥٣)، رقم ١١٤٥، ورواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء...، (١/٥٢١)، رقم ١٦٨.

قال ابن عبد البر [(١)] رحمه الله: «وأما قوله ﷺ في هذا الحديث: «**ينزل تبارك وتعالى إلى سماء الدنيا**»، فقد أكثر الناس التنازع فيه، والذي عليه جمهور أئمة أهل السنة أنهم يقولون: ينزل كما قال رسول الله ﷺ، ويصدقون بهذا الحديث، ولا يكيفون، والقول في كيفية النزول كالقول في كيفية الاستواء والمجيء، والحجة في ذلك واحدة» [(٢)].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «وأما قرب الرب قربًا يقوم به بفعله القائم بنفسه، فهذا تنفيه الكُلَّابية [(٣)] ومَن يمنع قيام الأفعال الاختيارية بذاته، وأما السلف وأئمة الحديث والسنة، فلا يمنعون ذلك، وكذلك كثير من أهل الكلام، فنزوله كل ليلة إلى السماء الدنيا، ونزوله عشية عرفة، ونحو ذلك هو من هذا الباب ولهذا حد النزول بأنه إلى السماء الدنيا» [(٤)].

وبهذه الأدلة والأقوال الصريحة يظهر الحق لمن أراده بأن الله تعالى يقرب من أوليائه وأهل طاعته على الحقيقة، مع كونه سبحانه مستويًا على عرشه بائنًا من خلقه.

٢- قرب صفات:

يقرب الله سبحانه وتعالى من أوليائه بصفاته مثلما يقرب منهم بذاته، وأهل السنة

---

(١) أبو عمر، يوسف بن عبد الله، ابن عبد البر النمري الأندلسي، القرطبي، المالكي، الإمام، العلامة، حافظ المغرب، لم يكن بالأندلس مثله في الحديث، صاحب التصانيف الفائقة، من مصنفاته: "الاستيعاب"، و"التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد"، و"بهجة المجالس وأنس المجالس"، توفي سنة ثلاث وستين وأربعمائة. ينظر: سير أعلام النبلاء (١٨/١٥٣)، تذكرة الحفاظ (٣/٢١٧)، الأعلام (٨/٢٤٠).

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٧/١٤٣).

(٣) الكلابية: هم أتباع عبد الله بن سعيد بن كلاب، قالوا: إن كلام الله معنى قائم بذات الله، وإن الصفات الاختيارية لا تقوم به ففرقوا بين الصفات اللازمة والاختيارية. الفتاوى (١٢/١٦٥، ٣٦٧)

(٤) شرح حديث النزول، ص ١٣٧.

والجماعة لا يفسرون كل قرب ورد في القرآن أو السنة بالقرب الحقيقي للذات الإلهية المقدسة، إنما هناك نصوص صريحة تدل على قرب صفات الله تعالى، ولا يلزم منها قرب حقيقي لذات الله، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «ولا يلزم من جواز القرب عليه أن يكون كل موضع ذكر فيه قربه يراد به قربه بنفسه؛ بل يبقى هذا من الأمور الجائزة، وينظر في النص، فإن دل على هذا حمل عليه، وإن دل على هذا حمل عليه»(١).

وعلى هذا، فإن الله تعالى كما أنه يقرب من أوليائه قربًا حقيقيًّا فهو يقرب منهم قربًا معنويًّا متمثلًا في قرب نصره وعونه ورحمته وتأييده.

أدلة قرب صفاته من أوليائه:

قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، فقرر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن رحمته قريبة من أهل الإحسان، وهي صفة فعلية من صفات الله تعالى، قال ابن القيم رحمه الله في معنى الآية: «له دلالة بمنطوقه، ودلالة بإيمائه وتعليله، ودلالة بمفهومه، فدلالته بمنطوقه على قرب الرحمة من أهل الإحسان، ودلالته بتعليله وإيمائه على أن هذا القرب مستحق بالإحسان، فهو السبب في قرب الرحمة منهم، ودلالته بمفهومه على بُعد الرحمة من غير المحسنين، فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة، وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة منهم؛ لأنها إحسان من الله أرحم الراحمين، وإحسانه تعالى إنما يكون لأهل الإحسان؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فكما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته»(٢).

---

(١) مجموع الفتاوى (٦/ ١٤).

(٢) التفسير القيم، ص ٢٥٨.

وقال ابن كثير رحمه الله: «أي: إن رحمته مرصدة للمحسنين، الذين يتبعون أوامره ويتركون زواجره... وقال: ﴿قَرِيبٌ﴾، ولم يقل: "قريبة"؛ لأنه ضمن الرحمة معنى الثواب، أو لأنها مضافة إلى الله»(١).

وقال الشنقيطي(٢) رحمه الله: «ذكر في هذه الآية الكريمة أن رحمته جل وعلا قريب من عباده المحسنين»(٣).

وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فأخبر المولى جل ذكره أن نصره، الذي هو لازم أحد أسمائه الحسنى، قريب من أوليائه المؤمنين، قال الواحدي(٤) رحمه الله في معنى الآية: «أي: أنا ناصر أوليائي لا محالة، ونصري قريب منهم»(٥)، وقال ابن عاشور رحمه الله في معناها: «كلام مستأنف بقرينة افتتاحه بأَلَا، وهو بشارة من الله تعالى للمسلمين بقرب النصر بعد أن حصل لهم من قوارع صدر الآية ما ملأ القلوب رعبًا»(٦)، فيتبين بما سبق أن قرب الكرامة والمحبة خاص بأولياء الله، إما قربًا حقيقيًّا بذاته، وإما قربًا معنويًّا ببعض صفاته.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٢٩).

(٢) محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، المفسر والمدرس، من علماء شنقيط، حج واستقر مدرسًا في المدينة المنورة، له من المصنفات: "أضواء البيان في تفسير القرآن"، و"منع جواز المجاز"، و"دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب"، توفي بمكة سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وألف. ينظر: الأعلام (٦/٤٥).

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢/٣٧٩).

(٤) أبو الحسن، علي بن أحمد بن محمد الواحدي، النيسابوري، الشافعي، إمام عصره في النحو والتفسير، من أولاد التجار، رزق السعادة في تصانيفه، وأجمع الناس على حسنها، منها: التفاسير الثلاثة (البسيط، والوسيط، والوجيز)، و"أسباب النزول"، و"التحبير في الأسماء والصفات"، توفي سنة ثمانٍ وستين وأربعمائة. ينظر: سير أعلام النبلاء (١٨/٣٣٩)، وفيات الأعيان (٣/٣٠٣).

(٥) الوسيط في تفسير القرآن المجيد (١/٣١٧).

(٦) التحرير والتنوير (٢/٣١٦).

القسم الثاني: قرب عام من سائر الخلق:

وهذا قرب يشترك فيه المؤمن والكافر، والبر والفاجر، ولا يكون هذا النوع من القرب إلا قربًا معنويًّا يتضمن دنو بعض صفات الله الفعلية، أو لوازم ذاته الإلهية من كافة خلقه، كالعلم والقدرة والإحاطة، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فلا ريب أنه قريب بعلمه وقدرته وتدبيره من جميع خلقه، لم يزل بهم عالمًا، ولم يزل عليهم قادرًا، هذا مذهب جميع أهل السنة»(١).

أدلة قربه العام من سائر خلقه:

قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: «وقد اختلف أهل العربية في معنى قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾، فقال بعضهم: معناه نحن أملك به، وأقرب إليه في المقدرة عليه، وقال آخرون: بل معنى ذلك ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ بالعلم بما توسوس به نفسه»(٢).

وقال البغوي رحمه الله: «﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾: أعلم به من حبل الوريد»(٣).

وقال ابن عطية رحمه الله: «عبارة عن قدرة الله على العبد وكون العبد في قبضة القدرة، والعلم قد أحيط به، فالقرب هو بالقدرة والسلطان؛ إذ لا ينحجب عن علم الله باطن ولا ظاهر، وكل قريب من الأجرام فبينه وبين قلب الإنسان

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/٦).
(٢) جامع البيان (٤٢٢/٢١).
(٣) معالم التنزيل (٣٥٨/٧).

حجب»[١].

وقال ابن القيم رحمه الله: «هذه الآية فيها قولان للناس؛ **أحدهما**: أنه قربه بعلمه، ولهذا قرنه بعلمه بوسوسة نفس الإنسان، و﴿حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾: حبل العنق، وهو عرق بين الحلقوم والودجين الذي متى قطع مات صاحبه، وأجزاء القلب وهذا الحبل يحجب بعضها بعضًا، وعلم الله بأسرار العبد وما في ضميره لا يحجبه شيء. **والقول الثاني**: أنه قربه من العبد بملائكته الذين يصلون إلى قلبه، فيكون أقرب إليه من ذلك العرق»[٢].

وقال السعدي رحمه الله: «واعلم أن قربه تعالى نوعان: عام، وخاص، فالقرب العام: قربه بعلمه من جميع الخلق، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، والقرب الخاص: قربه من عابديه، وسائليه، ومحبيه، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩]»[٣].

وقول الله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥].

قال البغوي رحمه الله: «بالعلم والقدرة والرؤية، وقيل: ورسلنا الذين يقبضون روحه أقرب إليه منكم»[٤].

وقال الثعلبي رحمه الله: «بالقدرة والعلم، ولا قدرة لكم على دفع شيء عنه»[٥].

وقال ابن عطية رحمه الله: «يحتمل أن يريد ملائكته ورسله، ويحتمل أن يريد

---

(١) المحرر الوجيز (٥/١٥٩).

(٢) مدارج السالكين (٢/٢٧٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٨٤.

(٤) معالم التنزيل (٨/٢٥).

(٥) الكشف والبيان (٩/٢٢٣).

بقدرتنا وغلبتنا»[١].

وقال البيضاوي[٢] رحمه الله: «﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾، أي: ونحن أعلم إلى المحتضر، عبَّر عن العلم بالقرب الذي هو أقوى سبب الاطلاع»[٣].

وقال السعدي رحمه الله: «والحال أنا نحن أقرب إليه منكم، بعلمنا وملائكتنا»[٤].

وقول الله تعالى: ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾[الحديد: ٣]، قال البغوي رحمه الله: «﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾: الغالب العالي على كل شيء، ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾: العالم بكل شيء»[٥].

وقال ابن القيم رحمه الله: «وبطونه سبحانه إحاطته بكل شيء، وبحيث يكون أقرب إليه من نفسه، وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه»[٦].

وقد شهدت سنة رسول صلى الله عليه وسلم بما شهد به القرآن، من قرب الله تعالى قربًا عامًّا من كافة الخلق، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه كان يأمرهم إذا أخذ أحدهم مضجعه أن يقول: «**اللهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ**

(١) المحرر الوجيز (٥/٢٥٣).

(٢) عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي ناصر الدين البيضاوي الشافعي القاضي، والمفسر، كان عارفًا بالفقه والتفسير والعربية والمنطق؛ نظارًا صالحًا متعبدًا شافعيًّا، من مصنفاته: "أنوار التنزيل وأسرار التأويل"، و"طوالع الأنوار" في التوحيد، توفي سنة خمس وثمانين وستمائة، ينظر: بغية الوعاة (٢/٥٠)، طبقات المفسرين للأدنه وي، ص٢٥٤، الأعلام (٤/١١٠).

(٣) أنوار التنزيل (٥/١٨٣).

(٤) تيسير الكريم الرحمن، ص ٨٣٦.

(٥) معالم التنزيل (٨/٣١).

(٦) طريق الهجرتين (١/٤٧).

الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ»(١).

قال ابن القيم رحمه الله: «وهو تبارك وتعالى كما أنه العالي على خلقه بذاته فليس فوقه شيء، فهو الباطن بذاته فليس دونه شيء؛ بل ظهر على كل شيء وكان فوقه، وبطن فكان أقرب إلى كل شيء من نفسه، وهو محيط به حيث لا يحيط الشيء بنفسه، وكل شيء في قبضته، وليس في قبضة نفسه، فهذا أقرب لإحاطة العامة»(٢).

الفرع الثاني: الفرق بين القرب والمعيّة:

القرب والمعيّة صفتان من صفات الله تعالى، أثبتهما الله تعالى لنفسه بدلالة نصوص الكتاب والسنة، وأهل السنة والجماعة يثبتون له كل ما وصف به نفسه على حقيقته؛ لأنهم متبعون للنصوص نفيًا وإثباتًا(٣)، ويفرقون بين الصفات من حيث إن كل صفة متباينة عن الأخرى؛ لدلالة كل صفة على معناها الخاص بها.

وقبل أن نذكر الفرق بين صفتَي القرب والمعيّة، لا بد أولًا أن نبين أن معيّة الله تعالى تنقسم إلى قسمين(٤):

١- معيّة عامة:

وهي معيّة العلم والإحاطة، ودليلها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد:٤]، قال ابن جرير رحمه الله: «وهو شاهد لكم أيها الناس أينما كنتم يعلَمكم، ويعلم أعمالكم، ومتقلبكم ومثواكم، وهو على عرشه فوق سماواته السبع»(٥).

---

(١) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع (٤/٢٠٨٤)، رقم ٦١.

(٢) طريق الهجرتين (١/٤٢).

(٣) ينظر: شرح العقيدة الواسطية، محمد صالح بن عثيمين (١/١١٧).

(٤) ينظر: مدارج السالكين (٢/٢٥٤).

(٥) جامع البيان (٢٢/٣٨٧).

٢- معيّة خاصة:

تتضمن الموالاة والنصر والتأييد لأوليائه المؤمنين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨]، قال ابن كثير رحمه الله: «أي: معهم بتأييده ونصره ومعونته، وهذه معيّة خاصة»[١].

وعلى ذلك، فإن الله تعالى مع خلقه معيّة علم وقدرة وإحاطة، ومعيّة نصر وتأييد، ولا يقتضي ذلك مخالطةً أو حلولًا؛ إذ هو سبحانه وتعالى منزّه مقدّس عن ذلك، فهو مع خلقه، وهو فوق عرشه حقيقة، وحرف (مع) في اللغة لا يقتضي بالضرورة المماسة أو المحاذاة؛ بل قد يرد في تعبير لا يقتضي مماسة أو مخالطة، كما في قول القائل: سرنا والقمر معنا[٢]، والعارف باللسان العربي لا يشك أن السائر في الأرض والقمر في السماء، فاجتمعت المعيّة والعلو هنا في حق المخلوق، وهي في حق الخالق من باب أولى.

وبعد أن تحرر معنى القرب، ومعنى المعيّة، جاز تبيين الفرق بينهما بما يلي:

١- قرب الله من خلقه، إما أن يكون قرب ذاته، كنزوله في الثلث الأخير من الليل، ونزوله عشية عرفة، وإما أن يكون قرب صفاته، كقرب رحمته ونصره من أوليائه، وإحاطته وعلمه وقدرته بسائر خلقه.

أما المعيّة فلا تكون إلا معيّة صفات، فهو مع خلقه معيّة عامة بعلمه وقدرته وإحاطته، ومعيّة خاصة بنصره وتأييده، مع استوائه في كلا الحالين على عرشه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فكل مَن قال: إن الله بذاته في كل مكان، فهو مخالف للكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة وأئمتها، مع مخالفته لما فطر الله عليه عباده،

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦١٥).
(٢) ينظر: مجموع الفتاوى (٥/ ١٠٣).

ولصريح المعقول وللأدلة الكثيرة»[١].

٢- القرب صفة مشتقة من اسم (القريب) الدال على ذات الله تعالى، وكل اسم من أسماء الله تعالى يدل على صفة من صفاته، أما المعيَّة فهي صفة ليست مشتقةً من أحد أسمائه الحسنى، ولا يجوز أن نشتق له سبحانه اسمًا منها، مثلها مثل سائر الصفات التي وصف الله تعالى بها نفسه، أو وصفه بها رسوله ﷺ، من غير ثبوت أسماء له اشتقت منها، قال ابن عثيمين رحمه الله: «الصفات أعم من الأسماء؛ لأن كل اسم متضمن لصفة، وليس كل صفة متضمنة لاسم»[٢].

الفرع الثالث: التوفيق بين القرب والعلو:

إن مما يعين المؤمن على التوفيق بين صفات الله تعالى عامة، وبين صفتي القرب والعلو خاصة، اطمئنان نفسه ورضاها بما وصف الله تعالى به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، فإذا اطمأنت نفس المؤمن واستقرت على ذلك، أصبح من السهل عليه أن يوفق بينها.

فالمؤمن الذي يعلم يقينًا أن الله تعالى قادر على كل شيء؛ لأنه الذي وصف نفسه بذلك في مواضع كثيرة من كتابه حين قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]، لن يشعر بأدنى شك في قدرة الله العظيمة على أن يكون ﴿ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، وأنه ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، مع كونه عز وجل: ﴿قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١] يجيب الداعي، ويعطي السائل، ويثيب العابد، لا يعجزه ما يعجز المخلوق.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «كان مذهب السلف والأئمة أنه مع نزوله إلى سماء الدنيا لا يزال فوق العرش، لا يكون تحت المخلوقات، ولا تكون المخلوقات

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/١٢٥).

(٢) شرح العقيدة الواسطية (١/١٤٥).

محيطة به قط؛ بل هو العلي الأعلى، العلي في دنوه، القريب في علوه»[(١)].

وقال ابن القيم رحمه الله: «فهو قريب من المحسنين بذاته ورحمته قربًا ليس له نظير، وهو مع ذلك فوق سمواته على عرشه، كما أنه سبحانه يقرب من عباده في آخر الليل وهو فوق عرشه، فإن علوه سبحانه على سمواته من لوازم ذاته، فلا يكون قط إلا عاليًا، ولا يكون فوقه شيء البتة»[(٢)].

والمؤمن الذي وقر في قلبه أن الله جل ذكره ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، لا يتنابه شك أن صفات الله وأفعاله لا تقاس بصفات المخلوق وأفعاله، فإن كان محالًا في حق المخلوق أن يكون عاليًا في دنوه قريبًا في علوه، فهذا لا يمتنع في حق الخالق، حتى وإن كان ذلك لا يدركه العقل البشري، وعلى ذلك، فإن الله تعالى يدنو من خلقه وينزل إليهم نزولًا يختص به، لا يماثل نزول المخلوقين وحركتهم وانتقالهم وزوالهم مطلقًا، هو العلي الأعلى مع أنه يقرب إلى عباده ويدنو منهم وينزل إلى حيث شاء، ويأتي كما شاء[(٣)].

قال ابن عثيمين رحمه الله: «فإن قال قائل: كيف الجمع بين قربه جل وعلا وعلوه؟ فالجواب: أن الله أثبت ذلك لنفسه -أعني القرب والعلو- ولا يمكن أن يجمع الله لنفسه بين صفتين متناقضتين، ولأن الله ليس كمثله شيء في جميع صفاته، فهو قريب في علوه عليٌّ في دنوه»[(٤)].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٧/٧).

(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، ص ٤٦٠.

(٣) ينظر: مجموع الفتاوى (١٦/٤٢٤).

(٤) تفسير العثيمين الفاتحة والبقرة (٢/٣٤٥).

المطلب الثاني:

قرب الخلق من الخالق

القرب من الله منزلة عظيمة لا سبيل لها إلا بالإيمان والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧]، أي: ليست الأموال والأولاد دليلًا على محبة الله لكم، ولا اعتنائه بكم، إنما يقربكم عند الله الإيمان والعمل الصالح[1].

غير أنه من المهم جدًّا أن يعرف العبد الذي يرجو القرب من الله الضوابط والأصول التي قررتها الشريعة لصحة الإيمان وصلاح العمل، حتى يتحقق له القرب من الله تعالى، وهذه الضوابط والأصول تتمحور فيما يلي:

أولاً: أن يكون إيمان العبد مشتملاً على جميع أركانه ولوازمه الصحيحة:

فأما أركان الإيمان فهي ما حدّث به رسول الله ﷺ، في قوله لجبريل عليه السلام، حين سأله عن الإيمان: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[2]، فلا يتم إيمان العبد ولا يكتمل إلا إذا آمن بها جميعًا على الوجه الذي جاءت به نصوص الكتاب والسُّنة.

وأما لوازم الإيمان فهي ما يلي:

١- تصديق القلب وإقراره ومعرفته وإذعانه لكل ما جاء عن الله وعن

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٦/٥٢٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل عليه السلام...، (١/١٩) رقم: ٥٠، ورواه مسلم واللفظ له من حديث عمر رضي الله عنه، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان...، (١/٣٦)، رقم ١.

رسول الله ﷺ، مع اشتماله على النية الصادقة والخوف والمحبة والصبر والتوكل وما شابهها من أعمال القلوب التي هي روح أعمال الجوارح، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والإيمان الذي كتب في القلب ليس هو مجرد العلم والتصديق؛ بل هو تصديق القلب، وعمل القلب»(١).

٢- موافقة اللسان وتصديقه وإقراره لما وقر في القلب من إيمان، بأن يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، قال ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ**»(٢).

٣- عمل الجوارح الذي لا يتم الإيمان إلا به؛ إذ لا يكفي العبد معرفة قلبه وقول لسانه، ومن ظن أن أعمال الجوارح ليست من لوازم الإيمان فقد حاد عن الجادة، وضل عن الصواب، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «والمرجئة(٣) أخرجوا العمل الظاهر عن الإيمان، فمن قصد منهم إخراج أعمال القلوب أيضًا وجعلها هي التصديق، فهذا ضلال بيّن، ومن قصد إخراج العمل الظاهر، قيل لهم: العمل الظاهر لازم للعمل الباطن لا ينفك عنه، وانتفاء الظاهر دليل انتفاء الباطن»(٤)، وما تكاثُر ذكر الإيمان مقرونًا بالعمل الصالح في كتاب الله العزيز إلا دليل على الترابط والتوافق بينهما، كما أن تقديم الإيمان على العمل الصالح في كثير من تلك

---

(١) مجموع الفتاوى (١٤٧/٧).

(٢) رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، (١٠٥/١)، رقم: ١٣٩٩، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا...، (٥٢/٢)، رقم ٣٣.

(٣) المرجئة: هم من أخرج الأعمال عن مسمى الإيمان، فمنهم من يقول: إن الإيمان مجرد ما في القلب، ومنهم من يقول: هو مجرد قول اللسان، وفرقة ثالثة تقول: الإيمان تصديق القلب وقول اللسان.

(٤) الإيمان الأوسط، ص ٩٩.

الشواهد القرآنية دليل على أن العمل الصالح مظهر من مظاهر الإيمان، فهما جناحا الحياة الطيبة التي وعد الله بها عباده المؤمنين في قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧]، وهما الأصلان اللذان علق الله عليهما دخول الجنة والنجاة من النار حين قال جل ذكره: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٤]، وقد قرر السلف الصالح هذه القاعدة العظيمة تقريرًا واضحًا لا التباس فيه، فصرَّحوا في أفصح عبارة، وأبلغ دلالة، بعدم صحة الإيمان المجرد عن العمل، قال سفيان بن عيينة[١] رحمه الله: «الإيمان قول وعمل. قال ابن عيينة رحمه الله: فأخذناه ممن قبلنا قولٌ وعمل، وإنه لا يكون قول إلا بعمل، قيل لابن عيينة رحمه الله: يزيد وينقص؟ قال: فأي شيء إذًا؟»[٢]. وقال الإمام الآجُرِّيُّ[٣] رحمه الله: «فالأعمال -رحمكم الله- بالجوارح تصديق عن الإيمان بالقلب واللسان، فمن لم يصدق الإيمان بعمله بجوارحه، مثل: الطهارة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد، وأشباه لهذه، ورضي من نفسه بالمعرفة والقول لم يكن مؤمنًا، ولم ينفعه المعرفة والقول، وكان تركه للعمل تكذيبًا لإيمانه، وكان العمل بما ذكرناه تصديقًا منه لإيمانه، وبالله التوفيق»[٤].

---

(١) أبو محمد، سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي، محدث الحرم، العلامة الحافظ، شيخ الإسلام، كان إمامًا حجة حافظًا، واسع العلم، كبير القدر، أتقن، وجود، وجمع، وصنف، وعمّر دهرًا، وازدحم الخلق عليه، وانتهى إليه علو الإسناد، مات سنة ثمانٍ وتسعين ومائة. ينظر: تذكرة الحفاظ (١/١٩٣)، سير أعلام النبلاء (٨/٤٥٤).

(٢) الشريعة لأبي بكر الآجري (٢/٦٠٤).

(٣) أبو بكر، محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ، الفقيه الشافعي، المحدث، كان صالحًا عابدًا ثقة صدوقًا، صنَّف في الفقه والحديث، من مصنفاته: "كتاب الشريعة"، و"أخلاق العلماء"، مات سنة ستين وثلاثمائة. ينظر: وفيات الأعيان (٤/٢٩٢)، الأعلام (٦/٩٧).

(٤) الشريعة (٢/٦١٤).

وقد جمع رسول الله ﷺ هذه اللوازم الثلاثة في قوله: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**»[١]، فالحياء للقلب، وكلمة التوحيد للسان، وإماطة الأذى للأركان.

ثانيًا: أن يكون عمل العبد المؤمن محققًا للشروط التي تجعله صالحًا:

ولا يكون العمل صالحاً عند الله تعالى إلا بشرطين:

١- أن يكون العمل خالصًا لوجه الله تعالى، وابتغاء مرضات الله، فإن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا لوجهه، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، فمن لم يخلص لله في عبادته، لم يفعل ما أمره الله به؛ بل الذي أتى بشيء غير المأمور به، فلا يصح ولا يقبل منه[٢].

٢- أن يكون العمل موافقًا لما جاء في الكتاب والسُّنة؛ إذ لا يقبل الله تعالى من صاحب بدعة بدعته، وكل مَن أحدث في الدين ما ليس منه فهو وبال عليه في الدنيا والآخرة، قال ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ**»[٣]، والعبد المسلم مأمور بالاتباع، منهي عن الابتداع، يسعه الكتاب والسُّنة كما وسع مَن كان قبله من القرون.

فإذا تقرب العبد إلى الله تعالى بإيمان وعمل صالح مشتملين على هذه الأصول، كان خليقًا به أن يقربه الله تعالى ويدنيه، ويرفع قدره ويعليه.

---

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها...، (١/ ٦٣)، رقم ٥٨.

(٢) ينظر: محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي (٣/ ١٥٥).

(٣) رواه البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٣/ ٨٤)، رقم ٢٦٩٧، ورواه مسلم، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة... (٢/ ١٣٤٣)، رقم: ١٧.

المطلب الثالث:

القرب بين الخلق

اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون الناس شعوبًا وقبائل وأزواجًا وأنسابًا وأصهارًا؛ ليتعارف الخلق وتسود فيهم الرحمة والمودة والأنس، فخلق آدم وخلق له زوجه حواء يأنس لها ويطمئن بها، وشرع للذكَر أن يتخذ زوجًا يؤي إليها ويهنأ بها، فتكونت من هذا التزاوج شجرة الأسرة الواحدة ذات الأبناء والآباء والإخوة والأحفاد، ثم شكلت هذه الأسر مجتمعًا إنسانيًّا ذا روابط متعددة، وصلات مختلفة، حسب الباحث منها أشهر الروابط والصلات التي تقرب بين أفراد الجماعة المسلمة، والتي لها أثر عظيم على قضية القرب من الله تعالى، وهي كما يلي:

أولاً: قرابة الدِّين:

دين الإسلام هو الرابط الحقيقي الذي يقرب بين المسلمين، إذا سقط سقطت معه روابط كثيرة، وإذا قام أصبح المؤمنون إخوةً كالنفس الواحدة، فلا قيمة ولا معنى للأحساب والأنساب إذا لم تُتوَّج برابط الدين الذي ألفَّ الله تعالى به بين القلوب، وأزال به العداوات والخصومات، حتى اجتمعت الطوائف المتناحرة، وتقاربت الأرواح المتنافرة، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، فهذا السياق يبين أثر رابط العقيدة والدين على حال الأوس والخزرج، فبعد العداوة الشديدة والضغائن والحروب، كانت المحبة والمودة، يتحابون بجلال الله، ويتواصلون في ذاته، متعاونين على البر والتقوى(١).

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٢/ ٩٠).

وقد اعتنى القرآن الكريم بهذا الرابط عناية عظيمة، حتى سقط بسقوطه رابط النسب والرحم، قال تعالى مخاطبًا نوحًا عليه السلام في ابنه الذي فارق دينه: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ [هود: ٤٦]، قال الزمخشري رحمه الله: «تعليل لانتفاء كونه من أهله، وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب»[(١)].

وزاد الله قرابة الدين عناية وفضلًا، حين أخبر أنها تبقى قائمة لا تنحل، مهما اشتدت الخصومات، وسالت الدماء، وأُزهقت الأنفس، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات:١٠]، قال القرطبي رحمه الله: «أي: في الدين والحرمة لا في النسب، ولهذا قيل: أُخوة الدين أثبت من أُخوة النسب، فإن أُخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأُخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب»[(٢)].

وقال سيد قطب[(٣)] رحمه الله: «فإذا انعقدت آصرة العقيدة فالمؤمنون كلهم إخوة، ولو لم يجمعهم نسب ولا صهر»[(٤)].

وقال تعالى في آية القصاص: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [البقرة: ١٧٨]. قال السمعاني[(٥)] رحمه الله: «وظاهره يقتضي أن أُخوة الدين

---

(١) الكشاف، ص ٤٨٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٣٢٢).

(٣) سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، أديب ومفكر إسلامي ومصلح اجتماعي مصري، حوكم بتهمة التآمر على نظام الحكم في مصر، وصدر الحكم بإعدامه عام ١٣٨٥هـ، له مصنفات عديدة، أشهرها: "في ظلال القرآن"، و"مشاهد القيامة في القرآن"، و"معالم في الطريق". ينظر: الأعلام (٣/ ١٤٧)، الموسوعة العربية العالمية (١٣/ ٣٧٠).

(٤) معالم في الطريق، ص ١٣٩.

(٥) أبو المظفّر، منصور بن محمد بن عبد الجبار السّمعانيّ التميميّ الحنفي، ثم الشافعي، الإمام الجليل، العلم الزاهد الورع، المفسر، من العلماء بالحديث، من أهل مرو مولدًا ووفاة، كان مفتي خراسان، له من المصنفات: "تفسير السمعاني"، و"الانتصار لأصحاب الحديث"، توفي سنة تسع وثمانين وأربعمائة. ينظر: طبقات الشافعية الكبرى (٥/ ٣٣٥)، طبقات المفسرين للداودي (٢/ ٣٣٩)، الأعلام (٧/ ٣٠٣).

لا تنقطع بين القاتل والمقتول؛ حيث قال: ﴿مِنْ أَخِيهِ﴾»(١).

وأخبر سبحانه وتعالى أن رابط العقيدة والدين هو الذي ينفع بعد الموت وعند الحساب، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، قال ابن عباس(٢) رضي الله عنهما: «فكل خلة هي عداوة إلا خلة المتقين»(٣).

وقال ابن كثير رحمه الله: «كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله عز وجل فإنه دائم بدوامه»(٤).

وكما أن القرآن اعتنى بهذا الرابط وأظهر أهميته، كذلك فإن السنة المطهرة الشريفة حثت عليه وأمرت به، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، وَلاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاَثِ لَيَالٍ**»(٥).

وقال صلى الله عليه وسلم: «**المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ**»(٦).

---

(١) تفسير القرآن للسمعاني (١/ ١٧٤).

(٢) الصحابي الجليل، عبد الله بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنهما، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ترجمان القرآن، كان يسمى البحر؛ لسعة علمه، ويسمى حبر الأمة، دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفقه في الدين وتعليمه التأويل، مات بالطائف سنة ثمانٍ وستين. ينظر: أسد الغابة (٣/ ٢٩١)، الإصابة (٤/ ١٢١).

(٣) جامع البيان (٢٠/ ٦٤٠).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٣٧).

(٥) رواه البخاري من حديث أنس رضي الله عنه، كتاب الأدب، باب الهجرة وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحل...، (٨/ ٢١)، رقم ٦٠٧٦، ورواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن التحاسد والتباغض والتدابر، (٤/ ١٩٨٣)، رقم: ٢٣.

(٦) رواه البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلمُ المسلمَ ولا يسلمه (٣/ ١٢٨)، رقم ٢٤٤٢، ورواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظل (٤/ ١٩٩٦)، رقم: ٥٨.

ثانيًا: قرابة النسب:

ويراد بها القرابة في الرحم، يقال: بينهما نسب، أي: قرابة، سواء جاز بينهما التناكح أم لا[(١)]، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ [الشورى: ٢٣]، أي: «إلا أن تتبعوني وتصدقوني وتصلوا قرابتي ورحمي»[(٢)].

قال الراغب[(٣)] رحمه الله: «النسب والنسبة: اشتراك من جهة أحد الأبوين، وذلك ضربان: نسب بالطول كالاشتراك من الآباء والأبناء، ونسب بالعرض كالنسبة بين بني الإخوة، وبني الأعمام، قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهۡرًاۗ﴾ [الفرقان: ٥٤]، وقيل: فلان نسيب فلان، أي: قريبه»[(٤)].

وأقرباؤك وأقاربك وأقربوك: عشيرتك الأدنون[(٥)]، كما في محكم التنزيل: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

قال الرازي[(٦)] رحمه الله: «واعلم أن ذوي القربى هم الذين يقربون منه بولادة

---

(١) ينظر: القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب، ص ٢٩٨، ص٣٥١، المصباح المنير (٢/ ٤٩٥).

(٢) تفسير مجاهد، مجاهد بن جبر، ص ٥٨٩.

(٣) أبو القاسم، الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني، المعروف بالراغب، أديب من الحكماء العلماء، اشتهر حتى كان يقرن بالإمام الغزالي، له مصنفات عدة، أشهرها: "مفردات ألفاظ القرآن"، و"محاضرات الأدباء"، و"الذريعة إلى مكارم الشريعة"، توفي سنة اثنتين وخمسمائة. ينظر: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، ص ١٢٢، الأعلام (٢/ ٢٥٥).

(٤) المفردات، ص ٨٠١.

(٥) ينظر: تاج العروس، محمد بن محمد الزبيدي (٤/ ٨).

(٦) أبو عبد الله، محمد بن عمر بن الحسين التيمي البكري، الملقب بفخر الدين الرازي، قرشي النسب، من ذرية أبي بكر رضي الله عنه، فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقولات وعلم الأوائل، من تصانيفه: "مفاتيح الغيب"، و"المطالب العالية"، و"المحصول في علم الأصول"، توفي سنة ست وستمائة. ينظر: وفيات الأعيان (٤/ ٢٤٨)، طبقات المفسرين للسيوطي، ص ١١٥، الأعلام (٦/ ٣١٣).

الأبوين أو بولادة الجدين، فلا وجه لقصر ذلك على ذوي الرحم المحرم على ما حكي عن قوم؛ لأن المحرمية حكم شرعي، أما القرابة فهي لفظة لغوية موضوعة للقرابة في النسب، وإن كان من يختص بذلك يتفاضل ويتفاوت في القرب والبعد»(١).

وينقسم قرب النسب إلى قسمين:

القسم الأول: محارم لا يجوز نكاحهن، ذكرهن الله تعالى في قوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ ﴾ [النساء: ٢٣]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «حُرم عليكم سبع نسبًا وسبع صهرًا»(٢).

القسم الثاني: غير محارم يجوز نكاحهن، وهن ما تبقى من القرابات، كبنت العم وبنت العمة وبنت الخال وبنت الخالة.

وقد عظم القرآن شأن قرابة النسب، واهتم بأمرها، وحث على أداء حقوقها، وشدد الوعيد على من ضيَّعها وأهملها.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، قال الزمخشري رحمه الله: «وقد آذن عز وجل إذ قرن الأرحام باسمه أن صلتها منه بمكان»(٣).

وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [النساء: ٣٦].

فجمع الله تعالى في هذه الآية بين ذكر حقه على العبد وحقوق العباد على العبد، وجعل أحد أنواع العباد، الذين أمر بالإحسان قرابة الإنسان، وخص منهم

(١) مفاتيح الغيب (٥/٤٥).
(٢) جامع البيان (٦/٥٥٤)
(٣) الكشاف، ص ٢١٥.

الوالدين بالذكر؛ لامتيازهما على سائر الأقارب والأرحام[(١)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النحل:٩٠].

قال ابن عطية رحمه الله: «﴿وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾: لفظ يقتضي صلة الرحم، ويعم جميع إسداء الخير إلى القرابة، وتركه مبهمًا أبلغ؛ لأن كل من وصل في ذلك إلى غاية وإن علت يرى أنه مقصر، وهذا المعنى المأمور به في جانب "ذي القربى" داخل تحت "العدل" "والإحسان"؛ لكنه تعالى خصَّه بالذكر اهتمامًا به وحضًّا عليه»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ٢٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣].

قال ابن كثير رحمه الله: «وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عمومًا، وعن قطع الأرحام خصوصًا؛ بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والفعال وبذل الأموال»[(٣)].

وقال ابن عاشور رحمه الله: «وفي الآية إشعار بأن الفساد في الأرض وقطيعة الأرحام من شعار أهل الكفر، فهما جرمان كبيران يجب على المؤمنين اجتنابهما»[(٤)].

ودين الإسلام لا يريد من المؤمن أن يحصر نفسه في أسرة صغيرة محدودة بوالدين وزوجة وأبناء؛ بل يأمره بتوسيع الدائرة من حوله بمخالطة الأقارب وصلتهم والإحسان إليهم، ولذلك حثَّ الرسول ﷺ على صلة الأقارب والأرحام

---

(١) ينظر: روائع التفسير، عبد الرحمن بن رجب الحنبلي (١/ ٣٣٣).

(٢) المحرر الوجيز (٣/ ٤١٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٣١٨).

(٤) التحرير والتنوير (٢٦/ ١١٣).

وتعلُّم الأنساب، قال ﷺ: «وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»(١).

وقال ﷺ: «خَلَقَ اللَّهُ الخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ لَهُ: مَهْ، قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ العَائِذِ بِكَ مِنَ القَطِيعَةِ، قَالَ: أَلاَ تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ، قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَذَاكِ»(٢).

وقال ﷺ: «تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ، فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِي الأَهْلِ، مَثْرَاةٌ فِي المَالِ، مَنْسَأَةٌ فِي الأَثَرِ(٣)»(٤).

ثالثًا: القرب بالرضاع:

الرضاع في اللغة: امتصاص الثدي، يقال: رضع أمه رضعًا ورضاعًا ورضاعة إذا امتص ثديها(٥).

والرضاع في الشرع: وصول لبن آدمية إلى جوف صغير حي(٦).

وقد اهتم القرآن الكريم بقرابة الرضاع اهتمامًا عظيمًا، فأنزل مرضعة الرضيع والراضعة معه منزلة الأم والأخت، وعدَّهما من المحرمات تحريمًا مؤبدًا، قال تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ [النساء: ٢٣]، قال

---

(١) رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الأدب، باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه...، (٨/ ٣٢)، رقم ٦١٣٨.

(٢) رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب التفسير، باب ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ (٦/ ١٣٤)، رقم ٤٨٣٠.

(٣) قال أبو عيسى في خاتمة الحديث: «منسأة في الأثر»: يعني زيادةً في العمر.

(٤) رواه الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أبواب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في تعلم النسب (٣/ ٥٢١)، رقم ١٩٧٩، قال أبو عيسى: هذا حديث غريب من هذا الوجه، وقال الحاكم في المستدرك: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: المستدرك (٤/ ١٧٨)، رقم ٧٢٨٤، صحيح الجامع (١/ ٥٧٠)، رقم ٢٩٦٥.

(٥) ينظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة (١/ ٣٥٠).

(٦) ينظر: المبدع في شرح المقنع (٧/ ١١٨).

البغوي رحمه الله: «وجملة المحرمات في كتاب الله تعالى أربع عشرة: سبع بالنسب، وسبع بالسبب، فأما السبع بالسبب فمنها اثنتان بالرضاع، وأربع بالصهرية، والسابعة المحصنات، وهن ذوات الأزواج»[١].

وقال أبو البركات النسفي[٢] رحمه الله: «الله تعالى نزل الرضاعة منزلة النسب، فسمى المرضعة أُمًّا للرضيع والمراضعة أختًا، وكذلك زوج المرضعة أبوه، وأبواه جداه، وأخته عمته، وكل ولد وُلِد له من غير الرضعة قبل الرضاع وبعده فهم إخوته وأخواته لأبيه، وأم المرضعة جدته، وأختها خالته، وكل من وُلد لها من هذا الزوج فهم إخوته وأخواته لأبيه وأمه، ومن وُلد لها من غيره فهم إخوته وأخواته لأم»[٣].

وأخبر رسول الله ﷺ أن حرمة الرضاع كحرمة النسب، فعن عائشة رضي الله عنها أنها أخبرت أن رسول الله ﷺ قال: «**يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النَّسَبِ**»[٤].

والمشروع في حق الرضيع صلة أقاربه من الرضاع بالزيارة والسلام والدعاء، وإن أهدى لهم شيئًا من المال فحسن[٥]، هذا بلا شك إحسان وصلة تديم المعروف بين قرابة الرضاع، وتزيد المحبة والود، وترفع قدر العبد عند ربه.

---

(١) معالم التنزيل (٢/١٨٨).

(٢) أبو البركات، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، علامة الدنيا أحد الزهاد المتأخرين، صاحب تصانيف مفيدة، كان إمامًا في جميع العلوم، ومصنفاته في الفقه والأصول أكثر من أن تحصى، له: "مدارك التنزيل"، و"كنز الدقائق"، و"المنار"، توفي سنة عشر وسبعمائة. ينظر: الدرر الكامنة (٣/١٧)، الأعلام (٤/٦٧)، طبقات المفسرين للأدنه وي، ص ٢٦٣.

(٣) مدارك التنزيل (١/٣٤٦).

(٤) رواه البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب، والرضاع المستفيض...(٣/١٧٠)، رقم ٢٦٤٥، ورواه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها، كتاب الرضاع، باب تحريم الرضاعة من ماء الفحل (٢/١٠٧٠)، رقم ٩.

(٥) ينظر: موقع الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء في المملكة العربية السعودية، السؤال الأول من الفتوى رقم ١٤٣٥٨. http://www.alifta.com.

رابعًا: قرب المصاهرة:

صهر الرجل وأصهاره هم أهل بيت المرأة، وقرابتها من ذوي المحارم وذوات المحارم، كالأبوين والإخوة وأولادهم والأعمام والأخوال والخالات، فهؤلاء أصهار زوج المرأة، ومن كان من قِبل الزوج من ذوي قرابته المحارم فهم أصهار المرأة أيضًا[١].

وقد ذكر الله تعالى وصلة الصهر مع وصلة النسب في قول المولى ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤]، قال ابن كثير ؒ: «فهو في ابتداء أمره ولد نسيب، ثم يتزوج فيصير صهرًا، ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات[٢]، وكل ذلك من ماء مهين»[٣].

ومكانة صلة المصاهرة في شرع الله عظيمة، وعناية الله تعالى بها جليلة، فقد حرم جل ذكره بها على الرجل أربع نساء، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ﴾ [النساء: ٢٢]، وقال تعالى في آية المحرمات من النساء: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ﴾ [النساء: ٢٣]، قال الزحيلي[٤] ؒ في تفسيره للآية: «حرم الله

---

(١) ينظر: المصباح المنير (١/٣٤٩).

(٢) يقال لأهل بيت الخَتَن الأختان، ولأهل بيت المرأة أصهار، ومن العرب من يجعلهم كلهم أصهارا. ينظر: العين (٣/ ٤١١).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/١١٧).

(٤) وهبة بن مصطفى الزحيلي، أستاذ الفقه وأصوله بجامعة دمشق، من العلماء المعاصرين المجتهدين في =

بسبب المصاهرة ثلاثة أنواع تكريمًا لتلك الرابطة كتكريم رابطة النسب»[١].

ولما لرابط المصاهرة من أثر عظيم في ترابط المجتمع المسلم وتماسكه، أوصى رسول الله ﷺ بالإحسان إلى أصهاره من أهل مصر وإكرامهم، فعن أبي ذر[٢] رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيرَاطُ**[٣]**،فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا**»، أَوْ قَالَ: «**ذِمَّةً وَصِهْرًا**»[٤].

وعندما تزوج رسول الله ﷺ جويرية بنت الحارث[٥] رضي الله عنها، بعد أن أدى عنها كتابها عقب غزوة بني المصطلق، وتسامع الناس بذلك، رأى المسلمون أن يعتقوا ما بأيديهم من أسرى بني المصطلق؛ لأنهم أصبحوا أصهار رسول الله ﷺ، حتى قالت عائشة رضي الله عنها: «فَمَا رَأَيْنَا امْرَأَةً كَانَتْ أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَى قَوْمِهَا مِنْهَا، أُعْتِقَ

= التدريس والتأليف والتوجيه وإلقاء المحاضرات العامة والخاصة، من مصنفاته: "آثار الحرب في الفقه الإسلامي"، و"التفسير المنير"، مات سنة ١٤٣٦هـ. ينظر: موقع المكتبة الشاملة
1052/http://shamela.ws/index.php/author

(١) التفسير المنير (٢/٦٤٩).

(٢) الصحابي الجليل، أبو ذر الغفاري، جندب بن جنادة رضي الله عنه، الزاهد المشهور الصادق اللهجة، من السابقين الأولين، أسلم ثم رجع إلى بلاد قومه بعد ما أسلم، فأقام بها حتى مضت بدر وأحد والخندق، ثم قدم على النبي ﷺ المدينة، فصحبه إلى أن مات سنة اثنتين وثلاثين. ينظر: الاستيعاب (١/٢٥٢)، الإصابة (٧/١٠٥).

(٣) القيراط: جزء من أجزاء الدينار والدرهم وغيرهما. ينظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/٩٧).

(٤) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر (٤/١٩٧٠)، رقم ٢٢٧.

(٥) الصحابية الجليلة جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ، سباها رسول الله ﷺ يوم المريسيع، وكانت قد وقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه، فكاتبته على نفسها، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها فعرض عليها أن يؤدي عنها كتابها ويتزوجها، فوافقت، ماتت سنة ست وخمسين. ينظر: الاستيعاب (٤/١٨٠٤)، أسد الغابة (٧/٥٧).

فِي سَبَبِهَا مِئَةُ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ بَنِي الْمُصْطَلِقِ»(١).

خامسًا: قرب الجوار:

الجار هو الذي يجاورك في المسكن(٢).

قال المناوي(٣) رحمه الله: «وتصور من الجار معنى القرب فقيل لكل ما يقرب من غيره جاره، ومنه ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ ﴾ [الرعد: ٤]»(٤)، وعلى هذا المعنى توسع مفهوم الجوار؛ ليشمل جار التجارة، وجار العمل، وجار السفر وغيرهم.

وقرب الجوار من أعظم ما يوصي به الإسلام ويحث عليه، حتى إن الله قرن حق الجار بحقه سبحانه وتعالى، قال جل ذكره: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾.

[النساء: ٣٦]

قال ابن العربي(٥) رحمه الله: «حرمة الجار عظيمة في الجاهلية والإسلام، معقولة

---

(١) رواه أبو داود، كتاب العتاق، باب بيع المكاتب إذا فسخت الكتابة (٦/ ٧٥)، رقم ٣٩٣١، وحسنه الألباني. ينظر: التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (٦/ ١٨٦).

(٢) ينظر: كتاب العين (٦/ ١٧٦).

(٣) زين الدين، محمد عبد الرؤوف ابن تاج العارفين العابدين الحدادي، ثم المناوي القاهري، من كبار العلماء بالدين والفنون، انزوى للبحث والتصنيف، وكان قليل الطعام كثير السهر، له نحو ثمانين مصنفًا، منها: "كنوز الحقائق"، و"فيض القدير"، و"التوقيف على مهمات التعاريف"، توفي سنة إحدى وثلاثين وألف. ينظر: الأعلام (٦/ ٢٠٤).

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، ص ١١٩.

(٥) أبو بكر، محمد بن عبد الله ابن العربي، الأندلسي الإشبيلي، المالكي، الإمام، العلامة، الحافظ، القاضي، صاحب التصانيف، جمع وصنف وبرع في الأدب والبلاغة، وبعد صيته، كان متبحرًا في العلم، ثاقب الذهن، صنف في الحديث والفقه والأصول وعلوم القرآن والأدب والنحو والتواريخ، من مصنفاته: "العواصم من القواصم"، و"عارضة الأحوذي في شرح الترمذي"، و"أحكام القرآن"، مات سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة. ينظر: تذكرة الحفاظ (٤/ ٦١)، سير أعلام النبلاء (٢٠/ ١٩٧)، الأعلام (٦/ ٢٣٠).

مشروعة مروءةً وديانة... وحقوقه عشرة، يجمعها الإكرام، وكف الأذى»[١].

وقال السعدي رحمه الله: «﴿وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، أي: الجار القريب الذي له حقان: حق الجوار، وحق القرابة، فله على جاره حق وإحسان راجع إلى العرف، وكذلك ﴿وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾، أي: الذي ليس له قرابة، وكلما كان الجار أقرب بابًا كان آكد حقًّا، فينبغي للجار أن يتعاهد جاره بالهدية والصدقة والدعوة واللطافة بالأقوال والأفعال، وعدم أذيته بقول أو فعل»[٢].

ومما يدل على عظمة قرابة الجوار أن جبريل عليه السلام ظل يوصي رسول الله ﷺ بالجار، حتى ظن رسول الله ﷺ أنه سيجعله وارثًا لجاره، فعن ابن عمر[٣] رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا زَالَ جِبْرِيلُ عليه السلام يُوصِينِي بِالْجَارِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ**»[٤].

كما أن الإحسان إلى الجار وإكرامه والعناية بحقوقه وتجنب أذيته علامة من علامات الإيمان، قال ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ**»[٥].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٥٤٦/١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ١٧٨.

(٣) الصحابي الجليل، أبو عبد الرحمن، عبد الله بن عمر بن الخطاب القرشي رضي الله عنهما، أسلم وهو صغير لم يبلغ الحلم، استصغره رسول الله ﷺ يوم بدر، وأجازه يوم أُحد، كان رضي الله عنه من أهل الورع والعلم، كثير الاتباع لآثار رسول الله ﷺ، شديد التحري والاحتياط في فتواه، توفي سنة ثلاث وسبعين. ينظر: الاستيعاب (٩٥٠/٣)، أسد الغابة (٣٣٦/٣).

(٤) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار...، (١٠/٨)، رقم ٦٠١٥، ورواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار والإحسان إليه (٢٠٢٥/٤)، رقم ١٤١.

(٥) رواه البخاري من حديث أبي شريح رضي الله عنه، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره (١١/٨)، رقم ٦٠١٩، ورواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف...، (٦٨/١)، رقم ٧٤.

قال القاضي عياض[1]: «معنى ذلك: أن مَن التزم شرائع الإسلام لزمه إكرام جاره وبره، وأمَر أهل الإيمان بذلك»[2].

هذه أشهر العلاقات الإنسانية التي لها أثر عظيم على قضية القرب من الله تعالى في المجتمع المسلم، مَن حفظها واعتنى بها قربه الله تعالى وأرضاه، ومَن ضيَّعها وفرَّط فيها أبعده الله تعالى وأشقاه.

---

(١) أبو الفضل، القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي، إمام وقته في الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، صنف التصانيف المفيدة، منها: "إكمال المُعّلِم بفوائد مسلم"، و"مشارق الأنوار"، و"ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك"، مات سنة أربع وأربعين وخمسمائة. ينظر: وفيات الأعيان (٣/٤٨٣)، طبقات الحفاظ للسيوطي، ص٤٧٠، الأعلام (٥/٩٩).

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم (١/٢٨٤).

المبحث الثالث:

منزلة وأهمية القرب من الله

ومقام المقربين

- **المطلب الأول**: منزلة القرب من الله وأهميته
- **المطلب الثاني**: مقامات المقربين عند الله تعالى

المطلب الأول:

منزلة القرب من الله وأهميتها

القرب من الله تعالى ذو أهميةٍ بالغة، ومنزلته منزلة رفيعة عالية، أعلى الله شأن أهله، وأسبغ عليهم فيض محبته ورضوانه، كيف لا وهم أحرص الناس على طاعة ربهم، وأشد الناس على مجاهدة النفس وغلبة الهوى، اتخذوا من اللجوء إلى الله والمسارعة في رضاه زادًا يتبلغون به في سيرهم إلى الله؟! ومن تأمَّل هذه القضية تبيَّنت له أهميتها من عدة جوانب، أشهرها:

أولاً: القرب من الله تعالى طريق ولايته:

القرب من الله هو الوسيلة الحقيقية لأن يكون العبد وليًّا من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، فأهل الإيمان والتقوى والعمل الصالح لا خوف ينتابهم ولا حزن يعتريهم؛ بل هم آمنون مطمئنون، أحبوا الله تعالى فأحبهم، وتقربوا إليه بالإيمان والطاعة فقربهم في المنزلة والكرامة، قال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**»[1].

قال الرازي رحمه الله: «فالقرب منه إنما يكون إذا كان القلب مستغرقًا في نور

(١) سبق تخريجه، ص ٤٤.

معرفة الله تعالى سبحانه، فإن رأى رأى دلائل قدرة الله، وإن سمع سمع آيات الله، وإن نطق نطق بالثناء على الله، وإن تحرك تحرك في خدمة الله، وإن اجتهد اجتهد في طاعة الله، فهنالك يكون في غاية القرب من الله، فهذا الشخص يكون وليًّا لله تعالى، وإذا كان كذلك كان الله تعالى وليًّا له أيضًا»[١].

وقال شيخ الإسلام ﵀: «﴿أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ هم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾، كما ذكر الله تعالى في كتابه، وهم قسمان: المقتصدون أصحاب اليمين، والمقربون السابقون»[٢].

وقال الشوكاني[٣] ﵀: «الولي في اللغة: القريب، والمراد بأولياء الله خلص المؤمنين، كأنهم قربوا من الله سبحانه بطاعته واجتناب معصيته»[٤].

ثانيًا: القرب من الله صفة الأنبياء والرسل وخواص الخلق:

القرب من الله صفة عظيمة من صفات أهل المكرمات، الذين جعل الله معيتهم فضيلة يتسابق إليها الصالحون، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، فهم أخص الخلق ولاءً، وأجلهم قدرًا، وأعظمهم مثوبةً وأجرًا، قال القاسمي[٥] ﵀: «وأفضل أولياء الله هم أنبياؤه،

(١) مفاتيح الغيب (١٧/ ١٣٢).

(٢) دقائق التفسير (٣/ ٢١٩).

(٣) محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، نشأ بصنعاء، وولي قضاءها، كان يرى تحريم التقليد، له مصنفات عدة، منها: "نيل الأوطار"، و"البدر الطالع"، و"فتح القدير"، توفي سنة خمسين ومائتين وألف. ينظر: الأعلام (٦/ ٢٩٨).

(٤) فتح القدير (٢/ ٦٤٠).

(٥) جمال الدين (أو محمد جمال الدين) بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، من سلالة الحسين السبط، إمام الشام =

وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم، أفضلهم محمد ﷺ، خاتم النبيين، وإمام المتقين، الذي بعثه الله بأفضل كتبه، وشرع له أفضل شرائع دينه، وجعله الفارق بين أوليائه وأعدائه، فلا يكون وليًّا لله إلا مَن آمن به، وبما جاء به، واتبعه ظاهرًا وباطنًا»[١].

وكثيرًا ما نجد القرآن الكريم يمتدح خيرتهم وصفوتهم بكريم الخصال وعظيم الاتصال، قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]، قال ابن عطية رحمه الله، في معنى الأوَّاه: «معناه: الخائف الذي يكثر التأوه من خوف الله تعالى، ويروى أن إبراهيم عليه السلام كان يسمع وجيب[٢] قلبه من الخشية، قيل: كما تسمع أجنحة النسور»[٣].

وقال عز وجل عنه كذلك: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، أي: جامعًا لخصال الخير، معلمًا له، يؤتم به ويقتدى به، خاشعًا لله مطيعًا، منحرفًا عن الشرك إلى توحيد الله.[٤].

وقال تعالى عن داود عليه السلام: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٧، ١٨]، قال قتادة[٥]

=في عصره علمًا بالدين، وتضلعًا من فنون الأدب، مولده ووفاته في دمشق، كان سلفي العقيدة لا يقول بالتقليد، له تصانيف عدة، منها: "الفتوى في الإسلام"، و"نقد النصائح الكافية"، و"محاسن التأويل"، و"إصلاح المساجد من البدع والعوائد"، توفي سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة وألف. ينظر الأعلام (٢/ ١٣٥).

(١) محاسن التأويل (٦/ ٣٩).

(٢) وجب القلب يجب وجيبا، إذا خفق. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١٥٤).

(٣) المحرر الوجيز (٣/ ١٩٢).

(٤) ينظر: جامع البيان (٣/ ٦٢٢)، تفسير القرآن العظيم (٤/ ٦١٠)، فتح القدير (٣/ ٢٨٠).

(٥) أبو الخطاب، قتادة بن دعامة السدوسي البصري الأكمه، الحافظ العلامة، حافظ العصر، وقدوة المحدثين والمفسرين، أحفظ أهل البصرة، كان من أوعية العلم، وممن يضرب به المثل في قوة الحفظ، أخذ القرآن ومعانيه، مات سنة ثماني عشرة ومائة. ينظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٧١)، طبقات المفسرين للأدنه وي، ص ١٤.

ﷺ: «كان مطيعًا لله كثير الصلاة»[١]، وعلى أنه عليه السلام أوتي الملك والحكمة والجاه والسلطان، إلا أنه لم يغتر بملكه وقوة سلطانه عن طاعة ربه؛ بل كان أوَّابًا مسبحًا شكورًا، كثير الصلاة والصيام، فأحب الله تعالى صلاته وصيامه، عن عبد الله بن عمرو[٢] رضي الله عنهما، قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«أَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ، كَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَأَحَبُّ الصَّلاَةِ إِلَى اللَّهِ صَلاَةُ دَاوُدَ، كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ»**[٣]، فحُق له أن ينال الدرجة العالية الرفيعة عند ربه، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٢٥]، قال ابن القيم رحمه الله: «فالزلفى: منزلة القرب، وحسن المآب: حسن الثواب والجزاء»[٤].

وأما سيد أولي النهى، ومصباح الدجى، رسولنا ﷺ المصطفى، فما إن قال له ربه: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر:٢]، ثم أتبعها بـ ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٢] حتى جعل من الثانية قوةً وطاقةً على الأولى، فقام الليل حتى تورمت قدماه[٥]، وصام النهار حتى قيل إنه لا يفطر[٦]، وكان يستغفر الله تعالى ويتوب إليه في المجلس الواحد مائة

---

(١) جامع البيان (٢٠/٤٢).

(٢) الصحابي الجليل، أبو محمد، عبد الله بن عمرو بن العاص القرشي رضي الله عنهما، أسلم قبل أبيه، كان عابدًا حافظًا عالمًا بكتاب الله والكتب المتقدمة، من أحفظ الناس لحديث رسول الله ﷺ، توفي سنة ثلاث وستين، وقيل: خمس وستين. ينظر: الاستيعاب (٣/٩٥٦)، أسد الغابة (٣/٣٤٥)

(٣) رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب أحب الصلاة إلى الله صلاة داود وأحب الصيام إلى الله صيام داود...، (٤/١٦١)، رقم ٣٤٢٠، ورواه مسلم، كتاب الصيام، باب النهي عن صيام الدهر (٢/٨١٦)، رقم ١٩٠.

(٤) مدارج السالكين (٢/٧٥).

(٥) رواه البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها، كتاب التفسير، باب ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ (٦/١٣٥)، رقم ٤٨٣٧.

(٦) رواه البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها، كتاب الصوم، باب صوم شعبان (٣/٣٨)، رقم ١٩٦٩.

مرة[١]، وإذا عمل عملًا أثبته[٢].

ثالثًا: حثَّ الله تعالى على القرب منه ورغَّب فيه:

ومما يدل على علو منزلة القرب وأهميتها أن الله أمر به، وحثَّ عليه، ولو لم يكن له من الأهمية إلا هذا لكفته، فكيف وهو منبع السعادة في الدنيا، ومفتاح الفلاح في الآخرة:

قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ [العلق: ١٩]، قال ابن عطية رحمه الله: «واسجد لربك واقترب إليه بسجودك وبالطاعة والأعمال الصالحة»[٣]، وأمر الله تعالى لرسوله أمر لأمته بلا شك، فهم مأمورون بالقرب من الله بالصلاة والسجود والدعاء.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥]، قال ابن جرير: «واطلبوا القربة إليه بالعمل بما يرضيه»[٤].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «فالوسيلة التي أمر الله أن تبتغى إليه، وأخبر عن ملائكته وأنبيائه أنهم يبتغونها إليه، هي ما يتقرب إليه من الواجبات والمستحبات»[٥].

وقال تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات: ٥٠]، قال ابن

---

(١) رواه أبو داود، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، كتاب الصلاة، باب في الاستغفار (٢/٦٢٧)، رقم ١٥١٦، والحديث أخرجه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وصححه الألباني في صحيح أبي داود. ينظر: سنن الترمذي (٥/٤٣٣)، رقم ٣٤٣٤، صحيح سنن أبي داود (١/٤١٥)، رقم ١٥١٦.

(٢) رواه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض (١/٥١٥)، رقم ١٤١.

(٣) المحرر الوجيز (٥/٥٠٣).

(٤) جامع البيان (٨/٤٠٣).

(٥) مجموع الفتاوى (١/١٩٩).

القيم رحمه الله: «ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين: منزلة الفرار، وحقيقة الفرار: الهرب من شيء إلى شيء، وهو نوعان: فرار السعداء، وفرار الأشقياء، ففرار السعداء: الفرار إلى الله عز وجل، وفرار الأشقياء: الفرار منه لا إليه، وأما الفرار منه إليه ففرار أوليائه، قال ابن عباس رضي الله عنهما، في قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾: فروا منه إليه، واعملوا بطاعته»[١].

رابعًا: القرب من الله سبب للمعيِّة الإلهية:

كل مَن كان قريبًا مِن الله كان سعيدًا في دنياه، مشتاقًا للقيا مولاه؛ لأن الله معه معيِّة نصر وعون وتأييد، إن استغفره غفر له، وإن استعاذ به أعاذه، وإن سأله أعطاه، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١]، قريب من عابديه، ومحبيه، قربًا خاصًّا، يقتضي إلطافه، وإجابة دعوتهم، وتحقيقه مرادهم، ولهذا قرنه باسم المجيب[٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، قال ابن القيم رحمه الله: «فهذه معيِّة قرب تتضمن الموالاة، والنصر، والحفظ، وكلا المعنيين مصاحبة منه للعبد»[٣].

خامسًا: أهل القرب من الله سابقون إلى حلل الفوز والكرامة يوم القيامة:

لما كان المقربون من الله أهل السبق في الحياة الدنيا، وأهل المسارعة إلى أبواب الخير، حق لهم أن يكونوا أول من يفوز بكرامات الدار الآخرة، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١٠-١٢]،

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٦٦).
(٢) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٨٥.
(٣) مدارج السالكين (٢/ ٢٥٤).

قال ابن كثير ﵀: «فمن سابق إلى هذه الدنيا وسبق إلى الخير كان في الآخرة من السابقين إلى الكرامة، فإن الجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان»[(١)].

ومن جعل غاية سبقه في الدنيا نعيمًا أبديًّا وملكًا عريضًا، وترفَّع بنفسه عن لهو الدنيا وزخرفها، وصانها عن المفاخرة والمكاثرة بمتاعها الزائل، فاز في سبق الهدف الأعظم والمطلب الأسمى يوم القيامة، وظفر بمنازل جنة الخلد التي وعد الله بها أهل القرب من المؤمنين، قال ابن القيم ﵀ في نونيته:

سَبْقٌ بِسَبْقٍ وَالمُؤَخَّرُ هَهُنَا مُتَأَخِّرٌ فِي ذَلِكَ المَيْدَانِ[(٢)]

(١) تفسير القرآن العظيم (٥١٧/٧).

(٢) نونية ابن القيم، الكافية الشافية، ص ٢٩١.

المطلب الثاني:
مقامات المقربين عند الله تعالى

لما كان المقربون من الله السابقون إلى طاعته ورضوانه أصنافًا شتى من الملائكة والأنبياء والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، استلزم الأمر تفصيل القول في مقام كل صنف منهم على حسب ما جاء من نصوص الوحيين، التي أثنى الله بها عليهم، وذكر فيها شيئًا من مقاماتهم:

أولاً: مقام الملائكة المقربين:

عندما يتصور العبد ما جمع الله للملائكة من الصفات الخَلقية والخُلقية، وما جبلهم الله عليه من التواضع والخشية والأدب الرفيع، يظهر له مقامهم ومنزلتهم عند الله، فكونهم مخلوقين من النور، ومجبولين على العبادة والطاعة دونما عصيان أو فتور، يعد هذا دليلًا على مكانتهم العظيمة ومنزلتهم الرفيعة، قال الله تعالى عنهم: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٦]، قال النسفي رحمه الله: «بل هم عباد مكرمون، مشرفون، مقربون، وليسوا بأولاد؛ إذ العبودية تنافي الولادة»[١].

وقال تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء: ١٧٢]، قال ابن جرير رحمه الله: «ولن يستنكف أيضًا من الإقرار لله بالعبودية، والإذعان له بذلك، رسله المقربون الذين قد قربهم الله ورفع منازلهم على غيرهم من خلقه»[٢].

---

(١) مدارك التنزيل (٢/ ٤٠٠).

(٢) جامع البيان (٧/ ٧٠٨).

وقال ابن عطية رحمه الله: «أي: ولا هؤلاء الذين هم في أعلى درجات المخلوقين لا يستنكفون عن ذلك، فكيف سواهم؟!»(١).

وما ظل القرآن يثني عليهم، ويمتدح جميل خصالهم، ويذكر تفانيهم في العبادة والطاعة والعمل بأمر الله تعالى، إلا ليعلم المؤمنون أن لهم عند الله مقامًا عزيزًا كريمًا، خليق بمن تاقت نفسه لمثله أن يتشبَّه بهم في أقوالهم وأفعالهم.

ثانيًا: مقام الأنبياء والرسل:

عظم الله مقام حَمَلة رسالته من البشر ورفع ذكرهم، وجعلهم قدوة لمن خلفهم، وخصهم بخصال الكمال البشري، قال الرازي رحمه الله: «اعلم أنه تعالى لما بيَّن أن محبته لا تتم إلا بمتابعة الرسل بيّن علو درجات الرسل وشرف مناصبهم»(٢).

وقد جعل جل ذكره منزلة الأنبياء أول منازل السعداء الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، قال البيضاوي رحمه الله: «قسمهم أربعة بحسب منازلهم في العلم والعمل، وحثَّ كافة الناس على أن لا يتأخروا عنهم»(٣).

ثم فضَّل الله بعضهم على بعض درجات، فخص منهم أولي العزم، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، قال ابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة رحمه الله: «هم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، أصحاب الشرائع،

---

(١) المحرر الوجيز (٢/١٤٠).

(٢) مفاتيح الغيب (٨/٢٠).

(٣) أنوار التنزيل (٢/٨٢).

فهم مع محمد ﷺ خمسة»(١). وجعل في ذرية بعض منهم النبوة والكتاب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦]، ومنهم مَن كلَّمه كفاحًا بلا واسطة، قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]، ومنهم مَن خلقه بكلمة الحق، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٌ مِّنۡهُ﴾ [النساء:١٧١].

واختار محمدًا ﷺ سيدًا وخاتمًا لهم، وزاده شرفًا وكرامة، أن بلغه منزلًا ليلة أُسري به لم يصل إليها نبي مرسل ولا ملك مقرب؛ إذ عرج به ﷺ حتى وصل منزلًا يسمع فيه صريف الأقلام(٢)، وكلَّمه ربه تشريفًا له وتفضيلًا، قال تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، قال ابن كثير رحمه الله: «يعني: موسى ومحمدًا صلى الله عليهما وسلم، وكذلك آدم»(٣)، وقال ﷺ في حديث الإسراء والمعراج: «**فَفَرَضَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلاَةً، فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ، حَتَّى مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى عليه السلام، فَقَالَ: مَا فَرَضَ اللَّهُ لَكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: فَرَضَ خَمْسِينَ صَلاَةً، قَالَ: فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ، فَرَاجَعْتُ، فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى عليه السلام، قُلْتُ: وَضَعَ شَطْرَهَا، فَقَالَ: رَاجِعْ رَبَّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ، فَرَاجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ تُطِيقُ ذَلِكَ، فَرَاجَعْتُهُ، فَقَالَ: هِيَ خَمْسٌ، وَهِيَ خَمْسُونَ، لاَ يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى عليه السلام، فَقَالَ: رَاجِعْ رَبَّكَ، فَقُلْتُ: اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي**»(٤)،

(١) معالم التنزيل (٧/ ٢٧٢).

(٢) صريف الأقلام: أي صوت جريانها بما تكتبه من أقضية الله تعالى ووحيه، وما ينتسخونه من اللوح المحفوظ. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٢٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم (١/ ٦٧٠).

(٤) رواه البخاري من حديث أبي ذر رضي الله عنه، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء (١/ ٧٨)، =

قال ابن حجر[١] رحمه الله: «هذا من أقوى ما استُدل به على أن الله تبارك وتعالى كلَّم نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء بغير واسطة»[٢]، ثم زاده في الآخرة إنعامًا وإكرامًا، فهيًّأ له منزلًا في الجنة لا يناله مخلوق قط، روى مسلم رحمه الله، في صحيحه، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ، لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ**»[٣].

وهو صلى الله عليه وسلم من يشفع عند ربه في الفصل بين الخلق يوم القيامة[٤]، وهو أول من يفتح له باب الجنة[٥]، ولو كان المقام هاهنا عن استقصاء فضائله ومكارمه لطال بأهله المقام، ومضت في ذلك الليالي والأيام.

= رقم ٣٤٩، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم (١/١٤٨)، رقم ٢٦٣.

(١) أبو الفضل، شهاب الدين، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي، الحافظ الكبير، الإمام المنفرد بمعرفة الحديث وعلله في الأزمنة المتأخرة، حفظ القرآن وهو ابن تسع سنوات، وحبب الله إليه فن الحديث فأقبل عليه بكليته وطلبه وصنف فيه وفي غيره العديد من الكتب، من مصنفاته: "بلوغ المرام"، و"الإصابة في تمييز أسماء الصحابة"، و"فتح الباري"، توفي سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة. ينظر: البدر الطالع (١/٨٧)، الأعلام (١/١٧٨).

(٢) فتح الباري (٧/٢١٦).

(٣) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه... (١/٢٨٨)، رقم ١١.

(٤) رواه البخاري من حديث أنس رضي الله عنه، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ (٦/١٧)، رقم ٤٤٧٦.

(٥) رواه مسلم من حديث أنس رضي الله عنه، كتاب الإيمان، باب في قول النبي صلى الله عليه وسلم: **أنا أول الناس يشفع في الجنة...**، (١/١٨٨)، رقم ٣٣٣.

ثالثًا: مقام الصديقين:

لا يعلو مقام الصديقين في الرتبة والدرجة إلا مقام الأنبياء والرسل، فقد ذكرهم الله تعالى بعد الأنبياء عليهم السلام، في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩]، قال النسفي رحمه الله، في معنى الصديقين: «كأفاضل صحابة الأنبياء، والصديق: المبالغ في صدق ظاهره بالمعاملة وباطنه بالمراقبة، أو الذي يصدق قوله بفعله»(١).

فهم الذين زكت فطرتهم، واعتدلت أمزجتهم، وصفت سرائرهم، حتى صاروا يميزون بين الحق والباطل، والخير والشر، بمجرد أن يعرض عليهم، ويصدقون بالحق على أكمل وجه، ويبالغون في صدق اللسان والعمل، ودرجة هؤلاء قريبة من مرتبة النبوة(٢).

روى البخاري رحمه الله، في صحيحه، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءَيُونَ أَهْلَ الْغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءَيُونَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الْغَابِرَ فِي الأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ، أَوِ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لاَ يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ قَالَ بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ**»(٣).

والمعنى: أن هؤلاء الرجال لما آمنوا بالله حق الإيمان، وغاية الإيقان، ونهاية الإحسان، وصدَّقوا الرسل في إجابة ما أمروا به ونهوا عنه، وقاموا بوصف

(١) مدارك التنزيل (١/ ٣٧١).

(٢) ينظر: تفسير المنار (٥/ ٢٤٤).

(٣) سبق تخريجه، ص ٤١.

الصابرين الشاكرين[(١)]، رفعهم الله تعالى إلى تلك المنازل العالية، الدالة على علو درجتهم، وعظيم مكانتهم عند الله تعالى، ومتى ما أراد العبد المؤمن أن ينال ما نالوا، لزمه النظر في أحوالهم، واقتفاء أثرهم بعزيمة صادقة، وهمة عالية، مع الدعاء والإلحاح على الله أن يوفقه ويعينه على بلوغ ما بلغوا، والحذر من الكسل والدَعة والغفلة ومقارفة الخطايا والذنوب، فإنهن داء الإقبال على الطاعات، وآفة القرب من منازل أهل الكرامات.

رابعًا: مقام الشهداء:

لن يجود عبد مؤمن بنفسه، وهي أعز ما يملك، إلا ليقينه بمقام أعظم وأشرف لها من متاعها وبقائها في الحياة الدنيا، ومحال على الله الجواد الكريم أن يشتري تلك الأنفس العظيمة بثمن بخس، ولذلك شرف أهلها لما رضوا بالبيع، وجعل منزلتهم بعد منزلة الأنبياء والصِّدِّيقين، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، قال الرازي رحمه الله: «هذه الآية دالة على أن مرتبة الشهادة مرتبة عظيمة في الدين»[(٢)].

وأخبر جل ذكره أنهم أحياء متنعمون فرحون مسرورون بما آتاهم الله من كرامة وفضل، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، روى مسلم رحمه الله في صحيحه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال في معنى الآية: «**أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ**

---

(١) ينظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي الملا الهروي القاري (٩/٥٩٢).

(٢) مفاتيح الغيب (١٠/١٣٥).

اطِّلَاعَةً، فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا»[1].

ولم ينعتهم الله تعالى في كتابه الكريم بهذا الوصف الذي لم ينعت به غيرهم، إلا ترغيبًا في حثِّ الخطى على طريقهم، والمسابقة إلى ما سابقوا إليه من حب الشهادة في سبيل الله.

خامسًا: مقام أولياء الله الصالحين:

يأتي مقام أولياء الله الصالحين بعد مقام الشهداء في الرتبة والدرجة، وعلى أن مقامهم هو آخر مقامات المنعَم عليهم، إلا أنهم داخلون في زمرة السابقين إلى الخيرات، الفائزين عند الله بأجل الكرامات، الذين خصَّهم الله تعالى بالنعمة المطلقة، فأعد الله لهم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وشرفهم بمعيَّة الأنبياء والرسل والصِّدِّيقين والشهداء، كيف لا وهم الشرفاء الكرماء الذين صلحت أحوالهم باطنًا وظاهرًا، وحسنت أعمالهم سرًّا وجهرًا، وصرفوا أعمارهم وأموالهم في طاعة الله ومرضاته، فكان لهم عند الله تعالى مقام عظيم لا يقل شأنًا عن مقام الأنبياء والصديقين والشهداء.

---

(١) رواه مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، كتاب الجهاد، باب أن أرواح الشهداء في الجنة وأنهم عند ربهم يرزقون (١٥٠٢/٣)، رقم ١٢١.

الفصل الثاني

القرب من الله أسبابه وموانعه

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: أسباب القرب من الله تعالى.

المبحث الثاني: أسباب البعد عن الله تعالى.

تمهيد

لما كان القرب من الله تعالى هو غاية المؤمن ومطلبه ورجاه، كان لا بد من معرفة الأسباب التي قرَّرها الله تعالى، وجعلها سبيلًا للقرب منه، ومعرفة ما يضاد تلك الأسباب من الموانع التي تصد العبد عن ربه، وتجعله بمنأى عن سبيل المقرَّبين.

ويبقى أكثر الناس رشادًا وهدايةً، بعد العلم بأسباب القرب وموانعه، مَن تقرَّب إلى الله بفعل الأسباب الموصلة إليه، واجتنب الموانع الصادَّة عنه.

وقد نصَّ الله تعالى في كتابه العظيم، وفي سُنَّة رسوله الكريم، على جملة من الأسباب التي تقرِّب من الله تعالى، وتورث محبَّته ورضوانه، وجملة من الموانع التي تصد عن الله، وتُبعد عنه، مع الأخذ بعين الاعتبار أنه كلَّما كان سبب القرب عظيمًا كان الاتصال بالله أجلَّ وأعظم، وكلَّما كان مانع القرب كبيرًا كان البُعد عن الله تعالى أشدَّ وأكبر.

فمَن أراد أن يرتقيَ إلى منزلة المقرَّبين، سارع وسابق إلى الله تعالى بأعظم الأسباب، واقتدى بأهلها مِن النبيِّين والصدِّيقين والشهداء والصالحين، واجتنب كل عائق يحول بين العبد وبين سبل الهداية والرشاد.

وفي هذا الفصل ستتم دراسة جملة من أسباب وموانع القرب من الله تعالى، خاصة ما جاء فيه نص قرآني يدل على أثره وأهميته على قُرب العبد من الله تعالى.

المبحث الأول:
أسباب القرب من اللّه تعالى

- **المطلب الأول:** الإيمان بالله.
- **المطلب الثاني:** العمل الصالح.
- **المطلب الثالث:** حسن الخُلق.

المطلب الأول:

الإيمان بالله

الإيمان[(١)] بالله هو أساس الدِّين، وأول أمر أوجبه الله تعالى على المكلَّفين، وهو الباعث الحقيقي على القرب من الله تعالى، فكلَّما ضعفت إرادة العبد ووهنت قوَّته، أمدَّه إيمانه بالله بالهمَّة والنشاط على فعل الطاعات، ولعظم شأن الإيمان وأثره البالغ على الظفر بالمرغوب والنجاة من المبغوض، تكرر ذكرُه كثيرًا في الكتاب والسُّنة، وجاءت النصوص الخاصة المبيِّنة لفضل بعض شُعبه وأنواعه، ولذلك سيكون الحديث في هذا المطلب إلى ما يلي:

النوع الأول: الشواهد الدالة على قرب أهل الإيمان من الله إجمالاً:

تعددت أدلة الكتاب والسُّنة التي تبيِّن منزلة الإيمان وأثره على قضية القرب من الله تعالى، ويمكن إجمال تلك الشواهد والأدلة فيما يلي:

١- أخبر الله تعالى في كتابه الكريم أن الإيمان هو أصل القرب من الله تعالى، وأنه لا قيمة للعبد عند الله بغير الإيمان، فمهما أنعم الله على عبده من نِعم، ومهما أفاض عليه من الآلاء والمنن، يظل الإيمان بالله هو الركيزة الأساسية لقرب العبد من ربه، قال تعالى في معرض ردِّه على المشركين الذين ضلوا عن أسباب القرب من الله، وغرَّهم فضلُ الله وإنعامُه عليهم: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ

---

(١) الإيمان عند أهل اللغة هو التصديق، ويعرفه أهل السنة بأنه: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية. ينظر: الصحاح (٥/٢٠٧١)، مجموع الفتاوى (٧/٥٠٥)، وله ستة أركان قررها الرسول ﷺ في حديث جبريل عليه السلام، حينما سأله عن الإيمان، فقال: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»، رواه مسلم من حديث عمر رضي الله عنه ،كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان... (١/٣٦) رقم ١.

عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧]، أي: فلا أموالكم ولا أولادكم التي تتفاخرون بها أيُّها الكفار، وتتطاولون بها، بالتي تقربكم من الله تعالى، وتجعلكم من أوليائه، ولم يعطِكم ما أعطاكم رضا عنكم ومحبة فيكم؛ لكن مَن آمن بقلبه وجَنانه، وصدَّق ذلك بأعمال جوارحه، فإن إيمانه وصالح عمله ونعماء الله عليه، إذا أطاع بها الله، تقرِّبه من الله[(١)].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يريد أن إيمانه وعمله قُربهُ منِّي»[(٢)].

وقال البيضاوي رحمه الله: «أي الأموال والأولاد لا تقرِّب أحدًا، إلا المؤمن الصالح الذي ينفق ماله في سبيل الله، ويعلِّم ولده الخير، ويربيه على الصلاح»[(٣)].

وقال ابن كثير رحمه الله: «إنما يقربكم عندنا زُلفى الإيمان والعمل الصالح»[(٤)].

ثم لما بيَّن الله تعالى أسباب القرب الأصيلة، وأدحض حُجة الكافر الدخيلة، هيج أهل الإيمان بما يحثهم على المسارعة والمسابقة وابتدار أبواب البر، وذلك بذكر المنزلة العظيمة، والمقامات الكريمة، التي أعدها لهم في الجنة، آمنين مطمئنين لا ينقطع عنهم رزق ولا ينفد نعيم.

٢- أخبر الله تعالى بولايته الخاصة لأهل الإيمان، وهذا من أعظم دلالات قرب المؤمنين من الله تعالى في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾

---

(١) ينظر: جامع البيان (١٩/ ٢٩٥)، معالم التنزيل (٦/ ٤٠٢).

(٢) الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٣/ ٤٩٦).

(٣) أنوار التنزيل (٤/ ٢٤٩).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٢٢).

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤]، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «فكل مَن كان مؤمنًا تقيًّا كان لله وليًّا»(١).

وقال ابن القيم رحمه الله: «فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشًا، وأنعمهم بالًا، وأشرحهم صدرًا، وأسرهم قلبًا، وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة»(٢).

وقال الشوكاني رحمه الله: «الولي في اللغة: القريب، والمراد بأولياء الله خلص المؤمنين، كأنهم قربوا من الله سبحانه بطاعته واجتناب معصيته»(٣).

ولما كانت ولاية الله لعباده تختلف باختلاف ما معهم من الإيمان والتقوى، كان ذلك سببًا لاختلاف منازل القرب عند الله تعالى، وتفاضُل عباده عنده بحسب هذه المقتضيات.

٣- صوَّر الله تعالى فضل الإيمان وأثره على قضية القرب من الله بما أعدَّه لأهله في الدار الآخرة من نعيم ورخاء ورغد عيش:

فأخبر بمنزلتهم العالية في الجنة في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧]، فالذين صدقوا الله ورسوله، وأقروا بتوحيد الله وكتبه ورسله، وعملوا بطاعته، لهم جنات الفردوس نزلًا ومقامًا، وهي أفضل الجنات، وأوسطها(٤).

قال ﷺ: «**فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَأَعْلَى الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ**»(٥).

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٢٤).
(٢) الجواب الكافي، ص ٤٥٩.
(٣) فتح القدير (٢/ ٦٤٠).
(٤) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية (٦/ ٤٤٨١).
(٥) رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب التوحيد، باب ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ (٩/ ١٢٥)، رقم ٧٤٢٣.

ووصف ﷻ مساكن أهل الإيمان، ومنازلهم الكريمة العالية، في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]، قال النبي ﷺ: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ غُرَفًا تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا**»(١).

وقال ﷺ: «**إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُهَا سِتُّونَ مِيلًا، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمِ المُؤْمِنُ فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا**»(٢).

ثم ذكر ما هو أكبر من ذلك وأجل وأعظم، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢]، أي أن «رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم»(٣)، قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى يَا رَبِّ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَلاَ أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُونَ: يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ**

(١) رواه الترمذي من حديث علي رضي الله عنه، أبواب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في قول المعروف (٣/٥٢٤)، رقم ١٩٨٤، قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الرحمن بن إسحاق، وقد تكلم بعض أهل الحديث فيه من قبل حفظه. والحديث له شاهد في المستدرك من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال عنه الحاكم: على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، ورواية الترمذي هذه حسنها الألباني في صحيح الجامع. ينظر: المستدرك (١/١٥٣)، رقم ٢٧٠، صحيح الجامع (١/٤٢٦)، رقم ٢١٢٣.

(٢) رواه البخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، كتاب التفسير، باب: باب ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ﴾ (٦/١٤٥)، رقم ٤٨٧٩، ورواه مسلم واللفظ له، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في صفة خيام الجنة، وما للمؤمن فيها من أهلين (٤/٢١٨٢)، رقم ٢٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/١٧٧).

بَعْدَهُ أَبَدًا»[(١)]، فينعم حينئذ أهلُ النعيم بنعيمهم، ويزداد أهلُ القرب سعادة بإحسانهم، ويفرحون برضا الله ولذة النظر إلى وجهه الكريم أعظم من فرحتهم بما هم فيه من النعيم العظيم.

٤- أخبر الله تعالى أنه مع أهل الإيمان، معيَّة نصر وتأييد وتوفيق، تؤنسهم وتذهب عنهم الخوف والوجل، فإذا استشعر العبد معيَّة مَن يسمعه إذا شكا واستجار، ويمده إذا ضعف وخار، كان ذلك من أسباب انشراح صدره وطمأنينته، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩]، وهذه المعيَّة هي التي يدفع الله بها عن أوليائه بأس الكفار، ويدرأ بها عنهم كيد الفجار، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨]، فالإيمان بالله سبب الولاية والنصرة والتأييد، وسفينة النجاة من عذاب الله الشديد، قال قتادة رحمه الله: «والله، ما يضيع الله رجلًا قط حفظ له دينه»[(٢)].

٥- وعد الله تعالى أهل الإيمان والعمل الصالح بالاستخلاف في الأرض والعزة، والتمكين والاستعلاء، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[النور: ٥٥]، قال الشوكاني رحمه الله: «وهذا وعد من الله سبحانه لمن آمن بالله، وعمل الأعمال الصالحات، بالاستخلاف لهم في الأرض، كما استخلف الذين من قبلهم من الأُمم، وهو وعد

(١) رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع أهل الجنة (٩/ ١٥١)، رقم ٧٥١٨، ورواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة... (٤/ ٢١٧٦)، رقم ٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن محمد بن أبي حاتم (٨/ ٢٤٩٥).

يعم جميع الأمة»[١].

ولو أن الناس أقاموا دين الله تعالى في الأرض على وجهه الصحيح، لتحقق لهم وعد الله تعالى، كما تحقق للذين من قبلهم، ومَن أصدق مِن الله قيلًا؟

٦- كتب الله تعالى محبته لأهل الإيمان والعمل الصالح، وجعل لهم المودة في قلوب عباده المؤمنين، ومَن أحبه الله وأحبه المؤمنون، نال أعظم غاية في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦]، والمعنى كما قال مجاهد[٢] رحمه الله: «يحبهم ويحببهم إلى المؤمنين»[٣]، وشهادة ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «**إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ عليه السلام: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ عليه السلام، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَيُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ**»[٤].

هذا عرض مجمل عن فضائل الإيمان، ومنزلته العظيمة التي كان بها أعظم أسباب القرب من الله، فحق لكل عبد يرجو القرب من الله، ويرجو ثمار الإيمان وفضائله، أن يراجع صدق إيمانه، واستقامة أعماله، وليتعاهد نفسه، ويجاهد شيطانه، فإن كيده بؤوس، وحربه ضروس.

---

(١) فتح القدير (٤/ ٦٤).

(٢) أبو الحجاج، مجاهد بن جبر المخزومي مولاهم، المكي المقرئ المفسر الحافظ، عرض القرآن على ابن عباس رضي الله عنهما ثلاثين مرة، وصحب ابن عمر رضي الله عنهما، توفي سنة ثلاث ومائة وهو ساجد. ينظر: تذكرة الحفاظ (١/ ٧١)، طبقات المفسرين للأدنه وي، ص ١١، طبقات الحفاظ للسيوطي، ص ٤٢.

(٣) تفسير مجاهد، ص ٤٥٩.

(٤) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع جبريل عليه السلام، ونداء الله الملائكة (٩/ ١٤٢)، رقم ٧٤٨٥.

النوع الثاني: بعض معاني الإيمان التي تقرِّب من الله:

تختلف درجة القرب من الله تعالى باختلاف ما يقوم في قلب العبد من معاني الإيمان ومظاهره المختلفة، كالمحبة والخوف والخشية والرجاء، وقد رأى الباحث أن يُفرد بعض معاني الإيمان بحديث منفصل يبيِّن فيه خصوصيتها وأثرها على قضية القرب من الله، وهي كما يلي:

أولاً: اليقين بالله تعالى:

فهو مطمع تتوق إليه النفوس المؤمنة، وسمة عظيمة من سمات أهل الإيمان، فالموقنون بالله لا يرجون إلا الله، ولا يتوكلون إلا عليه، عرفوا الله حق المعرفة، فرضوا أن يذهب الناس بالدنيا وأن يأنسوا هم بالقرب منه سبحانه، قال ابن مسعود[١] رضي الله عنه: «اليَقِينُ الإِيمَانُ كُلُّهُ»[٢].

وقال ابن رجب رحمه الله: «واليقين: هو العلم الحاصل للقلب بعد النظر والاستدلال، فيوجب قوة التصديق حتى ينفي الريب، ويوجب طمأنينة القلب بالإيمان وسكونه وارتياحه به»[٣].

وقال السعدي رحمه الله: «وهو العلم التام الواصل إلى القلب، الداعي إلى العمل، ويقينهم بالآخرة يقتضي كمال سعيهم لها، وحَذَرَهم من أسباب العذاب وموجبات

---

(١) الصحابي الجليل، أبو عبد الرحمن، عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي رضي الله عنه، كان إسلامه قديمًا في أول الإسلام، وهاجر الهجرتين جميعًا، إلى الحبشة وإلى المدينة، وصلى القبلتين، وشهد بدرًا وأحدًا والخندق وبيعة الرضوان، وسائر المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، توفي: سنة اثنتين وثلاثين. ينظر: الاستيعاب (٣/٩٨٧)، أسد الغابة (٣/٣٨١).

(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب الإيمان وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**بني الإسلام على خمس**» (١/١١).

(٣) فتح الباري لابن رجب (١/١٥).

العقاب، وهذا أصل كل خير»[١].

وقد جعل الله تعالى هذه الخصلة العظيمة من أخص صفات خليله إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]، أي: «ليكون ممن يتوحد بتوحيد الله، ويعلم حقيقة ما هداه له وبصره إياه من معرفة وحدانيته، وما عليه قومه من الضلالة، من عبادتهم الأصنام، واتخاذهم إياها آلهة دون الله، تعالى ذِكرُه»[٢].

وخص الله تعالى به المؤمنين الأتقياء، والأئمة الأولياء، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٣، ٤].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، قال القاسمي رحمه الله: «أي: يصدقون أشد التصديق وأبلغه»[٣].

وقال السعدي رحمه الله: «وصلوا في الإيمان بآيات الله إلى درجة اليقين، وهو العلم التام الموجب للعمل»[٤].

فلما امتدح الله خيرة خَلْقه من الأنبياء المرسلين والعباد الصالحين بهذه الفضيلة، دل ذلك على أنها صفة يحب الله أهلها ويقربهم، ويجزي عليها بأرفع الدرجات وأعظم المكرمات.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٦٠١.

(٢) جامع البيان (٩/٣٥٣).

(٣) محاسن التأويل (٨/٤٣).

(٤) تيسير الكريم الرحمن، ص ٦٥٦.

ثانيًا: محبة الله الباعثة على اتباع الكتاب والسُّنة:

لا يخلو قلب مؤمن من أصل محبة الله تعالى التي هي ركن العبادة العظيم، إلا أن المؤمنين متفاوتون في هذه المحبة بقدر تمسُّكهم واتباعهم لشرع الله تعالى، فكلَّما كان العبد أكثر طاعة لله والتزامًا بما في كتاب الله وسُنة رسول الله ﷺ، كان ذلك دليلًا على عظيم محبة الله تعالى في قلبه، ولا يزال العبد يزداد حبًّا لله وتقرُّبًا إليه بالطاعات حتى يستقيم بكليته على أمر الله، وهذا مقام عظيم من مقامات العبودية، إذا وصل إليه العبد ظفر بمحبة الله تعالى له ورضوانه، وكانت سببًا لأن يكون العبد أقرب مقامًا من الله، ولذلك قال ﷻ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وإذا بلغ العبد منزلة المحبة، سدَّد الله قوله وفعله، وأيَّده بنصره وعونه وتأييده، وصان سمعه وبصره وسائر جوارحه من الوقوع في المحرمات، وكان ممن أثنى الله عليهم بقوله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]، قال النسفي رحمه الله: «يرضى عنهم أعمالهم، ويثني عليهم بها، ويطيعونه، ويؤثرون رضاه»(١).

والحاصل أن محبة الله تعالى وسيلة تدفع عجلة التقرب إليه بالطاعة وحسن الاتباع لما جاء به رسول الله ﷺ، وباعث يشحذ الهمم إلى الفوز برضوان الله.

ثالثًا: الصبر:

الصبر من أعظم خصال الخير التي حثَّ عليها الدِّين الحكيم، مَن استحضر

---

(١) مدارك التنزيل (١/ ٤٥٤).

محاسنه وفضائله، كان ذلك سببًا لتحريك عزيمته وهمته للقرب من الله، ومَن تأمَّل كتاب الله العزيز، تبيَّنت له الشواهد التالية الدالة على قرب أهل الصبر من الله تعالى:

١- حب الله لأهل الصبر وقربه منهم بنصره وعونه وتأييده، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، قال الواحدي رحمه الله، يقول الله: «أنا ناصر أوليائي لا محالة، ونصري قريب منهم»(١).

وقال الرازي رحمه الله: «فتقدير الآية هكذا: كانت حالهم إلى أن أتاهم نصر الله، ولم يغيرهم طول البلاء عن دينهم، وأنتم يا معشر المسلمين، كونوا على ذلك، وتحمَّلوا الأذى والمشقة في طلب الحق، فإن نصر الله قريب؛ لأنه آتٍ، وكل ما هو آتٍ قريب»(٢).

وقال البيضاوي رحمه الله: «وفيه إشارة إلى أن الوصول إلى الله تعالى والفوز بالكرامة عنده برفض الهوى واللذَّات، ومكابدة الشدائد والرياضات»(٣).

٢- أخبر سبحانه أن الصبر من خيرة خصال المصطفين الأخيار من الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، قال السعدي رحمه الله: «أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له... وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين، سادات الخلق، أولي

(١) الوسيط في تفسير القرآن المجيد (١/٣١٧).
(٢) مفاتيح الغيب (٦/٢١).
(٣) أنوار التنزيل (١/١٣٦).

العزائم والهمم العالية»[(١)].

٣- شرَّف الله أهل الصبر بالأجر الكبير والعطاء الوفير، فلا يوضَع لهم ميزان، ولا يبسَط لهم ديوان؛ بل يصب عليهم أجرهم صبًّا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، قال قتادة رحمه الله في تفسير الآية: «لا والله ما هناك مكيال ولا ميزان»[(٢)]. فإذا رأى الناس فضل أهل الصبر وعظيم ما آتاهم من الأجر، تمنَّوا لو أنهم صبروا في الدنيا مثل صبرهم، ونالوا في الآخرة ثوابهم.

٤- جعل الله الإمامة في الدين لأهل الصبر واليقين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، قال سفيان بن عيينة رحمه الله في تفسير الآية: «لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رءوسا»[(٣)].

وقال ابن القيم رحمه الله: «بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين»[(٤)]، والمتأمل في تاريخ الأمم يظهر له كيف كان الصبر مع اليقين أسمى صفات أئمة الهدى من الأنبياء والأولياء.

٥- بشَّر الله تعالى أهلَ الصبر بثلاث بشارات، كل واحدة منها خير من الدنيا وما فيها، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧]، قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب[(٥)] رضي الله عنه: «نِعْمَ العِدْلاَنِ،

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٧٨٤.

(٢) جامع البيان (٢٠/١٧٩).

(٣) عدة الصابرين، ص ١٧٨.

(٤) إعلام الموقعين (٤/١٠٣).

(٥) الصحابي الجليل، أبو حفص، عمر بن الخطاب القرشي العدوي رضي الله عنه، أمير المؤمنين، وثاني الخلفاء =

وَنِعْمَ العِلاَوَةُ [(١)]» [(٢)]، قال القرطبي رحمه الله: «أراد بالعدلين الصلاة والرحمة، وبالعلاوة الاهتداء»[(٣)].

وقال ابن القيم رحمه الله: «فبالهدى خلصوا من الضلال، وبالرحمة نجوا من الشقاء والعذاب، وبالصلاة عليهم نالوا منزلة القرب والكرامة»[(٤)].

فإذا كانت هذه البشارة العظيمة لمن صبر على ألم مصيبة عارضة، فكيف بمن يصبر على أداء الطاعات واجتناب المحرمات طوال دهره؟!

٦- جعل الله تعالى منازل الجنة العالية لأهل الصبر جزاء صبرهم على مضض الطاعات، وحبس أنفسهم عن الشهوات، ومجاهدتها على الرضا والقبول بقضاء الله وقدره، قال تعالى مخبرًا عن جزاء عباد الرحمن: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨، ٥٩]، قال ﷺ: «**إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ**

=الراشدين، من أشراف قريش، كان إسلامه عزًّا ظهر به الإسلام، من المهاجرين الأولين، شهد بدرًا وبيعة الرضوان، وكل مشهد شهده رسول الله ﷺ، كان أشد الناس على الكفار، وتوفي رسول الله ﷺ وهو عنه راضٍ، مات شهيدًا سنة ثلاث وعشرين. ينظر: الاستيعاب (٣/١١٤٤)، أسد الغابة (٤/١٣٧).

(١) العدلان: هما الحملان المتماثلان على جانبي ظهر البعير أو الدابة، والعلاوة: الوعاء والغِرارة التي توضع وسط العدلين، فكما أن هذه الدابة استوفت حملها كاملًا، ولم يبقَ منها مكان تحمل عليه، كذلك الصابر على المصائب استوفى أجره كاملًا. ينظر: التوضيح لشرح الجامع الصحيح، سراج الدين ابن الملقن (٩/٥٧٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب الجنائز، مقدمة باب الصبر عند الصدمة الأولى (٢/٨٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢/١٦٢).

(٤) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (٢/٩١٣).

الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ، مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ»(١).

فبهذه النصوص الصريحة الواضحة تتبيَّن منزلة الصبر عند الله، ويظهر أثره على قضية القرب من الله، وحينئذٍ لا يسع العبد المؤمن إلا أن يكون صابرًا محتسبًا في جميع أحواله، مستحضرًا منحة الله العظيمة لأهل الصبر: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ [البقرة:٢١٤].

رابعًا: الخوف والرجاء:

هناك علاقة كبيرة بين الخوف والرجاء والقرب من الله تعالى، فما طلب عبد مؤمن منزلة المقربين الأبرار بمخافةٍ من عذاب الله تعالى ورجاءٍ بموعوده، إلا بلَّغه الله تلك المنزلة، قال تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يقول: خاف ثم اتقى، والخائف: مَن ركب طاعة الله، وترك معصيته»(٢)، فإذا جمع العبد بين الخوف من الوقوف بين يدَي الله والرغبة والرجاء فيما وعد به الله، وفَّقه الله تعالى للعمل الذي ينجيه مما يخشى ويبلغه ما يرجو، ولذلك كانت سيرة عباد الله الصالحين قائمة على هذا المنهج العظيم، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فهم يطلبون إلى ربهم القربة والفضيلة والكرامة بالأعمال الصالحة بما هو أكرم على الله تعالى، وأقرب في الفضيلة والكرامة، مع رجاء رحمته، والخوف من عقابه(٣).

---

(١) سبق تخريجه، ص ٤١.

(٢) جامع البيان (٢٢/٢٣٥).

(٣) ينظر: بحر العلوم (٢/٢٧٣).

وتظهر العلاقة بين الخوف والرجاء والقرب من الله بصورة جليَّة حينما يمتدح الله تعالى أئمة الهدى بالمسارعة إلى الخيرات، تارة بالرجاء والرغبة، وتارة بالخوف والرهبة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، أي: كانوا يبادرون إلى أبواب الخير، وهم ذوو رغب ورهب، أو راغبين في الثواب راجين للإجابة، أو في الطاعة، وخائفين العقاب أو المعصية، وكانوا مخبتين أو دائبين في الوجل، فنالوا من الله ما نالوا بهذه الخصال[١].

وحينما يثني جلَّ في علاه على طائفة أخرى تسابق وتبادر إلى فعل الطاعات، وهي خائفة وجلة أن ترد الأعمال وتضيع الحسنات، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠، ٦١]، قال الحسن[٢] رحمه الله: «إن المؤمن جمع إحسانًا وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمنًا»[٣].

وما نصب الله تعالى في كتابه الكريم الأدلة الصريحة على عظمته وكبريائه، وأكثر من ذكر الجنة ونعيمها والنار وأهوالها إلا ليكون ذلك دافعًا يسوق العبد إلى فعل الخيرات، تحت رهبة الخوف من عذاب الله، ورغبة الفوز بكرامة الله، فإذا سار العبد إلى الله تعالى بجناحَي الخوف والرجاء، كان ذا حظ عظيم، ونال من الله الفوز الكبير.

---

(١) ينظر: أنوار التنزيل (٤/٥٩).

(٢) أبو سعيد، الحسن بن يسار البصري، التابعي الجليل، مولى زيد بن ثابت رضي الله عنه، كانت أمه مولاة لأم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، كان عالماً فقيهًا فصيحًا، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: سلوا الحسن فإنه حفظ ونسينا، مات سنة عشر ومائة. ينظر: الطبقات الكبرى (٧/١١٨)، سير أعلام النبلاء (٤/٥٦٣)، تهذيب التهذيب (٢/٢٦٣).

(٣) جامع البيان (١٧/٦٨).

خامسًا: طهارة القلب وسلامته:

إذا رزق الله العبد قلبًا سليمًا طاهرًا، استقامت جوارحه وصلحت سريرته، وتفرغ قلبه من هموم الحياة ومتاعبها، فلم يعد يشغله إلا همُّ القرب من الله والدار الآخرة، وهذه منقبة عظيمة من مناقب أهل الإيمان، وصفة جليلة تستدعي رضا الله تعالى ومحبته.

وقد أثنى الله تعالى بهذه الخصلة الجليلة على خليله وأبي أنبيائه إبراهيم عليه السلام، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤]، قال السعدي رحمه الله: «﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من الشرك، والشُّبه، والشهوات المانعة من تصور الحق، والعمل به، وإذا كان قلب العبد سليمًا، سلم من كل شر، وحصل له كل خير»[1].

ولولا أن الله وهب المقربين قلوبًا طاهرة لا تنتصر إلا لله، ولا تحمل غلًّا ولا حقدًا ولا ضغينة، ما صبروا على أذى أهل الباطل، وما تغافلوا عن سيئات السفهاء وجهالات الجهلاء، ومَن يطالع سير الأنبياء والرسل، يظهر له كيف كانت أخلاق العفو والصفح والإحسان المنبثقة من طهارة قلوبهم حليفةً لهم حتى بعدما نصرهم الله وأظهرهم على خصومهم.

وما تفوَّق صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صاروا خير مَن يمشي على الأرض بعد الأنبياء والرسل، إلا بما وقر في قلوبهم من إيمان ومحبة وصفاء سريرة، فهم كما وصفهم الله: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، ألقى الله في قلوبهم المودة والرحمة، وسلمها من النفاق والحسد والنقمة، فسلموا من البغضاء والشحناء الداعية إلى

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٧٠٥.

الخصومة والعداوة، وتفرغوا للطاعة والدعوة والجهاد، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «أنتم أطول صلاة وأكثر اجتهادًا من أصحاب رسول الله ﷺ، وهم كانوا أفضل منكم، قيل له: بأي شيء؟ قال: إنهم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة منكم»(١).

وقال بكر بن عبد الله المزني(٢) رحمه الله: «ما فاق أبو بكر رضي الله عنه أصحاب محمد ﷺ بصوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في قلبه»(٣)، فلما سلم قلبه من الرذائل والأوساخ تجلت له عظَمة الله تعالى، فلم يعد يريبه غير المسارعة في طاعة الله ورضاه، فصار بذلك صدِّيقًا من المقرَّبين.

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٤٢٠).

(٢) أبو عبد الله، بكر بن عبد الله بن عمرو المزني البصري، الإمام، القدوة، الواعظ، الحجة، أحد الأعلام، يذكر مع الحسن، وابن سيرين، كان من خيار الناس، مات سنة ثمانٍ ومائة. ينظر: تهذيب الكمال (٤/ ٢١٨)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٣٢).

(٣) روائع التفسير الجامع لتفسير الإمام بن رجب الحنبلي، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (٢/ ٥٥٦).

المطلب الثاني:
العمل الصالح

العمل الصالح قرين الإيمان بالله وثمرته، وركن النجاة الذي يرقى بالمسلم إلى أعلى درجات القرب من الله تعالى، وهو ميدان واسع رحب تتسع دائرته حتى تشمل كل عمل مشروع صحَّت فيه النيَّة والقصد.

وقد تعددت آيات الكتاب العزيز التي أخبر الله فيها بأهمية العمل الصالح ومنزلته، مع أن الغالب على تلك النصوص أن يأتي فيها العمل الصالح مقرونًا بالإيمان، وهذا دليل على أنهما أصل القرب الذي قرَّره الله تعالى في قوله: ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧]، والمعنى: أن الإيمان والعمل الصالح هما اللذان يقربان من الله زُلفى، وأهلهما تُضاعف لهم الحسنات، وينالون منازل الجنات، آمنون من كل بأس وخوف، ومن كل شر يُحذر منه[١].

كما أن هذا الاقتران فيه دليل آخر على أن أثر العمل الصالح على قضية القرب لا يقل أهمية عن أثر الإيمان بالله، وعندئذ تكون العلاقة بين القرب والإيمان والعمل الصالح علاقة مستمرة مطَّردة، كلَّما زاد العمل الصالح زاد به الإيمان فزاد القرب، وكلَّما قلَّ العمل الصالح نقص الإيمان فزاد البُعد.

ومن جانب آخر، جاءت النصوص الدالة على تفاوت الناس في درجات الجنة بحسب أعمالهم، قال تعالى: ﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٢٢).

﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف:١٩]، قال السمرقندي رحمه الله: «يعني: ولكل واحد من المؤمنين فضائل في الجنة، بعضهم أرفع درجة من بعض، وللكافرين درجات بعضهم أشد عذابًا من بعض»[(١)].

وقال السعدي رحمه الله: «أهل الثواب والجنة، وإن اشتركوا في الربح والفلاح ودخول الجنة، فإن بينهم من الفرق ما لا يعلمه إلا الله، مع أنهم كلهم قد رضوا بما آتاهم مولاهم، وقنعوا بما حباهم»[(٢)].

وعلى ذلك، فإن تفاضُل الناس في درجات القرب من الله تعالى إنما يكون بالعمل الصالح المقرون بالإيمان بالله تعالى، فكل عمل حف بنيَّة خالصة ومتابعة صحيحة، أثاب الله صاحبه بمنزلة من القرب يبلغه الله إياها، فمَن رام القرب من الله تعالى شمَّر للطاعات، وأكثرَ من الصالحات، لا سيما تلك الأعمال الصالحة التي دلَّت نصوص الكتاب والسُّنة الصحيحة على أنها من أسباب القرب من الله، وأشهرها ما يلي:

أولاً: الدعاء:

الدعاء مطيَّة الصالحين، وسبيل العارفين، وملاذ المؤمن الذي يلجأ إليه حال الكروب والهموم، ندب الله إليه، وتكفل بالإجابة عنه، وأخبر سبحانه أنه قريب مجيب لمن دعاه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، قال ابن جرير رحمه الله: «قال بعضهم: نزلت في سائل سأل النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد،

---

(١) بحر العلوم (١/٥١٤).

(٢) تيسير الكريم، ص ٢٧٤.

أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟»[(١)].

وقال السعدي رحمه الله: «والقرب نوعان: قرب بعلمه من كل خَلقه، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق، فمَن دعا ربه بقلب حاضر، ودعاء مشروع، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء، كأكل الحرام ونحوه، فإن الله قد وعده بالإجابة، وخصوصًا إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء، وهي: الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية، والإيمان به، الموجب للاستجابة»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ**»، وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [(٣)].

قال البغوي رحمه الله في تفسير الآية: «فلما عبَّر عن العبادة بالدعاء جعل الإنابة استجابة»[(٤)].

وقال ابن عطية رحمه الله: «آية تفضُّل ونعمة ووعد لأمة محمد صلى الله عليه وسلم بالإجابة عند الدعاء، وهذا الوعد مقيد بشرط المشيئة لمن شاء تعالى، لا أن الاستجابة عليه حتم لكل داعٍ، لاسيما لمن تعدَّى في دعائه»[(٥)].

---

(١) جامع البيان (٣/٢٢٢)، وفيه الصلت بن حكيم، قال عنه ابن حجر: مجهول، وحكى ما ذكره الدار قطني عن اختلافهم في آخره هل هو بالموحدة أو بالمثناة. ينظر: لسان الميزان (٣/٩٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٨٧.

(٣) رواه الترمذي من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ومن سورة البقرة (٥/٨٠)، رقم ٢٩٦٩، قال أبو عيسى: حديث حسن صحيح، وقال الحاكم في المستدرك: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: المستدرك (١/٦٦٧)، رقم ١٨٠٢، صحيح الجامع (١/٦٤١)، رقم ٣٤٠٧.

(٤) معالم التنزيل (٧/١٥٦).

(٥) المحرر الوجيز (٤/٥٦٦).

وقد دلت السُّنة كما دل القرآن على قرب الله من أهل الدعاء، فهو سبحانه يسمع الداعي ويثيبه، ويعطي السائل ويجيبه، عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكنا إذا أشرفنا على وادٍ هللنا وكبرنا ارتفعت أصواتنا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا**[(١)] **عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا، إِنَّهُ مَعَكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ**»[(٢)].

قال ابن القيم رحمه الله: «فهذا قرب خاص بالداعي دعاء العبادة والثناء والحمد، وهذا القرب لا ينافي كمال مباينة الرب لخلقه، واستواءه على عرشه؛ بل يجامعه ويلازمه»[(٣)].

ولعل مناسبة نزول الله سبحانه وتعالى في ثلث الليل الأخير، وقربه جل في علاه من أهل السجود وأهل الموقف؛ لأنها مواطن قد ألهم الله فيها عباده الدعاء والتضرع والانكسار بين يدَيه، فاقترب منهم قرب محبة وشفقة، يقتضي إجابتهم وإثابتهم والمباهاة بهم.

ثانيًا: صلوات الرسول صلى الله عليه وسلم، ودعواته:

الدعاء من العبد الصالح لإخوانه المسلمين عمل جليل تُرجى إجابته، فكيف إذا كان هذا العبد هو الرحمة المهداة والنعمة المسداة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقد كان من مظاهر حرصه صلى الله عليه وسلم على هداية أمته واستقامتها الدعاء والاستغفار لها، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِلأَنْصَارِ، وَلِأَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءِ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ**»[(٤)]، وكان

---

(١) أي: الزموا شأنكم ولا تعجلوا، وقيل: معناه كفوا أو ارفقوا. ينظر: فتح الباري (١/١٢١).

(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد، باب ما يكره من رفع الصوت في التكبير (٤/٥٧)، رقم ٢٩٩٢، ورواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٤/٢٠٧٦)، رقم ٤٤.

(٣) مدارج السالكين (٢/٢٥٥).

(٤) رواه البخاري من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه، كتاب التفسير، باب ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾، (٦/١٥٤)، رقم ٤٩٠٦، ورواه مسلم واللفظ له من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل الأنصار رضي الله عنهم (٤/١٩٤٨)، رقم ١٧٢.

الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- يسألونه ذلك ويفرحون بدعائه ويستبشرون، فأتتهم البشارة العظمى من السماء تخبرهم أن دعاءه لهم واستغفاره هو قربة لهم عند الله، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩٩]، قال ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾: «يقول تعالى ذكره: ألا إن صلوات الرسول ﷺ قربة لهم من الله، وقد يحتمل أن يكون معناه ألا إن نفقته التي ينفقها كذلك قربة لهم عند الله»[1]، فعلى المعنى الأول تكون صلوات الرسول ﷺ ودعواته قربة إلٰهية عظيمة، وفضلًا ربانيًّا كريمًا لكل من تقرب إلى الله بعمل دعا لأهله[2].

ثالثًا: السجود:

السجود لله تعالى عبادة عظيمة مقصدها الذل والخضوع والانقياد الكامل للخالق جل جلاله، وهو أقرب الطرق وأيسر الأسباب الموصلة إلى الله، به تتجلى عظَمة الخالق العظيم في قلب المخلوق الضعيف الذي يعفر أكرم أعضائه بتراب الأرض، اعترافًا بالعبودية لله، وقد فاض كتاب الله العزيز وسُنة رسوله الكريم بالأسباب والدواعي التي تجعل من السجود قربةً عظيمةً إلى الله تعالى، نلخِّص أشهرها فيما يلي:

١- قرن الله تعالى بين السجود والاقتراب في كتابه الكريم، وهذا أعظم سبب

---

(١) جامع البيان (١١/٦٣٦).

(٢) كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**اللّٰهم اغفر للمحلقين**»، قالوا: وللمقصرين، قال: «**اللّٰهم اغفر للمحلقين**»، قالوا: وللمقصرين، قالها ثلاثا، قال: «**وللمقصرين**». رواه البخاري، كتاب الحج، باب الحلق والتقصير عند الإحلال (٢/١٧٤)، رقم ١٧٢٨.

يجعل الساجد قريبًا من الله تعالى، ومرضيًّا عنده، قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴾ [العلق: ١٩]، فربط ﷻ بين السجود والاقتراب من الله، وهذا مما يدل على أن الصلاة فرْضها ونفلها أعظم ما يتقرب به العبد إلى ربه[١].

فإذا استحضر العبد حال سجوده هذه المنزلة العظيمة، تضرع لربه بحوائجه، وظهر بمظهر الذليل المنكسر، وهذا أحرى لأن يعطى سؤله، ويجاب دعاؤه، روى ابن عباس رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «**وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنٌ[٢] أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ**»[٣].

ومن رحمة الله بعباده أن جعل هذه العبادة أكثر الطاعات تقربًا إليه، فشرع منها الفرض في وقته، والنفل في أي وقت غير أوقات النهي، وشرع منها ما هو بالليل، وما هو بالنهار، وما هو في أسبوع، وما هو في سَنة، وما هو عند حلول المصائب والضراء، وما هو عند تمام النعمة والسراء، فيكون بذلك العبد المؤمن متقلبًا بين يدَي ربه في كل أحواله.

٢- السجود لله صفة ملائكة الله الكرام الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وسمة الأنبياء والرسل المقربين المعصومين، قال تعالى: ﴿ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [مريم: ٥٨]، وثناء الله على خير مَن سار على الأرض بعد

(١) ينظر: أضواء البيان (٩/ ٣٧٤).

(٢) فقمن: حقيق وجدير. ينظر: صحيح مسلم بشرح النووي (٤/ ٢٦٣).

(٣) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود (١/ ٣٤٨)، رقم ٢٠٧.

الأنبياء والرسل من صحابة رسول الله ﷺ الكرام، قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وفضيلة من فضائل العلماء الربانيين، قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧]، وخصلة حميدة من خصال الأمة القائمة الصالحة المؤمنة بما أنزل على محمد ﷺ من أهل الكتاب: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]، ودأب عباد الله الأبرار، أهل العلم والحلم والسكينة والوقار، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣، ٦٤]، فإذا عرف المؤمن هذا حق المعرفة، لزمته مجاهدة نفسه وترويضها على مشاركة ذلك الركب المبارك من النبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين.

٣- من أعظم الدواعي والأسباب التي ترفع قدر السجود، كونه من العبادات التي يشترك فيها الإنسان والحيوان والجماد، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨]، قال ابن كثير رحمه الله: «يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد لعظَمته كل شيء طوعًا وكرهًا، وسجود كل شيء مما يختص به»(١).

فإذا استشعر العبد المؤمن سجود هذا الكون الهائل لعزة الله وكبريائه، عظم قدر السجود في عينيه، وزادت هِمَّته ونشاطه، رغبة في القرب من الرب الرحيم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/٤٠٣).

٤- دلت السُّنة النبوية -كما دل الكِتاب- على أهمية السجود، وأظهرت علو شأنه في كثير من الآثار الصحيحة المروية عن رسول الله ﷺ، يذكر الباحث منها ما يلي:

أ- أكد رسول الله ﷺ قرب العبد المؤمن من ربه حال سجوده، وأظهر شرف تذلُّل العبد لربه بتلك الهيئة المشروعة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**»(١)، فالساجد وإن كان جسده على الأرض، فإن قلبه يدنو من الله تعالى ويقترب، ولذلك أُمِر في تلك الحالة أن يُكثر من دعاء الله، واللجوء إليه، فذلك أحرى أن يجاب دعاؤه ويُعطى سؤله.

ب- أخبر الرسول الكريم ﷺ أن السجود سبب من أسباب مرافقته في الجنة والأُنس بالقرب منه في أعلى مقامات المقرَّبين، قال ﷺ لربيعة الأسلمي(٢) رضي الله عنه، حين سأله مرافقته في الجنة: «**فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**»(٣)، وهذه بشرى لكل عبد مؤمن يرجو القرب من الله والقرب من رسول الله ﷺ، أن يُكثر من نوافل الصلاة التي من أعظم لوازمها السجود لله.

ج- أخبر رسول الله ﷺ أن السجود أحب الأعمال إلى الله تعالى، وحب الله للعمل يثمر حب صاحبه، عن ثوبان(٤) رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله ﷺ عن

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود (١/ ٣٥٠)، رقم ٢١٥.

(٢) الصحابي الجليل، أبو فراس، ربيعة بن كعب بن مالك الأسلمي رضي الله عنه، كان من أهل الصفة، يلزم النبي ﷺ في السفر والحضر، وصحبه قديمًا، وعمَّر بعده حتى توفي بعد الحرة، وكانت وفاته سنة ثلاث وستين. ينظر: الاستيعاب (٢/ ٤٩٤)، أسد الغابة (٢/ ٢٦٨).

(٣) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه (١/ ٣٥٣)، رقم ٢٢٦.

(٤) الصحابي الجليل، أبو عبد الله، ثوبان بن بجدد رضي الله عنه، مولى رسول الله ﷺ، صحابيّ مشهور، اشتراه ثم أعتقه فخدمه ولم يزل معه سفرًا وحضرًا إلى أن مات سنة أربع وخمسين. ينظر: الإصابة (١/ ٥٢٧)، أسد الغابة (١/ ٤٨٠).

أحب الأعمال إلى الله، فقال: «**عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لِلَّهِ، فَإِنَّكَ لَا تَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً، إِلَّا رَفَعَكَ اللهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةً**»(١).

وبهذه الأدلة القرآنية والنبوية، تتبيَّن مكانة السجود ومنزلته، ويشع نور فضيلته وعظمته، فالسجود رفعة للعبد المؤمن في الدرجات، وبركة في الحسنات، ومغفرة للذنوب والزلات.

رابعًا: الاستغفار والتوبة:

ما زال الله تعالى يحب توبة التائبين، ويفرح لندم العاصين، ويقرب أهل التوبة والاستغفار، ويبسط لهم يده بالليل والنهار، وحتى إن تعقدت حبال المعصية، واستحكمت حلقات الخطيئة، وطال ليل الجهل، فإن باب الاستغفار والتوبة لا يزال مفتوحًا لا يوصَد، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]؛ إذ إن العبرة بكمال النهايات، لا بنقص البدايات(٢).

فإذا تواطأ استغفار العبد وإقلاعه عن الذنب مع العزيمة الصادقة الخالصة على عدم العودة إلى المعصية في زمن قبول التوبة، كان ذلك سببًا عظيمًا لقرب العبد من الله، يدل على ذلك ما يلي:

١- بشَّر الله أهل الاستغفار والتوبة بأنه قريب منهم، سميع لدعائهم، ومجيب لنجواهم، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود:٦١]، قال القاسمي رحمه الله: «قوله: ﴿قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ مقرون بالتوبة والاستغفار،

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه (١/٣٥٣)، رقم ٢٢٥.

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى (١٥/٥٥).

أراد به قريب مجيب لاستغفار المستغفرين التائبين إليه»[(١)]، فمن كان شأنه القرب والإجابة للتائبين المستغفرين، كان أحرى بعبيده أن يجددوا التوبة على الدوام، ويكثروا من الإنابة والاستغفار.

٢- سمَّى الله تعالى نفسه الغفار والغفور والتواب، وهذه إشارة من الله تعالى لعظيم منزلة التوبة والاستغفار، قال تعالى: ﴿أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ [الزمر: ٥]، وقال تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]، فإذا استحضر العبد المؤمن معانيَ هذه الأسماء الحسنى ومدلولاتها، أكثر من التوبة والاستغفار، واطمأنَّت نفسه لقربه من العزيز الغفار.

٣- لم يجمع الله تعالى لأحد مِن خلقه بين رحمته ومودته إلا لأهل التوبة والاستغفار، وهذا توجيه منه ﷻ للمؤمنين بسؤاله التوبة والمغفرة، وتهييج منه للمبادرة إليها، قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ [هود: ٩٠]، أي: «هو ﴿رَحِيمٞ﴾ بمن تاب وأناب إليه أن يعذبه بعد التوبة، ﴿وَدُودٞ﴾ ذو محبة لمن أناب وتاب إليه، يوده ويحبه»[(٢)].

فإذا اجتمع للعبد مغفرة ورحمة وتوبة ومودة كان أسعد الناس بالقرب من ربه، يفتح عليه بركات السماء والأرض، ويبسط له في المعيشة والرزق، قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ [هود: ٥٢].

---

(١) محاسن التأويل (١٣/٩).

(٢) جامع البيان (٥٥٢/١٢).

وإذا استحضر العبد رحمة ربه وشفقته ومودته، عظم رجاؤه مع استغفاره، وزاد أمانه واطمئنانه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، قال الرازي رحمه الله: «قال أهل المعاني: دلَّت هذه الآية على أن الاستغفار أمان وسلامة من العذاب»[(١)].

٤- الاستغفار والتوبة صفة من صفات المتقين المحسنين، الموعودين بجنة عرضها السماوات والأرض، قال جل ذكره في وصفه للمتقين: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، فعدم إصرارهم على ما فعلوا من ذنب دليل على توبتهم منه مع استغفارهم لما بدر منهم، قال البغوي رحمه الله: «لم يقيموا ولم يثبتوا عليه، ولكن تابوا وأنابوا واستغفروا»[(٢)].

٥- مدح الله أهل الاستغفار من المتقين والمحسنين الذين كتب الله لهم جنته ورضوانه، قال تعالى في معرض نعته أهل التقوى: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٌ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضۡوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ [آل عمران: ١٥ - ١٧]، فوصف الله تعالى حال المتقين الذين فازوا بالنعيم المقيم والرضوان بأنهم أهل الإيمان بالله وبرسوله وكتابه، الذين يسألون الله مغفرة الذنوب، والنجاة من المرهوب، ثم ذكر أصول صفات المتقين، فهم أهل الصبر، وأهل الصدق والطاعة والخشوع والإنفاق، الملازمون للاستغفار وقت السحر الذي هو وقت صفاء السرائر، وانتفاء الشواغل.

---

(١) مفاتيح الغيب (١٥/ ١٦٣).

(٢) معالم التنزيل (٢/ ١٠٧).

٦- التوبة والاستغفار سُنة الأنبياء، ووسيلة الأولياء، ودعوة المؤمنين من أهل السماء، قال تعالى مخبرًا عن آدم وحواء عليهما السلام: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، قال كثير من المفسرين[1]: هذه هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه، وأخبر جل ثناؤه عن نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾ [نوح:٢٨].

وقال عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**»[2].

وأخبر عز وجل عن استغفار الملائكة لأهل الأرض بقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورى:٥]، قال قتادة رحمه الله: «للمؤمنين منهم»[3]، وعلى هذا فالأَولى بالعبد المؤمن أن يتواضع لله بالتوبة والاستغفار، وأن لا يغتر بعمله ويتكل عليه، مقتديًا في ذلك بسُنَّة الأنبياء والمرسلين التائبين المستغفرين.

٧- عبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله، وأكرمها عليه، فإنه سبحانه يحب التوَّابين، الذين كلَّما أذنبوا ندموا وتابوا، وكلَّما تذكروا الذنب ابتهلوا وأنابوا،

---

(١) هذا قول ابن عباس رضي الله عنهما، والحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعطاء الخراساني، وعبيد بن عمير، وأبي بن كعب، وابن زيد، وقتادة، وأبي العالية، والربيع بن أنس، ومحمد بن كعب، وخالد بن معدان، وعطاء الخراساني. ينظر: زاد المسير، ص ٥٦، تفسير القرآن العظيم (١/٢٣٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم والليلة (٨/٦٧)، رقم ٦٣٠٧.

(٣) تفسير عبد الرزاق (٣/١٥٩).

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، والمعنى: إن الله يحب الذين يرجعون إليه تائبين الذين لا يصرون على قبيح أفعالهم، ولا يغلبون سلطان الشهوة على سُنة الفطرة[١]، ومن مقتضيات محبته سبحانه لعباده المتقين أن يوفقهم للثبات على التوبة، وعدم الرجوع إلى المعصية.

٨- يفرح الله تعالى بتوبة التائب من الذنب، العائد إلى سبيل الرب، المعترف بخطئه وزلَّته، وهذه خصلة عظيمة جليلة تدل على عظيم منزلة التوبة عند الله، وتبيِّن واسع رحمة الله بعباده، قال رسول الله ﷺ: «**لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ**[٢] **مَهْلِكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِيَ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ**»[٣].

فإذا كانت فرحة الله تعالى بتوبة التائب أعظم من فرحة مَن نجا من الهلاك، فأي شيء بعد هذا يمنع العبد من التقرب بما يفرح ربه ويرضيه؟

خامسًا: معاشرة المتقين والقرب منهم:

لما كان المؤمن ضعيفًا بنفسه قويًّا بإخوانه من المؤمنين الصالحين، كان الواجب عليه اختيار رفقة صالحة يجالسهم ويأنس بهم ويأمنهم على نفسه ودِينه وخُلقه، فيكونون له وقودًا يحرك مشاعره نحو الغاية العظمى التي من أجلها

(١) ينظر: تفسير المراغي، أحمد مصطفى المراغي (٢/١٥٨).
(٢) الأرض الدوية: الأرض القفر، والفلاة الخالية. ينظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٧/٦١).
(٣) رواه مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها (٤/٢١٠٣)، رقم ٣.

خُلِق، وتبارك سعيه على طريق الهداية التي بها يسعد، فإن جهل الحق وزاغ عنه علَّموه، وإن نسي طاعة أو غفل عن قربة ذكَّروه، وإن تفرقت به السبل واستشكلت عليه الأمور نصحوه وأعانوه، وقد دلَّت نصوص الكتاب والسُّنة على أن معاشرة الأتقياء الصالحين والقرب منهم سبب يقرب من الله، وباعث يعين العبد على نيل رضاه، وأشهر ما يستدل به على ذلك ما يلي:

١- أمر الله رسوله ﷺ بالقرب والملازمة لأوليائه الصالحين المتقربين إلى الله وحده دون ما سواه بالدعاء والتحميد والتهليل والتكبير والأعمال الصالحة من الصلوات المفروضة والنوافل، ونهاه عن مجاوزتهم إلى غيرهم ممن أشغلته الدنيا بمتاعها وزخرفها، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، قال ابن القيم رحمه الله: «فإذا أراد العبد أن يقتدي برجل فلينظر هل هو من أهل الذكر أو من الغافلين؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي؟ فإن كان الحاكم عليه هو الهوى وهو من أهل الغفلة. كان أمره فرطا... فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه وقدوته ومتبوعه، فإن وجده كذلك فليبعد منه، وإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله تعالى عز وجل واتباع السُّنة، وأمره غير مفروط عليه؛ بل هو حازم في أمره، فليستمسك بغرزه(١)»(٢).

٢- أمر الله تعالى عباده المؤمنين الأتقياء بمعيَّة الصادقين من المؤمنين في أقوالهم وأفعالهم ونياتهم؛ ليكونوا عونًا لهم على طاعة الله واتباع مرضاته في الدنيا، والفوز بنعيم جناته في الآخرة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، قال الضحاك رحمه الله: «يعني: مع الذين صدقت نياتهم،

---

(١) يقال: الزم غرز فلان: أي: أمره ونهيه. ينظر: تهذيب اللغة (٨/ ٧٤).

(٢) التفسير القيم، ص ٣٤٩.

واستقامت قلوبهم وأعمالهم، وخرجوا مع رسول الله ﷺ إلى الغزو بإخلاص نيَّة»(١).

فكأن الله جل ذكره يوحي لعباده المؤمنين بأن ملازمة الأخيار الصادقين من أعظم ما يعينهم على لزوم التقوى، وأن معيتهم هي الوسيلة المثلى لاتباع سيرتهم والاقتداء بطريقتهم.

٣- أخبر الله تعالى في محكم تنزيله أن معاشرة الأتقياء الصالحين ومصاحبتهم هي الخلة الشافية الكافية يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧]، قال القرطبي رحمه الله: «إلا المتقين، فإنهم أخلاء في الدنيا والآخرة»(٢).

وقال ابن كثير رحمه الله: «كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة، إلا ما كان لله عز وجل، فإنه دائم بدوامه»(٣)، فأهل التقوى والإيمان الذين توادوا في الدنيا وتعاشروا بمحبة الله تعالى، واجتمعوا على طاعته، هم أسعد الناس بصحبتهم يوم القيامة، وما كان لله يبقى، وما كان لسواه يضمحل ويفنى.

٤- أخبر رسول الله ﷺ أن جوامع الخير في مصاحبة الأخيار ومجالستهم، لا تُعدم منهم فائدة صادقة، أو دعوة صالحة، أو مشورة حسنة، فهم خير لصاحبهم في حضوره أو غيابه، عن أبي موسى الأشعري(٤) رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**مَثَلُ**

---

(١) بحر العلوم (٢/ ٨١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ١٠٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٣٧).

(٤) الصحابي الجليل، أبو موسى، عبد الله بن قيس بن سليم الأشعري رضي الله عنه، أسلم بمكة، وقدم المدينة بعد فتح خيبر، استعمله النبيّ ﷺ على بعض اليمن، وكان أحد الحكمين بصفين، مات سنة اثنتين وخمسين، وقيل: قبل ذلك بعشر سنين. ينظر: الاستيعاب (٤/ ١٧٦٢)، الإصابة (٤/ ١٨١).

الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ[(١)]، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»[(٢)].

والحديث فيه ترغيب شديد على مصاحبة أهل التقوى والقرب منهم؛ لما في ذلك من صلاح الأخلاق، واستنارة العقول، وسلامة القلوب.

---

(١) يحذيك: يعطيك، تقول العرب: حذوته وأحذيته: إذا أعطيته. ينظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٥/٤٤٦).

(٢) رواه البخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، كتاب الذبائح والصيد، باب المسك (٧/٩٦)، رقم ٥٥٣٤، ورواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين...، (٤/٢٠٢٦)، رقم ١٤٦.

المطلب الثالث:
حُسن الخُلق

يعدُّ حُسن الخُلق من أعظم أبواب الخير التي حثَّ عليها الدِّين الحنيف، ومن أفضل خصال البر التي تدعو إليها الفطرة، ويجمِع عليها العقلاء، يكفيه شرفًا وعزًّا أنه من أجَل صفات عباد الله المقربين من الملائكة والنبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين.

ورغم أن حسن الخلق باب من أبواب العمل الصالح، فإن الأَولى إفراده بالبحث كسبب عظيم من أسباب القرب، وذلك للدواعي التالية:

١ - أثنى الله على صفيِّه من خَلقه وأمينه على وحيه، بكمال خلقه وتمام أدبه مع الله ومع الناس، وهذا الثناء الرباني يدل على أن لحُسن الخلق خصوصية تجعله ذا مكانة عالية ودرجة رفيعة عند الله تعالى، يستحق معها مزيدًا من الدراسة والبحث والتأمُّل، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] قالت عائشة رضي الله عنها لمن سألها عن خُلُق رسول الله ﷺ: «فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ كَانَ الْقُرْآنَ»[١].

قال الجنيد[٢] رحمه الله: «سمى خُلُقه عظيمًا لاجتماع مكارم الأخلاق فيه»[٣].

---

(١) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض (١/٥١٢)، رقم ١٣٩.

(٢) أبو القاسم، الجنيد بن محمد بن الجنيد الخزاز القواريري، الزاهد المشهور، شيخ الصوفية، أتقن العلم، ونطق بالحكمة، ورزق الذكاء وصواب الجواب، لم ير في زمانه مثله في عفة وعزوف عن الدنيا، طبع له "رسائل الجنيد"، توفي سنة ثمان وتسعين ومائتين. ينظر: وفيات الأعيان (١/٣٧٣)، سير أعلام النبلاء (١٤/٦٦)، الأعلام (٢/١٤١).

(٣) اللباب في علوم الكتاب، عمر بن علي بن عادل الدمشقي (١٩/٢٧٠).

وقال النيسابوري[١] رحمه الله: «وفي قوله ﴿لَعَلَىٰ﴾ إشارة إلى أنه مستول على أحسن الأخلاق الفاضلة لا يزعه عنها وازع[٢]»[٣].

٢- نعت الله أولياءه المتقين، الذين أعد لهم جنة عرضها السماوات والأرض، بصفات العفو والتسامح، وبذل المعروف، وكف الأذى، وترك الانتقام من الناس، ولما كان جماع حسن الخُلُق في هذه الخصال الحميدة، دل ذلك على أنه من أخص صفات أولياء الله التي وصلوا بها إلى منزلة الإحسان التي يحبها الله، قال جل ذكره: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، قال السعدي رحمه الله: «وهذا إنما يكون ممن تحلَّى بالأخلاق الجميلة، وتخلَّى عن الأخلاق الرذيلة، وممن تاجر مع الله، وعفا عن عباد الله رحمة بهم، وإحسانًا إليهم، وكراهة لحصول الشر عليهم، وليعفو الله عنه، ويكون أجره على ربه الكريم، لا على العبد الفقير»[٤].

وقال ابن عاشور رحمه الله: «وإذا اجتمعت هذه الصفات في نفس، سهل ما دونها لديها، وبجماعها يجتمع كمال الإحسان، ولذلك ذيل الله تعالى ذكرها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ لأنه دال على تقدير أنهم بهذه الصفات محسنون، والله يحب المحسنين»[٥].

---

(١) نظام الدين الأعرج، حسن بن محمد، الشهير بابن القمي النيسابوري، العالم الفاضل العلامة الشيخ، كان مفسرًا، واشتغل بالحكمة والرياضيات، له من المصنفات: "غرائب القرآن ورغائب الفرقان"، و"لب التأويل"، و"شرح الشافية"، مات بعد خمسين وثمانمائة. ينظر: طبقات المفسرين للأدنه وي، ص ٤٢٠، الأعلام (٢/ ٢١٦).

(٢) وزعه يزعه وزعا فهو وازع، إذا كفه ومنعه. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١٨٠)

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦/ ٣٣٥).

(٤) تيسير الكريم الرحمن، ص ١٤٨.

(٥) التحرير والتنوير (٤/ ٩١).

وعلق وهبة الزحيلي رحمه الله على الصفات المذكورة في الآية بقوله: «وهذه أصول الفضائل، وأمّهات مكارم الأخلاق»[١].

٣- دلَّت أحاديث السُّنة الشريفة على أن حُسن الخُلق سبب عظيم من أسباب القرب من الله، فعن أبي أمامة[٢] رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«أنا زعِيم بِبيتٍ في رَبَضٍ[٣] الجنةِ لمن تركَ المِراء[٤] وإن كان مُحِقًّا، وبِبيتٍ في وسَطِ الجنةِ لمن تركَ الكذِبَ وإن كانَ مازحًا، وبِبيتٍ في أعلى الجنةِ لمن حسَّنَ خُلُقَه»**[٥].

وعن جابر[٦] رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاَقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ، الثَّرْثَارُونَ[٧]، وَالمُتَشَدِّقُونَ[٨]، وَالمُتَفَيْهِقُونَ**، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ عَلِمْنَا

---

(١) التفسير المنير (٢/٤١٧).

(٢) الصحابي الجليل، أبو أمامة الباهلي، صُدَيّ بن عجلان بن الحارث رضي الله عنه، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم فأكثر، سكن حمص، وكان من آخر الصحابة بالشام، مات سنة إحدى وثمانين. ينظر: الاستيعاب (٢/٧٣٦)، أسد الغابة (٣/١٥).

(٣) ربض الجنة: ما حولها خارجًا عنها، تشبيهًا بالأبنية التي تكون حول المدن وتحت القلاع. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/١٨٥).

(٤) المراء: الجدال. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/٣٢٢).

(٥) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق (٧/١٧٨)، رقم ٤٨٠٠، والحديث له شاهد عند الترمذي من حديث أنس رضي الله عنه، قال عنه أبو عيسى: حديث حسن، ورواية أبي داود حسنها الألباني في صحيح الجامع. ينظر: سنن الترمذي (٣/٥٣٠)، رقم ١٩٩٣، صحيح الجامع (١/٣٠٦)، رقم ١٤٦٤.

(٦) الصحابي الجليل، أبو عبد الله، جابر بن عبد الله بن عمرو الأنصاري رضي الله عنهما، شهد العقبة الثانية مع أبيه، أكثر عن النبي صلى الله عليه وسلم، وغزا معه تسع عشرة غزوة، مات سنة أربع وسبعين. ينظر: الاستيعاب (١/٢١٩)، الإصابة (١/٥٤٦).

(٧) الثرثارون: الذين يكثرون الكلام تكلفًا وتشدقًا. ينظر: التنوير شرح الجامع الصغير (٥/٥٣٦).

(٨) المتشدقون: الذين يتكلفون بأشداقهم ويتقعرون في مخاطباتهم ويتوسعون في الكلام من غير احتياط واحتراز، وقيل المستهترين بالناس يلوي شدقه بهم وعليهم. ينظر: المرجع السابق.

الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: **الْمُتَكَبِّرُونَ**»[١]، فهذه الأحاديث وغيرها من الأحاديث الشريفة تبيِّن مكانة حُسن الخُلق، وتظهر علو منزلة الأخلاق الفاضلة، وكرامة أهلها على الله تعالى.

٤- جاءت أدلة الكتاب الصريحة، والسُّنة الصحيحة، ببيان أثر بعض الأعمال، مما يندرج تحت مكارم الأخلاق على قضية القرب من الله، وهذا من أعظم الأسباب التي جعلت الباحث يولي مكارم الأخلاق عناية خاصة، ودراسة مستقلة، يبيِّن فيها الشواهد التي تجعل منه سببًا من أسباب القرب من الله، وهي ما سيُفصل فيها الحديث في بقية هذا المطلب.

بعض مكارم الأخلاق التي دلت الأدلة على أنها تقرب العبد من الله:

لما كانت مكارم الأخلاق في مجملها مما يحبه الله ويرضاه، كان كل خلق كريم يتحلى به العبد قربة له عند الله، غير أن هنالك أخلاقًا فاضلة وخصالًا كريمة دلت شواهد الكتاب والسُّنة على أنها ترفع العبد المؤمن إلى أعلى المقامات، وأرقى الدرجات، وهي كما يلي:

أولاً: العدل:

العدل[٢] ميزان الله في أرضه، يؤخذ به حق الضعيف من القوي، والحقير من

(١) رواه الترمذي، أبواب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في معالي الأخلاق (٣/٥٤٥)، رقم ٢٠١٨، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وقال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: مجمع الزوائد (٨/٢١)، صحيح الجامع (١/٤٣٩)، رقم ٢٢٠١.

(٢) العدل في اللغة: خلاف الجور، ويدل على معنى الاستواء. ينظر: الصحاح (٥/١٧٦٠)، معجم مقاييس اللغة (٤/٢٤٦)، وعرفه أهل التفسير بأنه: القسط والموازنة، وقيل: هو فصل الحكومة على ما في كتاب الله سبحانه وسُنة رسوله ﷺ، لا الحكم بالرأي المجرد. ينظر: تفسير القرآن العظيم (٤/٥٩٥)، فتح القدير (١/٧٦٧).

العزيز، إذا قام في مجتمع، ساد فيه الأمن، وعمَّت فيه السكينة، وإذا غاب عن آخر، طغت الفوضى، وانتشرت الفاحشة، وهو خُلق شريف رفيع، ما تحلَّى به عبد مؤمن إلا كان قريبًا من ربه، سائرًا على طريق أوليائه، يدل على ذلك ما يلي:

١- بيَّن سبحانه أن أهل العدل أقرب لتقوى الله تعالى، وكل من كان أقرب لتقوى الله، كان وليًّا مرضيًّا عند ربه، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨]، أي: لا تحملنكم البغضاء على ترك العدل؛ لأن العدل أقرب لكم أيها المؤمنون لأن تكونوا من أهل التقوى، الذين يخافون ويحذرون مخالفة شيء من أمر الله [١].

قال ابن جرير رحمه الله: «مَن كان عادلًا، كان لله بعدله مطيعًا، ومَن كان لله مطيعًا، كان لا شك من أهل التقوى»[٢].

٢- العدل صفة من صفات الله تعالى، فهو سبحانه عدل في قضائه وقدره، وفي أحكامه وتشريعاته، وفي حسابه وجزائه، كان وما زال ﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، لا يظلم أحدًا، ولا ينقص حقًّا، قال ابن القيم رحمه الله: «القسط هو العدل، فشهد الله سبحانه أنه قائم بالعدل في توحيده، بالوحدانية في عدله، والتوحيد والعدل هما جماع صفات الكمال، فإن التوحيد يتضمن تفرُّده سبحانه بالكمال والجلال والمجد والتعظيم الذي لا ينبغي لأحد سواه، والعدل يتضمن وقوع أفعاله كلها على السداد والصواب وموافقة الحكمة»[٣].

(١) ينظر: جامع البيان (٨/٢٢٣).
(٢) جامع البيان (٨/٢٢٤).
(٣) مدارج السالكين (٣/٤٢٣).

وقد قامت بعدله سبحانه السماوات والأرض، وصفَت الحياة، وعمَّ الأمن بين الناس، فعدله هو الميزان المذكور في قول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧]، قال ابن جرير ﵀: «ووضع العدل بين خَلقه في الأرض»[١].

وقال ابن كثير ﵀: «خلق السموات والأرض بالحق والعدل؛ لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل»[٢].

٣- قرر الله تعالى محبته لأهل العدل والإنصاف، وأكد ذلك في ثلاثة مواطن من كتابه الكريم[٣]، وكفى بذلك فضلًا وشرفًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة:٤٢]، قال السعدي ﵀: «وفي هذا بيان فضيلة العدل والقسط في الحكم بين الناس، وأن الله تعالى يحبه»[٤]، ولا شك أن محبة الله تعالى لأهل العدل تقتضي رضاه عنهم وإثابتهم عليها بأحسن الثواب، وإنزالهم أكرم المنازل.

٤- مدح الله تعالى أهل العدل والإنصاف، وأثنى عليهم في كتابه الكريم، فقال: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]، فهذه الأمة الثابتة على الحق، العاملة به في كل حين، هي حارسة أمانة الله في الأرض، الشاهدة بعهده على الخلق، المتجاوزة حدود العلم بالحق، إلى هداية الناس، والحكم بينهم به[٥]، فهي بذلك من يستحق الثناء من الله، وهي المؤهلة لنيل شرف محبة الله ورضاه.

٥- بيَّن الله تعالى أن العدل هو الغاية التي من أجلها أُرسلت الرسل، وأُنزلت الكتب، وهذا يدل على مكانته الرفيعة، ومنزلته المنيعة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ

---

(١) جامع البيان (٢٢/١٧٧).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٩٠).
(٣) المائدة: ٤٢، الحجرات: ٩، الممتحنة: ٨.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، ص ٢٣٢.
(٥) ينظر: في ظلال القرآن (٣/١٤٠٣).

أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥]، قال ابن القيم رحمه الله: «فإن الله أرسل رسله وأنزل كتبه؛ ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي قامت به السموات والأرض، فإذا ظهرت أمارات الحق، وقامت أدلة العقل، وأسفر صبحه بأي طريق كان، فثم شرع الله ودينه ورضاه وأمره»(١).

٦- شهدت السُّنة المطهرة بفضل أهل العدل، ومنزلتهم وكرامتهم على الله تعالى، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ فِي خَلاَءٍ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسْجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ إِلَى نَفْسِهَا، قَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا صَنَعَتْ يَمِينُهُ**»(٢)، قال ابن عبد البر رحمه الله: «هذا أحسن حديث يروى في فضائل الأعمال، وأعمها، وأصحها، إن شاء الله، وحسبك به فضلًا؛ لأن العلم محيط بأن كل مَن كان في ظل الله يوم القيامة لم ينله هول الموقف»(٣).

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عز وجل، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ مَا وَلُوا**»(٤).

---

(١) إعلام الموقعين (٤ / ٢٨٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب الحدود، باب فضل من ترك الفواحش (٨/ ١٦٣)، رقم ٦٨٠٦، ورواه مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، (٢/ ٧١٥)، رقم ٩١.

(٣) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٢/ ٢٨٢).

(٤) رواه مسلم، كتاب المغازي، باب فضيلة الإمام العادل... (٣/ ١٤٥٨)، رقم ١٨.

فهذه جملة الفضائل والأسباب التي تُعلي مكانة العدل في الإسلام، وترفع منزلته، وتجعل من أهله أولياء لله تعالى في الدنيا والآخرة.

ثانيًا: العفو:

العفو(١) خُلق إسلامي كريم، حثَّ الله عليه، وأوصى به، وتمثله رسول الله ﷺ قولًا وفعلًا، وهو لا ينبع إلا من قلب تقي نقي، عرف أسباب الفوز والفلاح، ورغب في منازل أهل البر والصلاح، وهو سبب عظيم من أسباب القرب من الله تعالى، يشهد لذلك ويدل عليه:

١- ترغيب الله تعالى في العفو والحث عليه في مواضع كثيرة من كتابه الكريم، وإخباره سبحانه أنه من أسباب القرب من تقوى الله، وكل ما كان من أسباب القرب من تقوى الله، كان من أسباب القرب من الله؛ لأن المتقين هم أولياء الله المقرَّبون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، قال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، قال ابن عاشور رحمه الله: «ومعنى كون العفو أقرب للتقوى أن العفو أقرب إلى صفة التقوى من التمسك بالحق؛ لأن التمسك بالحق لا ينافي التقوى؛ لكنه يؤذن بتصلب صاحبه وشدته، والعفو يؤذن بسماحة صاحبه ورحمته، والقلب المطبوع على السماحة والرحمة أقرب إلى التقوى من القلب الصلب الشديد»(٢).

٢- اشتقاق الله تعالى له اسمًا منه، فالعفوُّ اسم من أسماء الله، والعفو صفة من

---

(١) أصل العفو: المحو والطمس، يقال: عفت الرياح الآثار إذا درستها ومحتها، وكل من استحق عقوبة فتركتها فقد عفوت عنه. ينظر: تهذيب اللغة (٣/٢٢٢)، لسان العرب (١٥/٧٢)، معجم مقاييس اللغة (٤/٥٧). وعرفه القرطبي بأنه: ترك المؤاخذة بالذنب. ينظر: الجامع لأحكام القرآن (٢/٦٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢/٤٦٤).

صفاته، فهو سبحانه العفوُّ الذي يتجاوز عن سيئات عباده، ولا يعاقبهم بها إن هم تابوا وأنابوا، وهذا يزيد العفو أهمية ومكانة عند الله تعالى؛ لأن الله تعالى لا يختار لنفسه إلا أشرف الأسماء وأفضلها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٠]. قال ابن جرير رحمه الله: «إن الله لذو عفو وصفح لمن انتصر ممن ظلمه»[(١)].

وقال الشوكاني رحمه الله: «كثير العفو والغفران للمؤمنين فيما وقع منهم من الذنوب، وقيل: العفو والغفران لما وقع من المؤمنين من ترجيح الانتقام على العفو»[(٢)].

وقال القاسمي رحمه الله: «وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ تعريض بالحث على العفو والمغفرة»[(٣)].

٣- هيج الله تعالى عباده على العفو، وجعل أجر مَن عفا عن مظلمته على الله تعالى، ومَن كان أجره على الله نال خيرًا كثيرًا وأجرًا عظيمًا، قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]، فهذه عدة مبهمة تنبئ بعظيم شأن الموعود، وخروجه عن الحد المعهود[(٤)].

قال الشوكاني رحمه الله: «أي: مَن عفا عمَّن ظلمه، وأصلح بالعفو بينه وبين ظالمه، أي أن الله سبحانه يأجره على ذلك، وأبهم الأجر تعظيمًا لشأنه، وتنبيهًا على جلالته»[(٥)].

٤- وعد الله تعالى أهل العفو وعدم المؤاخذة على الذنب بالرحمة وستر الذنوب، ثوابًا منه لهم؛ لتخليهم عن حقهم وعدم مؤاخذتهم مَن أساء إليهم، قال تعالى: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]،

(١) جامع البيان (١٦/٦٢١).

(٢) فتح القدير (٣/٦٣٣).

(٣) محاسن التأويل (٧/٢٧١).

(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم، محمد بن محمد بن مصطفى أبو السعود (٨/٣٥).

(٥) فتح القدير (٤/٧٠٨).

روى البخاري رحمه الله في صحيحه، أنه لما كانت حادثة الإفك، ولما قال بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قالوا، وكان منهم مسطح بن أثاثة[1] رضي الله عنه، أحد مَن كان ينفق عليه أبو بكر رضي الله عنه؛ لقرابته منه، قال أبو بكر رضي الله عنه: «والله، لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد ما قال لعائشة رضي الله عنها»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فقال أبو بكر رضي الله عنه: «بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ رضي الله عنه الَّذِي كَانَ يُجْرِي عَلَيْهِ»[2].

٥- مما يجعل العفو موجبًا للقرب من الله، أنه خُلق يحبه الله من عباده، ويدعوهم إليه، ويعاملهم به، ولذلك حثَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الناسَ على طلبه وسؤاله في أشرف ليلة عند الله تعالى، قالت عائشة رضي الله عنها: «يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ إِنْ عَلِمْتُ أَيُّ لَيْلَةٍ لَيْلَةُ القَدْرِ مَا أَقُولُ فِيهَا؟ قَالَ: قُولِي: «**اللَّهُمَّ إِنَّكَ عُفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي**»[3]، وتخصيص تلك الليلة العظيمة بهذا الدعاء المتضمن محبة الله تعالى لخلق العفو، يدل على عظمة هذا الأمر، وعلو منزلة أهله.

٦- العفو خُلق الأنبياء والمرسلين، صفوة الخلق، وخيرة أهل الأرض،

---

(١) الصحابي الجليل،أبو عباد، مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب القرشي المطلبي رضي الله عنه، شهد بدرًا،وكان أبو بكر ينفق عليه، فأقسم أن لا ينفق عليه بعد حادثة الإفك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾، فعاد أبو بكر ينفق عليه، توفي سنة أربع وثلاثين. ينظر: الاستيعاب (١٤٧٢/٤)، أسد الغابة (١٥٠/٥).

(٢) رواه البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضًا (١٧٣/٣)، رقم ٢٦٦١، ورواه مسلم، كتاب التوبة، باب حديث الإفك وقبول توبة القاذف (٢١٢٩/٤)، رقم ٥٦.

(٣) رواه الترمذي، أبواب الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب... (٤٩٠/٥)، رقم ٣٥١٣، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة. ينظر: المستدرك (٧١٢/١)، رقم ١٩٤٢، سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٠٠٨/٧)، رقم ٣٣٣٧.

حدَّثنا بذلك القرآن، وشهدت عليه سُنة خير الأنام، فقصة يوسف عليه السلام، بما اشتملت عليه من بلايا ورزايا تضع بين أيدينا نموذجًا رائعًا لعظيم عفو الأنبياء، وصفاء نفوسهم، وطيب سريرتهم، فبعد أن كاد له إخوته، وتوالت عليه المصائب والمحن، ما غضب وانتقم حين مكَّنه الله منهم، وما غلبته النفس الأمَّارة بالسوء، وما زاد على أن قال لهم: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

وسيرة رسولنا صلى الله عليه وسلم مليئة بمواقف العفو والصفح والتجاوُز حتى مع أعدائه وخصومه، فها هو صلى الله عليه وسلم يعفو عن لبيد بن الأعصم[١] بعد أن سحره، ويعفو عن يهودية دسَّت له السم في الطعام، ويعفو عن أعرابي أراد قتله[٢]، ويعفو عمَّن آذاه وأخرجه من بلده، ويحسن إليهم ويكرمهم[٣]، حتى قائل قائلهم: «وَاللهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مَا أَعْطَانِي، وَإِنَّهُ لَأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ، فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ»[٤]، فانظر كيف ترتفع قيمة العفو، وتزهو ثمرته بهذه الفضائل والآثار، فما أحوجنا لمثل هذه الأخلاق الرفيعة السامية في تعاملنا مع الناس، وفي دعوتنا إلى دين الله.

ثالثًا: الإحسان:

مرتبة الإحسان[٥] مرتبة عظيمة، ودرجته عالية رفيعة؛ إذ هو أعلى مقامات

---

(١) لبيد بن الأعصم الزرقي، المنافق اليهودي، كان حليفًا في بني زريق، سحر النبي صلى الله عليه وسلم في مشط ومشاطة وجب طلعة ذكر، فأخبره الوحي بذلك. ينظر: الطبقات الكبرى (٢/١٥٢)، غوامض الأسماء المبهمة (٢/٦٥٥).

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٧/٢١١).

(٣) ينظر: معالم التنزيل (٨/٥٧٤).

(٤) رواه مسلم من حديث صفوان رضي الله عنه، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول صلى الله عليه وسلم شيئًا فقال لا... (٤/١٨٠٦)، رقم ٥٩.

(٥) الحُسن: نقيض القبح، والحسن: الجمال، وهو كل مبهج مرغوب فيه، والإحسان: ضد الإساءة، وهو =

الكمال الإنساني، به يظفر المؤمنون بمحبة الله ورحمته ورضوانه ومعيته، وهو مطلوب في كل عبادة فرضها الله تعالى وأمر بها، وفي كل معاملة إنسانية شرعها الله وندب إليها، فمَن تحقق له ذلك، حاز حظًّا وفيرًا من محبة الله تعالى وقربه، وشواهد ذلك كثيرة عديدة، حسب الباحث منها ما يلي:

١- خص الله تعالى أهل الإحسان بقرب رحمته منهم، وجعلها ثمنًا له، وهذه الخصلة من أعظم آثار الإحسان، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦]، وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة؛ لأنها إحسان من الله لأهل الإحسان، كلّما أحسنوا بالعمل، أحسن إليهم بالرحمة [(١)].

٢- الإحسان صفة من صفات الله تعالى، ومنه اسم من أسمائه، فالله تعالى هو المحسن، وهو كثير الإحسان والإنعام، لا رادَّ لفضله، ولا ممسك لرحمته، يده سحاء الليل والنهار، وجوده عم أهل الأرض والسماء، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١]، عن شداد بن أوس [(٢)] رضي الله عنهما، قال: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم

=مصدر أحسن: أي أجاد صنع الشيء وأتقنه. ينظر: القاموس المحيط (١/١١٨٩)، الصحاح (٥/٢٠٩٩)، المعجم الوسيط (١/١٧٤)، المفردات، ص ٢٣٥. ويختلف معنى الإحسان اصطلاحًا باختلاف السّياق الذي يرد فيه، فإذا اقترن بالإيمان والإسلام كان المراد به الإشارة إلى المراقبة وحسن الطّاعة، وقد فسّره النّبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك في حديث جبريل عليه السلام، أمّا إذا ورد مطلقًا فإنّ المراد به فعل ما هو حسن أو فعل ما ينبغي فعله من المعروف. ينظر: نضرة النعيم (٢/٦٧).

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (١٥/٢٧).

(٢) الصحابي الجليل، أبو يعلى، شداد بن أوس بن ثابت الأنصاري رضي الله عنهما، كان ممن أوتي العلم والحلم، وكان كثير العبادة والورع، والخوف من الله، مات سنة ثمان وخمسين. ينظر: الاستيعاب (٢/٦٩٤)، أسد الغابة (٢/٦١٣).

ﷺ اثنتين، أنه قال: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ مُحْسِنٌ يُحِبُّ الْإِحْسَانَ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، ثُمَّ لِيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**»(١).

والعبد المؤمن إذا تحلَّى بهذا الخُلق العظيم، فإنما يتحلَّى بصفة جليلة اختارها الله تعالى لنفسه، ومنَّ بمقتضاها على خَلقه.

٣- أهل الإحسان الذين قال الله عنهم: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [يونس: ٢٦] هم أهل الأمن يوم القيامة، لا يحزنون إذا فزع الناس، ولا تذهل عقولهم من شدة البأس، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١ - ١٠٣]، أي: لا يسمعون صوت لهب النار لبُعدهم عنها، ولا يحزنهم هول النفخة الآخرة؛ بل يقيمون في شهوات أنفسهم، تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة تسلم عليهم، وتهنئهم بأوان وقت ثوابهم الذي وُعدوا به(٢).

٤- ومن محاسن الإحسان محبة الله تعالى لأهله، وتفضُّله عليهم بثواب الدنيا، وحسن ثواب الآخرة، وهذه أعظم جائزة ينالها المحسنون، أكدها الله في كتابه خمس مرات(٣)، قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، أي: أمرهم بالإحسان في أعمالهم كافة، وذلك بإتقانها وتجويدها وتنقيتها من الخلل والفساد، فإن هم فعلوا ذلك، كان لهم منه المحبة والنصر والتأييد، ومَن أحبه الله

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٧/ ٣٣٢)، رقم ٧١٢١، والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع، وأصله في صحيح مسلم. ينظر: صحيح مسلم (٣/ ١٥٤٨)، رقم ٥٧، صحيح الجامع (١/ ٣٧٤)، رقم ١٨٢٤.

(٢) ينظر: مدارك التنزيل (٢/ ٤٢٢).

(٣) البقرة: ١٩٥، وآل عمران: ١٣٤، ١٤٨، والمائدة: ١٣، ٩٣.

أكرمه ونصره، وما أهانه ولا خذله[١].

قال ابن عاشور رحمه الله: «وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تذييل للترغيب في الإحسان؛ لأن محبة الله عبده غاية ما يطلبه الناس؛ إذ محبة الله العبد سبب الصلاح والخير دنيا وآخرة، واللام للاستغراق العرفي، والمراد المحسنون من المؤمنين»[٢].

٥- ومن فضائل الإحسان أن الله قد كتب لأهله الرضا، جزاء ما يعملون وما يبذلون، فأفاض عليهم من نِعمه، وأسكنهم فسيح جناته، وأعد لهم المنازل العالية، والمقامات الرفيعة، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فالذين سلكوا سبيل السابقين الأولين بإحسان الإيمان والطاعة، نالوا رضا الله عنهم؛ لأن الإحسان من أحوال المقرَّبين ومقاماتهم[٣].

فانظر كيف وصل هؤلاء الأتباع لمنزلة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، بحسن اتباعهم، وجميل اقتدائهم.

٦- بشَّر الله تعالى أهل الإحسان، القائمين بأمر الله، المتبعين رسول الله ﷺ، بالسعادة التامة في الدنيا، والراحة الدائمة في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧]، أي: وبشِّر يا محمد المحسنين في أعمالهم، القائمين بحدود الله، المتبعين ما شرع لهم، المصدقين لما جاء به رسول الله ﷺ، الذين أطاعوا الله فأحسنوا في طاعتهم إياه في الدنيا، بالجنة في الآخرة[٤].

---

(١) ينظر: أيسر التفاسير، جابر بن موسى أبو بكر الجزائري (١/ ١٧٥).

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٢١٦).

(٣) ينظر: محاسن التأويل (٥/ ٤٨٥).

(٤) ينظر: جامع البيان (١٦/ ٥٧١)، تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٣١).

قال السعدي رحمه الله: «فالمحسنون لهم البشارة من الله، بسعادة الدنيا والآخرة، وسيحسن الله إليهم، كما أحسنوا في عبادته ولعباده»[١].

٧- تميز المحسنون بأعظم هبة من ربهم، وأجل مكرمة من وليهم، ألا وهي لذة النظر إلى وجهه الكريم -جل في علاه- ولا يمكن أن يكون هناك فضل أجل وأعظم من أن يصل العبد بإيمانه وإحسانه إلى هذا المقام العظيم، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦]، عن صهيب[٢] رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ** عز وجل، ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾»[٣].

قال ابن كثير رحمه الله: «وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾: هي تضعيف ثواب الأعمال، بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وزيادة على ذلك أيضًا، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم؛ بل بفضله ورحمته»[٤].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٥٣٩.

(٢) الصحابي الجليل، أبو يحيى، صهيب بن سنان النمريّ رضي الله عنه، الرّوميّ، قيل له ذلك؛ لأن الرّوم سبوه صغيرًا، من السابقين الأولين للإسلام، شهد بدرًا، مات سنة ثمان وثلاثين. ينظر: الاستيعاب (٢/٧٢٦)، والإصابة (٣/٣٦٤).

(٣) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (١/١٦٣)، رقم ٢٩٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/٢٦٢).

٨- جعل الله تعالى عاقبة أهل الإحسان العلو والتمكين في الأرض، والعلم والحكم والفقه في الدين، جزاء صبرهم ومجاهدتهم أنفسهم في سبيل طاعة الله ورضوانه، أخبرنا الله بذلك في قصة يوسف عليه السلام، قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٢٢]، أي: «وكهذا التكريم والتعليم نجزي الذين اتَّصفوا بالإحسان في أعمالهم وقلوبهم حتى صاروا خالصين لله تعالى»[1].

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٥٦]، قال ابن جزي رحمه الله[2]: «الرحمة هنا يراد بها الدنيا، وكذلك الأجر في قوله: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾، بدليل قوله بعد ذلك: ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ [يوسف: ٥٧]، فأخبر تعالى أن رحمته في الدنيا يصيب بها مَن يشاء من مؤمن وكافر ومطيع وعاصٍ، وأن المحسن لا بدّ له من أجره في الدنيا، فالأوّل: في المشيئة، والثاني: واقع لا محالة، ثم أخبر أن أجر الآخرة خير من ذلك كله، للذين آمنوا، وكانوا يتقون، وفي الآية إشارة إلى أن يوسف عليه السلام جمع الله له بين خيرَي الدنيا والآخرة»[3].

٩- يجازي الله المحسنين من خلقه بإحسانه إليهم؛ لأن الجزاء من جنس العمل، وشتان بين إحسان العبد وإحسان الرب؛ بل إن إحسان العبد هو أولى ثمار

---

(١) زهرة التفاسير، محمد بن أحمد أبي زهرة (٧/ ٣٨١٤).

(٢) أبو القاسم، محمد بن أحمد ابن جزي الكلبي الغرناطي، من العلماء بالأصول واللغة، كان على طريقة مثلى من العكوف على العلم والاشتغال بالنظر والتقييد مشاركًا في فنون من عربية وفقه وأصول وأدب وحديث، من مصنفاته: "التسهيل لعلوم التنزيل" و"الأنوار السنية في الألفاظ"، مات شهيدًا سنة إحدى وأربعين وسبعمائة. ينظر: الدرر الكامنة (٣/ ٣٥٦)، الأعلام (٥/ ٣٢٥)، طبقات المفسرين للداودي (٢/ ٨٥).

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل (١/ ٤٢٠).

إحسان ربه ولطفه به في الدنيا؛ إذ لولا فضل الله عليه وإنعامه ما أحسن وما أتقن، فإذا كان يوم القيامة تمم عليه النعم، وأجرى عليه المنن، قال تعالى في محكم تنزيله: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠]، فكما أحسن هؤلاء العمل في الدنيا، واستحضروا على الدوام ساعة الوقوف أمام الله تعالى، أحسن الله تعالى إليهم في الآخرة بالثواب العظيم والأجر الكريم.

قال السعدي رحمه الله: «هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق ونفع عبيده إلا أن يحسن إليه بالثواب الجزيل، والفوز الكبير، والنعيم المقيم، والعيش السليم، فهاتان الجنتان العاليتان للمقرَّبين»[(١)].

١٠- أهل الإحسان هم الفائزون بمعيَّة الله تعالى، السعداء بلطفه ورحمته وإحسانه، فهو معهم سبحانه وتعالى، ومَن كان الله معه بنصره وتأييده، لا يغلبه غالب، ولا يظفر به طالب، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت:٦٩]، قال الثعلبي رحمه الله: «بالنصر والمعونة في دنياهم، وبالثواب والمغفرة في عقباهم»[(٢)]، فكيف يشقى مَن جمع الله تعالى له بين محبته وقربه ومعيَّته؟

١١- أهل الإحسان هم المنتفعون بمواعظ القرآن، تلين به جلودهم، وتخشع له قلوبهم، وتصلح به أعمالهم، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ [لقمان: ٢، ٣]، فهو لهم هدى ورحمة بما يسكبه في قلوبهم من راحة وطمأنينة، وما يقودهم إليه من خير وفلاح، وبما يعقده من الروابط الحميمة بين أهل الصلاح[(٣)]، ولا عجب أن يقال إنما إحسانهم ثمرة من ثمار انتفاعهم بالقرآن

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٨٣١.

(٢) الكشف والبيان (٧/ ٢٩٠).

(٣) ينظر: في ظلال القرآن (٥/ ٢٧٨٣).

ومواعظه، ومظهر من مظاهر امتثالهم لأمره ونهيه.

وبالجملة، فإن دائرة فضل الإحسان واسعة جدًّا، مع تفاوُت المؤمنين في درجاته، كل بحسب ما يحمله في قلبه من إيمان وتعظيم لله، فعن شداد بن أوس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**»(١).

رابعًا: الإنفاق في أوجه الخير:

المال والمتاع أمر جُبلت على حبِّه النفوس، قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، غير أن المبادرة بإنفاقه في أوجه الخير دليل على ما وقر في قلب المنفِق من إيمان ويقين وحسن ظن بالله تعالى، ورغبة صادقة فيما أعده الله تعالى لأهل الإنفاق.

وقد دلَّت شواهد القرآن والسُّنة على أن الإنفاق في أوجه الخير سبب عظيم من أسباب القرب إلى الله تعالى، متى ما احتفت به جملة من الآداب الشرعية التي تنظم عملية الإنفاق وتجعله خالصًا من الآفات والشوائب المعطلة لفضله أو المنقصة لأجره.

وقد رأى الباحث أن يذكر أشهر تلك الآداب والضوابط، قبل أن يشرع في ذكر الأدلة والشواهد التي تبرز مكانته وأثره على عملية القرب، وهي كما يلي:

١ - الإخلاص لله تعالى؛ إذ لا حظَّ في الأجر والثواب لمن أشرك مع الله أحدًا في نفقته وبذله، قال تعالى: ﴿**وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ**

---

(١) رواه مسلم، كتاب الصيد والذبائح، باب الأمر بإحسان الذبح، والقتل، وتحديد الشفرة، رقم ٥٧.

وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، «أي: خالصًا لوجه الله»(١).

٢- اجتناب المنِّ والأذى في النفقة؛ لأن ذلك صفة ذميمة من صفات الكفار الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، أي: لا تحبطوا أجور صدقاتكم وثواب نفقاتكم بالمنِّ والأذى على السائل، أو المنِّ على الله(٢).

٣- تحرِّي الطيب من المال حال الإنفاق، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، وقال ﷺ: «**مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلاَ يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّه حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ**»(٣).

٤- تحرِّي الإنفاق في السرِّ ما لم يكن في إظهاره مصلحة عامة؛ إذ إن المجاهر بصدقته قد لا يأمن دسيسة خبيثة، من عجب أو رياء، تُبطل عمله وتُذهب أجره، قال تعالى: ﴿ إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٧١]، وجاء تأكيد ذلك في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: «**وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا**

---

(١) تفسير القرآن للسمعاني (١/ ٢٧٠).

(٢) ينظر: الكشف والبيان (٢/ ٢٦١).

(٣) رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الزكاة، باب لا يقبل الله صدقة من غلول ولا يقبل إلا من كسب طيب... (٢/ ١٠٨)، رقم ١٤١٠، ورواه مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة...، (٢/ ٧٠٢)، رقم ٦٤.

صَنَعَتْ يَمِينُهُ»[(١)].

٥- التوسط في الإنفاق بين الإسراف والتقتير، وهذه صفة جليلة امتدح الله تعالى بها عباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، أي: الذين يكون إنفاقهم قصدًا وسطًا لا إسراف فيه أو تبذير، ولا إقتار أو تقصير[(٢)].

قال ﷺ: «خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ»[(٣)]، أي: خير الصدقة ما أبقت صاحبها مستغنيًا بما يكفي حاجته وحاجة أهله[(٤)].

٦- مراعاة الأولويات في الإنفاق، فيبدأ المنفِق أولًا بمن يعول من زوجة وعيال ومن تلزمه نفقتهم، ثم بعد ذلك يخرج للغير على قدر ما يستطيع، هذا ما دل عليه حديث رسول الله ﷺ، الآنف الذكر.

٧- أن تكون الصدقة في حال الصحة والغنى، وهي الحال التي تكون النفس فيها حريصة على المال، تدعو صاحبها للشح والبخل، وتخوفه الفقر وذهاب المال، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قال: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الفَقْرَ، وَتَأْمُلُ الغِنَى، وَلاَ تُمْهِلُ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ، قُلْتَ لِفُلاَنٍ كَذَا، وَلِفُلاَنٍ كَذَا وَقَدْ كَانَ لِفُلاَنٍ»[(٥)]، قال ابن بطال رحمه الله[(٦)]: «إن أعمال البر كلما صعبت كان أجرها

(١) سبق تخريجه، ص ١٣٤.

(٢) ينظر: الكشف والبيان (١٤٧/٧).

(٣) رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الزكاة، باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى... (١١٢/٢)، رقم ١٤٢٦، ورواه مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح، (٢/ ٧١٦)، رقم ٩٢.

(٤) ينظر: التوضيح لشرح الجامع الصحيح (٣١٩/١٠).

(٥) رواه البخاري، كتاب الزكاة، باب أي الصدقة أفضل وصدقة الشحيح الصحيح... (١١٠/٢)، رقم ١٤١٩.

(٦) علي بن خلف بن بطال البكري القرطبي، المعروف بابن اللجام، كان من أهل العلم والمعرفة، عني =

أعظم؛ لأن الصحيح الشحيح إذا خشي الفقر وأمَّل الغنى، صعبت عليه النفقة، وسوَّل له الشيطان طول العمر، وحلول الفقر به، فمَن تصدق في هذه الحال، فهو مؤثر لثواب الله على هوى نفسه، وأما إذا تصدَّق عند خروج نفسه فيخشى عليه الضرار بميراثه والجور في فعله»(١).

٨- الإنفاق بنفس طيبة موقنة أن الإنفاق غنم لا غرم؛ لأن إنفاق الكاره يُحبط الأجر، ويُذهب الثواب، قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ [التوبة:٥٤].

الأدلة والآثار التي تجعل الإنفاق في أوجه الخير من أسباب القرب إلى الله:

سخَّر الله لهذه الأمة منذ بزوغ فجر الإسلام رجالًا بذلوا كرائم أموالهم في سبيل إعزاز دين الله، وإعلاء كلمته، وما زالت الأمة بحاجة ماسَّة لمن يبذل ماله في سبيل الله، مستشعرًا مكانة الإنفاق العظيمة، المنصوص عليها بشواهد الكتاب والسُّنة، التي يمكن إجمالها فيما يلي:

١- أخبر الله تعالى في كتابه الكريم أن الإنفاق قربة إليه، متى ما اقترن بالإيمان بالله واليوم الآخر، وبشَّر بذلك صحابةَ رسول الله ﷺ من الأعراب المؤمنين، الذين كانوا يتقربون إلى الله تعالى بنفقاتهم، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩٩]،

=بالحديث العناية التامة، صنف: "شرح صحيح البخاري"، و"الاعتصام"، مات سنة تسع وأربعين وأربعمائة. ينظر: سير أعلام النبلاء (١٨/٤٧)، معجم المؤلفين (٧/٨٧).

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٣/٤١٧).

فوصفهم الله تعالى أولًا بالإيمان؛ لكونه أصلًا مقدمًا في جميع الطاعات، ثم وصفهم باتخاذهم ما ينفقون وسيلة للقرب من الله تعالى، امتثالًا لأمره، وترجيحًا لحُبه، وقطعًا لحب ما سواه، وسببًا لدعوات الرسول ﷺ، واستغفاره لهم؛ لأنه كان يدعو للمتصدِّقين ويستغفر لهم، ثم شهد الله تعالى لهم بصحة اعتقادهم، من كون نفقاتهم قربات لهم عند الله، مؤكدًا ذلك بحرف التنبيه (ألا)، وحرف التحقيق (إن)، ثم زاد في التأكيد بقوله: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾، فإن دخول (السين) على الجملة الفعلية يوجب مزيد التأكيد، وهذا أبلغ مطلبهم ومرادهم[(١)].

٢- سمَّى الله تعالى الإنفاق في كتابه العزيز قرضًا حسنًا؛ لكي ترغب فيه النفوس، وتقبل إليه، وتطمأن لتحصيل الثواب من الله عليه، وأكد ذلك في ستة مواضع من كتابه العزيز[(٢)]، قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة:٢٤٥]، قال الواحدي ﵀: «القرض: اسم لكل ما يلتمس عليه الجزاء... وهو ما أعطيته لتكافأ عليه، شبَّه الله تعالى عمل المؤمنين لله على ما يرجون من ثوابه بالقرض؛ لأنهم إنما يعطون ما ينفقون ابتغاء ما وعدهم الله من جزيل الثواب»[(٣)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٨]، قال ابن القيم ﵀: «وسُمي ذلك الإنفاق قرضًا حسنًا حثًّا للنفوس، وبعثًا لها على البذل»[(٤)].

---

(١) ينظر: السراج المنير، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني (٦٤٤/١)، ومحاسن التأويل (٤٨٤/٥)

(٢) في: البقرة: ٢٤٥، والمائدة: ١٢، والحديد: ١١، ١٨، والتغابن: ١٧، والمزمل: ٢٠.

(٣) الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٣٥٥/١).

(٤) طريق الهجرتين (٧٩١/٢).

فإذا سمعَت النفوس المؤمنة بهذه المضاعفة العظيمة لما تقدمه من خير، أقبلت إلى الإنفاق، وتقربت إلى الله ببذل المال.

٣- جعل الله تعالى الإنفاق علامة من علامات التقوى، وهذه خصلة جليلة يحبها الله تعالى ورسوله، وكتب لأهلها الولاية، ووعد عليها بالجنة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٢،٣]، وكلَّما زاد بذل العبد وإنفاقه في أوجه الخير زاد إيمانه وتقواه، وزاد قربه من ربه ومولاه.

٤- قدَّم الله تعالى الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في تسعة مواضع من كتابه الكريم[1]، قال تعالى: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١]، وهذا يرشد إلى أن الإنفاق في سبيل الله صورة عظيمة من صور الجهاد، وكما أن الجهاد يحتاج إلى الرجال، كذلك يحتاج إلى المال؛ بل في بعض المواقف تكون الحاجة إلى المال أكثر من الحاجة إلى الرجال، وما حصل لرسول الله ﷺ وأصحابه في غزوة تبوك، حين نادى فيهم ﷺ قائلًا: «**مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ العُسْرَةِ فَلَهُ الجَنَّةُ**»[2]، خير ما يستشهد به لذلك، فيا بُشرى من أعان المجاهدين وأنفق عليهم في سبيل الله تعالى، عن زيد بن خالد[3] رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «**مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ**

---

(١) في: النساء ٩٥ مرتين، والأنفال: ٧٢، والتوبة: ٢٠، ٤١، ٨١، ٨٨، والحجرات: ١٥، والصف: ١١.

(٢) رواه البخاري من حديث عثمان رضي الله عنه، كتاب الوصايا، باب إذا وقف أرضًا أو بئرًا واشترط لنفسه مثل دلاء المسلمين (١٣/٤)، رقم ٢٧٧٨.

(٣) الصحابي الجليل، أبو عبد الرحمن، زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه، صاحب لواء جهينة يوم الفتح، وشهد الحديبية مع رسول الله ﷺ، توفي سنة ثمان وستين. ينظر: الاستيعاب (٥٤٩/٢)، أسد الغابة (٣٥٥/٢).

غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا»[١].

٥- أخبر الله تعالى عباده أن الإنفاق في سبيل الله سبب من أسباب مضاعفة الحسنات، وفي هذا حثٌّ وترغيب للمؤمنين على المسابقة والبذل في سبيل الله، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]، ففي هذه الآية مثال يدل على شرف النفقة في سبيل الله، وتحريض للمؤمنين على الإنفاق، والمقصود أن مثل نفقة الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبَّة أخرجت سبع سنابل، في كل سنبلة مائة حبَّة، فكما أن هذه البذرة أنتجت سبعمائة حبة، كذلك المتصدق الصالح من المال الطيب، إذ وضعه في موضعه المناسب، أعطي بكل صدقة سبعمائة حسنة[٢]، عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه[٣]، قال: جَاءَ رَجُلٌ بِنَاقَةٍ جَاءَ رَجُلٌ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ[٤]،فَقَالَ: هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعُ مِائَةِ نَاقَةٍ كُلُّهَا مَخْطُومَةٌ»[٥].

٦- مما يدل على شرف الإنفاق وفضله، أن العبد المفرط فيه يندم عليه عند حضور ساعة الأجل، ويتمنى لو أن الله يؤخر أجله فينفق في سبيل الله، ويعمل الصالحات، ولكن هيهات هيهات، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن

(١) رواه البخاري، كتاب الجهاد، باب فضل من جهز غازيًا أو خلفه بخير (٢٧/٤)، رقم ٢٨٤٣، ورواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل إعانة الغازي...، (١٥٠٦/٣)، رقم ١٣٥.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (٣٠٣/٣).

(٣) الصحابي الجليل، أبو مسعود البدري، عقبة بن عمرو بن ثعلبة الأنصاري رضي الله عنه، شهد العقبة، ولم يشهد بدرًا، وشهد أحدًا وما بعدها، مات سنة إحدى أو اثنتين وأربعين. ينظر: الاستيعاب (١٠٧٤/٣)، أسد الغابة (٢٨٠/٦).

(٤) الخطام: الزمام الذي تقاد به الناقة. ينظر: الصحاح (١٩/٥

(٥) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الصدقة في سبيل الله وتضعيفها (١٥٠٥/٣)، رقم ١٣٢.

يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠]، فالواجب على العبد المؤمن المؤمِّل قرب الله تعالى أن يبادر بالإنفاق سكرات الموت التي إذا جاءت، لن ينفعه تحسُّره على تفريطه، ولا يفيده سؤاله[(١)].

قال ابن عاشور رحمه الله: «وقد ذكَّر الله المؤمنين بما في الإنفاق من الخير بأن عليهم أن يكثروا منه ما داموا مقتدرين قبل الفوت، أي قبل تعذُّر الإنفاق والإتيان بالأعمال الصالحة، وذلك حين يحس المرء بحالة تؤذن بقرب الموت ويُغلَب على قواه، فيسأل الله أن يؤخر موته ويشفيه؛ ليأتي بكثير مما فرط فيه من الحسنات طمعًا أن يستجاب له»[(٢)].

٧- دلَّت السُّنة المطهَّرة على فضل الإنفاق ومكانته في أحاديث كثيرة، وهذا مما يقرر عظَمته وأثره على قرب العبد من ربه:

فأخبر رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم أن أهل الإنفاق من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ... وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا صَنَعَتْ يَمِينُهُ**»[(٣)].

والإنفاق من أسباب دعاء الملائكة للعبد أن يخلف الله عليه بما هو خير وأبقى، قال صلى الله عليه وسلم: «**مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ، إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا**»[(٤)].

---

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٨٦٥.

(٢) التحرير والتنوير (٢٥٣/٢٨).

(٣) سبق تخريجه، ص ١٣٤.

(٤) رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ (١١٥/٢)، رقم ١٤٤٢، ورواه مسلم، كتاب الزكاة، باب المنفق والممسك، (٧٠٠/٢)، رقم ٥٧.

والإنفاق في أوجه الخير ولو بالقليل من أسباب اتقاء عذاب جهنم، قال رسول الله ﷺ: «**اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**»(١).

وهو من الأعمال التي قد يبقى أجرها وثوابها حتى بعد موت صاحبها، قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»(٢).

وهو سبب لأن يُدعى العبد يوم القيامة من أبواب الجنة الثمانية، قال ﷺ: «**مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ مِنْ شَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، دُعِيَ مِنْ أَبْوَابِ، - يَعْنِي الجَنَّةَ، - يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا خَيْرٌ**»(٣).

والحاصل أن العلاقة بين الإنفاق والقرب من الله كبيرة جدًّا، والواجب على العبد المؤمن أن يبادر للبذل والإنفاق، وأن ينفض عن يديه غبار الشُّح والبخل، ويمضي على طريق السائرين إلى الله؛ ليظفر بمحبته ورضاه.

---

(١) رواه البخاري من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه، كتاب الزكاة، باب اتقوا النار ولو بشق تمرة والقليل من الصدقة... (٢/١٤٠٩)، رقم ١٤١٧، ورواه مسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة...، (٢/ ٧٠٤)، رقم ٦٨.

(٢) رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (٣/١٢٥٥)، رقم ١٤.

(٣) رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب... (٦/٥)، رقم ٣٦٦٦، ورواه مسلم، كتاب الزكاة، باب من جمع الصدقة، وأعمال البر، (٢/٧١١)، رقم ٨٥.

المبحث الثاني:

أسباب البُعد عن اللّه تعالى

- **المطلب الأول**: الكفر بالله
- **المطلب الثاني**: المعاصي والذنوب
- **المطلب الثالث**: سوء الخُلق

المطلب الأول:

الكفر بالله

الكفر[١] وصف جامع يندرج تحته ضلالات كثيرة غيَّبت أهله عن اتباع الحق الذي أنزله الله تعالى، وسترت عقولهم عن التفكُّر في آيات الله الدالة على عظيم قدرته، الشاهدة على وحدانيته، الموجبة لطاعته، ولذلك فأهله أشرُّ مَن دبَّ على وجه الأرض، وأقبح مَن جحد نعمة الرب، وأبعد مَن فارق سبل الهداية والسلام.

والكفر بالله ظلم عظيم قبيح يضاد الإيمان بالله ويقابله، فكما أن الإيمان بالله أعظم أسباب القرب من الله تعالى، فإن الكفر بالله تعالى هو أعظم أسباب البعد والشقاء، فالكافر أبعد الخلق عن الله وأشقاهم، لا حظَّ له في القرب من الله، ولا عزة له عند الله أو كرامة، وشواهد الكتاب العزيز الدالة على بُعد الكافر عن ربه كثيرة جدًّا، أهمها ما يلي:

١- حكم الله تعالى على الكافرين في كتابه الكريم بالبُعد عن كل خير، فهم بعيدون عن كل سبيل يقربهم من الله تعالى، قال تعالى: ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، قال ابن جرير رحمه الله: «فأبعد الله قومًا لا يؤمنون بالله، ولا يصدقون برسوله»[٢].

---

(١) أصل الكفر: الستر والتغطية، وهو ضد الإيمان وكذلك ضد الشكر. ينظر: معجم مقاييس اللغة (٥/١٩١)، الصحاح (٢/٨٠٧)، وعرفه شيخ الإسلام: بأنه هو عدم الإيمان سواء كان معه تكذيب أو استكبار أو إباء أو إعراض؛ فمن لم يحصل في قلبه التصديق والانقياد فهو كافر، وقال ابن القيم: الكفر جَحْد ما علم أن الرسول جاء به، سواء كان من المسائل التي تسمونها علمية أو عملية، فمن جحد ما جاء به الرسول ﷺ بعد معرفته بأنه جاء به فهو كافر في دق الدين وجله. مجموع الفتاوى (٧/ ٦٣٩) مختصر الصواعق المرسلة، ص ٥٩٦.

(٢) جامع البيان (١٧/٥٠).

وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «بعدًا من رحمة الله للقوم الكافرين»(١).

وقال تعالى: ﴿فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤١]، قال الرازي رحمه الله: ﴿فَبُعْدًا﴾: بمنزلة اللعن الذي هو التبعيد من الخير، والله تعالى ذكر ذلك على وجه الاستخفاف والإهانة لهم، وقد نزل بهم العذاب دالًّا بذلك على أن الذي ينزل بهم في الآخرة من البُعد من النعيم والثواب أعظم مما حل بهم حالًا؛ ليكون ذلك عبرة لمن يجيء بعدهم»(٢).

ثم كانت عاقبة هذا البعد أن حرمهم الله من كل سعادة في الدنيا والآخرة، حتى وإن مدَّهم الله تعالى بالنعم في الدنيا فإنما يستدرجهم ويُملي لهم ويزيدهم بها عذابًا في الآخرة.

٢- أخبر الله تعالى أن الكفار في غاية البُعد عن الحق، خارجون عن سبيله خروجًا عظيما، وبونًا شاسعًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٦٧]، قال ابن جرير رحمه الله: «يعني: قد جاروا عن قصد السبيل جورًا شديدًا، وزالوا عن المَحَجَّة»(٣).

وقال تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٨]، قال ابن كثير رحمه الله: «في الكفر المفضي بهم إلى عذاب الله، ﴿وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ من الحق في الدنيا»(٤).

---

(١) زاد المسير، ص ٦٥٦.

(٢) مفاتيح الغيب (٢٣/ ١٠٠).

(٣) جامع البيان (٧/ ٦٩٥).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٩٦).

ومعلوم أن الخارج عن الحق، البعيد عن صراط المنعَم عليهم، هو أبعد الناس عن الله تعالى، وأقصاهم عن الفوز برحماته وكراماته.

٣- لا يقبل الله تعالى عملًا للكافرين ولا يثيبهم عليه؛ بل يضل أعمالهم ويحبطها، فلا يجدون بركتها في الدنيا، ولا أجرها في الآخرة، ولا ينتفعون منها بشيء أبدًا، فهي عليهم وبال وحسرة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ١]، قال ابن جرير ﵀: «جعل الله أعمالهم ضلالًا على غير هدى وغير رشاد؛ لأنها عملت في سبيل الشيطان، وهي على غير استقامة»[(١)].

وقال تعالى: «﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾ [النور: ٣٩]، قال السعدي ﵀: «أعمال الكفار بمنزلة السراب، تُرى ويظنها الجاهل الذي لا يدري الأمور أعمالًا نافعة، فيغره صورتها، ويخلبه خيالها، ويحسبها هو أيضا أعمالًا نافعة لهواه، وهو أيضًا محتاج إليها؛ بل مضطر إليها، كاحتياج الظمآن للماء، حتى إذ قدم على أعماله يوم الجزاء وجدها ضائعة، ولم يجدها شيئًا»[(٢)].

٤- مما يدل على بُعد الكافر عن ربه، أن الله غضب عليه ولعنه وسخط عليه، وهذه دلائل واضحة ظاهرة تبين البُعد العظيم بين الكافر وربه، فأي قرب يرجى وأي رحمة تبتغى لمن أبعده الله من رحمته، وأحل عليه سخطه ونقمته؟ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤]، قال ابن جرير ﵀: «إن الله أبعد الكافرين به من كل خير، وأقصاهم عنه، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا﴾، يقول: وأعد

(١) جامع البيان (٢١/ ١٨٠).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٥٧٠.

لهم في الآخرة نارًا تتقد وتتسعر ليصليهموها»[١].

وقال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦]، قال ابن جرير رحمه الله: «وناهم الله بغضب منه، ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾، يقول: وأبعدهم فأقصاهم من رحمته، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ﴾، يقول: يصلونها يوم القيامة، ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾، يقول: وساءت جهنم منزلًا يصير إليه هؤلاء»[٢].

وقال تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [المائدة: ٨٠]، قال السعدي رحمه الله: «هذه البضاعة الكاسدة، والصفقة الخاسرة، وهي سخط الله الذي يسخط لسخطه كل شيء، والخلود الدائم في العذاب العظيم، فقد ظلمتهم أنفسهم؛ حيث قدمت لهم هذا النزل غير الكريم، وقد ظلموا أنفسهم إذ فوتوها النعيم المقيم»[٣].

٥- توعَّد الله الكافرين في كتابه الكريم بصور وأصناف شتى من عذابه الواقع بهم، ولو أن لهم عند الله ولو أدنى حظوة أو مكانة ما تكاثرت آيات الوعيد في القرآن وتنوعت، فتارة يتوعدهم بعذاب شديد لا يقدر قدره ولا يدرك وصفه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤]، وتارة يخبر عمّا أعده لهم بأنه عظيم ألمه يخلص إلى القلوب، كما في قوله تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الجاثية: ١٠].

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٨٨).

(٢) المرجع السابق (٢١/ ٢٤٩).

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٢٤١.

وتارة يصف عذابهم بالعذاب المهين، وهو المذل لصاحبه المخزي له، قال تعالى: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [البقرة: ٩٠].

وتارة يبشرهم بشارة توبيخ وتبكيت بالعذاب الأليم، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣]، وهذا التنويع القرآني في وصف عذاب الكفار يوم القيامة دليل صريح على هول ذلك العذاب، وحقارة هؤلاء على الله، وبُعدهم عن رحمة الله تعالى.

٦- أخبر سبحانه وتعالى أنه لا فلاح للكافر أو فوز ونجاح لا في الدنيا ولا في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، قال ابن جرير رحمه الله: «إنه لا ينجح أهل الكفر بالله عنده، ولا يدركون الخلود والبقاء في النعيم»[(١)]، وعلى ذلك لا يفوزون بمرغوب، ولا يحصلون على مطلوب، ولا يحظون بالقرب من علام الغيوب.

٧- وصفهم الله تعالى بالكذب والتكذيب، فهم كاذبون في أقوالهم وأفعالهم، مكذِّبون للحق الذي جاءت به الأنبياء والرسل، ومَن جمع بين الكذب والتكذيب فلا فضل في الدنيا ولا كرامة له في الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥]، فهذا إخبار عن قبيح فعلهم، ونعت لازم لهم، كقول الرجل لغيره: كذبت وأنت كاذب، أي: كذبت في قولك الذي تقول، والكذب عادة وسجية لك[(٢)].

وقال تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٢]، قال ابن كثير رحمه الله:

---

(١) جامع البيان (١٧/ ١٣٥).

(٢) ينظر: معالم التنزيل (٥/ ٤٥).

«أي: مِن سجيتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق»(١).

وما استحقوا هذا الوصف الذميم إلا لأن الله تعالى لا يعبأ بهم، ولا يقيم لهم وزنًا، ولا يكرمهم بعظيم كراماته وجزيل هباته، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

٨- الكافر محروم من محبة الله تعالى وهدايته، لا يرضى دينه، ولا يقبل منه صرفًا ولا عدلًا(٢)، ومَن حرم محبة الله تعالى ورضاه، حرم الخير كله، وضاقت به سبل النجاة من عذاب الله وعقابه، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الروم: ٤٥]، قال الشوكاني رحمه الله: «كناية عن بغضه لهم الموجب لغضبه سبحانه وغضبه يستتبع عقوبته»(٣).

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، قال ابن جرير رحمه الله: «لا يسددهم لإصابة الحق في نفقاتهم وغيرها، فيوفقهم لها، وهم للباطل عليها مؤثرون، ولكنه يتركهم في ضلالتهم يعمهون»(٤).

٩- تبرَّأ الله ورسوله من أهل الكفر، وأمر الله تعالى بجهادهم والغلظة عليهم وعدم الرأفة والرحمة بهم، قال تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٣]، قال السعدي رحمه الله: «فأمر النبي صلى الله عليه وسلم، مؤذنه أن يؤذن يوم الحج الأكبر، وهو يوم النحر، وقت اجتماع الناس مسلمهم وكافرهم، من جميع جزيرة العرب، أن يؤذن بأن الله بريء ورسوله من المشركين، فليس لهم عنده عهد وميثاق، فأينما وجدوا قتلوا»(٥).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٦١).

(٢) أي: لا يقبل منه نافلة ولا فريضة. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٢٤).

(٣) فتح القدير (٤/ ٣٠١).

(٤) جامع البيان (٤/ ٦٦٢).

(٥) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٢٨.

جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [التحريم: ٩]، أي: جاهد الكفار بالسيف والمنافقين بالحجة، واغلظ عليهم، واستعمل الخشونة فيما تجاهدهم به إذا بلغ الرفق مداه[١].

ولما كان محالًا على الله تعالى أن يصف عبدًا في قلبه ولو ذرة إيمان بمثل هذه الصفات، تبين بذلك أن بين الكافر وبين ربه مفاوز عظيمة، لا يبلغه معها محبة من الله ورضوان، ولا يناله بها نجاة من العذاب والعقاب، وفي كتاب الله تعالى شواهد أخرى يطول ذكرها وشرحها، وإنما اكتفى الباحث من ذلك بما يظهر المطلوب ويكشف المحجوب.

بعض صور الكفر التي دلَّت الأدلة على بُعد أهلها عن الله :

معلوم أن ما سبق ذِكرُه من أدلة وشواهد يقتضي بُعد كل عبد تلبَّس بذنب يخرجه من الإسلام إلى الكفر، إلا أنه بعد التأمُّل في الآيات تبيَّن للباحث أن هناك صورًا من الكفر خصَّها الله تعالى بالبيان والذكر، وأخبر بضلال أهلها وبُعدهم عن الهدى والرشاد، أشهرها وأهمها ما يلي:

أولاً: النفاق:

المنافق[٢] هو كافر في الأصل؛ بل أشد خطرًا من الكافر، ينكشف أمره عند الشدائد، ويستبين نفاقه لمن كان يظنه مؤمنًا، ويصير أقرب إلى الكفر في ظاهر

---

(١) ينظر: أنوار التنزيل (٥/٢٢٦).

(٢) النفاق: أصله الفعل الثلاثي نفق الذي يدل أحد معنييه على إخفاء شيء وإغماضه؛ لأن صاحب النفاق يخفي خلاف ما يظهر، فكأن الإيمان يخرج من المنافق، أو يخرج هو من الإيمان في غموض وخفاء، وقيل: إنه مأخوذ من النافقاء أحد جحرة اليَرْبوع، إذا طُلب من واحد هرب إلى الآخر وخرج منه. ينظر: معجم مقاييس اللغة (٥/٤٥٤)، شرح سنن أبي داود، محمود بن أحمد العيني (٣/٢٣)، وعرف النفاق في الاصطلاح بأنه إظهار الإيمان وإبطان الكفر. ينظر: عمدة القاري شرح البخاري (١/١٥١).

الحال، وإن كان كافرًا على التحقيق[(١)]، قال تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، وجامع ما جاء في كتاب الله تعالى من الشواهد الصريحة التي تظهر بُعد المنافق وضلاله ما يلي:

١- أخبر الله أن المنافقين نصيب الشيطان وحظه من ذرية آدم، قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ ﴾ [المجادلة: ١٩]، فهو وليهم الذي لا يألو جهدًا في إضلالهم وإبعادهم عن صراط الله المستقيم بعد أن تسلَّط عليهم، وأدبر بهم عن طاعة رب العالمين، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ٦٠]، «يعني: أن الشيطان يريد أن يصد هؤلاء المتحاكمين إلى الطاغوت عن سبيل الحق والهدى، فيضلهم عنها ضلالًا بعيدًا، يعني: فيجور بهم عنها جورًا شديدًا»[(٢)].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان أبو برزة الأسلمي[(٣)] كاهنا يقضي بين اليهود فيما يتنافرون إليه، فتنافر إليه ناس من المسلمين، فأنزل الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ ﴾»[(٤)].

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢٦٧).

(٢) جامع البيان (٧/ ١٨٩).

(٣) الصحابي الجليل، نضلة بن عبيد بن الحارث، أبو برزة الأسلمي رضي الله عنه، نزل البصرة، وله بها دار، وسار إلى خراسان فنزل مرو، وعاد إلى البصرة، ومات بها سنة: ستين، وهذه القصة كانت قبل إسلامه رضي الله عنه. ينظر: الاستيعاب (٤/ ١٤٩٥)، أسد الغابة (٦/ ٢٨).

(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١١/ ٣٧٣)، رقم: ١٢٠٤٥، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. ينظر مجمع الزوائد (٧/ ٦).

٢- أخبر الله تعالى عنهم أنهم ملعونون مطرودون من رحمته متروكون في عذابه، لا يقبل الله نفقاتهم، ولا يهديهم أو يغفر لهم، قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

وقال تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «نسيهم الله من الخير، ولم ينسهم من الشر»[(١)].

وقال البغوي رحمه الله: «تركوا طاعة الله، فتركهم الله من توفيقه وهدايته في الدنيا، ومن رحمته في الآخرة، وتركهم في عذابه»[(٢)].

ومثل هؤلاء الغافلين التاركين لذكر الله تعالى بالطاعات لا يوفقهم الله لخير، ولا يدخلهم الجنة؛ بل يتركهم في الدرْك الأسفل من النار، خالدين فيها مخلدين[(٣)].

٣- كشف الله تعالى سوء أخلاقهم وضعف طاعتهم، فهم أهل رياء وسمعة، تتكاسل أنفسهم عن أداء الطاعات والقربات، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ﴾ [النساء:١٤٢]، فوصف ظاهرَهم بالخمول والكسل، وباطنَهم بفساد النية والقصد، فلا إخلاص لهم ولا حسن معاملة مع الله، وإنما عملهم مصانعة ومجاملة، ومَن كان هذا طبعه كان بعيدًا عن الله، مفارقًا سبل الهداية والاستقامة والرشاد.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٢٤).

(٢) معالم التنزيل (٤/ ٧١).

(٣) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٤٣.

قال قتادة رحمه الله: «والله لولا الناس ما صلى المنافقون، وما يصلون إلا رياء وسمعة»[(١)].

٤- بشَّر الله المنافقين بالعذاب كما بشَّر الكافرين من قبل، تهكمًا بهم وتوبيخًا لهم، كيف لا وهم على حال سواء من البُعد عن الله، والاجتماع على الكفر، وإيذاء الله ورسوله، قال تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨]، قال الشوكاني رحمه الله: «إطلاق البشارة على ما هو شر خالص لهم تهكُّم بهم»[(٢)].

وقال المراغي رحمه الله[(٣)]: «البشارة لا تستعمل غالبًا إلا في سارّ الأخبار؛ إذ هي مأخوذة من انبساط بشرة الوجه، فاستعمالها في الأخبار السيئة يكون من باب التهكم والتوبيخ، أي: بشر المنافقين بالعذاب المؤلم الذي لا يقدر قدره، ولا يحيط بكنهه إلا علَّام الغيوب»[(٤)].

٥- شهد الله تعالى شهادة حق أن المنافقين كاذبون في دعواهم، وأكد ذلك في كتابه ثلاث مرات[(٥)]، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، قال الواحدي رحمه الله: «جعلهم كاذبين؛ لأنهم أضمروا غير ما أظهروا، فدل هذا على أن حقيقة الإيمان بالقلب، ومَن قال شيئًا واعتقد خلافه فهو كاذب»[(٦)].

---

(١) الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٢/١٣١).

(٢) فتح القدير (١/٨٣١).

(٣) أحمد بن مصطفى المراغي، عالم ومصنف ومفسر مصري، تخرج بدار العلوم ثم درس الشريعة الإسلامية بها، وعين أستاذًا للعربية والشريعة بكلية غوردون بالخرطوم، له مصنفات عديدة، منها: "الحسبة في الإسلام"، و"الوجيز في أصول الفقه"، و"تفسير المراغي"، توفي بالقاهرة سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة وألف. ينظر: الأعلام (١/٢٥٨).

(٤) تفسير المراغي (٥/١٨٢).

(٥) التوبة: ١٠٧، والحشر: ١١، والمنافقون: ١.

(٦) الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٤/٣٠٢).

٦- فضح الله تعالى أمر أهل النفاق، وأظهر خبث سرائرهم في مواطن كثيرة، حتى انكشف كيدهم وأباطيلهم لعباده المؤمنين، ولو كان لهم عند الله تعالى مكانة أو منزلة لستر عليهم حتى يقبل توبتهم، قال تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ٦٤]، عن سعيد بن جبير رحمه الله[١]، قال: قُلْتُ لِابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: سُورَةُ التَّوْبَةِ، قَالَ: آلتَّوْبَةِ قَالَ: «بَلْ هِيَ الْفَاضِحَةُ مَا زَالَتْ تَنْزِلُ، وَمِنْهُمْ وَمِنْهُمْ حَتَّى ظَنُّوا أَنْ لَا يَبْقَى مِنَّا أَحَدٌ، إِلَّا ذُكِرَ فِيهَا»[٢].

٧- من فرط بُعد المنافقين عن الله، حكم الله تعالى لهم بالخلود في الدرْك الأسفل من النار، يقاسون هنالك أشد أنواع العذاب الأليم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٥]، قال البيضاوي رحمه الله: «وهو الطبقة التي في قعر جهنم، وإنما كان كذلك؛ لأنهم أخبث الكفرة؛ إذ ضموا إلى الكفر استهزاء بالإسلام وخداعًا للمسلمين»[٣].

وقال ابن عاشور رحمه الله: «وإنما كان المنافقون في الدرْك الأسفل، أي في أذل منازل العذاب؛ لأن كفرهم أسوأ الكفر لما حف به من الرذائل»[٤].

فهذه عامة الأدلة التي تبين أن النفاق سبب عظيم من أسباب البُعد عن الله تعالى، مع تفاوت ذلك البُعد بحسب نوع النفاق ودرجته، فإذا كان نفاق العبد إيمانًا ظاهرًا

---

(١) أبو محمد، سعيد بن جبير بن هشام الوالبي مولاهم الأسدي، الكوفي، الإمام، الحافظ، المقرئ، المفسر، الشهيد أحد الأعلام الأكابر، كان فقيهًا عابدًا فاضلًا ورعًا، أخذ التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما، قتله الحجاج سنة خمس وتسعين. ينظر: سير أعلام النبلاء (٤/٣٢١)، تهذيب التهذيب (٤/١١)، طبقات الحفاظ للسيوطي، ص ٣٨.

(٢) رواه مسلم، كتاب التفسير، باب في سورة براءة والأنفال والحشر (٤/٢٣٢٢)، رقم ٣١.

(٣) أنوار التنزيل (٢/١٠٥).

(٤) التحرير والتنوير (٥/٢٤٤).

وكفرًا باطنًا، كان أشد الناس بُعدًا عن الله تعالى، وإذا كان النفاق بفعل خصلة من الخصال التي نص الشارع على أنها من علاماته، كان البعد عن الله أهون من سابقه.

ثانيًا: دعاء مخلوق والتقرب إليه من دون الخالق:

انتشرت في كثير من بلدان المسلمين بدعة دعاء المخلوق(١) والتقرب إليه بما لا يجوز إلا للخالق جل في علاه، ولما كان حصول ذلك الفعل ممن لا يكذبون الله ورسوله تكذيبًا صريحًا، ولا يعطلون شعائر الدين وأركانه على الظاهر تعطيلًا كاملًا، رأى الباحث أن يفرد الأدلة التي تبطل دعوى قربهم من الله، وتثبت أن أعمالهم التي ابتدعوها هي من موانع القرب من الله تعالى، وأشهر تلك الأدلة ما يلي:

١- صرح الله تعالى في كتابه العزيز بضلال مَن يدعو مخلوقًا لا يضر ولا ينفع؛ لقضاء أمر لا يقدر عليه إلا الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ [الحج: ١١، ١٢]، أي: وإن أصابت هذا الذي يعبد الله على شك فتنة، ارتد عن دين الله، يدعو من دون الله آلهة، لا تضره إن لم يعبدها في الدنيا، ولا تنفعه في الآخرة إن عبدها، وارتداده ذلك داعيًا من دون الله هذه الآلهة هو الأخذ على غير استقامة، والذهاب عن دين الله ذهابًا بعيدًا(٢).

قال السعدي رحمه الله: «وهذا صفة كل مدعو ومعبود من دون الله، فإنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًّا»(٣).

٢- أخبر الله تعالى أن دعاء ما لا ينفع ولا يضر من الأولياء والشركاء هو

---

(١) ينظر: دمعة على التوحيد، الصادر عن مجلة البيان.

(٢) ينظر: جامع البيان (١٦/٤٧٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٥٣٥.

ضرر محض على الداعي في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾ [الحج: ١٣]، قال ابن كثير رحمه الله: «أي: ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها، وأما في الآخرة فضرره محقق متيقن»[(١)].

٣- أرشد الله تعالى إلى أن دعاء مخلوق بما لا يجوز إلا للخالق ظلم للنفس ووضع للعبادة في غير موضعها، وهذا بلا شك بُعد عن الله ومفارقة لطريق الحق، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٦]، فمَن دعا من دون الله مخلوقًا لا يضر ولا ينفع كان من الظالمين؛ لأنه لا ظلم أعظم من الشرك بالله[(٢)].

وقال السعدي رحمه الله: «فإذا كان خير الخلق، لو دعا مع الله غيره، لكان من الظالمين المشركين فكيف بغيره؟!!»[(٣)].

٤- يعد دعاء المخلوق من دون الله تعالى والتقرب إليه جهلًا بالله وبعظمته وتوحيده في الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، قال البغوي رحمه الله: «ولم يكن ذلك شكًّا من بني إسرائيل في وحدانية الله، وإنما معناه: اجعل لنا شيئًا نعظمه ونتقرب بتعظيمه إلى الله عز وجل، وظنوا أن ذلك لا يضر الديانة، وكان ذلك لشدة جهلهم»[(٤)].

ولذلك شبَّه الله تعالى قبح فعل مَن يدعو مع الله غيره بحشرة العنكبوت في ضعفها وجهلها، وقلة تدبيرها لنفسها؛ إذ اتخذت لنفسها بيتًا لا يُغني عنها شيئًا

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٤٠١).

(٢) ينظر: الكشاف، ص ٤٧٥.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٧٥.

(٤) معالم التنزيل (٣/ ٢٧٤).

حين احتياجها إليه، قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١]، قال ابن القيم ﵀: «فذكر سبحانه أنهم ضعفاء، وأن الذين اتخذوهم أولياء أضعف منهم، فهم في ضعفهم وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتًا، وهو أوهن البيوت وأضعفها»[١].

٥- أخبر الله أن ما يدعوه الأتباع من دون الله إن كانوا صالحين، هم يطلبون القرب من الله لأنفسهم، ويبتغون إلى ذلك الوسائل بين رجاء رحمته والخوف من عقابه، فإذا كان هؤلاء الصالحون يجتهدون في طاعته وتحصيل مرضاته، مع خوفهم من سطوة الله وانتقامه، فالأَولى بغيرهم أن يحذو حذوهم، ويتأسى بطريقتهم؛ لأن مَن يرجو الأمن لنفسه مع خوفه من عدم تحصيله، لا يملك لغيره سببًا من أسباب النجاة، قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧]، قال سيد قطب ﵀: «إن هؤلاء الذين تدعونهم، أقربهم إلى الله يبتغي إليه الوسيلة، ويتقرب إليه بالعبادة، ويرجو رحمته، ويخشى عذابه -وعذاب الله شديد يحذر ويخاف- فما أجدركم أن تتوجهوا إلى الله، كما يتوجه إليه مَن تدعونهم آلهة من دونه وهم عباد لله، يبتغون رضاه»[٢].

هذا مجمل ما يمكن ذِكرُه من الأدلة والشواهد القرآنية التي تبين بُعد مَن كفر بالله ظاهرًا أو باطنًا أو صرف شيئًا من أنواع العبادة لغير الله تعالى، مَن اتقاها سلم وغنم، ومَن تلبس بها أو ببعضها خسر وندم.

---

(١) التفسير القيم، ص ٤٠٣.

(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٣٥).

المطلب الثاني:
المعاصي والذنوب

ذكر الباحث فيما سبق[1] أن العمل الصالح هو أعظم سبب من أسباب القرب إلى الله تعالى بعد الإيمان، وبالمقابل فإن المعاصي والذنوب إجمالًا هي أصل البُعد عن الله بَعد الكفر بالله تعالى، مع تفاوت أثر الذنب على قضية القرب بحسب فظاعته عند الله، فكلَّما كان الذنب أعظم، كان أثره على القرب من الله أشد وأكبر.

وإن كان من المسلَّم به أنه ما من معصية إلا وهي تحول بين العبد وبين القرب من ربه، لكنَّ الباحث رأى أن يقتصر في ذلك على ما له علاقة مباشرة بموضوع البحث، مما جاء النهي الإلهي الصريح عن القرب منها، أو ما دلت النصوص على أنها من موانع القرب من الله تعالى، وهي كما يلي:

أولاً: قرب الصلاة حال السكر:

لا يخفى على أحد أن الخمر من أقبح الأعمال، وأنها أُم الخبائث، فهي شر محض، وسم زعاف، يبعد صاحبه عن الفضيلة، ويجعله عبدًا لشهوته في مستنقع الرذيلة، ووصف الخمر بهذه الصفات يجعل منها سببًا عظيمًا من أسباب البعد عن الله، وشواهد الكتاب والسُّنة التي تبرز ذلك واضحة وصريحة، وسيُكتفى منها بما له علاقة بنقطة البحث، وهي الشواهد التي تدل على أن قرب الصلاة حال السكر مانع من موانع القرب، ويمكن إجمال ذلك فيما يلي:

١ - نهى الله تعالى المؤمنين قبل تحريم الخمر عن أن يقربوا الصلاة حال سكرهم، إشارة منه سبحانه إلى أن المخمور ليس أهلًا للقرب من الله وهو بتلك

---

(١) ينظر: مطلب العمل الصالح، ص ١١٢.

الحالـة، قـال تعـالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣]، قال ابن رجب رحمه الله: «قال طائفة من السلف: إن شارب الخمر تمر عليه ساعة لا يعرف فيها ربه، والله سبحانه إنما خلق الخلق ليعرفوه، ويذكروه، ويعبدوه، ويطيعوه»[(١)].

ولما كانت الصلاة منبعًا حقيقيًّا لذكر الله تعالى والثناء عليه، وأهل الذكر هم أهل المقام السامي والمنزلة العالية الذين أثنى الله عليهم بقوله: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ [البقرة: ١٥٢]، فإنه لا يتصور أبدًا أن ينال هذه المنزلة مَن زال عقله واختلط عليه كلامه، قيل لابن عمر رضي الله عنهما: «أرأيت قاتل النفس، وشارب الخمر، والسارق، والزاني يذكر الله، وقد قال الله تعالى: ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾، قال: إذا ذكر الله هذا، ذكره الله بلعنته، حتى يسكت»[(٢)].

٢- إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهى عن مباشرة الصلاة في حضرة الطعام أو حال مدافعة الأخبثَين[(٣)]، تنزيهًا لنقصان الخشوع الذي له عظيم الأثر على قرب العبد من الله، فإن الخمر بما فيه من الإثم الكبير الذي أخبر به الله في قوله: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ٢١٩]، سيذهب الخشوع بالكلية ويجعل العبد بمنأى عن ربه وخالقه، وما جعله الله تعالى إثمًا عظيمًا إلا لأن زوال عقل شاربه سيصده عن معرفة ربه، وأنَّى له أن يعرف ربه

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/٤٥٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/٤٦٥).

(٣) روى مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها، أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «**لا صلاة بحضرة الطعام، ولا هو يدافعه الأخبثان**»، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام... (١/٣٩٣)، رقم ٦٧.

مَن زال لبُّه؟ وذلك أعظم الآثام[١].

٣- المخمور لن يحقق ولو أدنى منازل القرب من الله، فغياب عقله سيجعله يقول ما لا يعي، ويدعو بما لا يعلم؛ بل قد يتكلم بكلام فيه الإثم دون أن يشعر، كما روى ابن جرير رحمه الله، عن علي رضي الله عنه: «أنه كان هو وعبد الرحمن[٢] رضي الله عنه ورجل آخر شربوا الخمر، فصلَّى بهم عبد الرحمن رضي الله عنه، فقرأ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١]، فخلط فيها، فنزلت: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣]»[٣].

٤- حثَّ الإسلام على التطهر والتجمل للصلاة واتخاذ الزينة؛ استعدادًا لمناجاة الرب، واستشعارًا لأهمية الوقوف بين يديه، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي أَوْ عَلَى النَّاسِ لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلاَةٍ**»[٤]، فإذا كان تجميل الظاهر وتحسينه تأهبًا للقرب من العظيم الجليل أمرًا مندوبًا إليه، فمن باب أولى تجميل الباطن والحفاظ على الوعي والعقل؛ ليحصل لصاحبه ما يريد، ويحظى بقرب رب العبيد، والمخمور الذي لوث بطنه وفمه وأغلق قلبه وعقله لن يحصل له ذلك أبدًا.

---

(١) ينظر: جامع البيان (٣/٦٧٦).

(٢) الصحابي الجليل، أبو محمد، عبد الرحمن بن عوف القرشي الزهري رضي الله عنه، أسلم قبل أن يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم، وكان من المهاجرين الأولين، جمع الهجرتين، وشهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، كان كثير الإنفاق في سبيل الله، توفي سنة إحدى وثلاثين. ينظر: الاستيعاب (٢/٨٤٤)، أسد الغابة (٣/٤٧٥).

(٣) جامع البيان (٧/٤٥)، وقد صحح الحاكم هذا الأثر ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة. ينظر: المستدرك (٤/١٥٨)، رقم ٧٢٢٠. السلسلة الصحيحة (٧/١٤٢٠).

(٤) رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الجمعة، باب السواك يوم الجمعة (٢/٤)، رقم ٨٨٧.

٥- نهى رسول الله ﷺ عن قرب المساجد لمن أكل ثومًا أو بصلًا؛ لأن ذلك مستقبح في حق مَن يقرأ القرآن ويناجي ربه، فضلًا عما فيهما من رائحة كريهة تؤذي المؤمنين والملائكة الحاضرة الصلاة، وشارب الخمر يفوح منه أقذر من رائحة الثوم والبصل، وفعله أقبح عند الله وأشد أذية للملائكة والمصلين من أكلهما، وربنا جل في علاه نهى عن أذية المؤمنين عامة، فضلًا عن أذيتهم في مساجدهم، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٨]، فإذا كانت أذية المصلين برائحة ما يحل أكله تقتضي إثمًا وبهتانًا يعكر على العبد الواعي قربه من ربه، فمن باب أولى أن المخمور الذي لا يجد منه المؤمنون والملائكة إلا النتن أشد إثمًا وبهتانًا وبُعدًا عن الله.

٦- أخبر الرسول ﷺ عن ارتفاع الإيمان وانسلاخه -مع بقاء أصله- عن شارب الخمر، ومن كان إيمانه ناقصًا، كان قربه من الله باخسًا، قال ﷺ: «**لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَنْتَهِبُ نُهْبَةً [١] يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»[٢]، فإذا دخل المخمور في الصلاة وهو ناقص الإيمان، كان ذلك سببًا لانقطاع الصلة بينه وبين ربه، وإذا انقطعت صلة العبد بربه، فلن ينفعه قرب، ولن يثاب على عمله بأجر.

ثانيًا: قرب النساء في المحيض:

اختلفت الأمم السابقة في معاملتها للمرأة الحائض اختلافًا شديدًا، فشدد

---

(١) النهبة: المال المنهوب، المأخوذ جهرًا قهرًا. ينظر: فتح الباري (١٢/٥٩).

(٢) رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب المظالم، باب النهبى بغير إذن صاحبه (٣/١٣٦)، رقم ٢٤٧٥، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي...، (١/٧٦)، رقم ١٠٠.

اليهود والمجوس في هجرها واعتزالها، وتساهل النصارى في معاشرتها أثناء حيضها كما لو أنها طاهرة[١]، ثم جاء دين الإسلام بالوسطية والاعتدال، بين إفراط المتشدد وتفريط المتساهل، فقرر أذى حيض المرأة وضرره وقذارته، مع تكريمه لها، وعدم قبول اعتزالها أو استقذارها، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ومعنى الآية: ويسألونك عن المحيض قل هو أذى؛ لكونه نجسًا كريه الرائحة يورث العلل لمن جامع فيه، فاعتزلوا جماع النساء في فترة الحيض، ولا تقربوهن بالوطء والجماع حتى ينقطع ويغتسلن بالماء فيتطهرن، فإذا اغتسلن وتطهرن طهر الصلاة، فأتوهن طاهرات من حيث أمركم أن تعتزلوهن، إن الله يحب المنيبين إليه وإلى طاعته، ويحب المتطهِّرين طهارة حسية بالماء، وطهارة معنوية من الذنوب والمعاصي[٢].

وعلى هذا فقرب المرأة وجماعها في حال حيضها معصية تبعد المرء عن الله تعالى، مَن وقع فيها فارق طريق الحق والعدل، وابتعد عن طريق الهداية والقسط، ولعل تذييل الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ فيه إشارة إلى أن الله يبغض مَن يفعل أمرًا قذرًا مستقبحًا، كمجامعة المرأة في حيضها، كما أنه يحب التوَّابين من الذنوب والمتطهِّرين من الأقذار والأدناس.

قال البغوي رحمه الله: «فوطء الحائض حرام، ومَن فعله يعصي الله عز وجل ويعزره الإمام، إن علم منه ذلك»[٣].

---

(١) ينظر: الكشف والبيان (٢/١٥٨).

(٢) ينظر: جامع البيان (٣/٧٢٠).

(٣) معالم التنزيل (١/٢٥٧).

وقال البقاعي رحمه الله(١): «ولما كانت المخالطة على الوجه الذي نهى الله عنه قذرة جدًّا أشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَيُحِبُّ﴾، ولما كانت شهوة النكاح وشدة الشبق جديرة بأن تغلب الإنسان إلا بمزيد مجاهدة منه، أظهر التفعل فقال: ﴿ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾»(٢).

وقال الثعالبي رحمه الله(٣): «وجمهور العلماء على أن وطأها في الدم ذنب عظيم يتاب منه»(٤).

وقد أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم بُعد مَن يأتي المرأة في حيضها عن الله بقوله: «**مَنْ أَتَى حَائِضًا، أَوِ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا، أَوْ كَاهِنًا، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم**»(٥).

والحديث فيه تغليظ شديد، وزجر وتنفير، يفهم منه أن إتيان المرأة في حيضها أمرٌ عظيم يصد العبد سبيل الله، وأن فاعله شط عن طريق الهدى واتبع مسالك الباطل.

---

(١) أبو الحسن، برهان الدين، إبراهيم بن عمر بن حسن الرُباط البقاعي، إمام من الأئمة المتقنين المتبحرين في جميع المعارف، برع في جميع العلوم،، من مصنفاته: "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور"، و"النكت الوفية بما في شرح الألفية"، كانت وفاته في سنة خمس وثمانين وثمانمائة. ينظر: طبقات المفسرين للأدنه وي، ص ٣٤٧، البدر الطالع (١/١٩)، الأعلام (١/٥٦).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٣/٢٧٨).

(٣) أبو زيد، عبد الرحمن بن محمد الثعالبي الجزائري، كان إمامًا علامة مفسرًا مصنفًا، له: "الجواهر الحسان في تفسير القرآن"، و"لباب الآداب"، كانت وفاته سنة ست وسبعين وثمانمائة. ينظر: طبقات المفسرين للأدنه وي، ص ٣٤٢، الأعلام (٣/٣٣١).

(٤) الجواهر الحسان (١/٤٤٨).

(٥) رواه الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أبواب الطهارة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في كراهية إتيان الحائض (١/١٧٨)، رقم ١٣٥، وضعفه من قبل إسناده، والحديث رواه أبو داود، وسكت عنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: سنن أبي داود (٦/٤٨)، رقم ٣٩٠٤ صحيح الجامع (٢/١٠٣١)، رقم ٥٩٤٢.

ثالثًا: القرب من الفواحش الظاهرة والباطنة:

لما كانت الفواحش[(١)] معولَ هدمٍ للأخلاق والفضيلة، وشؤمًا على أهلها، وخسرانًا في الدنيا والآخرة، حرم الإسلام اقترافها والتلبس بها، ونهى عن وسائلها وأسباب الوقوع فيها، وأظهر الشرع الحكيم أثرها على قرب العبد من ربه، يُستدل على ذلك بما يلي:

١- بيَّن الله تعالى قبح الفواحش، وبالغ في ذمها وتحريمها، وأمر باجتناب كل وسيلة تكون ذريعة للوقوع فيها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، قال ابن جرير: «ولا تقربوا الظاهر من الأشياء المحرمة عليكم، التي هي علانية بينكم لا تناكرون ركوبها، والباطن منها الذي تأتونه سرًّا في خفاء لا تجاهرون به، فإن كل ذلك حرام»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال ﷺ: «**إنَّ الله ﷻ لا يُحِبُّ الفاحِشَ المُتفحِشَ**»[(٣)].

---

(١) الفاحشة والفحشاء، كلمة تدل على قبح الشيء وشناعته، وكل شيء جاوز حده وقدره هو فاحش، قال ابن جرير: «وهي كل ما استفحش ذكره، وقبح مسموعة، وقيل الفحشاء: الزنا، فإن كان ذلك كذلك، فإنما يسمى كذلك لقبح مسموعه، ومكروه ما يذكر به فاعله»، وقال السعدي: «الفواحش: الذنوب الكبار التي تستفحش وتستقبح لشناعتها وقبحها، وذلك كالزنا واللواط ونحوهما»، وقال ابن عاشور: «والفحشاء: اسم مشتق من فحش إذا تجاوز الحد المعروف في فعله أو قوله، واختص في كلام العرب بما تجاوز حد الآداب وعظم إنكاره». ينظر: معجم مقاييس اللغة (٤/٤٧٨)، جامع البيان (٣/٤٠)، تيسير الكريم الرحمن، ص ٢٨٧، التحرير والتنوير (٢/١٠٥).

(٢) جامع البيان (٩/٦٥٩).

(٣) رواه أبو داود، من حديث عائشة رضي الله عنها، كتاب الأدب، باب في حسن العشرة (٧/١٧١)، رقم ٤٧٩٢، وله شاهدان عند البخاري في الأدب المفرد من حديث أبي هريرة، وابن عباس رضي الله عنهم، صحح أحدهما الألباني، وحسن إسناد الآخر، كما صحح رواية أبي داود هذه في صحيح الجامع. ينظر: صحيح الأدب المفرد، ص ١٣٥، رقم ٢٥٢، ص ١٧٩، رقم ٣٦٦، صحيح الجامع (٢/١٣١٢)، رقم ٧٩٢٢.

قال ابن الأثير رحمه الله: «الفاحش: ذو الفحش، وهو القبيح من القول والفعل، والمتفحِّش: الذي يتكلَّف ذلك ويعانيه»[(١)].

فهذه أدلة صريحة تبيِّن للعبد المؤمن شناعة الوقوع في الفواحش أو حتى القرب منها، باقتراف دواعيها التي تجر إليها.

٢- أخبر القرآن الكريم عن سوء عاقبة مَن أحب أن تشيع الفاحشة وتنتشر بين المسلمين، وتوعَّد على ذلك بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور: ١٩]، فإذا كان هذا الوعيد لمجرد محبة شيوع الفاحشة، واستطابة ذلك بالقلب، فكيف بمَن يُظهرها ويسعى في انتشارها[(٢)] بين المسلمين، لا ريب أنه أشد عذابًا، وأعظم بُعدًا، وأكبر خيانة وغشًّا لعباد الله المؤمنين.

٣- قرن الله تعالى بين الفواحش وكبائر الذنوب في موضعَين من كتاب الله الكريم، وهذه إشارة تدل على بُعد أهلها عن طريق الرشد والسلامة، وعظيم ذنب مَن ولج من أبوابها، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]، قال محمد رشيد رضا رحمه الله[(٣)]: «قل أيها الرسول لهؤلاء

---

(١) جامع الأصول (١١/٧٣٩).

(٢) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٥٦٤.

(٣) محمد رشيد بن علي رضا البغدادي الأصل، الحسيني النسب، أحد رجال الإصلاح، من الكتّاب العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير، لازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ له، وأصدر مجلة (المنار) لبث آرائه في الإصلاح الديني والاجتماعي، وأصبح مرجع الفتيا في التأليف بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة، أشهر آثاره "مجلة المنار"، و"تفسير القرآن الكريم"، و"الوحي المحمدي"، مات سنة أربع وخمسين وثلاثمائة وألف. ينظر: الأعلام (٦/١٢٦).

المشركين وغيرهم من أهل الملل الذين ظلموا أنفسهم، وكذبوا على الله بزعمهم أنه حرَّم على عباده ما أخرج لهم من نعم الزينة والطيبات من الرزق، وكذا لمن اتبعك من المؤمنين: إنما حرم ربي في كتبه، على ألسنة رسله، هذه الأنواع الخمسة أو الستة من أعمالهم الضارة التي يجنون بها على أنفسهم، فجعل تحريمها هو الدائم الذي لا يباح بحال من الأحوال، كما يدل عليه الحصر بـ(إنما)»[(١)].

وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، قال ابن عطية رحمه الله: «قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه الآيات هي المحكمات التي ذكرها الله في سورة آل عمران، اجتمعت عليها شرائع الخلق، ولم تنسخ قط في ملة، وقد قيل: إنها العشر الكلمات المنزلة على موسى عليه السلام»[(٢)].

٤- أخبر الله تعالى في ثلاثة مواضع من كتابه الكريم[(٣)] أن الفواحش مما يأمر به الشيطان ويحض عليه، وكونها مما يرغِّب فيه الشيطان ويسعى لإغراء العبد به، دليل على أنها تباعد بين العبد وربه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٦٨) إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩]، قال الرازي رحمه الله: «فهذا كالتفصيل لجملة عداوته، وهو مشتمل على أمور ثلاثة، **أولها**: السوء، وهو متناول جميع المعاصي، سواء كانت تلك

---

(١) تفسير المنار (٨/٣٩٥).

(٢) المحرر الوجيز (٢/٣٦١).

(٣) البقرة: ١٦٩، ٢٦٨، والنور: ٢١.

المعاصي من أفعال الجوارح أو من أفعال القلوب. **وثانيها**: الفحشاء وهي نوع من السوء؛ لأنها أقبح أنواعه، وهو الذي يستعظم ويستفحش من المعاصي. **وثالثها**: أن تقولوا على الله ما لا تعلمون، وكأنه أقبح أنواع الفحشاء؛ لأنه وصف الله تعالى بما لا ينبغي من أعظم أنواع الكبائر»(١).

٥- أخبر الصادق المصدوق ﷺ أن مَن لازمَ الفحش وقبيح القول والفعل حتى يبغضه الناس ويعرضوا عنه هو بأشر المنازل من الله يوم القيامة، قال ﷺ: «**إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ، أَوْ وَدَعَهُ النَّاسُ، اتِّقَاءَ فُحْشِهِ**»(٢)، قال المناوي رحمه الله: «أي لأجل قبيح فعله وقوله، أو لأجل اتقاء فحشه، أي: مجاوزة الحد الشرعي قولًا أو فعلًا»(٣)، فيتبين بهذا أن أهل الفحش مبغَضون من الله والمؤمنين، بعيدون عن المنهج الرباني والمسلك الإيماني.

٦- عاقب الله أهل الفواحش في الدنيا قبل الآخرة بالأمراض والأوبئة والأوجاع، جزاء لهم على انتهاك محارم الله تعالى وتجاوُز حدوده، والعمل بمعصيته دون طاعته، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ، فقال: «**يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ، حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ، وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا**... الحديث»(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (٥/٤).

(٢) رواه البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها، كتاب الأدب، باب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد والريب (١٧/٨)، رقم ٦٠٥٤.

(٣) فيض القدير (٢/٤٥٤).

(٤) رواه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب العقوبات (٢/١٣٣٢)، رقم ٤٠١٩، قال الحاكم في المستدرك: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: المستدرك (٤/٥٨٣)، رقم ٨٦٢٣، صحيح الجامع (٢/١٣٢١)، رقم ٧٩٧٨.

وما كان الله ليعذبهم ويبتليهم بهذه المصائب العظيمة، لو كان لهم عند الله مكانة وقدر، والأَولى بالمؤمن أن يتقي عذاب الله في الدنيا والآخرة، ويسعى لما فيه مرضاته وطاعته، ويجتنب كل سبب ظاهر أو باطن يقود إلى الوقوع في الفاحشة.

رابعًا: القرب من مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن:

يعد الإحسان إلى اليتامى ورعايتهم والقيام على أموالهم من محاسن هذا الدين العظيم، فقد حثَّ القرآن على الإحسان إلى اليتيم، ورغَّبت السُّنة في القيام بحقه والعناية بأمره، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء:٣٦]، وقال ﷺ: «**وَأَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا**» وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا [(١)].

ومقابل ذلك جاءت أدلة الشريعة وشواهدها التي تحذِّر أشد الحذر من أكل مال اليتيم، والتصرف فيه بغير وجه حق، وتقرر أن ذلك مانع عظيم من موانع القرب من الله، يستدل على ذلك بما يلي:

١- حذَّر الله جل في علاه من قرب مال اليتيم إلا بقصد إصلاحه وصيانته وتنميته، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، أي: ولا تقربوا مال اليتيم إلا بما فيه صلاحه وزيادته وتثميره له، بالتجارة ونحوها[(٢)]. وهذه إشارة ربانية إلى أن حرمة مال اليتيم توجب الحذر من الوسائل التي قد تدعو لفساده أو ضياعه، وأن ذلك ذنب عظيم يبغضه الله تعالى.

٢- صوَّر الله أكل مال اليتيم وترك المال الحلال بصورة استبدال الخبيث

---

(١) رواه البخاري من حديث سهل بن سعد رضي الله عنهما، كتاب الطلاق، باب اللعان... (٥٣/٧)، رقم ٥٣٠٤.

(٢) ينظر: جامع البيان (٦٦٢/٩).

بالطيب، قال تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ﴾ [النساء: ٢]، ثم شنع جل في علاه على مَن يفعل ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أي: إثمًا كبيرًا عظيمًا»[١]، ومسلّم أن كل إثم عظيم هو من موانع القرب من الله تعالى.

٣- أخبر القرآن الكريم أن مَن أكل مال يتيم على سبيل الظلم وهضم الحق، فإنما يأكل نارًا تتأجج في بطنه يوم القيامة، فضلًا عن دخوله جهنم العظيمة المستعرة يقاسي حرَّها ويكابد بأسها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، قال السدي رحمه الله[٢]: «إذا قام الرجل يأكل مال اليتيم ظلمًا، يبعث يوم القيامة ولهب النار يخرج مِن فيه ومن مسامعه ومن أذنيه وأنفه وعينيه، يعرفه مَن رآه بأكل مال اليتيم»[٣].

وقال السعدي رحمه الله: «هذا أعظم وعيد ورد في الذنوب، يدل على شناعة أكل أموال اليتامى وقبحها، وأنها موجبة لدخول النار، فدل ذلك أنها من أكبر الكبائر»[٤].

وهذا الوعيد العظيم والعاقبة السيئة تدل على شناعة هذا الجرم عند الله تعالى، وعلى ذلك فاقترافه أو القرب من أسبابه بُعد عن الله تعالى، وشقاء في الدنيا، وعذاب في الآخرة.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/٢٠٨).

(٢) أبو محمد، إسماعيل بن عبد الرحمن السدي، الإمام المفسر، أحد موالي قريش، روى عن أنس وابن عباس رضي الله عنهما، مات سنة سبع وعشرين ومائة. ينظر: سير أعلام النبلاء (٥/٢٦٤)، طبقات المفسرين للداودي (١/١١٠).

(٣) جامع البيان (٦/٤٥٤).

(٤) تيسير الكريم الرحمن، ص ١٦٦.

٤- أخبر رسول الله ﷺ أن أكل مال اليتيم من الكبائر العظيمة المهلكة التي تورد صاحبها موارد السوء، وتتجافى به عن سبل الهداية والفلاح، قال ﷺ: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «**الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلَاتِ**»[١].

فمجمل هذه الشواهد والبراهين يدل على أن أكل مال اليتيم بغير حق ذنب عظيم أهان الله أهله، وحرمهم جميل عفوه وعظيم جوده، ومانع كبير يحول بين العبد وبين القرب من الله في الدنيا والآخرة.

خامسًا: قرب الزنا:

الزنا جريمة بشعة، وفاحشة كبيرة، اجتمع على صاحبها غضب الرب، وقسوة القلب، وضعف الإيمان، وهو سبب عظيم من أسباب التعاسة والشقاء، ومسلك خطير من مسالك البأساء والضراء، رتب الله تعالى عليه حدًّا قاسيًا في الدنيا، وعذابًا غليظًا في الآخرة، وقد دلت نصوص الكتاب والسُّنة على أنه لما سقطت مهابة الله من قلوب الزناة، وانسلخت من لباس الخوف والحياء، أصبحوا من أبعد الناس عن الله تعالى، وشواهد ذلك ما يلي:

١- قطع الله كل سبب يوصل إلى الزنا، ونهى عن كل وسيلة تزرع الفتنة وتحرك الشهوة وتهيج الغريزة الجنسية، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢]، فنهى عباده عن مخالطة أسبابه ودواعيه؛ لأنه ذنب عظيم ومسلك بئيس[٢].

---

(١) رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الوصايا، باب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ (٤/ ١٠)، رقم ٢٧٦٦، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، (١/ ٩٢)، رقم ١٤٥.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٥/ ٧٢).

قال السعدي رحمه الله: «والنهي عن قربانه أبلغ من النهي عن مجرد فعله؛ لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه، فإن مَن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه، خصوصًا هذا الأمر الذي في كثير من النفوس أقوى داع إليه، ووصف الله الزنا وقبحه بأنه ﴿كَانَ فَٰحِشَةً﴾، أي: إثمًا يستفحش في الشرع والعقل والفِطَر؛ لتضمنه التجري على الحرمة في حق الله وحق المرأة وحق أهلها أو زوجها، وإفساد الفراش واختلاط الأنساب، وغير ذلك من المفاسد»[(١)].

٢- قرن الله تعالى الزنا بأكبر ذنبين، وأعظم إثمين، الشرك وقتل النفس، وجعل حال أهله كحال أهل الشرك والضلال، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٨]، قال الإمام أحمد رحمه الله[(٢)]: «ولا أعلم بعد قتل النفس شيئًا أعظم من الزنى»[(٣)].

٣- لقبح الزنا ونجاسة أهله، رتب الله عليه حدًّا صارمًا قاسيًا فوق الأرض، وعذابًا أليمًا تحت الأرض، وجزاءً مضاعفًا يوم العرض.

فأما حدُّه في الدنيا فهو الجلد والتغريب بلا رأفة أو شفقة لكل زانٍ غير

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٥٧.

(٢) أبو عبد الله، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، عاش يتيمًا، وطلب الحديث وهو ابن ست عشرة سنة، قال عنه الشافعي: خرجت من بغداد فما خلفت بها رجلًا أفضل ولا أعلم ولا أفقه من أحمد بن حنبل، امتحن بمناظرة من يقولون بخلق القرآن فأوذي وصبر وثبت حتى نصره الله، قال ابن المديني: إن الله أيد هذا الدين بأبي بكر الصديق يوم الردة، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة، من مصنفاته: "المسند"، و"الزهد"، مات سنة إحدى وأربعين ومائتين. ينظر: طبقات الفقهاء لأبي إسحاق الشيرازي، ص ٩١، تذكرة الحفاظ (١٥/٢)، الأعلام (٢٠٣/١).

(٣) الجواب الكافي، ص ٢٦١.

محصن، قال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٖۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]، وعن زيد بن خالد رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أَنَّهُ أَمَرَ فِيمَنْ زَنَى، وَلَمْ يُحْصَنْ بِجَلْدِ مِائَةٍ، وَتَغْرِيبِ عَامٍ**» (١).

وأما الزاني المحصن فرجم بالحجارة، رجلًا كان أو امرأة، حتى الموت، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم بِالحَقِّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الكِتَابَ، فَكَانَ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ آيَةُ الرَّجْمِ، فَقَرَأْنَاهَا وَعَقَلْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا، رَجَمَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَرَجَمْنَا بَعْدَهُ، فَأَخْشَى إِنْ طَالَ بِالنَّاسِ زَمَانٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: وَاللَّهِ مَا نَجِدُ آيَةَ الرَّجْمِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَيَضِلُّوا بِتَرْكِ فَرِيضَةٍ أَنْزَلَهَا اللَّهُ، وَالرَّجْمُ فِي كِتَابِ اللَّهِ حَقٌّ عَلَى مَنْ زَنَى إِذَا أُحْصِنَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، إِذَا قَامَتِ البَيِّنَةُ، أَوْ كَانَ الحَبَلُ أَوِ الِاعْتِرَافُ»(٢).

وأما عذاب الزناة تحت الأرض، فقد ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث الرؤيا التي رآها، قال: «**فانطلقنا إلى ثقب مثل التنور، أعلاه ضيق، وأسفله واسع، يتوقد تحته نارًا، فإذا اقترب ارتفعوا، حتى كاد أن يخرجوا، فإذا خمدت رجعوا فيها، وفيها رجال ونساء عراة**»، فلمّا سأل عن ذلك قيل له: «**وَالَّذِي رَأَيْتَهُ فِي الثَّقْبِ فَهُمُ الزُّنَاةُ**»(٣)، قال ابن القيم رحمه الله: «وهذا نص في عذاب البرزخ، فإن رؤيا الأنبياء وحي مطابق لما في نفس الأمر»(٤).

---

(١) رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب شهادة القاذف والسارق والزاني... (١٧١/٣)، رقم ٢٦٤٩، ورواه مسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنا، (١٣٢٤/٣)، رقم ٢٥.

(٢) رواه البخاري، كتاب الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت، (١٦٨/٨)، رقم ٦٨٣٠، ورواه مسلم، كتاب الحدود، باب رجم الثيب في الزنى (١٣١٧/٣)، رقم ١٥.

(٣) رواه البخاري من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه، كتاب الجنائز، باب... (١٠٠/٢)، رقم ١٣٨٦.

(٤) الروح (١٧١/١).

وأما عذاب يوم القيامة، فقد ذكره الله في سورة (الفرقان) حين قال جل ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨، ٦٩].

وأخبر به رسول الله ﷺ في قوله: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ**»(١).

٤- جاءت السُّنة الشريفة تؤكد انحطاط التقوى والإيمان من قلوب الزناة، وإدبارهم عن وسائل الهداية والاستقامة والقرب من الله، قال ﷺ: «**لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَنْتَهِبُ نُهْبَةً، يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»(٢)، قال النووي رحمه الله(٣): «فالقول الصحيح الذي قاله المحققون، أن معناه لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان»(٤).

وقال ﷺ: «**إذا زَنَى الرَّجُلُ خَرجَ منه الإيمانُ كان عليه كالظُّلَّة، فإذا أقلَعَ رَجعَ إليه الإيمان**»(٥).

---

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار... (١/١٠٢)، رقم ١٧٢.

(٢) سبق تخريجه، ص ١٧٢.

(٣) أبو زكريا، يحيى بن شرف النووي الشافعي محيي الدين، كان إمامًا بارعًا حافظًا شديد الورع والزهد، أمارًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، بارك الله في علمه وتصانيفه لحسن قصده، صنف: "المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج"، و"الأذكار"، و"رياض الصالحين"، مات سنة ست وسبعين وستمائة. ينظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٨/٣٩٥)، طبقات الحفاظ للسيوطي، ص ٥١٣.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (٢/٥٥).

(٥) رواه أبو داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه =

وحاصل القول أن العاقل العفيف سوي الفطرة، لا يرضى لنفسه هذه الفاحشة الشنيعة بعد أن أباح الله له الزواج بأربع، ولا يقبل أن يتصف بصفات عبيد الشهوات المحرمة، الذين غضب الله عليهم وأعرض عنهم وحرمهم قربه ومحبته ورضاه.

سادسًا: القرب من حدود الله:

يقصد بحدود الله أحكامه وشرائعه التي شرعها لعباده، شبهت بالحدود؛ لأن المكلف يقف عندها ولا يتجاوزها[(١)].

قال السمرقندي رحمه الله: «حدود الله: فرائض الله وأمره ونهيه وأحكامه»[(٢)].

فهي معالم تفصل طاعة الله عن معصيته، فمن تجاوز حد الحلال، أو اقترب من حد الحرام، وقع في المحظور، ومال عن سبيل أهل السعادة والسرور، يستدل على ذلك بما يلي:

١- نهى الله عباده المؤمنين عن القرب من حدوده ومعالم حرماته، فمَن خالف أمر ربه وقع في المعصية التي تمنعه وتصده عن القرب من الله تعالى، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧]، قال ابن رجب رحمه الله: «فأراد بحدوده هاهنا: ما نهى عنه، فلذلك نهى عن قربانه، فإنه تعالى جعل لكل شيء حدًّا، فجعل للمباح حدًّا، وللحرام حدًّا، وأمر بالاقتصار على حد المباح وأن لا يتعدى، ونهى عن قربان حد الحرام»[(٣)].

=(٧/٧٦)، رقم ٤٦٩٠، قال الحاكم في المستدرك: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين فقد احتجا برواته، وله شاهد على شرط مسلم"، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: المستدرك (١/ ٧٢)، رقم ٥٦، صحيح الجامع (١/ ١٦٢)، رقم ٥٨٦.

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٢/ ٤٢٠).

(٢) بحر العلوم (١/ ٢٠٩).

(٣) روائع التفسير (١/ ٨٢).

٢- أخبر الله تعالى في موضعَين من كتابه الكريم بظلم مَن يتجاوز طاعته إلى معصيته، والظالم بعيد عن مرضاة الله قريب من سخطه وأليم عقابه، قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١]، فهؤلاء المتجاوزون لحدود الله قد ظلموا أنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى وعقابه(١).

ولما كان القرب مما نهى الله عن قربه هو كذلك تجاوُز من الطاعة إلى المعصية، كان جزاء صاحبه أيضًا كجزاء الظلمة.

٣- ذم الله مَن لا يعرف حدود ما أنزل على عباده، ولا يعلم المعالم التي بها تتبين الواجبات والحقوق فتؤتى، وتظهر المحرمات والمنهيات فتتقى، قال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٧]، قال الزمخشري رحمه الله: «أهل البدو ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل الحضر لجفائهم وقسوتهم وتوحشهم، ونشئهم في بُعد من مشاهدة العلماء ومعرفة الكتاب والسُّنة، ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟﴾، وأحق بجهل حدود الدين وما أنزل الله من الشرائع والأحكام»(٢).

٤- أخبر رسول الله ﷺ بأن عقوبة الوقوع في حدود الله تعالى تتجاوز أهلها إلى غيرهم إذا تُركوا ولم يؤمروا بالمعروف أو ينهوا عن المنكر، وهذا شاهد عظيم على خطر الوقوع فيها، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «**مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ**

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم (١/ ٢٢٧).

(٢) الكشاف، ص ٤٤٦.

فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا»[1]. والحديث يدل على أن أعظم أسباب بلاء الأمة اليوم، وانتشار الفواحش في أرجائها، وابتعادها عن منهجها الذي سار عليه سلفها، سكوت القائمين على حدود الله عن شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وختام ما يمكن قوله هنا: إن القرب من حدود الحرام منكر عظيم وضلال مبين، فمَن قيّد حريته بما قررته الشريعة، كان عبدًا محسنًا تقيًّا يرقب أمر الله ونهيه، ومَن أرخى لنفسه العنان حتى يقع في حمى ما حرم الله، كان منتهكًا لحرمات الله تعالى متعديًا لمعالم شرعه.

سابعًا: اتباع خطوات الشيطان:

حِرصُ الشيطان على إبعاد بني آدم عن الحق قضية قديمة معروفة، جلاها الكتاب، وشهدت بها السُّنة، حتى صارت أنصع من ضوء الشمس في كبد السماء، فمَن أتبع نفسه هواها واستجاب لخواطر الشيطان واتبع خطواته، صدَّه ذلك عن سبيل الله تعالى، وابتعد عن الله تعالى بُعدًا لا ينقضي حتى يحذر الشيطان ويتخذه عدوًّا، وأدلة ذلك ما يلي:

١ - أخبر الله تعالى عن رغبة الشيطان الأكيدة في إضلال الناس وإبعادهم عن طريق الحق، وقرر الله تعالى في مواضع كثيرة من كتابه الكريم أن إرادته مخالفة ومعاكسة تمامًا لإرادة الله تعالى، فالله يريد لخلقه التوبة والهداية والاستقامة ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ٦٠]، والله يريد للناس الخير

---

(١) رواه البخاري، كتاب الشركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه (٣/١٣٩)، رقم ٢٤٩٣.

والفلاح في الدنيا والآخرة، و﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ ﴾ [المائدة: ٩١]، والله يعد الناس المغفرة والفضل والرضوان، و﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، فلما كان مراد الشيطان يناقض مراد الرحمن ويضاده، دلَّ ذلك على أن مَن تسلط عليه واتبع سلطانه أصبح وليًّا له قريبًا منه بعيدًا عن الله تعالى.

٢- حذَّر الله عباده عداوته وكيده في خمس عشرة آية من كتابه الكريم(١)، ونهى عن اتباع خطواته في أربعة مواضع(٢)، فمَن رضي لنفسه أن يتولى عدو الله، ويتبع خطواته بعد علمه ببغضه وكراهيته لبني آدم عليه السلام، كان بعيدًا عن الهدى قريبًا إلى الضلال، قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام: ١٤٢]، قال ابن زيد رحمه الله(٣): «لا تتبعوا طاعته، هي ذنوب لكم، وهي طاعة للخبيث»(٤).

وقال ابن كثير رحمه الله: «وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ تنفير عنه، وتحذير منه»(٥).

ثم لم يقتصر الله تعالى على التحذير من عداوته واتباع خطواته فحسب؛ بل أمر كذلك باتخاذه عدوًّا وغريمًا، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦]، أي: أنزلوه منزلة العدو،

(١) البقرة: ٣٦، ١٦٨، ٢٠٨، والأنعام: ١٤٢، والأعراف: ٢٢، ٢٤، ويوسف: ٥، والإسراء: ٥٣، والكهف: ٥٠، وطه: ١١٧، ١٢٣، والقصص: ١٥، وفاطر: ٦، ويس: ٦٠، والزخرف: ٦٢.

(٢) البقرة: ١٦٨، ٢٠٨، والأنعام: ١٤٢، والنور: ٢١.

(٣) عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العمري المدني، صاحب قرآن وتفسير، جمع تفسيرًا في مجلد، وكتابًا في الناسخ والمنسوخ، مات سنة اثنتين وثمانين ومائة. ينظر: سير أعلام النبلاء (٨/٣٤٩)، طبقات المفسرين للأدنه وي، ص ١١.

(٤) جامع البيان (٩/٦٢٣).

(٥) تفسير القرآن العظيم (١/٤٧٨).

فأطيعوا الله ولا تطيعوه، ولا تتبعوا خطواته، فإنه إنما يدعو شيعته وأولياءه؛ ليكونوا من المخلَّدين في نار جهنم[(١)].

٣- ذمَّ الله تعالى مَن اتخذ الشيطان صاحبًا وخليلًا، يتقرب إليه بطاعته واتباع خطواته، قال تعالى: ﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨]، أي: ومَن يكن الشيطان له صاحبًا وخليلًا، فبئس الصحبة والخلة صحبة الشيطان[(٢)].

٤- أخبر الله تعالى في كتابه العزيز بتخلِّي الشيطان وتنصله من أوليائه يوم القيامة، فيجحد طاعتهم له وطغيانه لهم، قال تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧]، قال ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، وقتادة رحمهما الله: «هو الشيطان الذي وكل به»[(٣)].

ومما يزيدهم غيظًا وحزنًا وقوفه بين أيديهم خطيبًا فيهم، يلومهم ويوبخهم على اتباعهم له بغير حُجة أو سلطان، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، قال الحسن رحمه الله: «إذا كان يوم القيامة، قام إبليس خطيبا على منبر من نار»[(٤)].

فهذه المواقف المخزية للشيطان حُجة واضحة على أن طاعته في الدنيا واتباعه خسارة ووبال على أهلها يوم يظنون منه النصر ويرجون منه النفع.

(١) ينظر: جامع البيان (١٩/ ٣٣١).

(٢) ينظر: الكشف والبيان (٣/ ٣٠٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٠٣).

(٤) جامع البيان (١٣/ ٦٣١).

٥- حكم الله تعالى على مَن يتولى الشيطان ويتقرب إليه بالطاعة له والمعصية لله بالخسارة والبخس؛ لأنه لا ينصرهم ولا يدفع عنهم، إنما يعدهم وعودًا باطلة لا ينجزها لهم، ويمنِّيهم أماني كاذبة لا يحققها لهم، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٩، ١٢٠]، وهذا إخبار عن الواقع؛ لأن الشيطان يعد أولياءه ويمنِّيهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة، ويغرهم بإظهار النفع فيما فيه الضرر، وهذا الوعد إما بالخواطر الفاسدة، أو بلسان أوليائه[(١)].

ثم إذا انكشف لهم الأمر يوم القيامة، وتبيَّن الحق من الباطل، تمنوا على الله الأماني الخاسرة، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨]، أي أن الكافر يقول لشيطانه: يا ليت حصل بيني وبينك بُعد على أعظم الوجوه، فبئس القرين أنت[(٢)].

قال ابن القيم رحمه الله: «وكل مَن أعرض عن الاهتداء بالوحي الذي هو ذكر الله فلا بد أن يقول هذا يوم القيامة»[(٣)].

فيدل حاصل ما سبق على أن اتباع خطوات الشيطان وطاعته من دون الله تعالى مانع عظيم من موانع القرب من الله تعالى، ما ضل ضال من الناس إلا بسبب كيده وإغوائه، وما خسر عبد دنياه وأخراه إلا بتزيينه وإغرائه.

ثامنًا: القرب من قرناء السوء ومعاشرتهم:

حذَّرت نصوص الشريعة من معاشرة الأشرار وأهل الفسق والضلال،

---

(١) ينظر: أنوار التنزيل (٢/٩٨)، تفسير القرآن العظيم (٢/٤١٦).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب (٢٧/٢١٤).

(٣) التفسير القيم، ص ٣٥٩.

وذلك لما في مجالستهم ومعاشرتهم والتقرب إليهم من خطورة عظيمة على دين المرء وأخلاقه، فكم أهلكوا من صاحب، وكم أحدثوا في الأرض من مفاسد! مَن تقرب إليهم عن الحق أبعدوه، ومَن سلك سبيلهم عن الاستقامة أضلوه.

وكما أن تولِّي الصالحين ومعاشرتهم سبب من أسباب القرب من الله تعالى، فإن القرب من الطغاة والفساق الذين لا يألون جهدًا في الصد عن سبيل الله والدعوة إلى الباطل مانع من موانع القرب من الله تعالى، يستدل على ذلك بما يلي:

١- وصف الله تعالى جلساء السوء في كتابه العزيز بأنهم أهل الغفلة عن الذكر والتفريط في أبواب البر، ونهى رسوله ﷺ عن طاعتهم أو الركون إليهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، أي: لا تُطِع مَن جعلنا قلبه غافلًا عن ذكرنا، واتبع مراده في طلب الشهوات، فعطَّل أيامه وضيَّع عمره باطلًا وسرفًا[١].

فمثل هؤلاء الذين شغلوا قلوبهم باللهو الباطل والمتاع الزائل، تمضي عليهم الأيام والليالي لا ينتفعون منها بشيء، فلا شك أن القرب ممن طبعُه الغفلة واللهو والتفريط مضرة عظيمة وغفلة كبيرة، وبُعد عن طاعة الله تعالى وقرب من معصيته.

٢- أخبر الله تعالى في محكم تنزيله بخسارة مَن يطيع أهل السوء أو يجاريهم في أفعالهم القبيحة، قال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥]، قال ابن عطية ﵀: «يسرنا لهم ﴿قُرَنَآءَ﴾ سوء من الشياطين وغواة الإنس، وقوله: ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: علموهم

(١) ينظر: معالم التنزيل (١٦٦/٥).

وقرروا في نفوسهم معتقدات سوء في الأمور التي تقدمتهم من أمر الرسل والنبوات، ومدح عبادة الأصنام، واتباع فعل الآباء، إلى غير ذلك مما يقال إنه بين أيديهم، وذلك كل ما تقدمهم في الزمان، واتصل إليهم أثره أو خبره، وكذلك أعطوهم معتقدات سوء فيما خلفهم، وهو كل ما يأتي بعدهم من القيامة والبعث، ونحو ذلك مما يقال فيه إنه خلف الإنسان، فزينوا لهم في هذين كل ما يرديهم، ويفضي بهم إلى عذاب جهنم»[١].

٣- صوَّر الله تعالى شعور الندم والحسرة التي تنتاب مَن يعاشر قرناء السوء في يوم القيامة، وأظهر تأسفهم على صحبتهم ومعاشرتهم ساعة لا تنفع حسرة أو ندم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩]، قال الرازي رحمه الله: «كما بيَّنا أن الظالم غير مخصوص بشخص واحد؛ بل يعم جميع الظلمة، وكذا المراد بقوله: ﴿فُلَانًا﴾ ليس شخصًا واحدًا؛ بل كل مَن أطيع في معصية الله»[٢].

وقال ابن عاشور رحمه الله: «وإنما تمنى أن لا يكون اتخذه خليلًا دون تمنِّي أن يكون عصاه فيما سوَّل له؛ قصدًا للاشمئزاز من خلته من أصلها إذ كان الإضلال من أحوالها»[٣].

٤- أخبر الله تعالى أن كل صحبة وخلة في غير طاعة الله تنقلب يوم القيامة عداوة وسخطًا، يتلاوم أهلها ويتلاعنون، بسبب إعراضهم في الحياة الدنيا عن

(١) المحرر الوجيز (١٢/٥).
(٢) مفاتيح الغيب (٧٦/٢٤).
(٣) التحرير والتنوير (١٤/١٩).

البر والتقوى، وتعاونهم على الإثم والعدوان، قال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧]، قال مجاهد رحمه الله: «الأخلاء في معصية الله تعالى في الدنيا، يومئذ متعادين في الآخرة»[(١)].

٥- حذَّر الله تعالى المؤمنين خطر ما يروج له أصحاب السوء من دعوات باطلة وضلالات فاجرة، وما يثيرونه من شبهات بغرض صرف الناس عن الحق وتشكيك المؤمنين في العقيدة السليمة التي جاء بها الكتاب وقررتها السُّنة، قال تعالى: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾ [الصافات: ٥١-٥٦]، قال الثعالبي رحمه الله: «وهو مثال لكل مَن له قرين سوء، فيعطي هذا المثال التحفظ من قرناء السوء»[(٢)].

وقال ابن عاشور رحمه الله: «وفي هذه الآية عبرة من الحذر من قرناء السوء ووجوب الاحتراس مما يدعون إليه ويزينونه من المهالك»[(٣)].

٦- حذَّر رسول الله ﷺ صحبة السوء، وأخبر بسوء عاقبة مَن يتخذهم جلساء وأصفياء يأنس بأقوالهم ويصغي لحديثهم، قال ﷺ: «**مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً**»[(٤)].

وقال ﷺ: «**الرجُلُ على دِينِ خَليلِهِ، فلينظر أحدُكُم من يُخالِلُ**»[(٥)]، فلما كان

---

(١) بحر العلوم (٣/٢١٢).

(٢) الجواهر الحسان (٥/٣٠).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/١١٩).

(٤) سبق تخريجه، ص ١٢٧.

(٥) رواه أبو داود، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس (٧/٢٠٤)، =

الإنسان على عادة صاحبه وطريقته وسيرته، لزمه أن يتأمل ويتدبر مَن يصاحب ويخالل، فمن رضي دينه وخلقه صاحَبَه، وإلا تجنبه، فإن الطباع سراقة[(١)]، والأحرى بالمؤمن أن ينأى بنفسه عن قرين لا خير في دينه ولا في أخلاقه، والأَولى به أن يسارع إلى مفارقة أهل السوء ودعاة الباطل، فإن السلامة من بوائقهم والنجاة من فسقهم في مقاطعتهم ومفارقة مجالسهم.

تاسعًا: قرب آدم عليه السلام من الشجرة:

إن قصة آدم وزوجه عليهما السلام، التي فصَّلها الله تعالى في مواضع كثيرة من كتابه الكريم، دليل واضح وشاهد عظيم على أن المعصية مهما كانت وممن كانت هي سبب من أسباب البعد عن الله، ومانع من موانع القرب، يستدل على ذلك من قصة آدم بما يلي:

١- يعد فعل آدم وزوجه عليهما السلام مخالفة لأمر الله تعالى؛ لأن الله تعالى قد نهاه نهيًا صريحًا، حين قال له: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ولا شك أن البعد عن الله تعالى لا يكون إلا بمخالفة أمره واتباع سبيل نهيه.

قال القاسمي رحمه الله: «وإنما علق النهي بالقربان منها، مبالغة في تحريم الأكل، ووجوب الاجتناب عنه؛ لأن القرب من الشيء مقتضى الألفة، والألفة داعية للمحبة، ومحبة الشيء تعمي وتصم، فلا يرى قبيحًا، ولا يسمع نهيًا، فيقع، والسبب الداعي إلى الشر منهي عنه، كما أن السبب الموصل إلى الخير مأمور به»[(٢)].

=رقم ٤٨٣٣، ورواه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب، وحسنه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: سنن الترمذي (١٨٧/٤)، رقم ٢٣٧٨، صحيح الجامع (٦٦٤/١)، رقم ٣٥٤٥.

(١) ينظر: التيسير بشرح الجامع الصغير (٤٠/٢).

(٢) محاسن التأويل (٢٩٢/١).

وقد صرَّح الله تعالى في سورة (طه) بأن آدم عليه السلام أتى المعصية ووقع فيها، وتعدى إلى ما لا يليق به فعله، قال تعالى: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه: ١٢١]، قال الزمخشري رحمه الله: «ولكن قوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ بهذا الإطلاق وبهذا التصريح، وحيث لم يقُل: وزل آدم عليه السلام، وأخطأ وما أشبه ذلك، مما يعبر به عن الزلات والفرطات، فيه لطف بالمكلفين ومزجرة بليغة وموعظة كافية، وكأنه قيل لهم: انظروا واعتبروا كيف نعيت على النبي المعصوم، حبيب الله الذي لا يجوز عليه إلا اقتراف الصغيرة غير المنفرة زلته بهذه الغلظة وبهذا اللفظ الشنيع، فلا تتهاونوا بما يفرط منكم من السيئات والصغائر، فضلًا عن أن تجسروا على التورّط في الكبائر»[١].

٢- إخبار الله تعالى لآدم وزوجه عليهما السلام أن أكلهما من الشجرة يقتضي وقوعهما في الظلم الذي هو من أعظم دواعي البعد عن الله: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٣٥]، قال ابن جرير رحمه الله: «وأما تأويل قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، فإنه يعني به: فتكونا من المتعدين إلى غير ما أذن لهم فيه وأبيح لهم، وإنما عنى بذلك أنكما إن قربتما هذه الشجرة، كنتما على منهاج مَن تعدى حدودي، وعصى أمري، واستحل محارمي؛ لأن الظالمين بعضهم أولياء بعض، والله ولي المتقين»[٢].

٣- عقوبة الله تعالى لآدم وحواء عليهما السلام فورًا بانكشاف عورتهما بعد أن كانت مستورة، وشعورهما بالحياء من هذا المنظر غير المألوف لديهما من قبل، ثم عقوبته لهما بعد اعترافهما بالإخراج من نعيم الجنة والإنزال إلى الأرض، فيهما دلالة على أثر

(١) الكشاف، ص ٦٩٦.
(٢) جامع البيان (١/ ٥٥٩).

اقتراف المعصية والإقدام عليها، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ [الأعراف: ٢٢]، قال القاسمي رحمه الله: «أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية فتهافت عنهما اللباس، فظهرت لهما عوراتهما»(١).

وقال السعدي رحمه الله: «فصار العري الباطن من التقوى في هذه الحال أثر في اللباس الظاهر حتى انخلع، فظهرت عوراتهما»(٢).

وقال تعالى: ﴿وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [البقرة:٣٦]، قال الزحيلي رحمه الله: «وكانت عقوبة آدم وحواء عليهما السلام على المخالفة هي الهبوط إلى الأرض، أما عقاب الآخرة فقد أسقطه الله تعالى بالعفو عنهما وبقبول توبتهما»(٣).

٤- عتاب الله تعالى لآدم عليه السلام، بعد أكله من الشجرة واستجابته لمشورة إبليس، فيه دلالة على أن آدم عليه السلام فعل أمرًا لا يحبه الله ولا يرضاه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وهذا عتاب على مخالفة النهي، وتوبيخ على الاغترار بقول العدو(٤).

٥- اعتراف آدم عليه السلام بالوقوع في الظلم، وخوفه من الخسران والهلاك، دليل آخر على إحساسه بالجرم الذي أبعده عن طاعة ربه، وأضلَّه عن طريق الاستقامة، قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾

---

(١) محاسن التأويل (٥/ ٢٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٢٨٥.

(٣) التفسير المنير (٤/ ٥٢٦).

(٤) ينظر: أنوار التنزيل (٣/ ٩).

[الأعراف: ٢٣]، أي: ربنا أضررنا بأنفسنا من الإساءة إليها بمخالفة أمرك، وطاعة عدونا وعدوك، وإن لم تستر علينا ذنبنا، وتترك فضيحتنا، وتعطف علينا، لنكونن من الهالكين(١).

قال الشوكاني رحمه الله: «وهذا منهما اعتراف بالذنب، وأنهما ظلما أنفسهما مما وقع منهما من المخالفة»(٢).

ومن يتدبر قصة آدم وزوجه عليهما السلام يتبيَّن له شؤم المعصية وضررها على صاحبها، لا يعفى من مسؤوليتها عبد، ولا يسلم من عقابها أحد، إلا أن يشاء الله تعالى، والأحرى بالعبد الضعيف الخطَّاء أن يتخذ من آدم عليه السلام مثلًا وقدوة، فإنه ما إن وقع في الذنب الذي يبعده عن الله تعالى حتى سارع إلى التوبة والاستغفار.

---

(١) ينظر: جامع البيان (١٠/١١٥).

(٢) فتح القدير (٢/٢٧٦).

المطلب الثالث:

سوء الخُلق

الأخلاق السيئة هي السموم القاتلة، والمخازي الفاضحة، التي تبعد عن جوار رب العالمين[1]، وهي شؤم وشر لا يتفق مع ما أمر الله به من العدل والإحسان، وسلوك ناتج عن مرض القلب واختلاطه بالأدواء الفاسدة، ومعصية عظيمة تصد العبد المؤمن عن كثير من الأعمال الصالحة التي تقربه من الله تعالى.

ولما كان سوء الخُلق بهذا الوصف الذي يبغضه الله تعالى ورسوله والمؤمنون، رأى الباحث أن يجعل له حديثًا خاصًّا يقابل ما ذكر عن مكارم الأخلاق في مبحث أسباب القرب من الله؛ إذ لا شك أنه متى كان حسن الخُلق مكرمة للعبد تقربه من الله تعالى، فإن سوء الخُلق مذمَّة تبعد العبد عن الله تعالى، يستدل على ذلك بما يلي:

١- لما كانت مكارم الأخلاق سجية الرسل والأنبياء، وأدب مَن جاء بعدهم من المقربين الأتقياء، وثناء الله تعالى الذي خص به سيد خلقه، دل ذلك على أن سوء الخُلق وصف قبيح وخصلة رديئة لا يتصف بها إلا أرذل الخلق الذين لا يأتمُّون ولا يقتدون بهدي أولياء الله تعالى من الأنبياء والمرسلين، فهم بهذه الطباع السيئة والأخلاق الذميمة بمفازة عن رضوان الله تعالى ومحبته، ولذلك قال الألوسي رحمه الله في قول الله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾ [القلم: ٢، ٣]: «وزعم بعضهم أن في الآية رمزًا إلى أن الأخلاق الحسنة مما لا تجامع الجنون، وأن كلَّما كان الإنسان أحسن أخلاقًا كان أبعد عن الجنون، ويلزم

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين، محمد بن محمد أبو حامد الغزالي (٣/٤٩).

من ذلك أن سوء الأخلاق قريب من الجنون»[١].

٢- تقدم في مطلب حسن الخلق[٢] أن العفو والعدل والإحسان والإنفاق أخلاق فاضلة ومآثر عظيمة دلت نصوص الكتاب والسُّنة على أنها من أسباب القرب من الله، ومقابل ذلك فإن كل ما فيه قهر الناس والإساءة لهم والبخل والشح بما فرض الله، أخلاق قبيحة حائلة بين العبد وبين القرب من ربه، ولذلك نهى الله تعالى عن الإساءة للناس وبخس أشيائهم ومنع حقوقهم؛ لأنها طباع مَن لا خلاق لهم، قال تعالى في قصة شعيب عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥]، قال البغوي رحمه الله: «لا تظلموا الناس حقوقهم، ولا تنقصوهم إيَّاها»[٣].

وقال البيضاوي رحمه الله: «﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ تعميم بعد تخصيص، فإنه أعم من أن يكون في المقدار، أو في غيره، وكذا قوله: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾، فإن العثو يعم تنقيص الحقوق وغيره من أنواع الفساد»[٤].

فمن ظلم الناس ببخس حقوقهم، أو أساء إليهم بسرقة أو نهب أو تحايل أو غير ذلك، كان ذلك فسادًا منه في الأرض، ومعصية موجبة للعقاب يوم العرض.

٣- مَن تأمَّل مظاهر سوء الخُلق التي ذكرها العلماء[٥] تبيَّن له أنها ظلم يبغضه الله، ويعاقب عليه، قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى

---

(١) روح المعاني (١٥/٢٩).

(٢) ينظر: مطلب حسن الخلق، ص ١٢٨.

(٣) معالم التنزيل (٣/٢٥٦).

(٤) أنوار التنزيل (٣/١٤٤).

(٥) ينظر: سوء الخلق، محمد بن إبراهيم الحمد، ص ١٤.

ﭐللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]، قال ابن جرير ﵀: «إن الله لا يحب أهل الظلم الذين يتعدون على الناس، فيسيئون إليهم بغير ما أذِن الله لهم فيه»[(١)]، وقال ابن كثير ﵀: «فأمر بالعدل، وندب إلى الفضل، ونهى عن الظلم»[(٢)].

وقال الزحيلي ﵀: «إنه تعالى لا يحب المبتدئين بالظلم، ولا يحب مَن يتعدى في الاقتصاص ويجاوز الحد فيه؛ لأن المجاوزة ظلم، والمراد أنه تعالى يعاقب المتجاوز حده»[(٣)].

والمتأمل في حال الظَّلَمة المتجاوزين حدود ما شرع الله، يظهر له سوء أخلاقهم، وذميم طباعهم؛ لذا فإنه لا فضل لأهل الأخلاق الذميمة عند الله ولا كرامة.

٤- حذَّر رسول الله ﷺ من سوء الخُلق وبيَّن أثره على قرب العبد من المنازل العالية والدرجات الرفيعة التي أعدها الله تعالى للمقرَّبين من الله ورسله، قال ﷺ: «**إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ مَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ مَسَاوِيكُمْ أَخْلَاقًا الثَّرْثَارُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ**[(٤)]»[(٥)].

وهذه الأوصاف الثلاثة وإن كانت متباينة المعاني، إلا أن مرجعها إلى التعالي والكبر[(٦)]، الذي لعن الله إبليس وطرده بسببه، وأهلك جبابرة الأمم لأجله، وما

---

(١) جامع البيان (٢٠/٥٢٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/٢١٢).

(٣) التفسير المنير (١٣/٩٠).

(٤) سبق بيان معاني هذه الألفاظ، ص ١٣٠.

(٥) رواه أحمد في مسند أبي ثعلبة الخشني ﵁ (٢٩/٢٦٧)، رقم ١٧٧٣٢، قال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: مجمع الزوائد (٨/٢١)، صحيح الجامع (١/٣٢٠)، رقم ١٥٣٥.

(٦) ينظر: شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح العثيمين (٣/٥٧١).

زال أهله ممقوتين مبغوضين في الدنيا والآخرة، يبعثهم الله تعالى يوم القيامة كالذر يطؤهم الناس بأقدامهم؛ لسخطه عليهم، وهوانهم عليه[١].

٥- حكم رسول الله ﷺ بالنار لمن ساء خلقه مع الناس، حتى وإن كان ظاهره الصلاح، وعادته الإكثار من الطاعات والقربات، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا قَالَ: «هِيَ فِي النَّارِ»[٢]، فالحديث يشير إلى أن كثرة الطاعات والقربات التي اشتهرت بها هذه المرأة لم تشفع لها حينما ساء أدبها، وفسدت أخلاقها، وهذا يدل دلالة واضحة على أن سوء الأدب والأخلاق مانع عظيم من موانع القرب من الله تعالى، حتى لو اشتهر حال صاحبه بين الناس بفعل المستحبات التي يحب الله تعالى أهلها ويقربهم بها.

---

(١) رواه الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب... (٤/٢٦٨)، رقم ٢٤٩٢، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن، وحسنه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: صحيح الجامع (٢/١٣٣٥)، رقم ٨٠٤٠.

(٢) رواه أحمد (١٥/٤٢١)، رقم ٩٦٧٥، قال الحاكم في المستدرك: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة. ينظر: المستدرك (٤/١٨٣)، رقم ٧٣٠٤، سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/٣٦٩)، رقم ١٩٠.

الفصل الثالث

صفات المقرَّبين من الله، وثمرات القرب، وعاقبة البعد عن الله

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: صفات المقرَّبين من الله تعالى.

المبحث الثاني: ثمرات القرب من الله تعالى.

المبحث الثالث: عاقبة البعد عن الله تعالى.

تمهيد

كلما اشتاقت نفس العبد إلى ما عند الله تعالى من عظيم الكرامات ورفيع المقامات، تذكَّر أولياء الله تعالى من الملائكة والنبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، وتفكَّر كيف نال هؤلاء تلك المنازل، وكيف حظوا بذلك الفضل والمحاسن؛ إذ لن يظفر بما نالوا إلا بالاقتداء بهم في حثِّهم السير، وحرصهم ورغبتهم في تحصيل الخير.

وفي هذا الفصل سيناقش الباحث صفات المقرَّبين، بمختلف أصنافهم، التي ساقتهم إلى الفوز برضوان الله ومحبته، والسبق إلى فضله وكرامته، ثم يردف بالحديث عن نتيجة هذا الفوز وثمراته اليانعة المباركة في جميع المراحل التي يقطعها العبد من المبدأ إلى المعاد، ثم يختم الفصل بالحديث عن عواقب البُعد عن الله تعالى في الحياة وبعد الممات؛ لتجتمع حينئذٍ للسائرين إلى الله معرفةُ عاقبة الحسنى وعاقبة السوأى، فيكون ذلك أدعى لمجاهدة النفس ومبادرة العمل.

المبحث الأول:

صفات المقرَّبين من اللّه تعالى

- **المطلب الأول**: صفات الملائكة المقرَّبين.
- **المطلب الثاني**: صفات الرسل والأنبياء.
- **المطلب الثالث**: صفات أولياء الله الصالحين.

المطلب الأول:

صفات الملائكة المقرَّبين

خلق الله الملائكة أرواحًا طاهرة نقية، منقادة لأمره، متذللة بطاعته وعبادته، وقرَّبها منه قربًا حسيًّا وقربًا معنويًّا.

فأما قربها الحسي، فلأن الله تعالى خصَّها من بين خلقه بسكنى السماء، قال ﷻ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦]، قال ابن كثير رحمه الله: «فإذا كان هذا في حق الملائكة المقرَّبين، فكيف ترجون أيُّها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله؟»[(١)].

وقال ﷺ: «**إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لاَ تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلاَّ وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ**»[(٢)].

وأما القرب المعنوي، فهو ثمرة طاعتهم وعبادتهم وتسبيحهم من غير فتور أو إعياء، ومن غير أنفة أو إباء، قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]، أي: لا يعيون أو يتعالون، أو ينقطعون عن العبادة، أو يسأمون، التسبيح لهم كالنفَس لبني آدم[(٣)].

ولأن عالم الملائكة عالم غيبي، لا سبيل لمعرفة صفاتهم إلا بما جاء به الكتاب أو السُّنة الصحيحة، فسيكتفي الباحث من ذلك بما ورد ذكرُه من صفاتهم الخُلُقية التي عليها مدار الحديث، وبها يقتدى ويحتذى إلى سبيل الرشاد والهدى.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٤٥٨/٧).

(٢) سبق تخريجه، ص ٤١.

(٣) ينظر: معالم التنزيل (٣١٣/٥).

أبرز صفات الملائكة الخُلقية:

أولاً: صفة العبودية لله تعالى

خير ما شرف الله تعالى به الملائكة صفة العبودية لله تعالى، فهم عباد متذلِّلون، أكرمهم الله بالطاعة، ونزَّههم عمَّا يزعمه أهل الباطل، لا يتجرَّأ أحد منهم أن يدَّعي صفة إلهية تنافي خضوعهم وانقيادهم لخالقهم، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، فأخبر عنهم جلَّ شأنه بأنهم عباد مقرَّبون مفضَّلون عند الله، وذلك لما هم عليه من أحوال وصفات غرَّت مَن زعم أنهم أولاد الله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا[١].

ويضاهي هذا المعنى قول الله تعالى عنهم: ﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ [عبس: ١٥، ١٦]، قال ابن كثير رحمه الله: «أي: خُلقهم كريم حسن شريف، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة، ومن هاهنا ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السداد والرشاد»[٢].

ثم توج الله لهم هذا الشرف العظيم بمكرمة أخرى متفرعة عن حقيقة العبودية الخالصة لله، قال تعالى: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ﴾ [النساء:١٧٢]، والمعنى: لن يأنف المسيح أو يستعير من أن يكون عبدًا لله، ولا الملائكة المقرَّبون؛ لأن عبودية الله شرف يُتباهى به، وإنما المذلة والاستنكاف في عبودية غيره، وهذه الآية ردٌّ على مَن يعبد المسيح مِن النصارى ويرفعه فوق منزلة العبودية، وعلى مَن يعبد الملائكة مِن العرب[٣].

---

(١) ينظر: الكشاف، ص ٦٧٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣٢١/٨).

(٣) ينظر: أنوار التنزيل (١١١/٢)، مدارك التنزيل (٤١٩/١).

وقد جاء هذا الوصف في غير موضع من كتاب الله تعالى[١]، فيكون في ذلك زيادة فضل وتشريف لهم.

ومن تمام عبودية الملائكة لله أنهم لا يتقدَّمون على أمر الله ونهيه، ولا يعترضون على قضائه وتدبيره؛ بل هم ممتثلون لما ألزمهم به أشد الامتثال، فلا يقولون ولا يعملون شيئًا ما لم يأمرهم به، قال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]، قال الألوسي رحمه الله: «لا يقولون شيئًا حتى يقوله تعالى أو يأمرهم به، كما هو دين العبيد المؤدبين، ففيه تنبيه على كمال طاعتهم، وانقيادهم لأمره عز وجل، وتأدبهم معه تعالى»[٢].

وتتجلى شدة امتثالهم لأمر الله تعالى في قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «**آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ**»[٣]. فهم متقنون أتم الإتقان لما أُوكل لهم مِن عمل، مستسلمون أشد الاستسلام لما فُرض عليهم مِن أمر أو نهي، لا يكِلّون عن طاعة، ولا يستحسرون عن عبادة.

ثانيًا: المبادرة إلى الطاعة والمداومة عليها:

طاعة الله تعالى والمبادرة إلى تنفيذ أمره واجتناب نهيه صفة بارزة من صفات الملائكة الكرام، فهم لا يخالفون لله أمرًا أمرهم به، ولا يأتون أو يقربون ما نهى الله عنه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، أي: لا يخالفونه فيما يأمر، ولا يتجاوزون ما يؤمرون به؛ بل يفعلونه في

(١) الأعراف: ٢٠٦، والنحل: ٤٩، والأنبياء: ١٩.

(٢) روح المعاني (٣٢/٩).

(٣) سبق تخريجه، ص ٨٩.

وقته لا يؤخرونه، ولا يقدمونه[(١)].

وكثير ما يثني الله تعالى عليهم بمداومتهم على الطاعة والعبادة والتسبيح والاستغفار للمؤمنين، فهم يسبحون الليل والنهار في صورة متصلة دائمة، كأنما طعامهم التسبيح[(٢)]، قال تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]، قيل لكعب الأحبار رحمه الله[(٣)]: «﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾، أما شغلهم رسالة؟ أما شغلهم عمل؟ فقال: جعل لهم التسبيح كما جعل لكم النفَس، ألست تأكل وتشرب، وتجيء وتذهب، وتتكلم وأنت تتنفس؟ فكذلك جعل لهم التسبيح»[(٤)].

وقال تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشورى: ٥]، وعلى ما يظهر أن مداومتهم عبادة التسبيح من الذكر؛ لأنه أفضل ما يذكر به الله تعالى، فعن أبي ذر رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئِلَ: أَيُّ الْكَلَامِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «**مَا اصْطَفَى اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ**»[(٥)]، فاختاروا لأنفسهم أفضل الذكر وأسهل العبادات وأيسرها.

---

(١) ينظر: زاد المسير، ص ١٤٥٤.

(٢) روى أحمد في مسند عائشة رضي الله عنها، حديثًا عن طعام المؤمنين حين خروج الدجال (٤١/٤١٩)، رقم ٢٤٩٤٤، قالت: ما يجزئ المؤمنين يومئذ من الطعام؟ قال: «ما يجزئ الملائكة التسبيح، والتكبير، والتحميد، والتهليل»، والحديث فيه ضعف في سنده كما ذكر محققا المسند، إلا أن الألباني صححه بشواهده في السلسلة الصحيحة. ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٧/٢١٢).

(٣) أبو إسحاق، كعب بن ماتع الحميري، المعروف بكعب الأحبار، وهو من مسلمة أهل الكتاب، أدرك النبي صلى الله عليه وسلم، وأسلم في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ويقال: في خلافة عمر رضي الله عنه، نزل الشام ومات بها سنة اثنتين وثلاثين. ينظر: تهذيب الكمال (٢٤/١٨٩)، الوافي بالوفيات (٢٤/٢٦٠).

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٨/٢٤٤٩).

(٥) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل سبحان الله وبحمده (٤/٢٠٩٣)، رقم ٨٤.

ثالثًا: العلم:

ومن صفات الملائكة العلم بما علمهم الله تعالى، قال تعالى على لسانهم: ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢]، فهم وإن كانوا نفوا عن أنفسهم علم الغيب، إلا أنهم أثبتوا لهم علمًا علَّمهم إياه الله فضلًا منه وجودًا، قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله[(١)]: «فكان كمالهم ورجوعهم عن العتب وكمال علمهم أن أقروا على أنفسهم بالجهل إلا ما علَّمهم سبحانه»[(٢)].

ولما كانت مجالس العلم وحِلقه محضن العلماء وربيع قلوب السعداء، شهدت السُّنة الشريفة بحضور الملائكة تلك المجالس المباركة الطاهرة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ**»[(٣)]، والمعنى: أن ملائكة الرحمة والبركة تحدق وتحيط بهم، أو تطوف وتدور حولهم تستمع تلاوتهم وتدارسهم لكتاب الله[(٤)].

رابعًا: خشية الله تعالى:

تعد خشية الله تعالى والخوف منه من أعظم مظاهر معرفة الملائكة بربهم، فهم أهل الخوف والخشية الدائمة، وأهل الإجلال والتعظيم لله رب العالمين، قال

---

(١) الإمام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي، مجدد الدعوة السلفية إلى توحيد الله الخالص وإنكار المنكر ومهاجمة المبتدعة وتحطيم ما علق بالإسلام من أوهام، وُلد في بيت علم وشرف ودين، حفظ القرآن قبل العاشرة، ودرس في الفقه، وطالع في التفاسير والحديث، ورحل في طلب العلم داخل الجزيرة وخارجها، اشتهرت مؤلفاته وانتشرت، ومنها: "كتاب التوحيد"، و"كشف الشبهات"، و"أصول الإيمان"، توفي سنة ست ومائتين وألف. ينظر: الأعلام (٦/٢٥٧)، شرح كشف الشبهات لابن عثيمين (١/٥).

(٢) تفسير آيات من القرآن الكريم، ص ٩٤.

(٣) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن والذكر (٤/٢٠٧٤)، رقم ٣٨.

(٤) ينظر: مرقاة المفاتيح (١/٤٥٧).

تعالى: ﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، أي: «خائفون وجلون، قد خضعوا لجلاله، وعنت وجوههم لعزه وجماله»[١].

قال ابن عاشور رحمه الله: «يعظمونه تعظيم مَن يخاف بطشته ويحذر مخالفة أمره»[٢].

وقد صوَّرت السُّنة شدة خوفهم من ربهم سبحانه وتعالى، وذلك فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، أن نبي الله صلى الله عليه وسلم، قال: «**إِذَا قَضَى اللَّهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ المَلائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الحَقَّ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ**»[٣]، قال ابن بطال رحمه الله: «أي: أُذهب الفزع عن قلوبهم، قالوا للذي فوقهم: ماذا قال ربكم؟ فدل ذلك على أنهم سمعوا قولًا لم يفهموا معناه من أجل فزعهم»[٤].

خامسًا: محبة مَن يحبه الله:

من أجلّ صفات الملائكة المطهرين أنهم يحبون مَن يحبه الله تعالى مِن أهل طاعته ورضوانه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ عليه السلام: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فُلانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ عليه السلام، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ عليه السلام فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فُلانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَيُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ**»[٥]، وعلى أثر هذه المحبة التي ألقاها الله تعالى في

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٥٢٢.

(٢) التحرير والتنوير (١٧/٥١).

(٣) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ (٦/١٢٢)، رقم ٤٨٠٠.

(٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/٤٩٢).

(٥) سبق تخريجه، ص ١٠١.

قلوب الملائكة الكرام يظفر المؤمنون بثمارها العظيمة الآتية:

١- الدعاء للمؤمنين بالمغفرة والسلامة من العذاب:

فمن لطف الله تعالى بعباده المؤمنين أن سخَّر لهم الملائكة المقرَّبين يدعون لهم ويستغفرون، ويسألون الله لهم الفوز بالجنة والنجاة من النار، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]، قال مطرف بن عبد الله رحمه الله [(١)]: «وجدنا أنصح عباد الله لعباد الله الملائكة، ووجدنا أغَشَّ عباد الله لعباد الله الشيطان»[(٢)].

وقال الرازي رحمه الله: «لما بيَّن أن الكفار يبالغون في إظهار العداوة مع المؤمنين، بيَّن أن أشرف طبقات المخلوقات هم الملائكة الذين هم حملة العرش، والحافُّون حول العرش يبالغون في إظهار المحبة والنصرة للمؤمنين، كأنه تعالى يقول: إن كان هؤلاء الأراذل يبالغون في العداوة فلا تبالِ بهم، ولا تلتفت إليهم، ولا تُقِم لهم وزنًا، فإن حَمَلة العرش معك، والحافُّون من حول العرش معك ينصرونك»[(٣)].

٢- تثبيت المؤمنين عند الموت:

إذا كان المؤمن في انقطاع من الدنيا وإقبال على الآخرة، نزلت إليه ملائكة السماء يثبتونه حال نزع الروح ويبشرونه بموعود الله وكراماته، قال تعالى: ﴿إِنَّ

---

(١) أبو عبد الله، مطرف بن عبد الله بن الشخير الحرشي العامري البصري، كان رأسًا في العلم والعمل وجلالة في الإسلام ووقع في النفوس، وكان ثقة له فضل وورع وعقل وأدب، حدَّث عن جملة من صحابة رسول الله ﷺ، مات سنة خمس وتسعين. ينظر: تهذيب الكمال (٢٨/ ٦١)، تذكرة الحفاظ (١/ ٥١).

(٢) تفسير عبد الرزاق (٣/ ١٤٠).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٧/ ٣٢).

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «عند الموت»[(١)].

وقال مجاهد رحمه الله في معنى الآية: «لا تخافوا ما تقدمون عليه من أمر الآخرة، ولا تحزنوا على ما خلفتم من دنياكم من أهل أو ولد أو دَين، فإنا نخلفكم في ذلك كله»[(٢)].

والمعنى: إن الذين أخلصوا العمل لله، وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم، تتنزل عليهم الملائكة عند الموت قائلين: لا تخافوا مما تقدمون عليه من أمر الآخرة، ولا تحزنوا على ما خلفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال أو دَين، فإنا نخلفكم فيه، وأبشروا بالجنة التي وعدتموها، فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير[(٣)].

٣- تهنئة المؤمنين بدخول الجنة والسلامة من أهوال القيامة:

من أولى كرامات المؤمنين بعد الفصل والقضاء، وفي أجواء الفرحة العظيمة بالنجاة من أهوال القيامة استقبال الملائكة لهم على أبواب الجنان، تهنئهم بالسلامة من كرب ذلك اليوم، وتبارك لهم دخول الجنة والفوز برضوان الله تعالى، قال تعالى: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، قال مكي رحمه الله: «أي: تتلقاهم بالبشرى، وتقول لهم: هذا يوم كرامتكم التي وُعدتم في الدنيا على طاعتكم، وهذا قبل أن يدخلوا الجنة»[(٤)].

---

(١) معالم التنزيل (٧/١٧٣).

(٢) جامع البيان (٢٠/٤٢٧).

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٧/١٧٥).

(٤) الهداية إلى بلوغ النهاية (٧/٤٨٢٣).

وتتواصل التهنئة والترحيب بالمؤمنين بعدما يدخلون دار المقامة، وينعمون بما أعده الله لهم من النعيم والكرامة، قال تعالى عن ثواب المؤمنين: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، قال البيضاوي رحمه الله: «﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم﴾ من كل باب من أبواب المنازل، أو من أبواب الفتوح والتحف، قائلين: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾، بشارة بدوام السلامة»[١].

وقال ابن كثير رحمه الله: «وتدخل عليهم الملائكة من هاهنا وهاهنا للتهنئة بدخول الجنة، فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلِّمين مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام، والإقامة في دار السلام، في جوار الصِّدِّيقين والأنبياء والرسل الكرام»[٢].

٤- الشفاعة للمؤمنين:

شفاعة الملائكة للموحدين من المؤمنين أمر ثابت بنصوص الكتاب والسُّنة، وهي أحد آثار محبتهم للمؤمنين وشفقتهم عليهم، قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، قال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى ﴿إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾: «الذين ارتضى لهم شهادة أن لا إله إلا الله»[٣].

وقال السعدي رحمه الله: «ومن جزئيات وصفهم، بأنهم لا يسبقونه بالقول، أنهم لا يشفعون لأحد دون إذنه ورضاه، فإذا أذن لهم، وارتضى مَن يشفعون فيه،

(١) أنوار التنزيل (٣/١٨٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/٤٥١).

(٣) جامع البيان (١٦/٢٥٢).

شفعوا فيه، ولكنه تعالى لا يرضى مِن القول والعمل إلا ما كان خالصًا لوجهه، متبعًا فيه الرسول، وهذه الآية مِن أدلة إثبات الشفاعة، وأن الملائكة يشفعون»(١).

وفي صحيح مسلم رحمه الله، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «**فَيَقُولُ اللهُ عز وجل: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**»(٢).

٥- التأذي مما يؤذي بني آدم:

دلَّت سُنة المصطفى صلى الله عليه وسلم على أن الملائكة تتأذَّى من كل قول أو فعل يؤذي عباد الله تعالى، فعن جابر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «**مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الْبَقْلَةِ، الثُّومِ** - وقَالَ مَرَّةً: **مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكُرَّاثَ فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا، فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ**»(٣). وهذا من عظيم محبتها لعباد الله المؤمنين، فهي لا ترضى أبدًا أذيتهم، ولا يسرها تعكير صفو لقائهم بربهم في مساجدهم ومجامع عبادتهم.

سادسًا: بغض مَن يبغضه الله:

غَضَبُ الله تعالى وسخطه على المخلوق أمر عظيم يقتضي حرمانه آلاء الله ونعماءه، التي من أعظم عواقبها بغض أولياء الله تعالى من الملائكة المقرَّبين وعباد الله الصالحين لذلك المخلوق، قال صلى الله عليه وسلم: «**وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ عليه السلام فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ عليه السلام، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ**»(٤)،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٥٢٢.

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (١/١٦٧)، رقم ٣٠٢.

(٣) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب نهي من أكل ثومًا، أو بصلًا... (١/٣٩٥)، رقم ٧٤.

(٤) رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله...، =

فلا سعادة ولا فوز لعبد حُرم محبة الملائكة الطيبين، ولا كرامة ولا فضل لمن استبدل مقتضيات المحبة بآثار غضب الملائكة المتمثلة فيما يلي:

١- لعنهم لمَن غضب الله عليه ولعنه:

من دلائل غضب الملائكة على مَن يبغضه الله، أنها تلعنه وتوبخه على أفعاله التي عصى بها ربه العظيم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١]، ولعنة الله تعالى لهم تعني طردهم من رحمته، وعدم النظر إليهم، ولعنة الملائكة تعني تعذيبهم لهم بأمر الله وإبعادهم من رحمته، ولعن الناس بنبذهم والدعاء عليهم بالطرد من رحمة الله(١).

قال أبو العالية(٢) وقتادة رحمهما الله: «إن الكافر يوقف يوم القيامة، فيلعنه الله، ثم تلعنه الملائكة، ثم يلعنه الناس أجمعون»(٣).

٢- ضربهم وجوه الكفار وأدبارهم حال الموت:

إذا حلَّت بالكافر سكرات الموت أتته الملائكة تضرب وجهه ودبره حتى تخرج روحه من جسده، وذلك إذلالًا منها وتوبيخًا لأهل الكفر، وإشعارًا بما بعد ذلك من أهوال يوم البعث وفي القبر، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠]، قال ابن جرير رحمه الله: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولو تعاين، يا محمد،

=(٤/ ٢٠٣٠)، رقم ١٥٧.

(١) ينظر: زهرة التفاسير (١/ ٤٨٤).

(٢) أبو العالية، رفيع بن مهران البصري الرياحي التابعي، كان مولى لامرأة من بني رياح، أدرك زمن النبوة وأسلم في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، وحفظ القرآن وقرأه على أبي بن كعب رضي الله عنه، كان إمامًا في القرآن والتفسير والعلم والعمل، مات سنة تسعين. ينظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٠٧)، طبقات المفسرين للأدنه وي، ص ٩.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (١/ ٢٧١).

حين يتوفى الملائكةُ أرواحَ الكفار، فتنزعها من أجسادهم، تضرب الوجوه منهم والأستاه، ويقولون لهم: ذوقوا عذاب النار التي تحرقكم يوم ورودكم جهنم»[١].

٣- مقتهم وتوبيخهم لأهل النار:

يتواصل توبيخ الملائكة ومقتها للكفرة المبعدين عند الموت وبعده، غضبًا منها وإنكارًا لأفعالهم الشنيعة التي استحقوا بها دخول النار، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠]، قال ابن كثير رحمه الله: «أي: أنتم لأنفسكم، فنحن لا ندعو لكم ولا نسمع منكم، ولا نود خلاصكم، ونحن منكم برآء، ثم نخبركم أنه سواء دعوتم أو لم تدعوا لا يستجاب لكم، ولا يخفَّف عنكم»[٢].

سابعًا: الشهادة بالحق:

من أخص صفات الملائكة الشهادة بالحق على قواطع الأمور، فيشهدون لله تعالى بالوحدانية والألوهية والقيام بالعدل، قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨]، قال المراغي رحمه الله: «أي: بيّن سبحانه وحدانيته بنصب الدلائل التكوينية في الآفاق والأنفس، وإنزال الآيات التشريعية الناطقة بذلك، والملائكة أخبروا الرسل بهذا، وشهدوا شهادة مؤيدة بعلم ضروري وهو عند الأنبياء أقوى من جميع اليقينيات»[٣].

---

(١) جامع البيان (١١/٢٢٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/١٤٩).

(٣) تفسير المراغي (٣/١١٤).

وقد دلَّت هذه الآية الكريمة على خصوصية عظيمة للملائكة وأولي العلم؛ حيث إن الله قرن شهادتهم بشهادته جلَّ ذكرُه.

وكما أن الملائكة الكرام شهود الله على وحدانيته، فهم كذلك شهوده على صدق ما جاء به الأنبياء والرسل من الوحي، قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، قال ابن كثير رحمه الله: «﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَ﴾، أي: بصدق ما جاءك وأُوحي إليك وأنزل عليك، مع شهادة الله لك بذلك»(١).

وهم أيضًا شهود يوم القيامة على كل نفس بما كسبت، قال تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ [ق: ٢١]، قال ابن كثير رحمه الله: «ملَك يسوقه إلى المحشر، وملَك يشهد عليه بأعماله»(٢).

ثامنًا: النظام التام في جميع الأحوال:

أخبر الله تعالى في مواضع كثيرة من كتابه الكريم أن النظام وحسن الانضباط صفة أساسية من صفات الملائكة الكرام، قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ [الصافات: ١]، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن في السماوات لسماء ما فيها موضع شبر إلا وعليه جبهة ملَك ساجد، وروي: أو قدماه، ثم قرأ ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ [الصافات: ١٦٥]»(٣).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما، والحسن، وقتادة رحمهما الله، في معنى الآية: «هم الملائكة في السماء يصفون كصفوف الخلق في الدنيا للصلاة»(٤).

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/٤٧٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/٤٠١).

(٣) بحر العلوم (٣/١٢٦).

(٤) معالم التنزيل (٧/٣٣).

وأخبر سبحانه أنهم يأتون يوم القيامة صفًّا بعد صف، قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، قال ابن جرير رحمه الله: «وإذا جاء ربك يا محمد وأملاكه صفوفًا، صفًّا بعد صفّ»(١).

ولما كان حسن النظام والانضباط صفة محبوبة عند الله تعالى، أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يقتدوا بفعل أولئك الملائكة الكرام، ويأتمُّوا بطريقتهم، قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟**» فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: «**يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُوَلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ**»(٢)، وأمره ﷺ لسلف الأمة هو أمر لخلفها، فالواجب على المؤمنين أن يقتدوا بمَن كان قبلهم مِن المتقين وبملائكة ربهم المقرَّبين.

تاسعًا: الحياء من الله:

الحياء من الله صفة كريمة حميدة تدل على حسن الخُلق وجمال النفس وطهر القلب، وقد دلَّت السُّنة الصحيحة على أن الحياء صفة من صفات الملائكة الكرام، وذلك فيما روته عائشة رضي الله عنها، أن أبا بكر(٣) رضي الله عنه دخل على رسول الله ﷺ وهو كاشف عن فخذيه أو ساقيه، وهو على تلك الحال، ثم استأذن عمر رضي الله عنه، فأذن له، وهو كذلك، ثم استأذن عثمان(٤) رضي الله عنه، فجلس رسول الله ﷺ وسوَّى ثيابه،

---

(١) جامع البيان (٢٤/ ٣٨٤).

(٢) رواه مسلم من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه، كتاب الصلاة، باب الأمر بالسكون في الصلاة... (١/ ٣٢٢)، رقم ١١٩.

(٣) الصحابي الجليل، أبو بكر الصديق، عبد الله بن عثمان أبي قحافة بن عامر القرشي التيمي رضي الله عنهما، صاحب رسول الله ﷺ، وخليفته الأول، ورفيق هجرته، وأول مَن أسلم من الرجال، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، شهد بدرًا وما بعدها، مناقبه كثيرة جدًّا، توفي سنة ثلاث عشرة. ينظر: الاستيعاب (٣/ ٩٦٣)، أسد الغابة (٣/ ٣١٠).

(٤) الصحابي الجليل، أبو عبد الله، عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية القرشي الأموي رضي الله عنه، أمير المؤمنين، وثالث الخلفاء الراشدين، وأفضل الصحابة بعد أبي بكر رضي الله عنه، وعمر رضي الله عنه، أسلم قديمًا، وهاجر =

فدخل فتحدث، فلما خرج قالت عائشة رضي الله عنها: دخل أبو بكر رضي الله عنه، ثم دخل عمر رضي الله عنه، فلم تهتش له ولم تباله[(١)]، ثم دخل عثمان رضي الله عنه فجلست وسوَّيت ثيابك، فقال: «**أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ**»[(٢)]، فإذا كان هذا الحياء من الملائكة الكرام لعبد من عباد الله تعالى، فكيف يكون حياؤها وتواضعها لله الواحد القهار، حال كونها لا تسبقه بفعل، ولا تعصاه في أمر، ولا تستنكف عن التذلل له بالطاعة والعبادة.

عاشرًا: الترفُّع عن الإقامة في أرض المعصية:

الإقامة في أرض المعصية أمر لا يتناسب مع طهارة عباد الله المقرَّبين، ولا يليق بالملائكة الكرام مع حسن أدبها وجميل أخلاقها أن تستوطن أرض المعصية، ولذلك جاء في السُّنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ، أنها لا تدخل بيتًا فيه كلب أو صورة، قال ﷺ: «**لاَ تَدْخُلُ الْمَلاَئِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلاَ صُورَةٌ**»[(٣)].

قال النووي رحمه الله: «قال العلماء: سبب امتناعهم من بيت فيه صورة، كونها معصية فاحشة، وفيها مضاهاة لخلق الله تعالى، وبعضها في صورة ما يعبد من دون الله تعالى، وسبب امتناعهم من بيت فيه كلب؛ لكثرة أكله النجاسات، ولأن

=الهجرتين، يلقب بذي النورين؛ لأن رسول الله ﷺ زوجه ابنته رقية رضي الله عنها، فلما ماتت زوجه أم كلثوم رضي الله عنها، تخلف عن بدر بأمر رسول الله ﷺ، وضرب له بسهمه وأجره، قتل شهيدًا سنة خمس وثلاثين. ينظر: الاستيعاب (٣/١٠٣٧)، الإصابة (٤/٣٧٧).

(١) الهشاشة: طلاقة الوجه وحسن اللقاء، ولم تباله: لم تكترث به وتحتفل لدخوله. ينظر: شرح النووي على مسلم (١٥/ ٢٤١)

(٢) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عثمان بن عفان رضي الله عنه (٤/١٨٦٦)، رقم ٣٦.

(٣) رواه البخاري من حديث أبي طلحة رضي الله عنه، كتاب الأنبياء، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم...، (٤/١٣٠)، رقم ٣٢٢، ورواه مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان.. (٣/١٦٦٥)، رقم٨٣.

بعضها يسمى شيطانًا، كما جاء به الحديث، والملائكة ضد الشياطين، ولقبح رائحة الكلب، والملائكة تكره الرائحة القبيحة، ولأنها منهي عن اتخاذها، فعوقب متخذها بحرمانه دخول الملائكة بيته وصلاتها فيه واستغفارها له وتبريكها عليه وفي بيته، ودفعها أذى الشيطان»[١].

والأولى بمن يرجو رضا الله ويرغب القرب منه أن يجتنب أرضًا يُعصى الله فيها، وألا يجالس أهل المعاصي والمنكرات، تأسيًا بأولئك الملائكة المقرَّبين الأبرار.

هذا مجمل ما يمكن قوله عن صفات الملائكة المقرَّبين، مَن تعلَّمها وتدبَّرها واقتدى بها على قدر ما أُوتيَ من طاقته، كان أهلًا لنَيل القرب من الله، والفوز بمحبته ورضاه.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٤/١١٨).

المطلب الثاني:
صفات الرسل والأنبياء

الرسل والأنبياء هم صفوة خلق الله تعالى، والمثل الأعلى للبشرية، جعلهم الله أجدر مَن يحمل الرسالة الإلهية الكفيلة بإصلاح الحياة الإنسانية، وجعل الإيمان بهم وبما جاءوا به مِن وحي إلهي ركنًا من أركان الإيمان.

ولما كانت مهمة حمل الرسالة وتبليغها للناس همًّا عظيمًا يحتاج إلى مقومات البراعة والنجاح، جعل الله تعالى مناقب الرسل والأنبياء وصفاتهم الخَلقية والخُلقية والعقلية أحد دلائل صدق أقوالهم واستقامة أحوالهم.

وسوف يبسط الباحث -بإذن الله- في هذا المطلب تلك الصفات العظيمة التي اتسمت بها شخصياتهم الكريمة، مقتصرًا في ذلك على أبرز الصفات الخُلقية التي تجعلهم أقرب الخلق إلى الله تعالى، بغية الاقتداء بسُنَّتهم العظمى، واتباع طريقتهم المثلى.

أبرز صفات الأنبياء والرسل:

أولًا: شرف العبودية لله تعالى:

لا يعرف معنى العبودية الحقة إلا مَن أيقنت نفسه أنه مفتقر لله ربه وخالقه الذي يمن عليه بآلائه العظيمة ونعمائه الجليلة، وكلما ازداد العبد تحقيقًا لمعنى العبودية ازداد كماله وعلت درجته، ولذلك جعلها الله وصفًا لأكمل خَلقه من ذرية آدم عليه السلام، وأقربهم إليه مكانة ومنزلة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٧١]، قال البقاعي رحمه الله: «﴿لِعِبَادِنَا﴾، أي: الذين أخلصوا لنا العبادة في كل حركة وسكون، ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: الذين زدناهم على شرف الإخلاص

في العبودية شرف الرسالة»[١].

ثـم امتـدح الله تعـالى بهـا رسـلًا بـأعينهم، وخـصهم بالـذكر الجميـل والثنـاء الجليـل، فقــال: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ [ص: ٤٥]، وقال عن العبد الصابر أيوب عليه السلام: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴾ [ص: ٤١]، ثـم رد ثنـاءه عليـه بـصفة العبوديـة مـرة أخـرى تـشريفًا وتكـريمًا لـه بـصبره عـلى بلائـه ورجوعـه وتوبتـه واسـتغفاره، فقـال: ﴿ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴾ [ص: ٤٤]، ولمـا كـان سـليمان عليه السلام قـد شـابه أبـاه داود عليه السلام في الطاعـة والإنابـة والإقبـال عـلى الله، حظـي بـما نـال أبـوه مـن شرف العبوديـة والتـذلُّل لله، فقـال تعـالى عنـه: ﴿ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠]، قـال الـرازي رحمه الله: «فلـو قلنـا لفـظ الأواب هاهنـا أيـضًا صـفة داود عليه السلام، لزم التكرار، ولو قلنا إنه صفة لسليمان عليه السلام، لزم كون الابن شبيهًا لأبيه في صفات الكمال في الفضيلة، فكان هذا أولى»[٢].

وفي موضـع آخـر مـن الكتـاب العزيـز أثنـى الله تعـالى عـلى عيسى عليه السلام بهـذه الصفة الكريمة، فلا يبقى حينئذٍ حُجة لمن ينزله فوق منزلته التي نعته الله بها، قال تعـالى: ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ [الزخرف: ٥٩]، أي: «ما عيسى عليه السلام إلا عبد أنعم الله عليه بالنبوة، وجعله مثلًا لبني إسرائيل، أي: آية وعبرة يستدل بها على قدرة الله تعالى»[٣].

وأما سيد البشر، وأفضل الأنبياء والرسل صلى الله عليه وسلم، فقد جمع الله تعالى له شرف

---

(١) نظم الدرر (١٦/ ٣١٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٦/ ٢٠٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ١٠٤).

العبودية في أعلى مقامات التكريم، فوصفه بها في مقام إنزال الكتاب عليه، والتحدي بأن يأتوا بكتاب مثله، قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣]، ووصفه بها في مقام الدعوة إلى توحيد الله وعبادته، قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾ [الجن: ١٩]، ووصفه بها في مقام الإسراء والمعراج الذي شرفه به، قال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ﴾ [الإسراء: ١][1]، فأصبح هذا التنويع في الخطاب الإلهي برهانًا على شرف صفة العبودية، يفخر بها رسوله ﷺ وكل مَن سار على نهجه واقتفى أثره.

ثانيًا: العلم:

علم الأنبياء وحي إلهي لا يدخله شك أو زيغ، وهو من لوازم النبوة التي تعين الأنبياء والرسل على تبليغ الرسالة، غير أن مبلغ علمهم لا يتجاوز حدود ما وهبهم الله تعالى من المعرفة والحكمة، فهم لا يعلمون إلا بوحي من الله وتعليم منه، وكثيرًا ما يتبرَّؤون من ادِّعاء علم الغيب الذي لا يكون إلا لله، قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ [الأنعام: ٥٠]، ولو أن أحدًا من الناس سألهم ما لا يحيطون بعلمه فسرعان ما يدحضون ذلك بالحجج والبراهين الظاهرة، قال تعالى: ﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، قال الرازي رحمه الله: «اعلم أن القوم لما طالبوه بالإخبار عن الغيوب وطالبوه بإعطاء الأموال الكثيرة والدولة

---

(١) ينظر: التفسير القيم، ص ٩٣.

العظيمة، ذكر أن قدرته قاصرة وعلمه قليل، وبيَّن أن كل مَن كان عبدًا كان كذلك، والقدرة الكاملة والعلم المحيط ليسا إلا لله تعالى، فالعبد كيف يحصل له هذه القدرة وهذا العلم؟»(١).

وتتبين حقيقة تسلح الرسل والأنبياء بسلاح العلم عندما نتأمل الآيات الكثيرة التي تحدثت عن امتنان الله عليهم بالنبوة والعلم والحكم، كما قال الله تعالى عن داود عليه السلام: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقال في حق يوسف عليه السلام: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٢٢]، وقيل مثل ذلك عن لوط وموسى وسليمان وعيسى عليهم السلام(٢).

وأثنى الله على يعقوب عليه السلام بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٦٨].

وأما صفوة خلقه ﷺ، فلم يكفِ خبر المنة الإلهية المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء:١١٣]؛ بل أمره ربه أن يسأله الزيادة من العلم، قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه:١١٤]، قال النسفي رحمه الله: «وقيل: ما أمر الله رسوله بطلب الزيادة في شيء إلا في العلم»(٣).

وقال السعدي رحمه الله: «ولما كانت عجلته ﷺ على تلقُّف الوحي ومبادرته إليه

---

(١) مفاتيح الغيب (١٥/ ٨٨).

(٢) آل عمران: ٤٨، والأنبياء: ٧٤، والأنبياء: ٧٩، والقصص: ١٤.

(٣) مدارك التنزيل (٢/ ٣٨٥).

تدل على محبته التامة للعلم وحرصه عليه، أمره الله تعالى أن يسأله زيادة العلم، فإن العلم خير، وكثرة الخير مطلوبة»(١).

ثم كان كمال فضل الله وتمامه على أنبيائه ورسله، نعمته عليهم أنهم لم يورثوا درهمًا أو دينارًا، ولكن ورّثوا للناس العلم(٢)، مَن أخذه أخذ بحظ وفير، وحصَّل الخير الكثير.

ثالثًا: الصدق:

عندما كان الصدق مطلبًا ضروريًّا لتبليغ الرسالة، كان سمة بارزة من سمات الأنبياء والرسل، فهم جميعهم صادقون مصَدِّقون، بلَّغوا رسالة ربهم كاملة تامَّة من غير نقص أو زيادة، واستحقوا ثناء ربهم عليهم بهذه الصفة الكريمة، قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ [يس: ٥٢]، أي: «هذا الذي ترون ما وعد به الرّحمن وصدق في الإخبار به المرسلون الذين أتونا بوعد الله ووعيده»(٣).

وقال تعالى عن إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ [مريم: ٤١]، وقال عن إدريس عليه السلام: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٦]، قال الراغب رحمه الله: «والصِّدِّيق: مَن كثر منه الصدق، وقيل:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٥١٤.

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن العلماء ورثةُ الأنبياء، إن الأنبياءَ لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنَّما ورَّثُوا العلم، فمن أخذ بِهِ فقد أخذ بحظٍّ وافر**»، رواه أبو داود من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم (٥/ ٤٨٥)، رقم ٣٦٤١، قال السخاوي: له شواهد يتقوى بها، وصححه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: المقاصد الحسنة، ص ٢٨٦، رقم ٧٠٣، صحيح الجامع (٢/ ١٠٧٩)، رقم ٦٢٩٧.

(٣) تفسير المراغي (٢٣/ ٢٠).

بل يقال لمن لا يكذب قط، وقيل: بل لمن لا يتأتى منه الكذب لتعوُّده الصدق، وقيل: بل لمن صدَق بقوله واعتقاده وحقق صدقه بفعله»[(١)].

أما رسول الله ﷺ فقد وصفه ربه بأنه جاء بالصدق فيما أخبر به عن ربه، وفيما فعل من خصال الصدق، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣]، قال ابن جرير ؒ: «اختلف أهل التأويل في الذي جاء بالصدق وصدق به، وما ذلك؟ فقال بعضهم: الذي جاء بالصدق رسول الله ﷺ، قالوا: والصدق الذي جاء به: لا إله إلا الله، والذي صدَّق به أيضًا، هو رسول الله ﷺ»[(٢)]، فهو الصادق الأمين ﷺ، قبل البعثة وبعد البعثة ويوم يبعث الله الخلق، ويرى أهل الإيمان وعدهم، ويعاين أهل الكفر وعيدهم.

رابعًا: الصبر:

ومن أخص صفات الأنبياء الصبر على الأذى والبلاء، فقد امتُحنوا بشتى أنواع البأساء والضراء، فما زادهم ذلك إلا إصرارًا وعزيمة في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى، ولذلك أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقتدي بهم في صبرهم وتحملهم أذى المكذبين لهم، قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، قال الشنقيطي ؒ: «اختلف العلماء في المراد بأولي العزم من الرسل في هذه الآية الكريمة اختلافًا كثيرًا، وأشهر الأقوال في ذلك أنهم خمسة، وهم الذين قدمنا ذكرهم في الأحزاب والشورى، وهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد -عليهم الصلاة والسلام- وعلى هذا القول فالرسل الذين أمر رسول الله ﷺ أن يصبر كما صبروا أربعة، فصار هو خامسهم»[(٣)].

---

(١) المفردات، ص ٤٧٩.

(٢) جامع البيان (٢٠/ ٢٠٤).

(٣) أضواء البيان (٧/ ٤٣٤).

وفي مشهدٍ آخر سلّى الله رسوله ﷺ، وثبَّت فؤاده بخبر سالف الأنبياء الذين كُذِّبوا وأوذوا في ذات الله فكان الصبر سلاحهم حتى كتب الله تعالى لهم النصر والتمكين، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ ﴾ [الأنعام: ٣٤]، قال ابن جرير رحمه الله: «وهذا تسلية من الله تعالى ذكرُه لنبيه محمد ﷺ، وتعزية له عما ناله من المساءة بتكذيب قومه إياه على ما جاءهم به من الحق من عند الله»(١).

كما أثنى الله تعالى على جملة من الرسل الكرام بهذه الخصلة الجليلة التي عليها مدار النصر والغلبة والعلو، فقال سبحانه عن إسماعيل وإدريس وذي الكفل عليهم السلام: ﴿ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٥]، وقال جل ذكره عن أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٤٤].

وأما نوح عليه السلام، فقد ضرب الله به أروع أمثلة الصبر على دعوة قومه وطول معالجته لهم، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٤]، قال الرازي: «كان النبي عليه السلام يضيق صدره بسبب عدم دخول الكفار في الإسلام وإصرارهم على الكفر، فقال: إن نوحًا عليه السلام لبث ألف سنة تقريبًا في الدعاء ولم يؤمن من قومه إلا قليل، وصبر وما ضجر، فأنت أولى بالصبر؛ لقلة مدة لبثك، وكثرة عدد أمتك»(٢).

فما زال أنبياء الله ورسله متزينين بثياب الصبر، داعين أتباعهم إليه في العسر واليسر، حتى بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة على أبلغ وجه.

---

(١) جامع البيان (٩/٢٢٤).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/٤٢).

خامسًا: الأمانة:

لا تجتمع طوية الخيانة وعظمة الرسالة إلا أن يجتمع الليل والنهار، ولا يُتصور أبدًا أن الله تعالى يجعل مقاليد الهداية الإنسانية بيدِ مَن لا يحفظها ويبلغها على أكمل وجهها، ولذلك كانت الأمانة من أسمى صفات الرسل والأنبياء حتى اشتهروا بها قبل التكليف الإلهي، ولعلها من أسباب الحكمة الباعثة على اشتغال الأنبياء برعي الغنم للناس(١) قبل البعثة.

وكثيرًا ما نجد القرآن الكريم يثني عليهم، وينعتهم بها، فقد ذكرت في خمسة مواضع(٢) من سورة (الشعراء) نعتًا لخمسة أنبياء كرماء، فقال تعالى حكايةً عن نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب عليهم السلام: ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ [الشعراء: ١٠٧]، أي: «أمين على وحيه إليَّ، برسالته إياي إليكم»(٣).

وفي موضع آخر من كتاب الله الكريم، قال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ [الدخان: ١٧، ١٨].

وأما رسولنا ﷺ، فقد كان أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خُلقًا، وأعظمهم أمانة، جمع الله تعالى فيه من أمور الصلاح ما دعا قومه إلى أن يسموه بالأمين(٤)،

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**ما بعث الله نبيًّا إلا رعى الغنم**»، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «**نعم: كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة**»، رواه البخاري، كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط (٣/٨٨)، رقم ٢٢٦٢.

(٢) جاءت في الآيات: ١٠٧، ١٢٥، ١٤٣، ١٦٢، ١٧٨.

(٣) جامع البيان (١٧/٦٠١).

(٤) ينظر: السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة، محمد الصوياني (١/٤٢).

فكانوا يأتونه بودائعهم؛ لما يعلمون من صدقه وأمانته[١]، فلما بعثه الله تعالى وقرأ القرآن واهتدى بهدي ربه، تزينت فيه تلك الصفة العظيمة بنور الإيمان، واتفقت مع هدي السُّنة والقرآن، حتى إذا ما ساومه أعداء الله تعالى على تبديل الوحي الذي أنزله الله إليه، أمره ربه أن يرد عليهم بمنطق الأمانة التي تمكنت جذورها في قلبه الطاهر، قال تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [يونس: ١٥]، أي: قل لهم: ما يكون لي أن أبدِّله من عندي، إن أتبع فيما آمركم به وأنهاكم عنه ما أُنزل إليَّ وأُمرت به[٢].

سادسًا: التوكُّل والثقة بالله:

قدَّم القرآن الكريم نماذج رائعة لتوكُّل الأنبياء والرسل على الله؛ لأجل إعلاء كلمة الحق، ونُصرة الشريعة والدِّين.

فحين تحداهم قومهم ونصبوا لهم العداء، مضى أولئك الأخيار مستعينين بالله تعالى في مواجهة الضلال والفجور، آخذين بأسباب النصر والظهور، موقنين أن التوكل على الله مطية العبور إلى شواطئ السلامة.

قال الله تعالى واصفًا عظيم اعتمادهم وتوكُّلهم على الله: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم: ١٢]، فهم يقولون: أي شيء يمنعنا من التوكُّل على الله، والحال أننا على الحق والهدى، وفي هذا كالإشارة من الرسل عليهم السلام لقومهم بآية عظيمة، وهي تحدي قومهم الذين لهم القهر والغلبة عليهم، بأنهم متوكِّلون على

---

(١) ينظر: السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة (١/ ١١٣).

(٢) ينظر: جامع البيان (١٢/ ١٣٦).

الله في دفع كيدهم ومكرهم، وجازمون بكفايته إياهم (١).

والذي حكاه القرآن عن حال الرسل إجمالًا فصَّله في قول نوح عليه السلام، حين كذبه قومه وآذوه وأصحابه: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس:٧١]، قال ابن جرير رحمه الله: «إن كان شق عليكم مقامي بين أظهركم، وتذكيري بآيات الله، فعزمتم على قتلي أو طردي من بين أظهركم، فعلى الله اتِّكالي وبه ثقتي، وهو سندي وظهري» (٢).

وكرر ذكره سبحانه وتعالى في قصة هود عليه السلام، حين اتهمه قومه بالجنون: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم﴾ [هود: ٥٤ -٥٦]، أي: اعتمدت على الله ربي وربكم، ورضيت بحكمه، ووثقت بنصره، وفوَّضت أمري إليه (٣).

قال ابن القيم رحمه الله: «هو ربي، فلا يسلمني ولا يضيعني، وهو ربكم فلا يسلطكم عليّ» (٤).

وأخبر كذلك عن شعيب عليه السلام، حين استهزأ به قومه، أنه قال لهم: ﴿وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، قال ابن كثير رحمه الله: «وما توفيقي في إصابة الحق فيما أريده ﴿إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري، وإليه ﴿أُنِيبُ﴾،

---

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٢٣.

(٢) جامع البيان (١٢/ ٢٣٠).

(٣) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية (٥/ ٣٤١٢)، تفسير القرآن للسمعاني (٢/ ٤٣٦)، الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٥٢).

(٤) التفسير القيم، ص ٢٠.

أي: أرجع، قاله مجاهد رحمه الله وغيره»[(١)].

ولما أعرضت قريش عن محمد ﷺ، وتولت عنه، أمره ربه أن يخبرهم بأن اعتماده وتوكله على ربه سبحانه، هو مَن ينصره ويعزه، ويكفيه شرهم ومكرهم، قال عز وجل: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [التوبة: ١٢٩]، أي: فإن تولَّى هؤلاء الذين جئتهم بالحق من عند ربك من قومك، وأدبروا عنك، ولم يقبلوا ما أتيتهم به من الحق، وما دعوتهم إليه من النور والهدى، فقل: يكفيني ربي لا معبود سواه، عليه اعتمادي، وبه ثقتي، فإنه ناصري ومعيني على مَن خالفني وتولَّى عني منكم ومِن غيركم مِن الناس[(٢)].

فلما كان التوكُّل على الله تعالى ملاذ الرسل والأنبياء من سطوة الجبابرة وظلم المستكبرين، كانوا خير مَن يحسن الظن بالله، وخير مَن يثق أن النصر مع الصبر، وأن العسر معه اليسر، وقد صوَّر القرآن الكريم مواقف جملة من أنبيائه المتوكلين الواثقين كيف ظلُّوا ساكنين مطمئنين، لم يفزعهم كيد الكفر ومكره، ولم يقنطوا من نصر الله وقرب فرجه.

فهذا خليل الله إبراهيم عليه السلام حينما مكر به الكفار، وأضرمت له النار، واجتمع عليه الخَلق في مشهد عظيم من مشاهد الظلم والقهر، ما زاده ذلك إلا ثقة بربه أنه لن يسلمه ولن يخذله، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كَانَ آخِرَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ»[(٣)]، فنصره الله تعالى بمعجزة عظيمة أذهلت جبابرة الكفر وأبطلت كيدهم، قال تعالى: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٤٤).

(٢) ينظر: جامع البيان (١٢/ ١٠٠).

(٣) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿ أَمَنَةً نُّعَاسًا ﴾ (٦/ ٣٩)، رقم ٤٥٦٤.

﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، قال القاسمي رحمه الله: «﴿قُلْنَا﴾، أي: تعجيزًا لهم ولأصنامهم، وعناية بمن أرسلناه، وتصديقًا له في إنجاء مَن آمن به: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا﴾، أي: باردة على إبراهيم عليه السلام، مع كونك محرقة للحطب ﴿وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، أي: ولا تنتهي في البرد إلى حيث يهلكه؛ بل كوني غير ضارة»(١)، فحصل النصر بحول الله وقوته لنبيه وخليله، وخاب وخسر هنالك المبطلون.

وأما كليم الله موسى عليه السلام، فلم تزعجه جموع الكفر وراياته، ولم يغمه كيد فرعون وجنوده؛ بل ظل صابرًا واثقًا بنصر الله تعالى حتى في ألد المواقف وأصعب الظروف، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، قال الواحدي رحمه الله: «أي: سيدركنا جمع فرعون ولا طاقة لنا بهم»(٢)، فكان رد الواثق بربه الذي عظم فيه رجاؤه: ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، قال السمرقندي رحمه الله: «يعني: سينجيني ويهديني إلى طريق النجاة»(٣)، فأجيبت دعوة المضطر، وجاءت معجزة النصر مِن عند مَن بيده الغلبة والقهر، قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٣ - ٦٦]، قال سيد قطب رحمه الله: «وقعت المعجزة، وتحقق الذي يقول عنه الناس مستحيل؛ لأنهم يقيسون سُنة الله على المألوف المكرور، والله الذي خلق السُّنن قادر على أن يجريها وفق مشيئته عندما يريد، وقعت المعجزة وانكشف بين فِرْقي الماء طريق، ووقف الماء على جانبي الطريق كالطود العظيم»(٤).

---

(١) محاسن التأويل (٧/ ٢٠٤).

(٢) الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٣/ ٣٥٤).

(٣) بحر العلوم (٢/ ٤٧٤).

(٤) في ظلال القرآن (٥/ ٢٥٩٩).

ثم بعد قرون من هذه القصة يتكرر نفس المشهد مع رسول الله ﷺ وصاحبه في الغار، بعد خروجهما من مكة، ففي لحظة حاسمة أظلمت فيها الدنيا على أبي بكر رضي الله عنه، وتغشاه الهم والغم، وكاد أن يحبس نفسه وينقطع فؤاده، كان رسول الله ﷺ رابط الجأش مطمئن البال، لا يزيد على أن يقول لصاحبه: «**مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا**»[(١)]، فإذا كان الأمر كذلك، فوالله لو سارت مع قريش كل المخلوقات، وتشققت المقابر فخرج الأموات يسحبون أكفانهم يقلبون معها حجارة الأرض، ما قدروا على اثنين الله ثالثهما[(٢)]؛ لأن الله غالب على أمره، لا يخذل أولياءه، ولا يخزي مَن نصره، قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠]، قال البغوي: «هذا إعلام من الله ﷻ أنه المتكفل بنصر رسوله وإعزاز دِينه، أعانوه أو لم يعينوه، وأنه قد نصره عند قلة الأولياء، وكثرة الأعداء، فكيف به اليوم وهو في كثرة من العَدد والعُدد؟»[(٣)].

وقال الشوكاني رحمه الله في قوله تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾: «أي: دع الحزن، فإن الله بنصره وعونه وتأييده معنا، ومَن كان الله معه فلن يغلب، ومَن لا

---

(١) رواه البخاري، من حديث أبي بكر رضي الله عنه، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ (٦/ ٦٦)، رقم ٤٦٦٣، ورواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أبي بكر رضي الله عنه، (٤/ ١٨٥٤)، رقم ١.

(٢) ينظر: السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة (١/ ٢٦٣).

(٣) معالم التنزيل (٤/ ٤٩).

يغلب فيحق له أن لا يحزن»[١].

فبهذه الثقة العظيمة التي لا تزعزعها قوة الأقوياء، ولا يحركها مكر الأعداء، كتب الله تعالى النصر لأوليائه، وأظهرهم على أعظم جبابرة الأرض، ومكَّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم.

سابعًا: التقوى والصلاح:

التقوى منزلة عظيمة من منازل الإيمان، وهي وصيَّة الله تعالى للأوَّلين والآخِرين، أخذ بها الأنبياء والرسل، وأوصوا بها أقوامهم؛ لأنهم يعلمون أنها خير زاد، وأجمل لباس يستر عورات الظاهر والباطن، قال تعالى عن يحيى عليه السلام: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٣]، أي: «وكان لله خائفًا، مؤديًا فرائضه، مجتنبًا محارمه، مسارعًا في طاعته»[٢].

وقال على لسان يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، فوصف يوسف عليه السلام نفسه في هذا المقام الشريف بكونه متقيًا[٣].

وقد مرَّ بنا قولُ الله تعالى لسيد المتقين وخير الخلق أجمعين: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]، قال القاسمي رحمه الله: «أي جاء بدليل التوحيد وآمن به فلم يعتد بشبهة تقابله، يعني النبي صلى الله عليه وسلم ومَن تبعه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، أي: الموصوفون بالتقوى التي هي أجل الرغائب،

---

(١) فتح القدير (٢/٥١٧).

(٢) جامع البيان (١٥/٤٨٠).

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب (١٨/٢٠٨).

ولذا كان جزاؤهم أن يقيهم الله ما يكرهون»[١].

ولما كانت صفة الصلاح زينة التقوى وثمرته[٢]، أكثر الله تعالى في كتابه الكريم من وصف الأنبياء بها حتى استوعبت خيرة الأنبياء والرسل، إبراهيم ويحيى وزكريا وعيسى وإلياس ولوطًا وإسماعيل وإدريس وذا الكفل وإسحاق ويونس[٣] عليهم السلام، فضلًا عمَّا حكاه القرآن عن تضرع يوسف عليه السلام، وسؤاله ربه أن يلحقه ويرفعه إلى درجات آبائه الصالحين من الأنبياء والمرسلين[٤] وذلك في قوله تعالى على لسانه: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف:١٠١]، وما أخبر به عن دعاء سليمان عليه السلام أن يحشره ويدخله في زمرة الأنبياء والمرسلين الصالحين، كما في قول الله تعالى على لسانه: ﴿ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النمل: ١٩]، وكل ما جاء في كتاب الله الكريم من وصف صلاحهم وخشوعهم وخضوعهم هو دليل التقوى التي ملأت قلوبهم، وتحركت بها جوارحهم.

ثامنًا: القدوة الحسنة:

جعل الله تعالى الأنبياء والرسل قناديل هداية واستقامة، يستضيء الناس بنور بصيرتهم، وينهلون من زلال سيرتهم، كيف لا وقد اجتمعت لهم أسمى صفات الكمال البشري، هذا لا شك له أثر عظيم في بناء المجتمع المسلم المتبع لشرع الله تعالى، فالناس إذا رأوا نماذج حية تحمل خصال الخير وتذعن لها وتدعو إليها، كان ذلك أدعى لطاعتهم واتباعهم، قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ

(١) محاسن التأويل (٨/٢٨٩).
(٢) قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ [الأحزاب:٧٠، ٧١].
(٣) البقرة: ١٣٠، وآل عمران: ٣٩، ٤٦، والأنعام: ٨٥، والأنبياء: ٧٥، ٨٦، والصافات: ١١٢، والقلم ٥٠.
(٤) وقد كان أبوه إبراهيم عليه السلام دعا بقوله: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٣].

﴿أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]، أي: كان معلم خير، يأتمُّ به أهل الهدى، مطيعًا لله، مستقيمًا على دِين الإسلام، ولم يكُن يشرك بالله شيئًا[(١)].

وقال تعالى عن شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، قال الواحدي رحمه الله: «أي: لست أنهاكم عن شيء وأدخل فيه، وإنما أختار لكم ما أختار لنفسي»[(٢)].

وإذا كان الله قد أخبر في كتابه بكثيرٍ من أحوال الأنبياء والرسل مع أقوامهم، فما ذاك إلا للعبرة والعظة والاقتداء، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ﴾ [يوسف: ١١١]، أي: أن قصص الأنبياء والرسل مع قومهم يعتبر بها أهل الخير وأهل الشر، فمَن فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم من كرامة أو إهانة[(٣)].

بل قد جاء الأمر الرباني لرسول الله ﷺ أن يقتدي بهدي أولئك الأخيار ويتبع سيرتهم، قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فاجتمعت لرسولنا ﷺ أجود الفضائل وأحسن الشمائل، فاستحق أن يكون سيد المرسلين، وإمام المتقين، والقدوة الحسنة للأوَّلين والآخِرين، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، قال ابن كثير رحمه الله: «هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسِّي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله»[(٤)].

---

(١) ينظر: جامع البيان (١٤/٣٩٢).

(٢) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/٥٣١)

(٣) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٠٧.

(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/٣٩١).

تاسعًا: الدعاء والتوبة والاستغفار:

كلَّما تجلت عظمة الخالق للعبد المؤمن، وزادت معرفته بأسماء الله وصفاته، كان ذلك سببًا لشدة لجوئه إلى الله وافتقاره إليه، وإذا تأمَّل العبد ما تحمله أدعية الأنبياء من عبودية كاملة ومعانٍ عظيمة، تبيَّن له كمال توكُّلهم واستعانتهم بالله في قضاء حوائجهم.

وقد سطر القرآن الكريم أحوالًا عديدة تجلَّى فيها تضرُّع الأنبياء والرسل وفاقتهم لرحمة الله ورأفته وإحسانه، وهذا كله يدل على أن سؤال الله تعالى والإلحاح عليه من أخص صفات الأنبياء والرسل وأعظم سماتهم، قال الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، قال ابن جرير رحمه الله: «ويعني بقوله: ﴿رَغَبًا﴾ أنهم كانوا يعبدونه رغبة منهم فيما يرجونه منه من رحمته وفضله، ﴿وَرَهَبًا﴾، يعني: رهبة منهم من عذابه وعقابه، بتركهم عبادته، وركوبهم معصيته»(١).

ومع ما وهبهم الله من خصائص الاجتباء والاصطفاء إلا أنهم لا يستنكفون عن التوبة والإنابة والاستغفار، قال تعالى عن آدم وزوجه عليهما السلام: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، قال الضحاك رحمه الله، في تفسيره لهذه الآية: «هي الكلمات التي تلقَّاها آدم من ربه عز وجل»(٢).

وقال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، أي: إني أستجير بك

(١) جامع البيان (١٦/ ٣٨٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٩٩).

أن أسألك ما لا علم لي به، مما لا يعلمه إلا أنت، فاغفر لي خطئي في سؤالي إياك ما لا أعلم، وإن أنت لم تغفرها لي وترحمني فتنقذني من غضبك أكُن من الذين غبنوا أنفسهم حظوظها وهلكوا [(١)].

وقال عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء: ٨٢]، قال مجاهد رحمه الله: «هو قوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا﴾، وقوله لسارة: إنها أختي، حين أراد فرعون من الفراعنة أن يأخذها»[(٢)].

وقال عن موسى عليه السلام: «﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، أي: تُبتُ إليك عن سؤال الرؤية، وأنا أول مَن آمن بأنك لا تُرى في الدنيا، وقيل: وأنا أول مَن آمن بك مِن بني إسرائيل[(٣)].

عاشراً: الرفق واللين في المعاملة:

الرفق واللين في المعاملة مظهر من مظاهر رأفة الأنبياء وتواضعهم لأقوامهم، وصفة مميزة تدل على حسن أدبهم وكمال أخلاقهم حتى مع ألد أعدائهم، قال تعالى لموسى وأخيه هارون عليهما السلام: ﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ [طه: ٤٣، ٤٤]؛ لأن القول اللين الرقيق كما قال سيد قطب رحمه الله: «لا يثير العزة بالإثم، ولا يهيج الكبرياء الزائف الذي يعيش به الطغاة، ومن شأنه أن يوقظ القلب، فيتذكّر ويخشى عاقبة الطغيان»[(٤)].

وفي مواقف الصد والتكذيب وتوجيه التهم والادعاءات الباطلة، تظل الرأفة

---

(١) ينظر: جامع البيان (١٢/٤٣٧).

(٢) تفسير مجاهد، ص ٥١١.

(٣) ينظر: معالم التنزيل (٣/٢٧٩).

(٤) في ظلال القرآن (٤/٢٣٣٦).

والرحمة وحُسن المعاملة هي دأب الرسل والأنبياء في الرد على الجبابرة والزعماء، قال تعالى عن نوح عليه السلام وقومه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٠، ٦١].

ويتكرر نفس الموقف مع هود عليه السلام وقومه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦، ٦٧].

وقد بلغت الرأفة والشفقة بأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام مبلغًا قال فيه: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، قال السعدي رحمه الله: «وهذا من شفقة الخليل عليه الصلاة والسلام؛ حيث دعا للعاصين بالمغفرة والرحمة من الله، والله تبارك وتعالى أرحم منه بعباده لا يعذب إلا مَن تمرد عليه»[1].

وأما سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه، فقد كانت نموذجًا حيًّا لما أمره الله به في قوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، أي: «وأَلِن لمَن آمَن بك، واتبعك، واتبع كلامك، وقربهم منك، ولا تَجِد بهم، ولا تغلظ عليهم، يأمره تعالى ذكره بالرفق بالمؤمنين»[2].

ولولا أن الله تعالى أحسن إليه ووهبه الرأفة واللين والشفقة ما كان ليؤلف بين القلوب المتنافرة، ويجمع القبائل المتناحرة، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، قال قتادة رحمه الله:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٢٧.

(٢) جامع البيان (١٤/ ١٢٨).

«فبرحمة من الله لِنتَ لهم»(١)، وقال الحسن البصري رحمه الله: «هذا خُلق محمد صلى الله عليه وسلم، بعثه الله به»(٢). فكان صلى الله عليه وسلم أرحم الناس بالأمة، وأشفقهم عليها، يحزن أشد الحزن حين يُكذَّب، رغم أن الله تعالى لم يكلفه إلا ببلاغ الرسالة وأداء الأمانة، ليس عليه هدى أحدٍ من الناس.

الحادية عشرة: الخوف والخشية:

لا أحد أشد خوفًا ولا أعظم خشية من رسل الله تعالى وأنبيائه، وهذه سجية العارفين بالله المعظمين لجلاله وعزته، فهم على ما خصهم الله به من صفات الكمال البشري، عاشوا حياتهم بين الخوف من الله والرجاء فيما عنده، وقد أثنى الله عليهم بهذه الصفة الجليلة الشاهدة على حسن أدبهم وسمو تواضعهم، مقرونة بالمسارعة في الطاعة والرغبة فيما عند الله من الكرامة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، قال الزحيلي رحمه الله: «والمعنى: أنهم ضموا إلى فعل الطاعات والمسارعة فيها أمرين: **أحدهما** الفزع إلى الله تعالى، رغبة في ثوابه، ورهبة من عقابه، **والثاني** الخشوع، وهو المخافة الثابتة في القلب، أو الخوف اللازم للقلب، لا يفارقه أبدًا»(٣).

وقال ابن القيم رحمه الله: «وقد أثنى سبحانه على أقرب عباده إليه بالخوف منه، فقال عن أنبيائه بعد أن أثنى عليهم ومدحهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾، فالرغب: الرجاء والرغبة، والرهب: الخوف والخشية»(٤).

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١٤٨/٢).

(٢) المرجع السابق.

(٣) التفسير المنير (١٣٢/٩).

(٤) طريق الهجرتين (٦١٥/١).

وامتدحهم ربهم بالخشية مرةً أخرى حين جردوها له وحده ولم يحسبوا للناس حسابًا فيما كلفهم الله به من أمور الرسالة، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، أي: الذين يبلغون رسالة الله إلى خلقه ويؤدونها بأمانة، ويخافونه دونما سواه، فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله، وكفى بالله ناصرًا ومعينًا[(١)].

ثم إن أولى الناس بهذا الثناء الرباني سيد المرسلين، وأتقى الناس أجمعين، وأخشاهم لله رب العالمين[(٢)]، الذي بلغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، وأكمل الدين كله لله، قال الله تعالى له: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ [يونس: ١٥]، أي: إني أخاف إن عصيت ربي أي عصيان كان، عذابَ يوم عظيم الشأن، وهو يوم القيامة، فكيف إذا عصيته بتبديل كلامه اتباعًا لأهوائكم[(٣)]؟

فكان ﷺ خير مَن يمتثل أمر الله تعالى، وخير مَن يخشى الوقوع في معصيته، لا يغتر بما وفَّقه الله له مِن طاعات، ولا يتكل على ما أكرمه الله به مِن الفضائل والهبات، وبقي ﷺ يربي أصحابه على الموازنة بين الرجاء والخوف، تارة بالترغيب وتارة أخرى بالترهيب، إلى أن أصبح قرنه وصحابته خير مَن يحمل هذا الدِّين ويدعو إليه.

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٦/٤٢٧).

(٢) رواه مسلم من حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ، قال: «**أما والله، إني لأتقاكم لله، وأخشاكم له**»، كتاب الصيام، باب بيان أن القبلة في الصوم ليست محرمة على من لم تحرك شهوته (٢/٧٧٩)، رقم ٧٤.

(٣) ينظر: تفسير المنار (١١/٣١٩).

الثانية عشرة: احتساب الأجر من الله:

دلَّت آيات الكتاب الكريم على أن جملة الأنبياء والرسل لا يسألون الناس أجرًا على حمل الرسالة وتبليغها، وإنما يرجون الأجر والثواب من الله الذي اصطفاهم وكلفهم بحملها وأدائها، قال تعالى حكايةً عن جملة منهم: ﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٩]؛ لأن طلب الأجر من الناس مظنة التهمة بالكذب وطلب أعراض الدنيا، قال الرازي رحمه الله: «أي: على ما أنا فيه من ادِّعاء الرسالة؛ لئلا يظن به أنه دعاهم للرغبة»(١).

وما قصَّه القرآن عن جملة الأنبياء والرسل قبل بعثة رسوله ﷺ أعاده مرة أخرى في خبره عن رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، أي: «لا أطلب منكم على إبلاغي إياكم هذا القرآن ﴿أَجۡرًا﴾، أي: أجرة، ولا أريد منكم شيئًا، ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾، أي: يتذكَّرون به فيرشدوا من العمى إلى الهدى، ومن الغي إلى الرشاد، ومن الكفر إلى الإيمان»(٢).

قال البيضاوي رحمه الله في معنى قوله: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾: «أي: على التبليغ أو القرآن، ﴿أَجۡرًا﴾: جعلًا مِن جهتكم كما لم يسأل مَن قبلي مِن النبيين»(٣).

وقال تعالى: ﴿ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: ٨٦]، قال ابن زيد رحمه الله: «لا أسألكم على القرآن أجرًا تعطونني شيئًا، وما أنا من المتكلِّفين، أتخرص وأتكلف ما لم يأمرني الله به»(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٥٤/٢٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢٩٩/٣).

(٣) أنوار التنزيل (١٧٢/٢).

(٤) جامع البيان (١٥٠/٢٠).

هكذا كان هؤلاء الأخيار يبذلون الخير للناس، ويصبرون على الأذى والبأس، ولا يسألون الناس متاعًا زائلًا أو زيفًا كاذبًا، إنما يرجون الأجر والثواب من الله الكريم الوهاب.

الثالثة عشرة: الدعوة إلى التوحيد والتبرُّؤ من الشرك:

كان اهتمام الأنبياء والرسل قائمًا على الدعوة إلى توحيد الله الخالص ونبذ الشرك والتبرُّؤ منه، ولذلك فإنه ما مِن رسول بعثه الله إلى قومه إلا وقد دعاهم إلى التوحيد، وإخلاص العبادة لله، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [الأنبياء: ٢٥]، قال ابن جرير رحمه الله: «وما أرسلنا يا محمد مِن قبلك مِن رسول إلى أمَّة مِن الأمم إلا نوحي إليه أنه لا معبود في السماوات والأرض، تصلح العبادة له سواي، ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾، يقول: فأخلصوا لي العبادة، وأفردوا لي الألوهية»(١).

وقد نبأ الله تعالى في ثنايا ما قصَّه مِن أخبارهم أن توحيد العبادة لله كان أول ما يدعون إليه ويبشرون بثواب الله عليه، فأخبر عن نوح وهود وصالح وشعيب عليهم السلام، في مواضع كثيرة مِن كتابه العزيز، أنهم قالوا لأقوامهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩]، قال ابن كثير رحمه الله: «جميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له»(٢).

وقال السعدي رحمه الله: «أمرهم بعبادة الله وحده، ونهاهم عما هم عليه، من عبادة غير الله»(٣).

---

(١) جامع البيان (١٦/٢٤٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٤٠).

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٨٣.

وأخبر عن إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧]، قال البيضاوي رحمه الله: «إنكار لعبادتهم لها بعد اعترافهم بأنها جمادات لا تنفع ولا تضر»(١).

وأخبر عن يوسف عليه السلام بقوله: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، قال مجاهد رحمه الله: «دعاهما إلى الله وإلى الإسلام فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾، أي: خير أن تعبدوا إلهًا واحدًا، أم آلهة متفرقة لا تغني عنكم شيئًا؟»(٢).

ولما كان توحيد الله تعالى يقتضي التبرؤ مِن كل وسيلة مِن وسائل الشرك، كان الرسل عليهم السلام يعلنون البراءة مِن كل شريك يعبد مِن دون الله، فها هو إبراهيم عليه السلام يخبر الله عن مجادلته قومه، وتبرُّئه مما هم عليه مِن عبادة الأصنام والهياكل، بقوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨]، أي: فلما غابت الشمس، تبرَّأ مِن عبادة الآلهة والأصنام ودعائه إلهًا آخر يغيب ويحضر مع الله الذي لا يغيب عنه شيء(٣).

قال ابن كثير رحمه الله: «والحق أن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- كان في هذا المقام مناظرًا لقومه، مبينًا لهم بطلان ما كانوا عليه مِن عبادة الهياكل والأصنام»(٤).

بل لم تمنعه عاطفته وشفقته على أبيه أن يتبرأ منه، بعد أن ظهر له تمرده وعناده

---

(١) أنوار التنزيل (٤/٥٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٧/٢١٤٦).

(٣) ينظر: جامع البيان (٩/٣٦٢).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/٢٩٢).

واستكباره على الحق، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]، قال السعدي رحمه الله: «فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله، سيموت على الكفر، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير، ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾، موافقة لربه وتأدُّبًا معه»(١).

وأما هود عليه السلام فلم يتوانَ في الرد على اتهام قومه له بالمس والجنون مِن بعض الآلهة بالبراءة التامة منها، وذلك حين قال لهم: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٤]، أي: «إني بريء مِن جميع الأنداد والأصنام»(٢).

قال السمعاني رحمه الله: «فإن قيل: كيف قال للمشركين: ﴿وَٱشْهَدُوٓا۟﴾، ولا شهادة لهم؟ قلنا: هذا مذكور على طريق المبالغة في الحُجة، لا على طريق إثبات الشهادة لهم»(٣).

وأما سيد البشر صلى الله عليه وسلم، فما إن أنزل الله عليه سورة (الكافرون)، حتى قطع أطماع قومه في مداهنتهم أو الركون لآلهتهم، قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ - ٦]، قال السعدي رحمه الله: «قل للكافرين معلنًا ومصرحًا ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، أي: تبرأ مما كانوا يعبدون مِن دون الله، ظاهرًا وباطنًا»(٤).

وقال أبو حيان رحمه الله: «وللمفسرين في هذه الجمل أقوال؛ **أحدها**: أنها للتوكيد، فقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ توكيد لقوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾،

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٥٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٣٠).

(٣) تفسير القرآن السمعاني (٢/ ٤٣٦).

(٤) تيسير الكريم الرحمن، ص ٩٣٦.

وقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾، **ثانيًا**: تأكيد لقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أولًا، والتوكيد في لسان العرب كثير جدًّا، وحكوا مِن ذلك نظمًا ونثرًا ما لا يكاد يحصر، وفائدة هذا التوكيد قطع أطماع الكفار، وتحقيق الإخبار بموافاتهم على الكفر، وأنهم لا يسلمون أبدًا»[(١)].

الرابعة عشرة: سلامة القلب:

سلامة القلب وصلاحه صفة عظيمة لا يهتدي إليها إلا خيار الخلق، فهي طوق النجاة في الآخرة، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، وعليها مدار صلاح بقية أعضاء الجسد «**أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ**»[(٢)]، وهي مِن أخص الصفات التي حبا الله بها الأنبياء والرسل.

فقد أثنى الله تعالى بها على إمام الأنبياء إبراهيم عليه السلام، حين قال: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ۝٨٣ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤]، قال أبو حيان رحمه الله: «مجيئه ربه بقلب سليم: إخلاصه الدين لله، وسلامة قلبه: براءته مِن الشرك والشك والنقائص التي تعتري القلوب مِن الغل والحسد والخبث والمكر والكبر ونحوها»[(٣)].

وتمثلها يوسف عليه السلام حين جمع لإخوته بين العفو وترك العقوبة والدعوة بالستر والمغفرة، قال تعالى: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ

(١) البحر المحيط (٨/٧٤٣).

(٢) رواه البخاري من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه (١/٢٠)، رقم ٥٢، ورواه مسلم كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، (٣/١٢١٩)، رقم ١٠٧.

(٣) البحر المحيط (٧/٤٨٦).

﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:٩٢].

قال مكي رحمه الله: «لا تغيير عليكم ولا إفساد لما بيني وبينكم مِن الحرمة، وحق الأخوة، ولكن لكم عندي العفو والصفح»(١).

وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد ضرب للأمة أروع الأمثلة في سلامة صدره وطهارته، ولا عجب في ذلك، فقد غسل الله قلبه مِن الأدناس والأنجاس وملأه بالحكمة والإيمان(٢)، فكان صلى الله عليه وسلم أطيب الناس قلبًا وأسلمهم صدرًا وأطهرهم سريرة، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، بلغ مِن أذى قومه له أن أدموا وجهه الكريم وكسروا رباعيته وشجوا رأسه، فما زاد على أن يسلت الدم عن وجهه الشريف وهو يقول: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**»(٣).

الخامسة عشرة: حسن الأدب في التعامل مع الناس:

أعد الله أنبياءه ورسله إعدادًا يتناسب مع المهمة العظيمة التي أرسلهم لها، فوهب لهم مِن الآداب العظيمة والصفات الحميدة ما يتبين به صدق قولهم وسلامة دعواهم.

وعند تأمل قصص الأنبياء في القرآن الكريم تظهر مشاهد حسن المعاملة وكمال الأدب حال الحوار مع الأقوام، رغم شدة الجفاء التي وجدوها، ومرارة المضرة التي تجرعوها.

ففي مشهد حوار هود عليه السلام مع قومه حين نسبوا له الطيش وخفة العقل

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية (٥/٣٦٢٩).

(٢) رواه مسلم من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم، وفرض الصلوات (١/١٤٩)، رقم ٢٦٤.

(٣) رواه البخاري من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، كتاب الأنبياء، باب... (٤/١٧٥)، رقم ٣٤٧٧.

وكذب اللسان، قال لهم: ﴿ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٦٧]، فكان في جوابه لهم بهذا المنطق الرقيق دلالة واضحة على عظيم حلمه، وكريم أخلاقه؛ إذ لم تستمِله جهالة القوم وفظاظة ألفاظهم عن منهج الكرماء ومسلك النبلاء.

قال الزمخشري رحمه الله: «وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام من نسبهم إلى الضلال والسفاهة، بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة بما قالوا لهم مع علمهم بأنّ خصومهم أضلّ الناس وأسفههم، أدب حسن وخلق عظيم»[1].

وفي مشهد آخر يصوِّر معنى الأخلاق الفاضلة والخصال الراقية يحكي القرآن قصة حلم إبراهيم عليه السلام، وروعة أدبه مع أبيه الفاجر، فيقول الله تعالى: ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ٤٦ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴾ [مريم: ٤٦، ٤٧]، قال البغوي رحمه الله عن هذا الجواب الذي يتدفق رحمة وعطفًا وشفقة: «وهو جواب الحليم للسفيه»[2].

وأما أخلاق الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، فليس هناك أبلغ ولا أوجز مما وصفه الله تعالى به في كتابه الكريم، حين قال عنه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴾ [القلم: ٤]، فهو إمام الرحماء، وأجود الكرماء، حاز كل فضيلة، وجمع كل خصلة جليلة، يأخذ بمجامع القلوب، ويستميل بحلمه حتى الفاجر الذهوب.

قالت عائشة رضي الله عنها، حين سُئلت عن خُلقه: «فَإِنَّ خُلُقَ نَبِيِّ اللهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ

---

(١) الكشاف، ص ٣٦٨.

(٢) معالم التنزيل (٥/ ٢٣٥).

الْقُرْآنَ»[(١)].

وقال البغوي رحمه الله: «وقيل: سمَّى الله خلقه عظيمًا؛ لأنه امتثل تأديب الله إياه بقوله: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾»[(٢)].

وقد كان حسن خُلقه وعظيم رحمته وشفقته من أعظم الأسباب التي ألَّف الله بها قلوب الناس وجمع بها شملهم، قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

روى معاوية بن الحكم رضي الله عنه[(٣)]، في قصة تشميته العاطس في الصلاة، فقال: فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللهِ، مَا كَهَرَنِي[(٤)] وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: «**إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ**»[(٥)].

وروى أبو هريرة رضي الله عنه، في قصة بول الأعرابي في المسجد، أنه ما زاد صلى الله عليه وسلم على أن قال: «**دَعُوهُ وَهَرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ، أَوْ ذَنُوبًا**[(٦)] **مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**»[(٧)].

---

(١) سبق تخريجه، ص ١٢٨.

(٢) معالم التنزيل (٨/١٨٨).

(٣) الصحابي الجليل، معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه، معدود في أهل المدينة، كان يسكن بني سُلَيم وينزل المدينة، روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحاديث معدودة. ينظر: أسد الغابة (٥/١٩٩)، الإصابة (٦/١١٨).

(٤) ما كهرني: ما انتهرني. ينظر: شرح النووي على مسلم (٥/ ٢٩).

(٥) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة (١/٣٨١)، رقم ٣٣.

(٦) السَجل والذَنوب: هي الدلو ملأى. ينظر: فتح الباري (١/٣٢٤).

(٧) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد (١/٥٤)، رقم ٢٢٠.

قال السعدي رحمه الله: «فكان ﷺ سهلًا لينًا، قريبًا من الناس، مجيبًا لدعوة من دعاه، قاضيًا لحاجة مَن استقضاه، جابرًا لقلب من سأله، لا يحرمه، ولا يرده خائبًا، وإذا أراد أصحابه منه أمرًا وافقهم عليه، وتابعهم فيه إذا لم يكن فيه محذور، وإن عزم على أمر لم يستبد به دونهم؛ بل يشاورهم ويؤامرهم، وكان يقبل من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم، ولم يكن يعاشر جليسًا له إلا أتم عِشرة وأحسنها، فكان لا يعبس في وجهه، ولا يغلظ عليه في مقاله، ولا يطوي عنه بِشره، ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يؤاخذه بما يصدر منه من جفوة؛ بل يحسن إلى عشيره غاية الإحسان، ويحتمله غاية الاحتمال ﷺ»(١).

السادسة عشرة: الحرص على نصح الناس وهدايتهم:

لن يرى الداعية ثمار دعوته إلا بعد أن يبذل قصارى جهده في سبيل هدفه وغايته، وقد كانت سير الأنبياء والرسل مليئة بالمواقف العظيمة التي تظهر حرصهم الشديد على هداية الناس إلى الحق، فجادوا بأنفسهم وأعمارهم وأموالهم وراحة أبدانهم، وبذلوا غاية ما يملكون حتى ظهر الحق، وتلاشى زبد الباطل.

لننظر مثلًا لما قصَّه الله في سيرة نوح عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤]، مكث فيهم دهرًا مديدًا يجرب معهم كل وسائل الدعوة، فيدعو سرًّا وجهرًا وليلًا ونهارًا، يتودد إليهم، ويظهر شفقته عليهم، ويرغبهم ويرهبهم علَّهم يسمعون أو يعقلون، فلما استيأس منهم اعتذر إلى ربه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٨٧٩.

أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ [نوح: ٥ - ٩]، قال ابن كثير رحمه الله: «يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام أنه اشتكى إلى ربه عز وجل ما لقي من قومه، وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلا خمسين عامًا، وما بيَّن لقومه ووضح لهم ودعاهم إلى الرشد والسبيل الأقوم، فقال: ﴿ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾، أي: لم أترك دعاءهم في ليل ولا نهار، امتثالًا لأمرك وابتغاء لطاعتك، ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴾، أي: كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق فروا منه وحادوا عنه، ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ ﴾، أي: سدوا آذانهم؛ لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه»(١).

وأما هود عليه السلام فلم يكن ليضره ما رماه به قومه من السفاهة والكذب على أن يجادلهم بذوق بديع، ويتودد إليهم بأدب رفيع، طمعًا في هدايتهم، ورغبة في استقامتهم، قال تعالى عنه: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [الأعراف: ٦٧، ٦٨]، قال ابن جرير رحمه الله: «يقول: وأنا لكم في أمري ناصح، في أمري إياكم بعبادة الله دون ما سواه من الأنداد والآلهة، ودعائكم إلى تصديقي فيما جئتكم به من عند الله، ناصح، فاقبلوا نصيحتي، أمين على وحي الله، وعلى ما ائتمنني الله عليه من الرسالة، لا أكذب فيه ولا أزيد ولا أبدل؛ بل أبلِّغ ما أُمرتُ به، كما أمرت»(٢).

وقال سيد قطب رحمه الله: «وقال كل رسول لقومه: (إني لكم ناصح أمين)، معبرًا عن ثقل التبعة وخطورة ما يعلمه من عاقبة ما هم فيه من الجاهلية في الدنيا

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/٢٣٢).

(٢) جامع البيان (١٠/٢٦٥).

والآخرة، ورغبته في هداية قومه، وهو منهم وهُم منه»[١].

وأما رسولنا الأمين ﷺ، فسيرته مليئة بالمواقف العظيمة التي تظهر حرصه الشديد على نصح الأمة وهدايتها، ورغبته الأكيدة في إخراجها من ظلام الجهل إلى نور الإيمان، وخير ما يشهد على ذلك قول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، قال السعدي رحمه الله: «يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويعنتكم، ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾، فيحب لكم الخير، ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعى جهده في تنفيركم عنه، ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾، أي: شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم»[٢].

وتأمل قول الله تعالى له: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣]، وقوله سبحانه: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر: ٨]، فكأن العليم الحكيم جل جلاله يريد أن يبدد حزن رسوله، ويسلي نفسه، التي كادت تذهب حسرة وهمًّا على قومه، وكأنه سبحانه عندما يتلو نبأ الرسل وعناد الأمم يريد أن يواسي رسوله، ويفرج الكرب والهم الذي ارتكبه بسبب صد قومه وتكذيبهم لما جاء به من الحق، قال ابن كثير رحمه الله، في ثنايا تفسيره لخبر مكث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين: «هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه، يخبره عن نوح عليه السلام أنه مكث في قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله ليلًا ونهارًا، وسرًّا وجهارًا، ومع هذا ما زادهم ذلك إلا فرارًا عن

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٣٠٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٥٦.

الحق، وإعراضًا عنه، وتكذيبًا له، وما آمن معه منهم إلا قليل... فأنت يا محمد لا تأسف على مَن كفر بك مِن قومك، ولا تحزن عليهم»[١].

ويظهر حرصه ﷺ على هداية قومه واستقامتهم، حين يضرب لهم الأمثال التي تبين حاله معهم وشفقته عليهم، فعن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي** [ص:١٠٢] **أَنَا النَّذِيرُ العُرْيَانُ**[٢] **فَالنَّجَا النَّجَاءَ، فَأَطَاعَتْهُ طَائِفَةٌ فَأَدْلَجُوا**[٣] **عَلَى مَهْلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْهُ طَائِفَةٌ فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ فَاجْتَاحَهُمْ**»[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «**مَثَلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجُزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَتَقَحَّمْنَ فِيهَا، قَالَ فَذَلِكُمْ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ، أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ**[٥] **عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ فَتَغْلِبُونِي تَقَحَّمُونَ فِيهَا**»[٦].

السابعة عشرة: الجود والكرم:

لقد كانت حياة الأنبياء والرسل مثالًا حيًّا يجسد معنى الرسالة الإلهية التي

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/٢٦٧).

(٢) النذير العُرْيان: مثل يضرب لشدة الأمر، ودنو المحذور، وبراءة المحذر عن التهمة، وأصله أن الرجل إذا رأى العدو قد هجم على قومه، تجرد عن ثوبه وصاح؛ ليأخذوا حذرهم. ينظر: الكاشف عن حقائق السنن (٢/٦١٢).

(٣) أدلج القوم: إذا ساروا من أول الليل. ينظر: عمدة القاري (١٦/١١٧).

(٤) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي (٨/١٠١)، رقم ٦٤٨٢، ورواه مسلم، كتاب الفضائل باب شفقته ﷺ على أمته...، (٤/١٧٨٨)، رقم ١٦.

(٥) الحُجَز: معقد الإزار أو السروال، وإذا أراد الرجل إمساك من يخاف سقوطه أخذ بذلك الموضع منه. ينظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم (٧/٢٥٣).

(٦) رواه البخاري، كتاب الرقاق، باب الانتهاء عن المعاصي، (٨/١٠٢)، رقم ٦٤٨٣، رواه مسلم واللفظ له، كتاب الفضائل، باب شفقته ﷺ على أمته... (٤/١٧٨٩)، رقم ١٨.

جاءوا بها، ومَن تأمَّل سيرتهم تبين له كيف كان الجود والكرم والسخاء من أبرز صفاتهم، فها هو إبراهيم عليه السلام يقص القرآنُ عنه أروع القصص عن جوده وكرمه مع أضيافه من الملائكة، قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ [الذاريات: ٢٤ - ٢٦]، فما أبطأ وما تأخر عليه السلام؛ بل انسل في خُفية إلى أهله، وجاء بذلك العجل السمين المشوي؛ ليكرم به عباد الله المكرمين، قال الزمخشري رحمه الله: «ومن أدب المضيف أن يخفي أمره، وأن يباده بالقرى من غير أن يشعر به الضيف، حذرًا من أن يكفه ويعذره»[(١)].

وقال الرازي رحمه الله: «أُكرموا إذ دخلوا، وهذا من شأن الكريم أن يكرم ضيفه وقت الدخول»[(٢)].

وأما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد بلغ كرمه وسخاؤه عنان السماء، وضرب لأمته المثل الأعلى في الجود والعطاء؛ إذ كان يعطي عطاء مَن لا يخاف الفقر ولا يخشى شظف العيش؛ بل كان يدعو الناس إلى الإسلام ويرغبهم فيه بجوده وسخائه الذي ليس له حد، فكم من رجل أدخله الإسلامَ عظيمُ جوده وإحسانه، وكم من مشهد آثر فيه غيره على نفسه، قال أنس رضي الله عنه: «مَا سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى الْإِسْلَامِ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ، قَالَ: فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَى الْفَاقَةَ»[(٣)].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا

---

(١) الكشاف، ص ١٠٥٢.

(٢) مفاتيح الغيب (٢٨/٢١١).

(٣) رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا قط فقال لا... (٤/١٨٠٦)، رقم ٥٧.

يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ عليه السلام، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ القُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ»(١).

ومما يدل على عظيم جوده ﷺ أن صفة الجود والكرم كانت سجية يعرفه بها الناس قبل أن يبعثه الله تعالى رسولًا إلى أمته، قالت خديجة(٢) رضي الله عنها، حين خشي على نفسه أول ما نزل عليه الوحي: «كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ(٣)، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ»(٤).

بحاصل ما سبق من الصفات الجليلة والمكارم الأصيلة، يتبين للعبد المؤمن أن الله تعالى لما اجتبى الأنبياء والرسل، حلاهم بأجمل الأخلاق وأحسن الصفات، فكانوا خير مَن أقلَّت الأرض، وأفضل مَن أظلَّت السماء، فمَن تأسى بهم واقتدى بصفاتهم قربه الله تعالى مِن منازلهم وأكرمه بمعيتهم.

---

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟ (٢٦/٣)، رقم ٦.

(٢) الصحابية الجليلة، أم المؤمنين، خديجة بنت خويلد القرشية الأسدية رضي الله عنها، أول أزواج النبي ﷺ، وأول من أسلم، وأم أولاده حاشا إبراهيم، تزوجها قبل الوحي، كانت امرأة حازمة لبيبة شريفة مع ما أراد الله بها من كرامة، توفيت قبل الهجرة بثلاث سنين. ينظر: الاستيعاب (١٨١٧/٤)، أسد الغابة (٨٠/٧).

(٣) الكلُّ: الثقيل من كل شيء في المؤونة والجسم، أو اليتيم، قيل: أرادت به الضعيف، وقيل أرادت اليتيم والمسافر.

ينظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم (٤٨٦/١).

(٤) رواه البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها،كتاب بدء الوحي،باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟(٧/١)،رقم٣.

المطلب الثالث:

صفات أولياء الله الصالحين

كل عبد صرف عمره وماله في طاعة الله ومرضاته، وأصلح سريرته وعلانيته، ولم يعترِه فساد في ظاهره أو باطنه، دخل في زمرة الصالحين الذين أنعم الله عليهم، ورفع ذكرهم في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾.

[النساء: ٦٩]

وكل عبد قربه الله تعالى من الأنبياء والصِّدِّيقين والشهداء وممن دونهم من عباده المؤمنين هو ولي من أولياء الله الصالحين، قال ابن الجوزي ؒ: «فأما الصالحون، فهو اسم لكل مَن صلحت سريرته وعلانيته، والجمهور على أن النبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين عام في جميع مَن هذه صفته»(١).

وقال شيخ الإسلام ؒ: «ولفظ الصالح خلاف الفاسد، فإذا أطلق فهو الذي أصلح جميع أمره، فلم يكُن فيه شيء من الفساد، فاستوت سريرته وعلانيته، وأقواله وأعماله على ما يرضي ربه، وهذا يتناول النبيِّين ومَن دونهم»(٢).

وقد جمعت هذه الطائفة المباركة من الصفات أسماها، ومن المكارم أعلاها، ولو حاول الباحث استقصاء كافة خصالهم لتفرق عليه الحديث، ولكن حسبه من ذلك بعض ما أخبر الله تعالى به، أو أخبر به رسوله ﷺ، من صفات جليلة مقرونة في كل مرة بما يوحي أن أهلها هم صفوة الخلق وخيرتهم، فيذكر منها ما يلي:

---

(١) زاد المسير، ص ٢٩٨.

(٢) الإيمان، ص ٥٠.

١- أخبر المولى ﷻ في سورة (العنكبوت) أن الإيمان المقرون بالعمل الصالح المحفوف بالصبر والتوكل على الله أعظم صفات أوليائه المؤمنين الذين منَّ عليهم بالإقامة الدائمة في الغرفات العالية والمنازل السامية، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٨، ٥٩]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لنسكنهم غرف الدر والزبرجد والياقوت[١]، ولننزلنهم قصور الجنة»[٢].

وقال ابن كثير رحمه الله: «لنسكننهم منازل عالية في الجنة تجري من تحتها الأنهار، على اختلاف أصنافها، من ماء وخمر، وعسل ولبن، يصرفونها ويجرونها حيث شاؤوا»[٣].

وقال ابن عاشور رحمه الله: «والغرف: جمع غرفة، وهو البيت المعتلَى على غيره»[٤].

وما ذكره الله تعالى في هذه السورة قريب مما قرره سبحانه في سورة (سبأ) حين قال: ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧]، قال ابن كثير رحمه الله: «في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى، ومن كل شر يحذر منه»[٥].

وقال السعدي رحمه الله: «وهم في المنازل العاليات المرتفعات جدًّا، ساكنين فيها

(١) الدر: العظام من اللؤلؤ. ينظر: تهذيب اللغة (١٤/٦١). الزبرجد: جوهر معروف، وقيل هو الزمرد. ينظر: تهذيب اللغة (١١/٢٦٠)، الصحاح (٢/٤٨٠). الياقوت: حجر من الأحجار الكريمة وهو أكثر المعادن صلابة بعد الماس. ينظر: المعجم الوسيط (٢/١٠٦٥).

(٢) الوسيط في تفسير القرن المجيد (٣/٤٢٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/٢٩٢).

(٤) التحرير والتنوير(٢١/٢٣).

(٥) تفسير القرآن العظيم (٦/٥٢٢).

مطمئنين، آمنون من المكدرات والمنغصات، لما هم فيه من اللذات، وأنواع المشتهيات، وآمنون من الخروج منها والحزن فيها»[(١)].

وفي سورة (الزمر) أخبر الله تعالى أن تقوى الله تعالى هي صفة أهل الغرفات العالية والمنازل الرفيعة من الجنة، قال تعالى: ﴿لَكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠]، قال ابن جرير رحمه الله: «لهم في الجنة غرف من فوقها غرف مبنية علالي بعضها فوق بعض»[(٢)].

وقال البغوي رحمه الله: «منازل في الجنة رفيعة، وفوقها منازل أرفع منها... وعدهم الله تلك الغرف والمنازل وعدًا لا يخلفه»[(٣)].

وقال ابن كثير رحمه الله: «أي: لهم طباق فوق طباق، مبنيَّات محكمات مزخرفات عاليات»[(٤)].

وفي خواتيم سورة (الفرقان) أورد الله تعالى جملة من صفات عباد الرحمن المتقين، كالتواضع، والحلم، وقيام الليل، والخوف، والاعتدال في الإنفاق، والنزاهة من الشرك والزنا وقتل النفس، وتجنب الكذب، وقبول المواعظ، وسؤال الله صلاح الذرية والإمامة في الدين، ثم ختم الله السياق بذكر جزائهم العظيم ومقامهم الرفيع الذي نالوه بصبرهم العظيم على مكابدة تلك الطاعات، واجتناب المحرمات، فقال جل ذكره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ [الفرقان: ٧٥،٧٦]،

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٦٨١.

(٢) جامع البيان (١٨٧/٢٠).

(٣) معالم التنزيل (١١٣/٧).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٩١/٧).

قال القرطبي رحمه الله: «﴿ٱلۡغُرۡفَةَ﴾: الدرجة الرفيعة، وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها، كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا»(١).

وفي خبر سيد الأنام ﷺ ذكر علو منزلة أهل الإيمان الخالص، والتصديق التام بالرسالة، وسمو مكانتهم بين أهل الجنة، فقال ﷺ: «**إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَيْونَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ، مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ**» قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لاَ يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ، قَالَ: «**بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ**»(٢).

وأخبر ﷺ كذلك بأن «**فِي الجَنَّةِ غُرَفًا تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا**، فَقَامَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **لِمَنْ أَطَابَ الكَلاَمَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ**»(٣).

ولما كانت أعالي الجنة وغرفها الرفيعة مساكن خيار الناس وأقربهم إلى الله، دل ذلك على أن ما ذكر في هذه الشواهد القرآنية والنبوية من صفات جليلة ومكارم عظيمة هي أخص صفات أولياء الله الصالحين التي نالوا بها ما لم ينله غيرهم من السمو والعلو في درجات الجنة.

٢- في مطلع سورة (الأنفال) أثنى الله على المؤمنين الملازمين لصفات الخوف، وزيادة الإيمان عند سماع القرآن، والتوكُّل على الله، وإقام الصلاة، والإنفاق، ثم ختم على ذلك بقوله جل ذكره: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [الأنفال: ٤]، وهذه ثلاث علامات

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٨٣).
(٢) سبق تخريجه، ص ٤١.
(٣) سبق تخريجه، ص ٩٩.

تدل على أن أهل هذه الصفات هم من خلص المؤمنين الذين نالوا خير ما وعد الله تعالى به عباده المتقين.

قال البيضاوي رحمه الله: «﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ ﴾؛ لأنهم حققوا إيمانهم بأن ضموا إليه مكارم أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل، ومحاسن أفعال الجوارح التي هي العيار عليها من الصلاة والصدقة... ﴿ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ كرامة وعلو منزلة، وقيل درجات الجنة يرتقونها بأعمالهم، ﴿وَمَغْفِرَةٌ ﴾ لما فرط منهم، ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ أُعد لهم في الجنة لا ينقطع عدده ولا ينتهي أمده»(١).

٣- في سورة (المؤمنون) افتتح الله تعالى السورة بتأكيد الفوز والفلاح لأهل الخشوع في الصلاة، وأداء الزكاة، والإعراض عن اللغو، وحفظ الفرج عن غير ما أحل الله، وحفظ الأمانة والعهد، والمحافظة على الصلوات، ثم ختم الله الآيات بذكر منزلتهم العالية في الجنة، فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١]، قال ﷺ: «فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَأَعْلَى الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ»(٢).

وروى قتادة رحمه الله، عن أنس رضي الله عنه، أن الفردوس: «ربوة الجنة، أو وسطها وأفضلها»(٣).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «يريد خير الجنان»(٤).

فلما كانت منزلة الفردوس أعظم منازل الجنة وأعلاها وأفضلها، دل ذلك

---

(١) أنوار التنزيل (٣/ ٥٠).

(٢) سبق تخريجه، ص ٩٨.

(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية (٧/ ٤٩٤٧).

(٤) الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٣/ ٢٨٥).

على أن أهلها الموصفين بما ذكره الله في مطلع سورة (المؤمنون) هم صفوة مَن آمَن بالله وصدَّق المرسلين.

٤- أثنى الله في سورة (المؤمنون) كذلك على أهل الخشية والإيمان بالله وآياته، والخوف من رد العمل، ثم ختم ذلك بقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦١]، قالت عائشة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ: أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قال: «لاَ يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لاَ تُقْبَلَ مِنْهُمْ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾»[1].

قال ابن عاشور رحمه الله: «ومعنى ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾: يسارعون إليها، أي: يرغبون في الاستكثار منها، والمسارعة مستعارة للاستكثار من الفعل، والمبادرة إليه»[2].

وحيث أن الله قد أخبر أن المسارعة في الخيرات والمسابقة إلى الطاعات طبع أهل القرب، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١]، دل ذلك على أن ما ذكر من خصال جليلة في آيات سورة (المؤمنون) الآنفة الذكر هي كذلك صفات خُلَّص أولياء الله الصالحين.

فبما ذُكر تتبين عامة صفات المقرَّبين من أولياء الله الصالحين التي دل عليها الكتاب والسنة، مع تفاوت بين طبقاتهم في امتثالها، فما يحمله النبي من تلك

---

(١) رواه الترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة المؤمنون (٢٣٦/٥)، رقم ٣١٧٥، قال أبو عيسى: وقد روي هذا الحديث عن عبد الرحمن بن سعيد، عن أبي حازم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، نحو هذا، وقال الحاكم في المستدرك: هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة. ينظر: المستدرك (٤٢٧/٢)، رقم ٣٤٨٦، سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣٠٤/١)، رقم١٦٢.

(٢) التحرير والتنوير (٥٨/٤).

الصفات ليس كالصِّدِّيق، وما يحمله الصِّدِّيق ليس كمن دونه، وإذا تقرر ذلك ساغ وصف النبي أو الصِّدِّيق أو الشهيد بالصالح، ولا يستقيم قول: إن الصالح نبي أو صدِّيق أو شهيد؛ لأن الصالح أعم من ذلك.

ما ذكر من صفات الصِّدِّيقين:

نصت أدلة الكتاب الكريم على جملة من صفات الصِّدِّيقين من الصالحين، لا تخرج في مضمونها العام عما ذكر من صفات الأولياء الصالحين، ولكن لما جاءت فيها الأدلة صريحة رأى الباحث أن يوردها بأدلتها، وهي كما يلي:

١- الإيمان بالله ورسله:

لما بلغ الصِّدِّيقون ذروة اليقين الجازم بأركان الإيمان الستة، وتمت لهم شُعبه وفروعه، وتخلقوا بأخلاق الإسلام الفاضلة، كان ذلك من أقوى الأسباب التي سبقوا به سائر الصالحين من غير الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: ١٩]، والمعنى: «والذين أقرّوا بوحدانية الله وإرساله رسله، فصدقوا الرسل وآمنوا بما جاءوهم به من عند ربهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾»[1].

قال الرازي رحمه الله: «الصِّدِّيق: نعت لمن كثر منه الصدق، وجمع صدقًا إلى صدق في الإيمان بالله تعالى ورسله»[2].

وقال السعدي رحمه الله: «والإيمان عند أهل السُّنة: هو ما دل عليه الكتاب والسُّنة، هو قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، فيشمل ذلك جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة، فالذين جمعوا بين هذه الأمور هم الصِّدِّيقون، أي: الذين مرتبتهم فوق مرتبة عموم المؤمنين، ودون مرتبة الأنبياء»[3].

---

(١) جامع البيان (٢٢/٤١٢).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٩/٢٣٢).

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٨٤٠.

٢- المبالغة في التصديق:

من أسمى صفات الصِّدِّيقين أنهم يصدقون كل ما جاء من عند الله تعالى بلا شك ولا تردد، ولا يسألون على ذلك الأدلة والشواهد، ولذلك سميت مريم بنت عمران[١] عليها السلام الصديقة كما في قول الله تعالى: ﴿ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائدة: ٧٥]؛ لأنها صدقت جبريل عليه السلام، حين قال لها: ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾[٢] [مريم: ١٩]، ولأنها صدقت بكلمات الله وكتبه، كما في وصف الله لها بقوله جل ذكره: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ ﴾ [التحريم: ١٢][٣]، فلما صدقت بآيات ربها وبكل ما أخبر عنه ولدها، وبما أخبرها به جبريل عليه السلام، من أمر ربها الذي جاءها به، ولما كانت في غاية البُعد عن المعاصي والذنوب، وفي شدة الجد والاجتهاد في أداء الطاعات وكمال العبادات، وقع عليها اسم الصِّدِّيقة[٤].

قال ابن عاشور رحمه الله: «وقيل: أريد هنا وصفها بالمبالغة في التصديق، لقوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا ﴾، كما لُقِّب أبو بكر رضي الله عنه بالصِّدِّيق؛ لأنه أول مَن صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ [الزمر: ٣٣]، فيكون مشتقًا من المزيد»[٥].

---

(١) مريم بنت عمران بن ماتان بن المعازر عليها السلام، العابدة المصطفاة الطاهرة، من ذرية سليمان عليه السلام، ووالدة عيسى ابن مريم عليهما السلام، أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها من النساء اللاتي كملن. ينظر: تاريخ دمشق (٧٥/٧٠)، صحيح مسلم (١٨٨٦/٤)، رقم ٧٠.

(٢) ينظر: بحر العلوم (٤٥٢/١).

(٣) ينظر: معالم التنزيل (٨٣/٣).

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب (٦٥/١٢).

(٥) التحرير والتنوير (٢٨٦/٦).

٣- الطهارة الحسية والمعنوية:

لما وصف الله تعالى مريم الصِّدِّيقة عليها السلام بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] دل ذلك على أن الطهارة بنوعيها من أهم صفات الصِّدِّيقين الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله، قال الزحيلي رحمه الله، في معنى الآية: «أخبرت الملائكة مريم عليها السلام أن الله اختارها؛ لكثرة عبادتها وزهدها وشرفها وطهارتها من الأكدار والوساوس ومن سفساف الأخلاق وذميم الصفات (وهو التطهير المعنوي)، ثم اصطفاها ثانيًا بالتطهير الحسي كعدم الحيض والنفاس والولادة من غير جماع»[١].

وقال أبو زهرة رحمه الله[٢]: «وإن الصدق في القول إذا صار عادة نفسية زكت النفس وطهرت، واستقام الفكر والعمل، وصار يدرك الحق لذات الحق، ويتجه إلى طلبه من غير التواء، فيدركه من غير طلب حُجة ولا برهان»[٣].

فالصِّدِّيقون طهرهم الله تعالى ظاهرًا وباطنًا من الأقذار الحسية والمعنوية، وجعل الطهارة بمفهومها الواسع جزءًا من حياتهم اليومية، فتحلوا بالزينة التامة والنزاهة الكاملة من الأوساخ والأحداث والنجاسات، وعصموا جوارحهم من الآثام والمعاصي، وحفظوا ألسنتهم من الغيبة والنميمة وفحش القول، وطهروا قلوبهم من أصناف الشرك والنفاق والرياء والغل والحسد، وصانوا عقولهم من الأفكار الضالة والتصورات الفاسدة.

---

(١) التفسير المنير (٢/٢٤٣).

(٢) أبو زهرة، محمد بن أحمد، أكبر علماء الشريعة الإسلامية في عصره، درس العلوم الشرعية والعربية، وكان وكيلًا لكلية الحقوق بجامعة القاهرة، ووكيلًا لمعهد الدراسات الإسلامية، له مصنفات عديدة، منها: "أحكام التركات والمواريث"، و"تاريخ الجدل في الإسلام"، و"الخطابة"، مات سنة أربع وتسعين وثلاثمائة. ينظر: الأعلام (٦/٢٥).

(٣) زهرة التفاسير (٤/١٧٥٢).

المبحث الثاني:

ثمرات القرب من اللّه تعالى

- **المطلب الأول:** ثمرة القرب من الله في الحياة الدنيا
- **المطلب الثاني:** ثمرة القرب من الله عند الموت
- **المطلب الثالث:** ثمرة القرب من الله في البرزخ
- **المطلب الرابع:** ثمرة القرب من الله في الآخرة

المطلب الأول:

ثمرة القرب من الله في الحياة الدنيا

من ولج أبواب القرب من الله تعالى رزقه الله خير الحياة الدنيا وزهرتها، ونال ثماره الطيبة التي جاءت مبثوثة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهي وإن كانت متعددة ومتنوعة، إلا أن أهمها وأشهرها ما يلي:

أولاً: قرب الله من العبد:

كلما تقرب العبد الموفق من الله وأقبل إليه بالإيمان والعمل الصالح، تقرب ربه منه، وأتى إليه، قال ﷺ، فيما يرويه عن ربه: «**إِذَا تَقَرَّبَ العَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِذَا أَتَانِي مَشْيًا أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**»(١)، وهذا شأن عظيم، وأمر جليل، يترتب عليه آثار حميدة، وفضائل عديدة، نذكر منها:

١- إجابة دعوة الداعي:

فقد أخبر الله تعالى في كتابه الكريم أنه قريب من أوليائه الصالحين، يسمع نجواهم، ويجيب دعاءهم، قال تعالى: «﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «قريب من أوليائي وأهل طاعتي»(٢).

وقال السمرقندي رحمه الله: «يعني: أجيبكم في أي وقت تدعونني»(٣).

وما دام أن الله تعالى قريب من أهل الطاعة على وجه العموم، فأهل القرب

---

(١) سبق تخريجه، ص ٣٦.

(٢) الوسيط في تفسير القرآن المجيد (١/ ٢٨٤).

(٣) بحر العلوم (١/ ١٨٥).

هم أولى الناس بهذه الرحمة الإلهية العظيمة، متى ما دعوه بتذللٍ وخضوع مظهرين له الحاجة والافتقار، مجتنبين موانع إجابة الدعاء، كان منهم قريبًا مجيبًا لما سألوه، أو يصرف عنهم من البلاء ما لا يعلمونه، أو يدخر دعوتهم أجرًا لهم يوم القيامة(١).

٢- مغفرة ذنوب المذنبين وقبول توبة التائبين:

من رحمة الله بأوليائه أنه يغفر ذنوبهم، ويقبل توبتهم متى ما استغفروه وأنابوا إليه، وأقبلوا عليه، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١]، فقربه من التائبين والمستغفرين يقتضي غفرانه لهم وتوبته عليهم، فهو سبحانه: ﴿ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يريد أولياءه وأهل طاعته»(٢).

فما أعظم رحمة الله تعالى بعباده، وما أعظم شفقته عليهم، يغفر لهم الذنوب، ويكشف عنهم الكروب، ويمن عليهم بخير مما يقدمون، ويتقرب إليهم بأوسع مما يتقربون به، وما إن يلجوا باب التوبة والاستغفار والإنابة، حتى يفتح لهم باب العطاء والإجابة.

٣- رحمته ونصره وتأييده لأهل القرب:

جعل الله تعالى رحمته ونصره وتأييده قريبًا من أهل القرب من عباده

---

(١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «**ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم، ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها**»، قالوا: إذا نكثر، قال: «الله أكثر»، رواه أحمد (٢١٣/١٧)، رقم ١١١٣٣، قال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلى بنحوه والبزار والطبراني في الأوسط، ورجال أحمد وأبي يعلى وأحد إسنادي البزار رجاله رجال الصحيح غير علي بن علي الرفاعي، وهو ثقة، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: حسن صحيح. ينظر: مجمع الزوائد (١٤٨/١٠)، صحيح الترغيب والترهيب (٢٧٨/٢).

(٢) معالم التنزيل (١٩٣/٧).

الصالحين، فهو قريب منهم بذاته وبصفاته، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقربه تبارك وتعالى من المحسنين وقرب رحمته منهم متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر[١]، قال الشوكاني رحمه الله: «هذا إخبار من الله سبحانه بأن رحمته قريبة من عباده المحسنين، بأي نوع من الأنواع كان إحسانهم، وفى هذا ترغيب للعباد إلى الخير، وتنشيط لهم، فإن قرب هذه الرحمة التي يكون بها الفوز بكل مطلب مقصود لكل عبد من عباد الله»[٢].

وكما أن رحمته قريب من أوليائه الصالحين، كذلك نصره وتأييده في عسرهم ويسرهم، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، قال المراغي رحمه الله: «فهو سينصركم على عدوكم، ويكفيكم شرّ أهل البغي، ويؤيد دعوتكم، ويجعل كلمتكم العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى»[٣].

ففتْحُ الله تعالى لأهل كرامته عاجل، ونصره لأوليائه حاصل، ولكن الله تعالى يمتحن صبر عباده وثباتهم؛ ليتميز أهل الإيمان من أهل الباطل.

ثانيًا: الاصطفاء الإلهي:

اقتضت حكمة الله تعالى أن يصطفي أهل طاعته من المقرَّبين على سائر خلقه، وأن يخصهم بما يشاء من خصائص الكمال البشري التي يتحقق بها بناء الشخصيات المؤمنة الطاهرة المؤهلة لإقامة دين الله في أرضه، الصالحة للاقتداء بها في الأقوال الأفعال.

---

(١) ينظر: التفسير القيم، ص ٢٧٣.

(٢) فتح القدير (٢/٣٠١).

(٣) تفسير المراغي (٢/١٢٨).

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾ [الحج: ٧٥]، قال البيضاوي رحمه الله: «﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا ﴾، يتوسطون بينه وبين الأنبياء بالوحي، ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾، يدعون سائرهم إلى الحق، ويبلغون إليهم ما نزل عليهم، كأنه لما قرر وحدانيته في الألوهية ونفى أن يشاركه غيره في صفاتها، بيَّن أن له عبادًا مصطفين للرسالة، يتوسل بإجابتهم والاقتداء بهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى»(١).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٣]، قال الواحدي رحمه الله: «أي: جعلهم صفوة خلقه، واختارهم بالنبوة والرسالة»(٢).

وقال جل ذكره عن إبراهيم عليه السلام خاصة: ﴿ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٠]، أي: «اخترناه من بين سائر الخلق بالرسالة والنبوة والإمامة، وتكثير الأنبياء من نسله، وإعطاء الخلة، وإظهار المناسك عليه، وجعل بيته آمنًا، ذا آيات بينات إلى يوم القيامة»(٣).

وقال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، أي: «اخترتك واجتبيتك وفضَّلتك وخصصتك بفضائل عظيمة، ومناقب جليلة، ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾، التي لا أجعلها، ولا أخص بها إلا أفضل الخلق، ﴿وَبِكَلَٰمِي﴾ إياك من غير واسطة»(٤).

---

(١) أنوار التنزيل (٤/ ٨٠).

(٢) الوسيط في تفسير القرآن المجيد (١/ ٤٢٩).

(٣) محاسن التأويل (١/ ٤٠١).

(٤) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٠٢.

وقال سبحانه عن مريم عليها السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٢]، أي: اختارك واجتباك على نساء العالمين في زمانك لطاعته وما خصك به من كرامته وفضله عليك[(١)].

وقال عن عامة المصطفين الأخيار: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ [النمل: ٥٩]، قال السعدي رحمه الله: «وسلم أيضًا على عباده الذين تخيرهم واصطفاهم على العالمين من الأنبياء والمرسلين وصفوة الله من العالمين، وذلك لرفع ذكرهم وتنويهًا بقدرهم وسلامتهم من الشر والأدناس، وسلامة ما قالوه في ربهم من النقائص والعيوب»[(٢)].

وتتباين درجة الاصطفاء وتختلف بحسب ما يقوم في قلب العبد من إيمان وما يقدمه من طاعات وقربات، فليس النبي كالصِّدِّيق، وليس الصِّدِّيق كالشهيد؛ بل قد تختلف درجة الاصطفاء بين أفراد التكليف الواحد فلا يكونون على درجة واحدة، كما قال الله تعالى عن أنبيائه: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

«والمراد بتفضيل بعضهم على بعض أن الله سبحانه جعل لبعضهم من مزايا الكمال فوق ما جعله للآخر، فكان الأكثر مزايا فاضلًا والآخر مفضولًا»[(٣)].

والحاصل أن هذه المكرمة العظيمة هي فضل الله تعالى لأهل القرب من أهل الإيمان الذين لزموا عتبة العبودية حتى صاروا أعلامًا للهدى، فمن عمل بما عملوا ونهج ما سلكوا، اصطفاه الله واجتباه، وأصلح سريرته، وأحسن سيرته.

---

(١) ينظر: جامع البيان (٥/ ٣٩٢).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٦٠٧.
(٣) فتح القدير (١/ ٤٦٠).

ثالثًا: نيل محبة الله ورضوانه:

إذا تقرب العبد المؤمن إلى الله تعالى بأعمال صالحة قائمة على صدق النية، وحسن الاتباع، كان ذلك سببًا لمحبة الله تعالى ورضوانه عن العبد، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]، قال ابن كثير رحمه الله: «أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض الحكماء العلماء: ليس الشأن أن تُحِب، إنما الشأن أن تحَب»[١].

- فمن أحبه الله تعالى حاز أعظم المنافع، وفاز بأتم المكارم، قال ﷺ حكاية عن ربه: «**إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ**»[٢].

قال ابن بطال رحمه الله: «لا يحرك جارحة من جوارحه إلا في الله ولله، فجوارحه كلها تعمل بالحق، فمَن كان كذلك لم تُردّ له دعوة»[٣].

- ومَن أحبَّه الله تعالى، أحبته ملائكة السماء، ووضع الله له القَبول بين أهل الأرض، ومالت إليه أفئدة الناس، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**إن الله تبارك وتعالى إذا أحب عبدًا نادى جبريل عليه السلام: إن الله قد أحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل عليه السلام، ثم ينادي جبريل عليه السلام في السماء: إن الله قد أحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ويوضع له القَبول في أهل الأرض**»[٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/٣٢).

(٢) سبق تخريجه، ص ٤٤.

(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/٢١٢).

(٤) سبق تخريجه ص ١٠١.

قال الإمام النووي رحمه الله: «وحب جبريل عليه السلام والملائكة يحتمل وجهين؛ **أحدهما**: استغفارهم له وثناؤهم عليه ودعاؤهم. **والثاني**: أن محبتهم على ظاهرها المعروف من المخلوقين، وهو ميل القلب إليه واشتياقه إلى لقائه وسبب حبهم إياه كونه مطيعًا لله تعالى محبوبًا له»(١). وقال المناوي رحمه الله: «يحدث له في القلوب مودة، ويزرع له فيها مهابة، فتحبه القلوب، وترضى عنه النفوس من غير تودد منه، ولا تعرض للأسباب التي تكتسب لها مودات القلوب، من قرابة، أو صداقة، أو اصطناع»(٢).

- ومَن أحبه الله، حال بينه وبين الدنيا، وحماه الاغترار بزخرفها الزائف ومتاعها الزائل، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا حَمَاهُ الدُّنْيَا كَمَا يَظَلُّ أَحَدُكُمْ يَحْمِي سَقِيمَهُ الْمَاءَ**»(٣).

فيحفظ الله أهل محبته من متاع الحياة الدنيا، ويُبعدهم عما يضر بدينهم منها، ويعصمهم عن أن يتلوثوا بزينتها؛ كيلا تصاب قلوبهم بداء محبتها، كما يحفظ أهل المريض مريضهم من شرب الماء، إن كان في شربه زيادة سقمه(٤).

ولا يزال العبد المؤمن يجد آثار محبة الله تعالى له، ويجتني ثمارها في حياته وبعد مماته، ولا يزال ذكره الجميل الطيب دارجًا بين الناس إلى أن يبعثه الله يوم القيامة، فيوفيه أجره وثوابه.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/٢٨٢).

(٢) فيض القدير (٢/٢٠٤).

(٣) رواه الترمذي من حديث قتادة بن النعمان رضي الله عنه، أبواب الطب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في الحمية (٣/٥٥٩)، رقم ٢٠٣٦، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في التعليقات الحسان. ينظر: المستدرك (٤/٢٣٠)، رقم ٧٤٦٤، التعليقات الحسان (٢/١١٦)، رقم ٦٦٨.

(٤) ينظر: مرقاة المفاتيح (٩/١٠٢).

رابعًا: حصول الهداية والأمن من الضلال والشقاء:

ربح أهل القرب من الله الهداية إلى الحق، والأمن من الضلال والشقاء، قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أجار الله تابع القرآن من أن يضل في الدنيا أو يشقى في الآخرة»(١).

وقال الرازي رحمه الله: «لا يضل ولا يشقى، وفيه ثلاثة أوجه؛ أحدها: لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة. وثانيها: لا يضل ولا يشقى في الآخرة؛ لأنه تعالى يهديه إلى الجنة ويمكنه فيها. وثالثها: لا يضل ولا يشقى في الدنيا»(٢).

فبهذا الربح العظيم زانت حياة أهل القرب وطابت أوقاتهم، وسرت حلاوة الإيمان في قلوبهم سريان الماء في العود، قال ﷺ: «**ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا**»(٣)، وباتباع المنهج الرباني الحكيم حصل لهم الأمن في الدنيا والآخرة، وانتفى عنهم كل مكروه ومرهوب، واستقرت لهم بطمأنينة الإيمان الحياةُ في رحاب الله.

خامسًا: إحراز أسباب الحياة الطيبة:

من ثمرات القرب من الله تعالى تحصيل أسباب الحياة السعيدة الطيبة، المتمثلة في طمأنينة القلب وانشراح الصدر والرضا والقناعة بما يسَّر الله من الرزق، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٧/٢٤٣٩).

(٢) مفاتيح الغيب (٢٢/١٣٠).

(٣) رواه مسلم من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولًا فهو مؤمن... (١/٦٢)، رقم ٥٦.

﴿حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، قال ابن القيم رحمه الله: «وقد فسرت الحياة الطيبة بالقناعة والرضا، والرزق الحسن وغير ذلك، والصواب: أنها حياة القلب ونعيمه، وبهجته وسروره بالإيمان ومعرفة الله، ومحبته، والإنابة إليه، والتوكُّل عليه، فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها، ولا نعيم فوق نعيمه إلا نعيم الجنة، كما كان بعض العارفين يقول: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب، وقال غيره: إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربًا»(١).

والحاصل أن الله تعالى يجمع لأهل القرب بين سعادة الدنيا ونعيم الآخرة، هذا وعْد الله تعالى لأهل الإيمان والعمل الصالح، فحيثما وجد العمل الصالح الصادر عن قلب مليء بالإيمان تحققت لصاحبه الحياة الهنيئة السعيدة، ولو كانت مليئة بالمشقة والتعب.

سادسًا: النجاة من كيد الشيطان:

ضمن الله سبحانه وتعالى لأوليائه الصالحين السلامة والعافية من كيد الشيطان ومكره، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩]، قال ابن جرير رحمه الله: «إن الشيطان ليست له حُجة على الذين آمنوا بالله ورسوله، وعملوا بما أمر الله به، وانتهوا عما نهاهم الله عنه ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾... فيما نابهم من مهمات أمورهم»(٢).

وما ذاك إلا لأنهم انتفعوا بمواعظ القرآن التي تحذر عداوته وتنهى عن طاعته، فكانوا على حذر وحيطة من مداخله ومصائده، واتخذوا طاعة الله

(١) مدارج السالكين (٣/٢٤٣).

(٢) جامع البيان (١٤/٣٥٧).

واللجوء إليه وسيلة للنجاة من وسواسه، قال الحسن رحمه الله: «إذا نظر إليك الشيطان فرآك مداومًا في طاعة الله، فبغاك وبغاك، فرآك مداومًا ملَّكَ ورفضك، وإذا كنت مرة هكذا ومرة هكذا طمع فيك»(١).

وإذا ما قدَّر الله على عبد مقرَّب ضعفًا أو ركونًا للشيطان، فسرعان ما يعود إلى ربه فيتوب ويستغفر، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، أي: إذا مسهم لمة أو وسوسة أو همّوا بذنب أو زلوا فيه، تذكَّروا الله وتفكروا فيما أوضح لهم من الحُجج، واستحضروا غضبه وعقابه، وعرفوا المعصية فتركوها، ونزغوا عن مخالفة الله، واستغفروا الله، وتابوا إليه(٢)؛ لأنه لا حُجَّة له ولا غلبة عليهم وهم أولياء الله، المتمسكون بكتاب الله وسُنة رسوله ﷺ، المحفوظون بحفظ الله، الحائزون ثمار القرب في الحياة الدنيا، بعد أن وفقهم الله للعمل بطاعته ورضاه، وملأ قلوبهم إيمانًا وحبًّا لله.

(١) الزهد، عبد الله بن المبارك المروزي، ص ٥٤.

(٢) ينظر: معالم التنزيل (٣/٣١٧)، زاد المسير، ص ٥٣٧.

المطلب الثاني:

ثمرة القرب من الله عند الموت

أكرم الله تعالى أولياءه الصالحين حال فراق الأهل والأحباب بما تقر به أعينهم، وينجلي به حزنهم، ويهون عليهم مصيبة الموت الذي طالما أقض مضاجعهم وأزعج قلوبهم، وأشهر هذه الكرامات الإلهية العظيمة والمنح الربانية الكريمة ما يلي:

أولاً: الرجاء وحسن الظن بالله:

تتعلق قلوب أولياء الله الصالحين حال الموت وانقطاع العمل برحمة الله تعالى وعفوه وغفرانه، فتطمئن تلك القلوب وتأنس، وتزداد شوقًا للقاء الله، وهذه مكرمة عظيمة يوفق الله إليها مَن قضى عمره عاملًا بطاعة الله تعالى راجيًا ثوابه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [البقرة: ٢١٨]، قال الربيع بن أنس رحمه الله [(١)] في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ ﴾: «هؤلاء خيار هذه الأمة، ثم جعلهم الله أهل رجاء، إنه مَن رجا طلب، ومَن خاف هرب»[(٢)].

وحق لهم في هذا الموقف العظيم أن يرجو رحمة الله الواسعة وقد أتوا بأسبابها، وحق لهم أن يحسنوا الظن بربهم، وهو القائل سبحانه: «**أنا عند ظن عبدي بي**»[(٣)].

---

(١) الربيع بن أنس بن زياد البكري الخراساني المروزي، كان عالم مرو في زمانه، وكان عالمًا بتفسير القرآن، توفي سنة تسع وثلاثين ومائة. ينظر: سير أعلام النبلاء (٦/١٦٩)، إكمال تهذيب الكمال (٤/٣٢٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٢/٣٨٨).

(٣) رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ ﴾ =

بل إن هذا الشعور الصادق في تلك اللحظات الحرجة دليل تمسكهم بالكتاب والسُّنة حتى في أشد الظروف وأصعب المواقف، لا تغيرهم الفتن، ولا تحركهم المحن، فهم بحسن ظنهم وعظيم رجائهم إنما يقتدون في أقوالهم وأفعالهم في سائر أحوالهم برسولهم ﷺ، الذي قال قبل موته بثلاث: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللهِ الظَّنَّ**»(١).

قال ابن القيم رحمه الله: «ولا ريب أن حسن الظن إنما يكون مع الإحسان، فإن المحسن حسن الظن بربه أنه يجازيه على إحسانه ولا يخلف وعده، ويقبل توبته»(٢).

فلما عظم في الله رجاؤهم، لم يخيِّب آمالهم، ولم يبدِّد حسن ظنهم؛ بل أحب لقاءهم كما أحبوا لقاءه، وأظهر لهم بشائر رحمته وغفرانه، فخرجوا من الدنيا طيبين طاهرين، تزفهم ملائكة الرحمة إلى كرامات الله تعالى وعلو مقاماته.

ثانيًا: الشوق للقاء الله تعالى:

المؤمن الصالح التقي يحسن ما بينه وبين ربه طيلة سيره إليه، فإذا اقترب موعد اللقاء رحب به وغرد قلبه شوقًا إليه، قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت: ٥]، قال السعدي رحمه الله: «يعني: يا أيها المحب لربه، المشتاق لقربه ولقائه، المسارع في مرضاته، أبشر بقرب لقاء الحبيب، فإنه آتٍ، وكل آتٍ إنما هو قريب، فتزود للقائه، وسِر نحوه»(٣).

=(٩/١٢١)، رقم ٧٤٠٥، ورواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء...، باب الحث على ذكر الله تعالى، (٤/٢٠٦١)، رقم ٢.

(١) رواه مسلم من حديث جابر رضي الله عنه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت (٤/٢٢٠٥)، رقم ٨١.

(٢) الجواب الكافي (١/٤٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٦٢٦.

ومما يزيد المقرَّب شغفًا بلقاء محبوبه، علمه بأن الله كذلك يحب لقاءه، وهذه شأنها عظيم وأمرها جليل، عن عائشة ﵂، قالت: قال ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ، كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ**» فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللهِ أَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ؟ فَكُلُّنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ، فَقَالَ: «**لَيْسَ كَذَلِكِ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ، أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، فَأَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللهِ وَسَخَطِهِ، كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ، وَكَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ**»(١).

قال النووي ﵀: «ومعنى الحديث: أن الكراهة المعتبرة هي التي تكون عند النزع في حالة لا تقبل توبته ولا غيرها، فحينئذ يبشر كل إنسان بما هو صائر إليه، وما أعد له، ويكشف له عن ذلك، فأهل السعادة يحبون الموت ولقاء الله؛ لينتقلوا إلى ما أعد لهم، ويحب الله لقاءهم، أي: فيجزل لهم العطاء والكرامة»(٢).

وفي هذه الثمرة العظيمة يظهر لطف الله العظيم ورحمته بأوليائه، ذلك بأنه لما كانت ساعة نزع الروح وخروجها لحظات صعبة على المحتضر لا يعرف فيها ما ينتظره، وما يفعل به، اقتضت حكمة الله تعالى أن يسوق لأهل القرب من علامات الرحمة وبشائر السعادة ما يحول حزنهم فرحًا، ويجعل خوفهم أمنًا، فتشتاق النفوس المؤمنة إلى لقاء الله تعالى، وتفرح القلوب الطاهرة بالرجوع إليه.

ثالثًا: الخاتمة الحسنة عند دُنوِّ الأجل:

يجود الله تعالى على أهل القرب قبل انقطاع الأجل بما يسرُّهم ويشرح

---

(١) رواه البخاري من حديث عبادة بن الصامت ﵁، كتاب الرقاق، باب **من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه**، (١٠٦/٨)، رقم ٦٥٠٧، ورواه مسلم واللفظ له، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه. (٢٠٦٥/٤)، رقم١٥.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/١٧).

صدورهم، فيختم لهم بخاتمة حسنة كرامة منه لهم، وإجابة لما كانوا يسألونه فيما مضى من أعمارهم، كما في قول يوسف عليه السلام لربه: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، قال السعدي رحمه الله: «ينبغي للعبد أن يتملق إلى الله دائمًا في تثبيت إيمانه، ويعمل الأسباب الموجبة لذلك، ويسأل الله حسن الخاتمة، وتمام النعمة»(١).

وما نزول ملائكة الرحمة على ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٢]، تؤمنهم مما يخافون، وتبشرهم بما يرضون إلا فضل من الله على أوليائه المتقين الصالحين، وما توفيق الله لمن يشاء من أهل طاعته لمباشرة عمل صالح قبل الموت إلا خاتمة حسنة من الله تعالى لهم، قال ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَسَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ**» قِيلَ: وَمَا عَسَلُهُ قَبْلَ مَوْتِهِ؟، قَالَ: «**يُفْتَحُ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ بَيْنَ يَدَيْ مَوْتِهِ حَتَّى يَرْضَى عَنْهُ**»(٢).

وهذه الثمرة المباركة هي من أعظم ما أكرم الله به أهل الحق، فهي من المبشرات التي يسوقها الله لأوليائه عند الموت، قال رسول الله ﷺ: «**وَإِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالخَوَاتِيمِ**»(٣).

قال ابن رجب رحمه الله: «وقد قيل: إن قلوب الأبرار معلقة بالخواتيم، يقولون: بماذا يختم لنا؟ وقلوب المقرَّبين معلقة بالسوابق، يقولون: ماذا سبق لنا؟ وبكى بعض الصحابة عند موته، فسُئل عن ذلك، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤١٢.

(٢) رواه ابن حبان من حديث عمرو الخزاعي رضي الله عنه، كتاب البر والإحسان، باب ما جاء في الطاعات وثوابها (٢/٥٤)، رقم ٣٤٢، قال شعيب الأرناؤوط في تعليقه على صحيح ابن حبان: إسناده صحيح على شرط مسلم، وصححه الألباني في التعليقات الحسان. ينظر: التعليقات الحسان (١/٣٧١)، رقم ٣٤٣.

(٣) رواه البخاري، كتاب القدر، باب العمل بالخواتيم (٨/١٢٤)، رقم ٦٦٠٧.

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَبَضَ خَلْقَهُ قَبْضَتَيْنِ، فَقَالَ: هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ، وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ» " وَلَا أَدْرِي فِي أَيِّ الْقَبْضَتَيْنِ كُنْتُ؟»(١)، فمن وفَّقه الله تعالى لخاتمة حسنة، وفتح له أبواب رحمته، اطمأنَّ على ما ترك، وأَمِن مما استقبل.

رابعًا: الثبات على الحق والأمان من الفتنة عند الموت:

لا يزال الشيطان حريصًا على إغواء العبد المؤمن وإضلاله عن طريق الهداية والاستقامة والثبات حتى آخر لحظة من حياته؛ بل هو أشد حرصًا على فتنته وصده عن الحق في لحظة خور قوته وضعف إرادته وتلاشي فرص توبته، إلا أن الله جل في علاه لا يخذل عبدًا أمضى عمره طائعًا مستقيًما على الهدى، يدعو الله العصمة من فتنته، قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨]، قال عكرمة رحمه الله(٢): «عند النزع»(٣)، يعني عند نزع الروح وخروجها من الجسد.

بل يوفِّق الله أولياءه الصالحين للثبات على التوحيد حتى تفيض أرواحهم من أجسادهم، قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، قال البغوي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ كلمة التوحيد، وهي قول: لا إله إلا الله ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، يعني قبل الموت»(٤).

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/١٧٣).

(٢) أبو عبد الله، عكرمة البربري ثم المدني، مولى ابن عباس رضي الله عنهما، الحافظ، المفسر، قال: طلبت العلم أربعين سنة وكنت أفتي بالباب وابن عباس رضي الله عنهما في الدار، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يضع الكبل في رجلي على تعليم القرآن والسّنن، كان عالما بالقرآن ومعانيه والمغازي، مات سنة سبع ومائة. ينظر: تذكرة الحفاظ (١/٧٣)، سير أعلام (٥/١٢)، طبقات الحفاظ للسيوطي، ص ٤٣.

(٣) الكشاف، ص ٧١٤.

(٤) معالم التنزيل (٤/٣٤٩).

وقال السعدي رحمه الله: «فيثبتهم الله في الحياة الدنيا عند ورود الشبهات بالهداية إلى اليقين، وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس ومراداتها، وفي الآخرة عند الموت بالثبات على الدين الإسلامي والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكين للجواب الصحيح، إذا قيل للميت: «مَن ربك؟ وما دِينك؟ ومَن نبيك؟»، هداهم للجواب الصحيح بأن يقول المؤمن: الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد صلى الله عليه وسلم نبيي»(١).

وهذا الفتح الرباني يكتبه الله تعالى لمن قضى عمره متقلبًا بين الطاعات، سائلًا ربه الثبات عند الممات، متمسكًا بهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي كان يسأل الله تعالى العصمة من الفتن، عن أبي اليسر(٢) رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو «**اللهم إني أعوذُ بكَ مِن الهَدْم، وأعوذُ بكَ مِن التردِّي، وأعوذُ بكَ مِن الغَرَق، والحَرَق، والهَرَمِ، وأعوذُ بكَ أنْ يَتَخبَّطني الشيطانُ عندَ المَوت**»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ يَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ**»(٤).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤٢٥.

(٢) الصحابي الجليل، أبو اليسر، كعب بن عمرو الأنصاري السلمي رضي الله عنه، مشهور بكنيته، شهد العقبة ثم بدرًا وكان يومها ابن عشرين سنة، وهو الذي انتزع راية المشركين يوم بدر، وهو الذي أسر العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، مات بالمدينة سنة خمس وخمسين. ينظر: الاستيعاب (١٣٢٢/٣)، أسد الغابة (٣٢٦/٦).

(٣) رواه أبو داود، كتاب الصلاة، باب في الاستعاذة (٦٤٩/٢)، رقم ١٥٥٢، قال الحاكم في المستدرك، صحيح الإسناد، وقال الذهبي: أخرجه أبو داود والنسائي بطرق، وصححه الألباني في صحيح أبي داود. ينظر: المستدرك (٧١٣/١)، رقم ١٩٤٨، صحيح أبي داود (٤٢٥/١)، رقم ١٥٥٢.

(٤) رواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة (٤١٢/١)، رقم ١٢٨.

فإذا كان هدف العبد المؤمن وغايته أن يلقى الله تعالى بالتوحيد، فحري به أن يمضي عمره في طاعة الله تعالى ومرضاته، فإنه مَن عاش على طاعة الله مات عليها.

خامسًا: تبشير الملائكة لهم عند نزع الروح:

ومن ثمرات أهل القرب من الله عند الموت أن الملائكة تتنزل عليهم تبشرهم بما يشرح صدورهم ويذهب خوفهم وحزنهم، مستبشرين بما هم مقبلون عليه من الإحسان والإنعام:

ففي مشهد الاحتضار، تأتيهم الملائكة تبشرهم بالجنة، وتسليهم ألا يخافوا على ما يستقبل، ولا يحزنوا على ما مضى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠]، قال زيد بن أسلم رحمه الله: «البشرى في ثلاثة مواطن: عند الموت، وفي القبر، وفي البعث»(١).

وقال ابن عطية رحمه الله في معنى قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾: «أمنة عامة في كل هم مستأنف، وتسلية تامة عن كل فائت ماضٍ»(٢).

ويصور الله تعالى مشهد قبض أرواح المؤمنين طيبين طاهرين، تقرئهم الملائكة السلام، وتزف إليهم بشرى دخول الجنة دار السلام، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا جاء ملك الموت عليه السلام يقبض روح المؤمن قال: ربك يقرئك السلام»(٣).

---

(١) بحر العلوم (٣/١٨٣).

(٢) المحرر الوجيز (٥/١٥).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٠/١٠٢).

وقال مجاهد رحمه الله: «إن المؤمن ليبشر بصلاح ولده من بعده لتقر عينه»[(١)].

والمعنى: أن الملائكة تقبض أرواح هؤلاء المتقين، وهم طيبون بتطييب الله إياهم، نظافة الإيمان وطهر الإسلام في حياتهم وحال مماتهم، وهي تقول لهم: سلام عليكم صيروا إلى الجنة، بشارة من الله تبشرهم بها الملائكة[(٢)].

ثم يصف الله تعالى ما يجده أهل القرب عند الموت من رحمة وراحة نفس وسعة بال، قال تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩]، قال ابن عطية رحمه الله: «فأما المرء من السابقين المقرَّبين فيلقى عند موته رَوحًا وريحانًا، والرَّوح الرحمة والسعة والفرح، والريحان وهو دليل النعيم»[(٣)].

وقال ابن عثيمين رحمه الله: «اختلف المفسرون رحمهم الله، ﴿فَرَوۡحٞ﴾، فقيل: فراحة؛ لأن المؤمن وإن كان يكره الموت لكنه يستريح به؛ لأنه يبشر عند النزع بروح وريحان، ورب غير غضبان، فيسر ويبتهج ولا يكره الموت حينئذ؛ بل يحب لقاء الله عز وجل، وهذا لا شك راحة له من نكد الدنيا ونصبها وهمومها، وقيل: الروح بمعنى الرحمة... وهذا المعنى أعم من الأول؛ لأن الرحمة أعم من أن تكون راحة، أو راحة مع حصول المقصود، وإذا كان المعنى أعم كان حمل الآية عليه أولى... ﴿وَرَيۡحَانٞ﴾، قيل: المراد بالريحان: كل ما يسر النفس، وليس خاصًّا بالريحان ذي الرائحة الطيبة؛ بل كل ما فيه راحة النفس ولذتها من مأكول، ومشروب، وملبوس، ومنكوح، ومشموم، فهو شامل، وقيل: المراد بالريحان الرائحة الطيبة كالريحان المعروف، والأول أشمل»[(٤)].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٠/١٠٢).

(٢) ينظر: جامع البيان (١٤/٢١٢).

(٣) المحرر الوجيز (٥/٢٥٤).

(٤) تفسير ابن عثيمين الحجرات - الحديد، ص ٣٥٣.

سادسًا: سهولة نزع الروح عند الموت:

ومن كرامات أهل القرب حال الموت أن الملائكة تنزع أرواحهم بسهولة ويُسر، فلا يجدون ألَمَ وشدةَ خروجِها من أجسادهم، ولا تشتد عليهم سكرات الموت، قال تعالى: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ [النازعات: ٢]، قال البغوي رحمه الله: «هي الملائكة تنشط نفس المؤمن، أي: تحل حلًّا رفيقًا فتقبضها، كما ينشط العقال من يد البعير، أي: يحل برفق»[(١)].

فإذا خرجت رُوحه من جسده أكرمها الله تعالى وشرَّفها ورفعها ورحبَّت بها ملائكة السماء، جاء ذلك في حديث فتنة القبر، عن البراء بن عازب[(٢)] رضي الله عنهما، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «**إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عليه السلام حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ قَالَ فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ قَالَ فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ يَعْنِي بِهَا عَلَى مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ فَيَقُولُونَ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ**

---

(١) معالم التنزيل (٨/ ٣٢٤).

(٢) الصحابي الجليل، أبو عمارة، البراء بن عازب بن حارث الأنصاري رضي الله عنهما، استصغر يوم بدر، وأول مشاهده أحد، وقيل الخندق، وروي عنه أنه غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشرة غزوة، وفي رواية خمس عشرة، مات سنة اثنتين وسبعين. ينظر: الاستيعاب (١/ ١٥٥)، أسد الغابة (١/ ٣٦٢)، الإصابة (١/ ٤١١).

إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ»(١).

سابعًا: ثناء الصالحين على المقرَّب عند موته وحضور جنازته:

جاء في السُّنة المطهرة الشريفة أن الناس شهود الله تعالى في الأرض، إذا شهدوا لعبد بالخير والصلاح، وأثنوا عليه بمسابقته ومنافسته في أعمال البر، أوجب الله تعالى له الجنة، عن أنس رضي الله عنه، قال: مُرَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِجَنَازَةٍ، فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقَالَ: «وَجَبَتْ»، ثُمَّ مُرَّ بِأُخْرَى، فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا شَرًّا - أَوْ قَالَ: غَيْرَ ذَلِكَ - فَقَالَ: «وَجَبَتْ»، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْتَ لِهَذَا وَجَبَتْ، وَلِهَذَا وَجَبَتْ، قَالَ: «**شَهَادَةُ الْقَوْمِ الْمُؤْمِنُونَ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ**» (٢).

ناهيك عن تسابق الناس لجنازة التقي النقي من المؤمنين، وتزاحمهم على الصلاة عليه وتشييعه، وهذه من أثر قرباته ومن ثمرات إحسانه، و«قد شوهد رجال من المسلمين علماء وصالحون كثر الثناء عليهم، وصرفت القلوب إليهم، في حياتهم وبعد مماتهم، ومنهم مَن كثر المشيعون لجنازته، وكثر الحاملون لها، والمتشغلون بها، وربما كثر الله الخلق بما شاء من الجن المؤمنين أو غيرهم مما يكون في صور الناس»(٣).

قال ابن رجب رحمه الله في معرض حديثه عن جنازة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ثم ساروا به، والناس في بكاء ودعاء وثناء، وتهليل وتأسف، والنساء فوق الأسطحة من هناك إلى المقبرة يدعون ويبكين أيضًا، وكان يومًا مشهودًا، لم يعهد

---

(١) رواه أحمد (٣٠/٤٩٩)، رقم ١٨٥٣٤، قال الهيثمي: هو في الصحيح وغيره باختصار، ورجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: مجمع الزوائد (٣/٤٩)، صحيح الجامع (١/٣٤٤)، رقم ١٦٧٦.

(٢) رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب تعديل كم يجوز (٣/١٦٩)، رقم ٢٦٤٢، ورواه مسلم، كتاب الجنائز، باب فيمن يثنى عليه خير أو شر من الجنائز، (٢/٦٥٥)، رقم ٦٠.

(٣) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، محمد بن أحمد القرطبي (١/٨١٢).

بدمشق مثله، ولم يتخلف من أهل البلد وحواضره إلا القليل من الضعفاء والمخدَّرات، وصرخ صارخ: هكذا تكون جنائز أئمة أهل السُّنة، فبكى الناس بكاء كثيرًا عند ذلك»[١].

ما خص الله به الأنبياء من الكرامات عند الموت:

خص الله تعالى الأنبياء والرسل وفضَّلهم عند موتهم على سائر المقرَّبين بجملة من الفضائل والكرامات، أهمها ما يلي:

أولاً: التخيير بين الحياة الدنيا والآخرة:

لا تُقبض رُوح نبي من الأنبياء حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يخير بين الحياة الدنيا والآخرة، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ صَحِيحٌ يَقُولُ: " **إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، ثُمَّ يُحَيَّا أَوْ يُخَيَّرَ**، فَلَمَّا اشْتَكَى وَحَضَرَهُ القَبْضُ وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِ عَائِشَةَ رضي الله عنها غُشِيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ شَخَصَ بَصَرُهُ نَحْوَ سَقْفِ البَيْتِ، ثُمَّ قَالَ: «**اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى**[٢]» فَقُلْتُ: إِذًا لاَ يُجَاوِرُنَا، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ حَدِيثُهُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهُوَ صَحِيحٌ[٣].

ثانيًا: يدفن النبي حيث يموت:

ومن خواص الأنبياء التي خصَّهم الله بها أنهم يدفنون حيث يموتون، قال أبو بكر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لَنْ يُقْبَرَ نَبِيٌّ إِلَّا حَيْثُ يَمُوتُ فَأَخَّرُوا فِرَاشَهُ وَحَفَرُوا لَهُ تَحْتَ فِرَاشِهِ**»[٤].

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة (٤/٥٢٧).

(٢) الرفيق الأعلى: الجماعة من الأنبياء الذين يسكنون أعلى عليين. ينظر: الكاشف عن حقائق السنن (١٢/ ٣٨١٥).

(٣) رواه البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته... (٦/١٠)، رقم ٤٤٣٧.

(٤) رواه أحمد (١/٢٠٦)، رقم ٢٧، قال ابن حجر: منقطع، وقال شعيب الأرناؤوط، في تعليقه على المسند: حديث قوي بطرقه، وهذا إسناد منقطع، وصححه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: إتحاف المهرة =

ما خص الله به الشهداء من الكرامات عند الموت:

خصَّ الله تعالى الشهداء عند الموت بالخصائص التالية:

أولاً: يغفر له أول ما يهرق دمه ويرى مقعده في الجنة:

يغفر للشهيد عند أول قطرة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، روي ذلك عن رسول الله ﷺ؛ إذ قال: «**لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ**... الحديث»[1]، وهذه منقبة عظيمة من مناقب الشهادة في سبيل الله، وبذل النفس لأجل إعلاء كلمة الله.

ثانيًا: يخفف الله تعالى عنه ألم القتل:

لا يجد الشهيد من ألم القتل إلا كما يجد المرء من ألم لسعة النملة، وهذا من رحمة الله تعالى به ورضاه عنه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مَسَّ الْقَتْلِ، إِلَّا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنَ الْقَرْصَةِ**»[2]، والقرصة: هي لسع البراغيث، أو هي فرك لحم الإنسان بين أصبعين حتى تؤلمه[3].

=(٨/٢٤٥)، صحيح الجامع (٢/٩٢٣)، رقم ٥٢٠١.

(١) رواه الترمذي من حديث المقداد بن معدي كرب رضي الله عنه، أبواب فضائل الجهاد عن رسول الله ﷺ، باب في ثواب الشهيد (٣/٢٩٢)، رقم ١٦٦٣، قال أبو عيسى: حديث صحيح غريب، وقال الهيثمي: رواه أحمد والبزار والطبراني، ورجال أحمد والطبراني ثقات، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب. ينظر: مجمع الزوائد (٥/٢٩٣)، صحيح الترغيب والترهيب (٢/١٤٠)، رقم ١٣٧٥.

(٢) رواه الترمذي، أبواب فضائل الجهاد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل المرابط (٣/٢٩٨)، رقم ١٦٦٨، قال أبو عيسى: حديث حسن صحيح غريب، وحسنه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: صحيح الجامع (٢/١٠١٢)، رقم ٥٨١٣.

(٣) ينظر: تحفة الأحوذي (٥/٢٥٣).

المطلب الثالث:
ثمرة القرب من الله في البرزخ

تبدأ الحياة البرزخية للعبد من اللحظات التي تقبض فيها رُوحه إلى أن يبعثه الله تعالى من قبره(١)، وحقيقة ما يحصل في هذه المرحلة من أهوال ونعيم وعذاب هي أمور غيبية ليس لأحد أن يخبر بشيء عنها إلا بنص صريح صحيح، وقد دلَّت نصوص الكتاب والسُّنة على أن المؤمن ينعم في قبره إلى أن يبعثه الله تعالى إلى النعيم الأبدي الذي لا ينفد ولا ينقطع، وحيث إن المقرَّبين هم خيرة عباد الله، فلا شك أنهم خير مَن ينعم في قبورهم ويكرم، وهذا جزاء مقدم لهم على الجزاء الأعظم والنعيم الأكبر.

وباستقراء الآيات والأحاديث النبوية الصحيحة التي أخبرت عن الحياة البرزخية، يمكن وصف ثمرات القرب من الله في تلك الحياة بما يلي:

أولاً: تثبيت المؤمن عند السؤال في القبر:

يثبت الله تعالى المؤمنين المقرَّبين في القبر، ويلهمهم الصواب عند سؤال الملكَين، قال تعالى: ﴿ **يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ** ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، عن البراء بن عازب رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «**إِذَا أُقْعِدَ المُؤْمِنُ فِي قَبْرِهِ أُتِيَ، ثُمَّ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾**»(٢).

---

(١) روى ابن جرير عن مجاهد وعبد الرحمن بن زيد: أن البرزخ «ما بين الموت إلى البعث». ينظر: جامع البيان (١١٠/١٧).

(٢) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر... (٩٨/٢)، رقم ١٣٦٩.

قال قتادة رحمه الله في تفسير الآية: «بلغنا أن هذه الأمة تُسأل في قبورها، فيثبت الله المؤمن في قبره حين يُسأل»(١).

وقال البغوي رحمه الله: «﴿ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾: يعني قبل الموت، ﴿وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾: يعني في القبر، هذا قول أكثر أهل التفسير»(٢).

ثانيًا: رفع كتاب أعمال المقرَّبين إلى علِّيين:

أعلى الله تعالى شأن كتاب أعمال الأبرار المقرَّبين، ورفع منزلته، وجعله محفوظًا في علو وارتفاع، حتى إذا كان يوم الحساب أثابهم على ما فيه من قربات أحسن الثواب، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين: ١٨ - ٢١]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هو لوح من زبرجدة خضراء معلق بالعرش، أعمالهم مكتوبة فيه»(٣).

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما: «**فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى**»(٤).

قال ابن القيم رحمه الله: «وخص تعالى كتاب الأبرار: أنه يكتب ويوقع لهم به بمشهد المقرَّبين من الملائكة والنبيين سادات المؤمنين، ولم يذكر شهادة هؤلاء لكتاب الفجار، تنويهًا بكتاب الأبرار وما وقع لهم به، وإشهارًا له وإظهارًا لمكانتهم بين خواص خلقه»(٥).

---

(١) تفسير عبد الرزاق (٢/ ٢٤٥).

(٢) معالم التنزيل (٤/ ٣٤٩).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٢٦٠).

(٤) سبق تخريجه، ص ٢٨٦.

(٥) التفسير القيم، ص ٥٠٨.

ثالثًا: رؤية مقاعدهم في الجنة غدوًا وعشيًا:

دلَّت السُّنة النبوية على أن المؤمن يعرض عليه مقعده في الجنة بالغداة والعشي، ويفسح له في قبره سبعون ذراعًا، وينور له فيه، ويفرش له من الجنة، ويلبس من الجنة، ويفتح له باب إلى الجنة، ويبشر بالذي يسره، ولا شك أن المقرَّبين أولى الناس بهذه الفضائل والمكرمات. فعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ، قال: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا قُبِرَ المَيِّتُ، أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لأَحَدِهِمَا: المُنْكَرُ، وَلِلآخَرِ: النَّكِيرُ، فَيَقُولاَنِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولاَنِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ، نَمْ، فَيَقُولُ: أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ، فَيَقُولاَنِ: نَمْ كَنَوْمَةِ العَرُوسِ الَّذِي لاَ يُوقِظُهُ إِلاَّ أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ**»(٢).

وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما: «**فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي**

---

(١) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي (٢/٩٩)، رقم ١٣٧٩، ورواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار...، (٤/٢١٩٩)، رقم ٦٥.

(٢) رواه الترمذي، أبواب الجنائز عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في عذاب القبر (٢/٣٧٠)، رقم ١٠٧١، قال أبو عيسى: حديث حسن غريب، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة. ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/٣٧٩)، رقم ١٣٩١.

فَأَفْرِشُوهُ مِنْ الْجَنَّةِ وَأَلْبِسُوهُ مِنْ الْجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ قَالَ فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ قَالَ وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ فَيَقُولُ أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ فَيَقُولُ لَهُ مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ فَيَقُولُ رَبِّ أَقِمْ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي»[(١)].

رابعًا: جعل الله أرواحهم طيورًا في الجنة:

أكرم الله المؤمنين الصالحين بأن جعل أرواحهم طيورًا تعلق في شجر الجنة إلى أن يبعثهم الله تعالى يوم القيامة، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا نَسَمَةُ الْمُسْلِمِ طَيْرٌ يَعْلُقُ بِشَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يُرْجِعَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ يَبْعَثُهُ**»[(٢)].

ثمرات خاصة بالشهداء:

وجعل الله تعالى للشهداء في حياة البرزخ الخصائص والكرامات التالية:

أولاً: الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون:

أخبر الله تعالى أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، أرواحهم في حواصل طير خضر تسرح في الجنة وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، قال ابن مسعود رضي الله عنه، في معنى الآية: «أما إنَّا قد سألنا عن ذلك، فقال -يعني رسول الله ﷺ-: «**أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ**

(١) سبق تخريجه، ص ٢٥٨.

(٢) رواه أحمد في مسند كعب بن مالك رضي الله عنه (٢٥/٥٨)، رقم ١٥٧٨٠، قال الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: مجمع الزوائد (٢/٣٢٩)، صحيح الجامع (١/٤٦٨)، رقم ٢٣٧٣.

حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلَاعَةً»، فَقَالَ: «هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا»(١).

قال ابن أبي العز الحنفي رحمه الله(٢): «فنصيبهم من النعيم في البرزخ أكمل من نصيب غيرهم من الأموات على فرشهم، وإن كان الميت على فراشه أعلى درجة من كثير منهم»(٣).

ثانيًا: الشهداء آمنون من فتنة القبر:

خص الله الشهداء في الحياة البرزخية بأنهم يأمنون من فتنة القبر وعذابه، نظير بذلهم أرواحهم في سبيل الله، وقد برر رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين سئل عن ذلك بقوله: «كَفَى بِبَارِقَةِ السُّيُوفِ عَلَى رَأْسِهِ فِتْنَةً»(٤).

قال الحكيم الترمذي رحمه الله(٥): «معناه: أنه أظهر صدق ما في ضميره؛ حيث برز

---

(١) سبق تخريجه، ص ٩٢.

(٢) علي بن علي بن محمد ابن أبي العز الحنفي، قاضي القضاة بدمشق، ثم بالديار المصرية، ثم بدمشق، شارح العقيدة الطحاوية، له "شرح العقيدة الطحاوية" و"التنبيه على مشكلات الهداية"، كانت وفاته سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة. ينظر: الدرر الكامنة (١٠٣/٤)، الأعلام (٣١٣/٤).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية (٦١٨/٢).

(٤) رواه النسائي عن رجل من الصحابة رضي الله عنهم، كتاب الجنائز، باب الشهيد (٤٠٤/٤)، رقم ٢٠٥٢، والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: صحيح الجامع (٨٢٧/٢)، رقم ٤٤٨٣.

(٥) أبو عبد الله، محمد بن علي بن الحسن، الحكيم الترمذي، الزاهد الحافظ العارف، كان ذا رحلة ومعرفة وفضائل وحكم ومواعظ، صنف: "نوادر الأصول"، و"الفروق"، و"الصلاة ومقاصدها"، عاش إلى حدود العشرين وثلاثمائة. ينظر: سير أعلام النبلاء (٤٣٩/١٣)، لسان الميزان (٣٨٩/٧)، الأعلام (٢٧٢/٦).

للحرب والقتل، فلماذا يعاد عليه السؤال في القبر؟»[١].

وأما سلامتهم من عذاب القبر فأخبر بها الصادق المصدوق ﷺ في قوله: «**لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ، اليَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الحُورِ العِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ**»[٢].

وبالجملة فإن المقرَّبين منعَّمون في قبورهم حتى تقوم الساعة، فإذا إذن الله بقيام الساعة انتقلوا إلى نعيم لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، نسأل الله تعالى من فضله العظيم.

---

(١) نوادر الأصول (٤/ ١٦١).

(٢) سبق تخريجه، ص ٢٨٨.

المطلب الرابع:
ثمرة القرب من الله في الآخرة

إذا جاء أمر الله تعالى، ووقعت أهوال يوم الحشر، فاز أهل الطاعة بأعظم الثمرات، وانكشف للمتقين أحسن البشارات، وكان المقرَّبون من الله أجدر الناس بتلك المكارم، وأولى الناس بما هنالك من المغانم، وأشهر ما جاءت به الأخبار، واستفاضت به الآثار عن كرامات أهل الطاعة يوم القيامة ما يلي:

أولاً: الأمان من الفزع الأكبر:

فالمقرَّبون لا يفزعون إذا فزع الناس، ولا يخافون إذا وجلوا؛ لأنهم أولياءُ الله المتقون، وأصفياؤه المحسنون، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١ - ١٠٣]، قال ابن جرير رحمه الله، بعد أن ذكر أقوال المفسرين في معنى الفزع الأكبر: «وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ مَن قال: ذلك عند النفخة الآخرة، وذلك أن مَن لم يحزنه ذلك الفزع الأكبر وأَمِن منه، فهو مما بعده أحرى أن لا يَفْزَع، وأن مَن أفزعه ذلك فغير مأمون عليه الفزع مما بعده»(١).

ثانيًا: بشرى الملائكة لهم عند الخروج من قبورهم:

ففي مشهد خروج الناس من قبورهم ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧] تتجلى ثمرة وخصلة أخرى من خصال المقرَّبين من الله، وذلك حين تبشِّرهم الملائكة

(١) جامع البيان (١٦/٤٢٢).

برضوان الله وكرامته، فتنشرح صدورهم، وينفرج كربهم، ويذهب حزنهم، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤]، قال السمرقندي رحمه الله: «﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾: يبشره الملائكة حين يخرج من القبر»[١].

وقال ابن الجوزي رحمه الله: «فأما بشراهم في الآخرة، ففيها ثلاثة أقوال:... والثالث: أنها عند الخروج من قبورهم، قاله مقاتل رحمه الله»[٢].

ثالثًا: المقرَّبون أول مَن يدخل الجنة:

ما إن يقضي الله تعالى بين العباد، حتى يبتدر المقرَّبون أبواب الجنة في مشهد عظيم تهفو إليه النفوس، وتنسى معه مكابدة الشدائد في الحياة الدنيا، قال الله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، فهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون إلى الجنة، جماعة بعد جماعة: المقرَّبون، ثم الأبرار، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كل طائفة مع مَن يناسبهم: الأنبياء مع الأنبياء، والصِّدِّيقون مع أشكالهم، والشهداء مع أمثالهم، والعلماء مع أقرانهم، كل سعيد مع صنفه[٣].

وكان قد أخبر رسول الله ﷺ عن طائفة منهم تسبق إلى النعيم وتغنم بالخير العظيم، قال ﷺ: «**أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، لاَ**

(١) بحر العلوم (٢/١٠٥).
(٢) زاد المسير، ص ٦٣٠.
(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٧/١١٩).

يَبْصُقُونَ فِيهَا، وَلاَ يَمْتَخِطُونَ، وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ، آنِيَتُهُمْ فِيهَا الذَّهَبُ، أَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، وَمَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّةُ، وَرَشْحُهُمُ المِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الحُسْنِ، لاَ اخْتِلاَفَ بَيْنَهُمْ وَلاَ تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا»(١).

رابعًا: نعيم المقرَّبين في الجنة:

أهل القرب من الله أعلى الناس منزلةً، وأشرفهم مقامًا، ذكر الله تعالى فضلهم ومقامهم، شحذًا للهمم، وتشويقًا للسباق والمنافسة، فهم السابقون في الدنيا، وفي الآخرة، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة:١٠-١٢]، قال السمعاني رحمه الله: «المقرَّبون من المنزلة والكرامة والوصول إلى رضا الله تعالى»(٢).

وقال القاسمي رحمه الله: «﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، أي: الذين يقربهم الله منه بإعلاء منازلهم ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾»(٣).

وقد أخبر الله تعالى بما خص به هذه الطائفة المقرَّبة من النعيم الدائم، في قوله جل ذكره: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾

---

(١) رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة... (١١٨/٤)، رقم ٣٢٤٥، ورواه مسلم، كتاب صفة الجنة ونعيمها وأهلها، باب في صفة الجنة وأهلها وتسبيحهم...، (٢١٨٠/٢)، رقم ١٧.

(٢) تفسير القرآن للسمعاني (٣٤٣/٥).

(٣) محاسن التأويل (١٢٠/٩).

جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الواقعة: ١٥ - ٢٦]، أي: يطوف عليهم ولدان منعمون في سن واحدة، بآنية لا عُرى(١) لها ولا خراطيم، وأباريق لها عُرى وخراطيم من معين خمر جارٍ، لا تنصدع رؤوسهم من شربها، ولا يسكرون فتذهب عقولهم(٢).

وقال ابن عاشور رحمه الله: «أي: يطوفون عليهم بفاكهة من الأنواع التي يختارونها، ففعل يتخيرون يفيد قوة الاختيار، ولحم الطير: هو أرفع اللحوم وأشهاها وأعزُّها»(٣).

وقال السعدي رحمه الله: «وذلك النعيم المعد لهم ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾، فكما حسنت منهم الأعمال، أحسن الله لهم الجزاء، ووفر لهم الفوز والنعيم»(٤).

وفي مقام آخر من كتاب الله الكريم، وصف الله تعالى كرامات المقرَّبين بقوله:

﴿ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴾ [الرحمن: ٤٦ - ٥٦]، قال أبو موسى رضي الله عنه، في هاتين الجنتين وما دونهما: «جنتان من ذهب للمقرَّبين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين»(٥)، وروي نحو هذا كذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما(٦).

---

(١) عُرى: جمع عروة، وهي المقبض من الدلو والكوز ونحوه. ينظر: تاج العروس (٣٩/٢٥).

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٧/٢٠٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/٢٩٥).

(٤) تيسير الكريم الرحمن، ص ٨٣٣.

(٥) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٧/٥٠١).

(٦) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٧/١٨٣).

وأما شرابهم، فوصفه الله تعالى بقوله: ﴿ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين: ٢٧، ٢٨]، قال ابن كثير رحمه الله «ومزاج هذا الرحيق الموصوف من تسنيم، وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه... يشربها المقرَّبون صرفًا»(١).

وأما خبر حليهم ولباسهم، فهو الذهب والحرير، كما في قوله تعالى: ﴿ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴾ [الحج: ٢٣]، قال ابن كثير رحمه الله، في قوله تعالى: ﴿ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ ﴾ [الإنسان: ٢١]: «وهذه صفة الأبرار، وأما المقرَّبون فكما قال: ﴿ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴾»(٢).

وأما منازلهم فغرفات الجنة العالية، يتراءاها أهل الجنة كما يتراءون الكوكب الدري الغابر، قال تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ [الزمر: ٢٠]، قال صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَتَرَاءَيْونَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا يَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ فِي الأُفُقِ، مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ، لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ**»(٣).

خامسًا: شفاعة المقرَّبين لأهل التوحيد:

يكرم الله جل في علاه أهل القرب بمكرمة أخرى تدل على عظيم رضاه عنهم ومحبته لهم، وذلك حين يأذن لهم بالشفاعة لمن يرضى له ذلك، قال صلى الله عليه وسلم، في حديثه الطويل عن أهوال يوم القيامة: «**فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَالمَلائِكَةُ وَالمُؤْمِنُونَ**»(٤)،

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٨/٣٥٣).

(٢) المرجع السابق (٨/٢٩٣).

(٣) سبق تخريجه، ص ٤١.

(٤) رواه البخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴾ (٩/١٢٩)، رقم ٧٤٣٩.

فينجو بشفاعتهم خلق من النار، ويرتقي بوساطتهم صالحون إلى منازل الأبرار.

كرامات رسول الله ﷺ يوم القيامة:

لما كان رسول الله ﷺ سيد المقرَّبين، وإمام المتقين، استحق أن يخصه الله تعالى في ذلك اليوم العظيم بأفضل المكارم، وأجل المآثر، نذكر منها:

أولاً: الشفاعة العظمى:

حين يسجد ﷺ تحت العرش، فيحمد الله تعالى، ويثني عليه بأجل المحامد، ثم يسأل ربه أن يحكم بين الخلق، ويفصل بينهم، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩]، قال رسول الله ﷺ، في خاتمة حديث الشفاعة: «**وَهَذَا الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي وُعِدَهُ نَبِيُّكُمْ ﷺ**»(١).

ثانيًا: اختصاصه بمنزلة الوسيلة:

وخص الله رسوله بمنزلة الوسيلة، وهي منزلة عالية رفيعة في الجنة، لا يبلغها إلا عبد واحد، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أنه سمع النبي ﷺ، يقول: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ، لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ**»(٢).

---

(١) رواه البخاري من حديث أنس رضي الله عنه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ (٩/ ١٣١)، رقم ٧٤٤٠، وقد رواه البخاري بصيغة: "قال حجاج بن منهال... وذكر السند"، وحجاج بن منهال من شيوخ البخاري، فيكون للحديث حكم العنعنة، قال السيوطي: «أما ما عزاه البخاري لبعض شيوخه بصيغة قال فلان، وزاد فلان، ونحو فلان، ونحو ذلك، فليس حكمه حكم التعليق، عن شيوخ شيوخه ومن فوقهم؛ بل حكمه حكم العنعنة من الاتصال بشرط اللقاء، والسلامة من التدليس، كذا جزم به ابن الصلاح». ينظر: تدريب الراوي (١/ ٢٥٢).

(٢) سبق تخريجه، ٨٩.

ثالثًا: اختصاصه بنهر الكوثر:

خص الله تعالى رسوله ﷺ بنهر في الجنة خيره عظيم، يشرب منه وأمته ويرتوون، قال تعالى: «﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، قال ﷺ: «**بَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ فِي الجَنَّةِ، إِذَا أَنَا بِنَهَرٍ، حَافَتَاهُ قِبَابُ الدُّرِّ المُجَوَّفِ، قُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الكَوْثَرُ، الَّذِي أَعْطَاكَ رَبُّكَ، فَإِذَا طِينُهُ - أَوْ طِيبُهُ - مِسْكٌ أَذْفَرُ**[1]»[2].

كرامات الشهداء يوم القيامة:

والشهداء هم الآخرون لهم عند ربهم كرامات ومقامات تباعًا؛ لما نالوه من فضائل ومنن في الحياة الدنيا وبعد الممات، نذكر منها:

أولاً: الأمن من الفزع عند النفخ في الصور:

خص الله تعالى الشهيد بالأمن من الفزع من عامة المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، قال أبو هريرة، وابن عباس رضي الله عنهم: «هم الشهداء»[3].

فهم لا يفزعون حين يفزع الناس، وحق لهم أن لا ينزعجوا ولا يرتاعوا، بعد أن بذلوا أنفسهم، وأهرقوا دماءهم طاعة لله، وابتغاءً لمرضاته.

ثانيًا: الشهيد لا يصعق إذا صعق الناس:

وهذه ثمرة عظيمة أخرى من ثمار بذل دمه وماله في سبيل الله، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]،

---

(١) المسك الأذفر: الذكي الرائحة. ينظر: التوضيح لشرح الجامع الصحيح (١١٦/٣٠).

(٢) رواه البخاري، من حديث أنس رضي الله عنه، كتاب الرقاق، باب في الحوض... (١٢٠/٨)، رقم ٦٥٨١.

(٣) الدر المنثور (٤١٣/١١)، تفسير الجلالين: جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي، ص ٣٨٤.

قال قتادة، وسعيد بن جبير رحمهما الله: «هم الشهداء ثَنِيَّة الله[(١)] حول العرش متقلِّدي السيوف»[(٢)].

ثالثًا: الشهيد يحلَّى بتاج الوقار ويزوَّج باثنتين وسبعين حورية:

ومن ثمرات الشهادة عند الله تعالى أن الشهيد يحلَّى بتاج الوقار ويزوج اثنتين وسبعين حورية، جاء بذلك الخبر عن رسول الله ﷺ؛ إذ قال: «**لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ، اليَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الحُورِ العِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ**»[(٣)].

رابعًا: يفوح من دم الشهيد ريح المسك:

ويأتي الشهيد يوم القيامة دمه يثعب، اللون لون الدم، والريح ريح المسك، كيف لا وقد باع نفسه لله، وجاد بدمه ثمنًا لدين الله، قال ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَاللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ، وَالرِّيحُ رِيحُ المِسْكِ**»[(٤)].

هذا عامة ما جاء به الخبر من كرامات أعلى الناس منزلةً وأشرفهم مقامًا يوم القيامة، ذكرها الله تعالى، ترغيبًا للمؤمنين في تحصيل الطاعات وفضائل الأعمال التي يكتب بها الله لهم السعادة والرضوان.

---

(١) ثنية الله: من استثناه في الصعقة الأولى. ينظر: تاج العروس (٣٧/ ٢٩٥)

(٢) تفسير عبد الرزاق (٣/١٣٦).

(٣) سبق تخريجه، ص ٢٨٨.

(٤) رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الجهاد، باب من يجرح في سبيل الله (٤/١٨)، رقم ٢٨٠٣، ورواه مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، (٣/١٤٩٦)، رقم ١٠٥.

المبحث الثالث:

عاقبة البُعد عن اللّه تعالى

- **المطلب الأول:** عاقبة البعد عن الله في الحياة الدنيا.
- **المطلب الثاني:** عاقبة البعد عن الله عند الموت.
- **المطلب الثالث:** عاقبة البعد عن الله في البرزخ.
- **المطلب الرابع:** عاقبة البعد عن الله في الآخرة.

المطلب الأول:

عاقبة البُعد عن الله في الحياة الدنيا

قد سبق[(١)] بيان كرامة الله تعالى لأهل القرب في الحياة الدنيا فضلًا منه سبحانه وإحسانًا، وفي مقابل ذلك، يعاقب الله أهل البُعد في الدنيا قبل الآخرة، الذين ضلَّ سعيهم وخسر دأبهم عدلًا منه وإنصافًا.

وبالنظر في كتاب الله تعالى وسُنة رسوله ﷺ، تستبين عواقب البعد عن الله تعالى في الحياة الدنيا، التي يمكن تصنفيها كما يلي:

أولاً: الضلال والشقاق وما يترتب على ذلك من آثار:

جمع الله تعالى لأبعد خلقه من الكافرين الجاحدين بين الضلال والشقاق، وحكم الله عليهم بأنهم أشد الناس خلافًا في الحق، وبُعدًا عن قصد السبيل، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٥٢]، قال السمعاني رحمه الله، في معنى الآية: «والمعنى: أنكم أيها الكافرون في الشقاق والضلال»[(٢)].

وقال ابن كثير رحمه الله: «في كفر وعناد ومشاقة للحق، ومسلك بعيد من الهدى»[(٣)].

وهذا البيان الإلهي يشير بمفهومه إلى ما هنالك من التلازم الشديد بين الكفر بالله تعالى والبعد عن طريق الهداية والاستقامة، وانصداع أمر الكفار وتفرُّق كلمتهم.

---

(١) ينظر: مطلب ثمرة القرب من الله في الحياة الدنيا، ص ٢٦٧.

(٢) تفسير القرآن للسمعاني (٥/ ٦٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٨٧).

وكثيرًا ما يجعل القرآن الكريم الضلال والشقاق عقبى للبعد عن الله تعالى، ومآلًا لمفارقة سبيل الحق، كما في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٦٧]، قال أبو حيان رحمه الله: «ضلالًا لا يقرب رجوعهم عنه، ولا تخلصهم منه؛ لأنه يعتقد في نفسه أنه محق، ثم يتوسل بذلك الضلال إلى اكتساب المال والجاه وإلقاء غيره فيه، فهو ضلال في أقصى غاياته»(١).

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [البقرة: ١٧٦]، قال ابن جرير رحمه الله: «إن هؤلاء الذين اختلفوا فيما أنزلت إليك يا محمد لفي منازعة ومفارقة للحق بعيدة من الرشد والصواب»(٢).

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [الحج: ٥٣]، قال السمرقندي رحمه الله: «يعني المشركين في خلاف طويل عن الحق»(٣).

وقال القرطبي رحمه الله: «أي: الكافرين لفي خلاف وعصيان ومشاقة لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم»(٤).

ثم رتب سبحانه وتعالى على هذه العاقبة السيئة التي آل إليها حال الكفار آثارًا أخرى زادتهم بُعدًا عن الله تعالى، وعدولًا عن طريق الحق والصواب، أهمها وأشهرها ما يلي:

١- خذلان الله وتركه لأهل الضلال والشقاق:

فقد كتب الله تعالى على أهل الضلال عن الهدى، والمشاقة لله ورسوله، ومفارقة سبيل أهل الحق، البقاء حائرين فيما اختاروا لأنفسهم من الباطل، فلا

(١) البحر المحيط (٣/٥٦٤).
(٢) جامع البيان (٣/٧٣).
(٣) بحر العلوم (٢/٤٠١).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٢/٨٦).

يهديهم لخير، ولا يدلهم على معروف، وذلك لكونهم رأوا الحق وعلموه ثم أعرضوا عنه وهجروه، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥]، قال السعدي رحمه الله: «أي: نتركه وما اختاره لنفسه، ونخذله فلا نوفقه للخير؛ لكونه رأى الحق وعلمه وتركه، فجزاؤه من الله عدلًا أن يبقيه في ضلاله حائرًا، ويزداد ضلالًا إلى ضلاله»(١).

وهذا حكم الله تعالى فيمن نسي الله تعالى وترك طاعته، وابتعد عن سبيل أوليائه، أن يتركه الله لما ارتضاه لنفسه، ويخذله عن سبيل المهتدين من الأولياء الصالحين.

٢- الختم على قلوبهم وأسماعهم وإعماء أبصارهم:

فأهل الضلال والشقاق أضل من الأنعام التي لا تعي ولا تعقل، وهم شر مَن دبَّ على وجه الأرض من خلق الله، قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٣]، أي: أضله الله على علم منه بعاقبة أمره، أو بما سبق في علمه، وطبع على سمعه وقلبه، فلا يسمع الهدى، ولا يعقل الحق، وجعل على بصره ظلمة فهو لا يبصر طريق الرشد، فمن يهديه بعد أن أضله الله(٢).

ولما ختم الله تعالى على تلك القلوب المعرضة، أصابتها القسوة، وخيمت عليها ظلمة المعصية، فهي كما قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ ﴾ [البقرة: ٧٤]، قال ابن جرير رحمه الله: «ثم صلبت قلوبكم بعد

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٢٠٢.
(٢) معالم التنزيل (٧/ ٢٤٥).

إذ رأيتم الحق فتبينتموه وعرفتموه عن الخضوع له والإذعان لواجب حق الله عليكم، فقلوبكم كالحجارة صلابة ويبسًا وغلظًا وشدة، أو أشد صلابة»[١].

فمن جعل الله تعالى الحجر ألين من قلبه، وأصم سمعه وأعمى بصره، ولم يجعل له نورًا يفرق به بين الحق والباطل، كان مركبًا ذلولًا لشياطين الجن والإنس، تحركه كيف شاءت ومتى شاءت، وتستهويه إلى مقارفة المعاصي والآثام التي تحيد به عن طريق الحق وسبيل أهل الهدى.

٣- خسارة أهل الضلال والشقاق للدنيا والآخرة:

أهل الضلال والشقاق تجارتهم خاسرة كاسدة، لا ربح لهم فيها ولا فائدة، قال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٦]، فالكفار والمنافقون خاسرون بشرائهم الضلالة بالهدى غير رابحين؛ لأن الرابح من التجار: المستبدل من سلعته المملوكة عليه بدلًا هو أنفس من سلعته المملوكة أو أفضل من ثمنها الذي ابتاعها به، فأما المستبدل من سلعته بدلًا دونها ودون الثمن الذي ابتاعها به، فهو الخاسر في تجارته لا شك، فكذلك الكافر والمنافق؛ لأنهما اختارا الحيرة والعمى على الرشاد والهدى، والخوف والرعب على الحفظ والأمن[٢].

فماذا يرجو مَن أخذ الضلالة وترك الهدى الذي أنزله الله إليه، وكيف ينجو مَن استبدل أسباب السعادة بأسباب التعاسة والشقاء، إنهم كما خسروا بيع الدنيا وصفقته الرابحة، بعد أن انتصبت لهم أسواق الربح، وفتحت لهم أبواب

---

(١) جامع البيان (٢/ ١٣٠).

(٢) ينظر: جامع البيان (١/ ٣٣٠).

المكاسب، بلا شك خاسرون الربحَ الأعظم والمغنم الأكبر يوم يأتي كل تاجر من وراء تجارته.

٤- يمحق الله تعالى ثواب أعمال أهل الضلال والشقاق ويذهب أجرها:

فهم وإن قدموا خيرًا أو سابقوا في بر، لا تكتب لهم في دواوين الحسنات، ولا ينتفعون ببركة ما يقدمونه من طاعات، ثم إذا كان يوم القيامة لا يجازون عليها بالإحسان، إنما جزاء مَن كان سعيه وكدحه على غير هدى واستقامة، أن يضل الله سعيه ويمحق بركته، قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم: ١٨]، قال الشنقيطي رحمه الله: «ضرب الله تعالى لأعمال الكفار مثلًا في هذه الآية الكريمة برماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف، أي: شديد الريح، فإن تلك الريح الشديدة العاصفة تطير ذلك الرماد ولم تُبقِ له أثرًا، فكذلك أعمال الكفار كصلات الأرحام، وقرى الضيف، والتنفيس عن المكروب، وبر الوالدين، ونحو ذلك يبطلها الكفر ويذهبها، كما تطير تلك الريح ذلك الرماد»(١).

وقال ابن كثير رحمه الله: «هذا مَثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا مع الله غيره، وكذَّبوا رسله، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح، فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها»(٢).

والعجيب أن هؤلاء يحسبون أن صنيعهم الذي يصنعونه هو عين الصواب، وسبيل مَن يتقرب إلى الله ببذل الأسباب، وواقع الحال أنهم خاسرون، وفي غيهم

---

(١) أضواء البيان (٣/١٢٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/٤٨٦).

وضلالهم حائرون، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]، قال الواحدي رحمه الله: «قوله: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ يعني: بالقوم الذين هم أخسر الخلق فيما عملوا، وهم كفار أهل الكتاب اليهود والنصارى؟ ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾ بطل عملهم واجتهادهم في الدنيا ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ يظنون أنهم بفعلهم محسنون»(١).

فما أقبح أن يجتهد العبد في الدنيا رجاء حصول العاقبة الحسنة، حتى إذا كان يوم القيامة، وجاءت ساعة الجزاء والحساب، جعل الله تعالى أعماله خسارة عليه ووبالًا.

ثانيًا: الهلاك بالعذاب الدنيوي:

أَولى كتابُ الله أخبارَ هلاك المبعدين من الأمم السابقة قسطًا كبيرًا من القصص القرآني البديع، ترغيبًا منه سبحانه وتعالى لأهل الإيمان في الثبات على الحق، وتحذيرًا لأهل الباطل من التمادي في الضلال، وحينما يتأمل العبد كتاب الله تعالى ويتتبع أخباره، تظهر له أصناف العقاب الدنيوي لأهل البُعد عن الله، أهمها وأشهرها ما يلي:

١- الإهلاك بطوفان الماء:

فقد أهلك اللهُ تعالى به قومَ نوح عليه السلام، ونصر نبيَّه وعباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ [الفرقان: ٣٧]، قال ابن جرير رحمه الله: «وقوم نوح عليه السلام مِن قبل قوم فرعون، لما كذَّبوا رسلنا، وردوا عليهم ما جاءوهم به من الحق، أغرقناهم بالطوفان ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾، يقول: وجعلنا تغريقنا إياهم وإهلاكنا عظة وعبرة للناس يعتبرون بها»(٢).

(١) الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٣/ ١٧٠).
(٢) جامع البيان (١٧/ ٤٥١).

واستأصل به فرعونَ وملأه، جزاء عتوهم وطغيانهم، قال تعالى: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الذاريات: ٣٩، ٤٠]، أي: أغرقناه وجنوده في البحر لما أتى بما يلام عليه من دعوى الربوبية وتكذيب الرسل(١).

وعاقب الله به قوم سبأ لما أعرضوا عن الحق وكفروا بأنعم الله، قال الله تعالى عنهم: ﴿ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ﴾ [سبأ: ١٦]، قال السعدي ﵀: «فأعرضوا عن المنعم، وعن عبادته، وبطروا النعمة، وملوها... فأرسل الله عليهم ﴿سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾، أي: السيل المتوعر، الذي خرب سدهم، وأتلف جناتهم، وخرب بساتينهم»(٢).

فسبحان الذي جعل من نعمة الماء الذي يحيي به الأرض، وينبت به الزرع، وتسير فيه الفلك، نقمة عظيمة هائلة، تدمر الجيوش الجرارة، وتهلك الحرث والنسل، وتطغى حتى تبلغ رؤوس الجبال.

٢- الابتلاء بالأمراض والأوبئة والآفات:

ابتلى الله تعالى كثيرًا من الأمم السابقة الكافرة بأصناف مختلفة من الأمراض والأوبئة التي نغصت عليهم معيشتهم، وكدرت عليهم صفو حياتهم، فعاقب فرعون وقومه بالجراد والقمل والضفادع والدم، لعلهم يرجعون أو ينتهون عن كفرهم وعصيانهم، قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٣]، قال ابن عطية ﵀: «وهذه عقوبات وأنواع من العذاب، بعثها الله عليهم؛ ليزدجروا وينيبوا»(٣).

---

(١) ينظر: معالم التنزيل (٧/٣٧٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٦٧٧.

(٣) المحرر الوجيز (٢/٤٤٣).

وعذَّب أُممًا أخرى قبل أمة محمد ﷺ بوباء الطاعون، يصيب به مَن يشاء منهم عقوبة عاجلة في الدنيا قبل الآخرة، قالت عائشة رضي الله عنها: سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون، فقال: «**كانَ عَذَابًا يَبْعَثُهُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، فَجَعَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ**»[١].

ولا يزال الله تعالى يُري عبادَه عجائبَ قدرته بما يظهره لهم بين الحين والآخر من أوبئة وفيروسات مبيدة، تجتمع لها خبرات العالم وتقنياته، فلا يستطيعون أن يعرفوا أسرارها أو يدركوا حقيقتها، فيتبين لهم حينها ضعفهم وافتقارهم إلى الله تعالى، وأنهم مهما بلغوا من العلم والتقدم والحضارة، يبقى قول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥] أصلًا لا يزول وكلمة لا تتبدل.

٣- الأخذ بالخوف والجوع والسنين ونقص الثمرات:

من أشهر ما عاقب الله تعالى به الخارجين عن طاعته الخوف بعد الأمن، والجوع بعد رغد العيش، وسنوات الجدب والقحط ونقص الثمار والغلات، جاء بعض ذلك في خبر ما أصاب فرعون وملأه من العقوبات، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، أي: أخذهم الله بسنوات الجدب والقحط، ونقص الثمرات والغلات، بالآفات والعاهات[٢].

وجاء بعضه الآخر في خبره سبحانه وتعالى عن كفار قريش الذين كذَّبوا برسالة محمد ﷺ، وأعرضوا عن الحق الذي جاء معه، قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان والنذور، باب ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ (١٢٧/٨)، رقم ٦٦١٩.

(٢) ينظر: معالم التنزيل (٢٦٨/٣).

فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل: ١١٢]، فمثل الله مثلًا لمكة التي سكنها أهل الشرك بالله، أنها كانت آمنة مطمئنة، كان لا يغار عليهم فيها ولا يحاربون، ولا يحتاج أهلها إلى الزاد؛ بل تأتي أهلها المعيشة الواسعة من كل فج ومن كل ناحية، فلما كفر أهل هذه القرية بأنعم الله، أذاقها جوعًا خالط أذاه أجسامهم، وخوفًا من سرايا رسول الله ﷺ، جزاء كفرهم بأنعم الله وجحود آياته وتكذيب رسوله (١).

فجعل الله تعالى المكذبين من أهل مكة مثلًا وعبرة لكل أمة عتت عن أمر الله، وكفرت بما أمدها الله به من نعيم تطمئن به النفوس، وتقر به الأعين، وتستقر به الحياة.

٤- عذاب الريح:

الريح جند عظيم من جنود الله تعالى، ينصر بها مَن يشاء ويذل بها مَن يشاء، قصف الله تعالى بها المكذِّبين من قوم هود عليه السلام، فأهلكهم عن بَكرة أبيهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ [القمر: ١٩، ٢٠]، أي: أرسل الله عليهم ريحًا شديدة البرد، في يومٍ مستمرٍ نحسه ودماره، اتصل عليهم فيه عذاب الدنيا بعذاب الآخرة، فكانت هذه الريح المدمرة الباردة تأتي أحدهم فترفعه إلى السماء حتى تغيبه عن الأبصار، ثم تنكسه على أُم رأسه، فيسقط إلى الأرض، فينثلغ (٢) رأسه من جسده، ويبقى جثة هامدة بلا رأس كأنه بعد هلاكه جذع نخلة خاوية ساقطة على الأرض (٣).

---

(١) ينظر: جامع البيان (١٤/٣٨٢).

(٢) الثلغ: الشدخ. وقيل هو ضربك الشيء الرطب بالشيء اليابس حتى ينشدخ. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (١/ ٢٢٠)

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٧/٤٧٩).

فما أهون الخلق على الخالق إذا عصوه وأعرضوا عن أمره، وما أقبح خاتمة مَن أساء لنفسه، وفارق سبيل المهتدين!

٥- عذاب الحاصب:

أخذ الله تعالى قوم لوط عليه السلام بريح عظيمة ذات حجارة من سجيل منضود، وهذه صورة أخرى من صور العذاب التي عاقب الله بها أهل البُعد عن الله، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤]، قال البغوي رحمه الله: «ريحًا ترميهم بالحصباء، وهي الحصى، وقال الضحاك رحمه الله: يعني صغار الحصى، وقيل: الحصباء: هي الحجر الذي دون ملء الكف، وقد يكون الحاصب الرامي، فيكون المعنى على هذا: أرسلنا عليهم عذابًا يحصبهم، أي: يرميهم بالحجارة»[(١)].

وقد جاء في خبر هلاك هذه الأمة المتمردة الفاسقة، أن الله أمر جبريل عليه السلام فرفع قريتهم حتى بلغ بها عنان السماء، ثم أرسلها بعد أن قلبها عليهم، وأتبعت بحجارة من سجيل منضود[(٢)]، وهذه صورة شنيعة تدل على أن أخْذ الله تعالى يشتد ويعظم كلما زاد الجرم وعظم الذنب، وانقلبت الفطرة السوية.

٦- الأخذ بالصيحة:

الصيحة[(٣)] آية عظيمة من آيات الله، أرسلها الله تعالى على أُمتين عظيمتين من الأمم السالفة، فأهمد بها مَن كان منهم تحت أديم السماء، قال تعالى عن قوم صالح عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٦، ٦٧].

---

(١) معالم التنزيل (٧/ ٤٣٢).

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٧/ ٤٨٠).

(٣) الصيحة: رفع الصوت، ينظر: المفردات، ص٤٩٦.

وقال تعالى عن قوم شعيب عليه السلام: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴾ [هود: ٩٤].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما أهلك الله أُمتين بعذاب واحد إلا قوم صالح عليه السلام، وقوم شعيب عليه السلام، أهلكهم الله بالصيحة، غير أن قوم صالح عليه السلام أخذتهم الصيحة من تحتهم، وقوم شعيب عليه السلام أخذتهم الصيحة من فوقهم»(١).

٧- عذاب الخسف والمسخ:

قال ابن عاشور رحمه الله: «الخسف: زلزال شديد تنشق به الأرض، فتحدث بانشقاقها هوة عظيمة تسقط فيها الديار والناس، ثم تنغلق الأرض على ما دخل فيها، وقد أصاب ذلك أهل بابل»(٢)، وهو صورة من صور العذاب التي يبيد بها الله تعالى العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها، ويصدون عن سبيل الله، قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل: ٤٥]، قال السمرقندي: «أن تغور الأرض بهم حتى يدخلوا فيها إلى الأرض السفلى»(٣)

وقد أهلك الله قارون(٤) لما بغى على موسى عليه السلام وقومه بهذا النوع من العذاب، قال الله تعالى عنه: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/٩٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٤/١٦٥).

(٣) بحر العلوم (٢/٢٣٧).

(٤) قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب، كان من عشيرة موسى عليه السلام، وهو ابن عمه لأبيه وأمه، وكان من الذين اختارهم موسى لميقات ربه، ومن الذين جاوزوا البحر، وكان من القراء وعلماء التوراة، فبغى عليهم وقصد إفساد أمرهم طلبًا للفضل عليهم. ينظر: جامع البيان (١٨/٣٠٩)، غرائب التفسير وعجائب التأويل، برهان الدين الكرماني (٢/٨٧٢).

يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص: ٨١]، قال الشوكاني رحمه الله: «وخسف به الأرض خسفًا، أي: غاب به فيها، والمعنى أن الله سبحانه غيَّبه وغيَّب داره في الأرض»[١].

وأما المسخ فهو تبديل الخِلقة وقلبها حجرًا أو جمادًا أو بهيمة[٢]، كما فعل الله تعالى بأصحاب السبت، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ [البقرة: ٦٥]، أي: مسخهم قردة صاغرين بمعصيتهم، قال الألوسي رحمه الله: «وظاهر القرآن أنهم مسخوا قردة على الحقيقة، وعلى ذلك جمهور المفسرين، وهو الصحيح»[٣].

والخسف والمسخ هما كذلك أحد أنواع العذاب الذي يكون في آخر الزمان، أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ؛ إذ قال: «**فِي هَذِهِ الأُمَّةِ خَسْفٌ وَمَسْخٌ وَقَذْفٌ**»[٤]. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَتَى ذَاكَ؟ قَالَ: «**إِذَا ظَهَرَتِ القَيْنَاتُ وَالمَعَازِفُ**[٥] **وَشُرِبَتِ الخُمُورُ**»[٦].

٨- الحروب والقتل وتسلط الأعداء:

هذا نوع آخر من العذاب الذي يصيب الأمم ويفني رجالها، قال تعالى: ﴿ قُلْ

---

(١) فتح القدير (٤/٢٤٧).

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (١٥/٥٠).

(٣) روح المعاني (١/٢٨٣).

(٤) القذف: رمي بالحجارة من جهة السماء. ينظر: فيض القدير (٤/ ٤٥٤)

(٥) القينات: جمع قينة: وهي المغنية وتطلق على الأمة أيضا، المعازف: وهي الدفوف وغيرها مما يضرب. وقيل: إن كل لعب عزف. ينظر: النهاية (٣/ ٢٣٠)، عمدة القاري (١٧/ ٥٨)

(٦) رواه الترمذي من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما، أبواب الفتن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في علامة حلول المسخ والخسف (٤/٧٢)، رقم ٢٢١٢، قال أبو عيسى: وهذا حديث غريب، وقد صححه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: صحيح الجامع (٢/٧٨٦).

هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال السمرقندي رحمه الله: «﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾، يعني: يقتل بعضكم بعضًا بالسيف، كما فعل بالأمم الخالية، إن فعلتم مثل ما فعلوا»(١).

وقد توعد الله تعالى بني إسرائيل أن يذيقهم مثل هذا العذاب إلى أن يبعث الله مَن في الأرض، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، قال ابن جرير رحمه الله: «أعلم ربك ليبعثن على اليهود من يسومهم سوء العذاب، قيل: إن ذلك العرب، بعثهم الله على اليهود، يقاتلون مَن لم يسلم منهم، ولم يُعطِ الجزية، ومَن أعطى منهم الجزية، كان ذلك له صغارًا وذلة»(٢).

وقال ابن كثير رحمه الله: «ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصار الدجال، فيقتلهم المسلمون مع عيسى ابن مريم عليه السلام، وذلك آخر الزمان»(٣).

وفتنة الحروب والقتل هي مما يهلك الله تعالى به الناس آخر الزمان، أخبر بذلك رسول الله ﷺ؛ حيث قال: «**يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ، وَيَنْقُصُ العَمَلُ، وَيُلْقَى الشُّحُّ، وَيَكْثُرُ الهَرْجُ**» قَالُوا: وَمَا الهَرْجُ؟ قَالَ: «**القَتْلُ القَتْلُ**»(٤)، ولعل ما نراه في حاضرنا اليوم من حروب مدمرة تُسفك فيها الدماء، وتُرمَّل فيها النساء، ويُيتم فيها الأطفال، هي عقاب من الله تعالى لخلقه، بعد أن فشا فيهم الفسق، وانتشرت بينهم الفاحشة، واستحوذت عليهم الشياطين.

---

(١) بحر العلوم (١/٤٩١).

(٢) جامع البيان (١٠/٥٣٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٩٧).

(٤) رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل (٨/١٤)، رقم ٦٠٣٧، ورواه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، (٤/٢٢١٥)، رقم ١٨.

٩- فتنة الأموال والأولاد:

قد يجعل الله تعالى بعض منافع الدنيا سببًا من أسباب العذاب إذا لم تُحف بشكر المنعم وطاعته، هذا ما أخبر الله تعالى به عن أموال وأولاد المنافقين الذين عصوا الله ورسوله، قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]، قال الحسن رحمه الله، في معنى يعذبهم بها في الحياة الدنيا: «بأخذ الزكاة والنفقة في سبيل الله»(١).

وقال ابن كثير رحمه الله: «واختار ابن جرير قول الحسن رحمه الله، وهو القول القوي الحسن»(٢).

وقال البيضاوي رحمه الله: «﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، بسبب ما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب، وما يرون فيها من الشدائد والمصائب»(٣).

وحينما يتأمل الإنسان مظاهر عقوق كثير من أبناء المسلمين لآبائهم وأمهاتهم يتبيَّن له كيف يجعل الله منحته محنة يتأذى بها الخلق، وكيف تصبح النعمة نقمة يفتن بها العبد، فلا يستبعد أبدًا أن تكون هذه الظاهرة السيئة عقابًا من الله تعالى لمن تجاوز الحدود، وقطع صلته بربه المعبود.

١٠- إقامة الحدود الشرعية:

ومن صور العذاب الذي قضى الله تعالى به على العصاة والطغاة إقامة الحدود الشرعية التي شرعها الله في بعض أنواع الذنوب، كحد السارق والزاني وأهل

---

(١) جامع البيان (١١/٥٠١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/١٦٣).

(٣) أنوار التنزيل (٣/٨٥).

الفساد في الأرض، فالسارق تقطع يده، والزاني يجلد أو يقتل بمقتضى حاله، والمفسد في الأرض المحارب لله ورسوله، يعاقب بإحدى ثلاث خصال، ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٌ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٣]، قال السعدي رحمه الله: «المحاربون لله ولرسوله هم الذين بارزوه بالعداوة، وأفسدوا في الأرض بالكفر والقتل، وأخذ الأموال، وإخافة السبل، فأخبر الله أن جزاءهم ونكالهم عند إقامة الحد عليهم أن يفعل بهم واحد من هذه الأمور»[1].

هذه أشهر العواقب التي تحل بأهل البُعد عن الله تعالى في الحياة الدنيا، مَن تدبَّرها وتأمَّلها أدرك أن السلامة منها في القرب من الله الذي قال: ﴿ وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [فصلت: ١٨]، وعندئذٍ يزداد المؤمن إيمانًا وثباتًا وثقة بنصر الله، ويستيقن أنه لا عهد لأحد عند الله ولا كرامة إلا بالطاعة، فمتى عصى العبد ربه وفارق سبل هدايته ورشده، كان له نصيبه من قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود: ٨٣]، إن شاء الله أن يعذبه في الحياة الدنيا، وهذه فائدة عظيمة جليلة ينالها كل مَن تدبَّر قصص القرآن التي أخبر الله فيها بهلاك الأمم السابقة، فصدق الله العظيم القائل: ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ ﴾ [يوسف: ١١١]، قال السعدي رحمه الله: «أي: يعتبرون بها، أهل الخير وأهل الشر، وأن مَن فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم مِن كرامة أو إهانة»[2].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٢٢٩.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٠٧.

المطلب الثاني:
عاقبة البعد عن الله عند الموت

لا يزال عقاب الله تعالى وغضبه على أهل البُعد عن الحق متواصلًا متتابعًا في الحياة الدنيا وعند الممات، فما أن تحل لحظات النزع وخروج الروح حتى يروا ألوانًا من العذاب الإلهي المعجَّل لهم قبل عذاب القبر وعذاب يوم الجمع، وهذا يقابل ما يكافئ الله تعالى به أهل القرب من منح عظيمة، وكرامات جليلة، يبشَّرون بها ساعة الاحتضار ودنوِّ الأجل، وأشهر ما جاء في كتاب الله وسُنة رسوله من عواقب أهل البُعد حال الموت ما يلي:

١- شدة نزع الروح حال سكرات الموت:

أهل البعد عن الله يعانون شدة نزع الروح معاناة شديد لا يعانيها غيرهم من خلق الله تعالى، ويجدون من أهوال سكرات الموت ما تتقطع معها آمالهم من رحمة الله الواسعة، هذا ما قيل في قول المولى ﷻ: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾ [النازعات: ١]، قال سعيد بن جبير رحمه الله: «هي أرواح الكفار، نزعت أرواحهم، ثم غرقت، ثم حرقت، ثم قذف بها في النار»[(١)].

وقال مقاتل رحمه الله [(٢)]: «ملك الموت عليه السلام ينزع روح الكافر من صدره كما ينزع السفود[(٣)]، الكثير الشعب من الصوف المبتل»[(٤)].

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية (١٢/٨٠١٩).

(٢) أبو الحسن، مقاتل بن سليمان الخراساني البلخي، مشهور بتفسير كتاب الله العزيز، حكي عن الشافعي أنه قال: الناس كلهم عيال مقاتل بن سليمان في التفسير، مات سنة خمسين ومائة، من تصانيفه: "التفسير الكبير"، و"متشابه القرآن"، و"الوجوه والنظائر". ينظر: وفيات الأعيان (٥/٢٥٥)، طبقات المفسرين للداودي (٢/٣٣٠)، طبقات المفسرين للأدنه وي، ص ٢٠، الأعلام (٧/٢٨١).

(٣) السفود: بالتشديد حديدة ذات شعب معقفة، معروف يشوى به اللحم. ينظر: لسان العرب (٣/٢٠٢٤).

(٤) بحر العلوم (٣/٤٤٢).

وقال السمعاني رحمه الله: «فيه أقوال؛ أظهرها: أنها الملائكة تنزع أرواح الكفار بشدة، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة، وروي مثله عن ابن مسعود رضي الله عنه»[(١)].

وخلاصة هذه الأقوال أن روح الكافر لا تخرج من جسده إلا بعد معاناة وكرب عظيم، يجد معه ألمًا ومشقة شديدة لا يجدها المؤمن الصالح الذي أمضى حياته في طاعة الله تعالى، وهذا دليل على أن هذا الكرب وهذا الغم عقوبة خُص بها الكافر؛ لبُعده عن الله تعالى، وكل مَن كان بعيدًا عن الله، كان له مِن هذا العذاب على قدر جرمه ومعصيته جزاءً وفاقًا.

٢- ضرب الملائكة لوجوههم وأدبارهم ساعة الاحتضار مع تبشيرهم بالعذاب:

أخبر الله تعالى في كتابه العزيز عن ضرب الملائكة لوجوه الكفار وأدبارهم حال الموت، مع تبشيرهم بدنو عذابهم توبيخًا وإهانة لهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠]، قال مكي رحمه الله، في معنى الآية: «لو عاينت ذلك، يا محمد، رأيت أمرًا عظيمًا، يضربون وجوههم وأستاههم، يقولون لهم: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾، أي: النار... وجواب (لو) محذوف، والمعنى: ولو ترى ذلك لرأيت أمرًا عظيمًا، وشبه هذا، وهذا إنما يكون عند قبض أرواحهم»[(٢)].

وقال ابن كثير رحمه الله: «وهذا السياق وإن كان سببه وقعة بدر، ولكنه عام في حق كل كافر، ولهذا لم يخصصه تعالى بأهل بدر»[(٣)].

---

(١) تفسير القرآن للسمعاني (٦/١٤٥).

(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية (٤/٢٨٤٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٤/٧٧).

وجاء في سورة (الأنعام) نحو ما جاء في سورة (الأنفال)، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣]، أي: ولو ترى إذ الظالمون في سكرات الموت وغمراته وكرباته، والملائكة باسطو أيديهم بالضرب والعذاب، قائلين لهم: أخرجوا أنفسكم، وذلك أن الكافر إذا احتضر بشّرته الملائكة بالعذاب والنكال، والأغلال والسلاسل، والجحيم والحميم، وغضب الرحمن الرحيم، فتتفرق روحه في جسده، وتعصى وتأبى الخروج، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم، تغليظًا وتوبيخًا وتعنيفًا عليهم [(١)].

وجاء في حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ، قال: «**وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنْ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنْ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ مَعَهُمْ الْمُسُوحُ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ** عليه السلام **حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنْ اللَّهِ وَغَضَبٍ قَالَ فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنْ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ فَيَأْخُذُهَا فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَإٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ فَيَقُولُونَ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلَا يُفْتَحُ لَهُ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ** ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، **فَيَقُولُ اللَّهُ** عز وجل **اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي**

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٣/٣٠٢)، محاسن التأويل (٤/٤٣٢).

الْأَرْضِ السُّفْلَى فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]»[١].

ومَن يتأَمَّل مشهد نزع روح المؤمن القريب مِن الله، ومشهد نزع رُوح الكافر البعيد عن الله، يتبيَّن له عظيم فضل الله على أهل القرب؛ إذ تتوفاهم الملائكة طيِّبين طاهرين، تحيتهم الأمن والسلام، وبشراهم علو المنزلة في الجنة دار السلام، ومقابل ذلك يتبيَّن غضب الله على أهل البُعد؛ إذ تبشِّرهم الملائكة حال الموت بما ينتظرهم من أليم العذاب، وتوبِّخهم على تفريطهم وتركهم أمر الله حال ضرب الوجوه والأدبار.

(١) سبق تخريجه، ص ٢٨٦.

المطلب الثالث:

عاقبة البُعد عن الله في البرزخ

دلَّت نصوص الكتاب والسُّنة على ثبوت عذاب البرزخ في حق مَن يستحقه مِن الخَلق، وأهل السُّنة والجماعة[1] يؤمنون بعذاب البرزخ كما يؤمنون بنعيمه، ويستدلون على ذلك من الكتاب بقول الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦]، قال ابن كثير رحمه الله: «وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السُّنة على عذاب البرزخ في القبور»[2].

ويستدلون على ذلك من السُّنة الشريفة بأدلة صحيحة صريحة، نذكر منها على سبيل المثال ما رواه أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه؛ إذ قال: خَرَجَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم وَقَدْ وَجَبَتِ الشَّمْسُ[3]، فَسَمِعَ صَوْتًا فَقَالَ: «**يَهُودُ تُعَذَّبُ فِي قُبُورِهَا**»[4].

ولما كانت حياة البرزخ أمرًا غيبيًّا لا يثبت فيه شيء إلا بنص قرآني أو حديث نبوي صحيح، فإن أشهر ما جاءت به النصوص الصريحة الصحيحة من عذاب أهل البرزخ ما يلي:

١- العرض على النار صبحًا وعشيًّا إلى يوم البعث والنشور:

هذا صنف من العذاب الذي يحل بأهل البعد عن الله تعالى في قبورهم، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحًا ومساءً إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦]،

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (٤/ ٢٨٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٤٦).

(٣) وجبت الشمس: غربت. ينظر: الكاشف عن حقائق السنن (١٢/ ٣٧٧٩).

(٤) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب التعوذ من عذاب القبر (٢/ ٩٩)، رقم ١٣٧٥، ورواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار...، (٤/ ٢٢٠٠)، رقم ٦٩.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «أرواحهم في صدر طير سود، يرون منازلهم بُكرة وعشيًّا»(١).

وقال قتادة رحمه الله: «يعرضون عليها صباحًا ومساء، يقال لهم: يا آل فرعون، هذه منازلكم، توبيخًا ونقمة وصَغارًا لهم»(٢).

وقال عبد الرحمن بن زيد رحمه الله: «هم فيها اليوم، يُغدَى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة»(٣).

ويؤيد ما ذهب إليه المفسِّرون في معنى هذه الآية، ما يرويه ابن عمر رضي الله عنهما، عن رسول صلى الله عليه وسلم، قال: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا مَاتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالعَشِيِّ، إِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا مَقْعَدُكَ حَتَّى يَبْعَثَكَ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ**»(٤).

فإذا ثبت هذا العذاب في حال آل فرعون من غير تخصيص، فهو ثابت في حال غيرهم من أهل البعد عن الله تعالى من الكفرة والملحدين، ما دامت العبرة في كتاب الله بعموم لفظه لا بخصوص سببه.

٢- مكابدة التعاسة والشقاء في القبر:

يورث الله تعالى أهل الضلال تعاسة وشقاء في قبورهم، بما يجدونه فيها من ظلمة وضيق وعذاب، قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ** ﴾ [طه: ١٢٤]، روي عن ابن مسعود، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهم، أنهم قالوا: «هو عذاب القبر، قال أبو سعيد رضي الله عنه: يُضغط حتى تختلف أضلاعه»(٥).

---

(١) تفسير عبد الرزاق (٣/١٤٥).

(٢) جامع البيان (٢٠/٣٣٩).

(٣) روائع التفسير (١/٢٤٨).

(٤) سبق تخريجه، ص ٢٩١.

(٥) معالم التنزيل (٥/٣٠١).

قال ابن جرير رحمه الله، بعد أن ذكر أقوال المفسرين في الموضع الذي جعل الله لهؤلاء المعرضين عن ذكره العيشة الضنك[١]: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول مَن قال: هو عذاب القبر»[٢].

فكأنهم لما أعرضوا عن الحق الذي جاءهم، وحرصوا على طلب زخارف الدنيا التي تطيب بها حياتهم، وسابقوا إلى جمعها واستكثروا من زينتها، أعقبهم الله تعالى شقاءً وتعاسة بما أذهبوا من طيباتهم في الحياة الدنيا.

٣- أخبار عذاب القبر التي جاءت بها السُّنة المطهرة:

جاءت أحاديث السُّنة الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتفصيل بعض ما أجمله القرآن عن عذاب القبر الذي يعاقب به أهل البعد عن الله تعالى، ففي حديث البراء رضي الله عنه، المشتهر، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال فيه: «**فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي فَيَقُولَانِ لَهُ مَا دِينُكَ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي فَيَقُولَانِ لَهُ مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنْ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ فَافْرِشُوا مِنْ النَّارِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ فَيَقُولُ أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ فَيَقُولُ مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ فَيَقُولُ أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ فَيَقُولُ رَبِّ لَا تُقِمْ السَّاعَةَ**»[٣].

---

(١) الضنك: الضيق من كل شيء الذكر والأنثى فيه سواء. ينظر: القاموس المحيط (١/٩٤٧).

(٢) جامع البيان (١٦/١٩٨).

(٣) سبق تخريجه، ص ٢٨٦.

وجاء في حديث الرؤيا الذي يرويه سمرة بن جندب[١] رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال في آخره: «**قَالاَ لِي: أَمَا إِنَّا سَنُخْبِرُكَ، أَمَّا الرَّجُلُ الأَوَّلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يُثْلَغُ رَأْسُهُ بِالحَجَرِ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأْخُذُ القُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ وَيَنَامُ عَنِ الصَّلاَةِ المَكْتُوبَةِ، وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ، يُشَرْشَرُ شِدْقُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَمَنْخِرُهُ إِلَى قَفَاهُ، وَعَيْنُهُ إِلَى قَفَاهُ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيْتِهِ، فَيَكْذِبُ الكَذْبَةَ تَبْلُغُ الآفَاقَ، وَأَمَّا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ العُرَاةُ الَّذِينَ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ، فَإِنَّهُمُ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي، وَأَمَّا الرَّجُلُ الَّذِي أَتَيْتَ عَلَيْهِ يَسْبَحُ فِي النَّهَرِ وَيُلْقَمُ الحَجَرَ، فَإِنَّهُ آكِلُ الرِّبَا**»[٢].

قال ابن القيم رحمه الله: «وهذا نص في عذاب البرزخ، فإن رؤيا الأنبياء وحي مطابق لما في نفس الأمر»[٣].

وجاء كذلك في حديث القبرين، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: مر النبي ﷺ بحائط من حيطان المدينة، أو مكة، فسمع صوت إنسانين يعذبان في قبورهما، فقال النبي ﷺ: «**يُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ**» ثُمَّ قَالَ: «**بَلَى، كَانَ أَحَدُهُمَا لاَ يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ، وَكَانَ الآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**»[٤].

ومثل هذه الآثار الصحيحة الصريحة لا تدع مجالًا للشك في سوء عاقبة أهل البعد عن الله من الكفرة والملحدين والعصاة في حياة البرزخ، ومَن ينكر ما جاءت به هذه النصوص، فقد ضلَّ طريق أهل الحق، وسلك مسلك أهل البدع والضلال، ويخشى عليه من سوء العاقبة وعسير الحساب.

---

(١) الصحابي الجليل، أبو سليمان، سمرة بن جندب بن هلال الفزاري رضي الله عنه، أجازه رسول ﷺ يوم أحد، كان من الحفاظ المكثرين عن رسول الله ﷺ، مات سنة ثمان وخمسين. ينظر: الاستيعاب (٢/٦٥٣)، أسد الغابة (٢/٥٥٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب التعبير، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح (٩/٤٤)، رقم ٧٠٤٧.

(٣) الروح (١/١٧١).

(٤) رواه البخاري، كتاب الوضوء، باب من الكبائر ألا يستتر من بوله (١/٥٣)، رقم ٢١٦، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على نجاسة البول، (١/٢٤٠)، رقم ١١١.

المطلب الرابع:
عاقبة البُعد عن الله في الآخرة

كما أن الله تعالى رغَّب عباده في القرب منه بذكر منازل المقرَّبين وكراماتهم يوم القيامة، فقد رهَّب سبحانه من البعد عنه بذكر ألوان عذاب الآخرة الذي أعده لأهل البعد عن طاعته.

فوصف الله تعالى لعباده ذلك العذاب وصفًا يرهب القلوب، ويُذهب العقول، وبالنظر في الآيات الكريمة والآثار النبوية يمكن تصنيف عذاب أهل البُعد في الآخرة إلى ما يلي:

الصنف الأول: العذاب النفسي:

ويقصد به ما يلحق العصاة والمشركين يوم القيامة من آلام نفسية وهموم وأحزان، نتيجة ما يرونه أو يلاقونه من تعنيف وإذلال وتبكيت، وأبرز مشاهد الألم النفسي الذي يلحق بالكفار يوم القيامة، ما يلي:

١- الذلة والانكسار والدعاء بالويل حال الخروج من القبور:

يبدأ العذاب النفسي في الآخرة لأهل البعد من حين يبعثون من قبورهم مهطعين ذليلين شاخصة أبصارهم خاوية قلوبهم، يدعون بالويل والحسرة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٣، ٤٤]، قال ابن جرير ﵀: «تغشاهم ذلة من عذاب الله»[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥١، ٥٢]، قال ابن عاشور ﵀: «و ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾: كلمة يقولها الواقع في مصيبة أو

---

(١) جامع البيان (٢٣/١٩٦).

المتحسر، والويل: سوء الحال، وإنما قالوا ذلك؛ لأنهم رأوا ما أُعد لهم من العذاب عند ما بُعثوا»[(١)].

وهذه أوصاف وأحوال مَن تيقن أن عذاب الله به واقع، وأن وعد الله الذي طالما أنكروه وأعرضوا عنه صار منهم قريبًا.

٢- الكآبة والغم حال معاينة النار في عرصات القيامة:

أخبر الله تعالى بما ينتاب أهل البُعد من الهمِّ العظيم والحزن الأليم حينما يرون النار بارزة مكشوفة، يحطم بعضها بعضًا، فيعلمون حينئذ أنهم مواقعوها ومحشورون إليها، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ [الملك: ٢٧]، أي: فلما رأوا ما وُعدوا به من العذاب قريبًا، ظهر على وجوههم آثار الاستياء من الكآبة والغم والانكسار والحزن[(٢)].

والذي دلَّت عليه آيات الكتاب الكريم وسُنة رسوله ﷺ أن هذه الرؤية تكون في أرض المحشر؛ لقول الله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٦].

وقول رسول الله ﷺ في حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «**يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ[(٣)]، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا**»[(٤)]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يكشف عنها، فيراها تتلظَّى كل ذي بصر»[(٥)].

وقال السمعاني رحمه الله: «وفي التفسير أن الحكمة في إظهار الجحيم، مشاهدة

(١) التحرير والتنوير (٢٣/٣٧).
(٢) ينظر: محاسن التأويل (٩/٢٩٤).
(٣) الزمام: هو ما يشد به. ينظر: مرقاة المفاتيح (٩/٣٦١٣).
(٤) رواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم... (٤/٢١٨٤)، رقم ٢٩.
(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٩/٢٠٥).

الكفار مكان عقوبتهم، وليعلم المؤمنون من أي عذاب نجوا»[١].

فلا تسأل عن حال المجرمين حينما يرون النار، ولا عن شعورهم وخوفهم حين تراهم من بُعد، تزفر وتشهق وتفور، يكاد ينفصل بعضها عن بعض من شدة الغيظ، قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]، قال الشوكاني رحمه الله: «وقيل: إن الرؤية منها حقيقية، وكذلك التغيظ والزفير، ولا مانع من أن يجعلها الله سبحانه مدركة هذا الإدراك، ومعنى ﴿مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾، أنها رأتهم وهى بعيدة عنهم... ومعنى التغيظ: أن لها صوتًا يدل على التغيظ على الكفار، أو لغيلانها صوتًا يشبه صوت المغتاظ، والزفير: هو الصوت الذى يسمع من الجوف»[٢].

وحمل الرؤية والتغيظ والزفير على الحقيقة أقرب، فإن الذي أنطق كل شيء قادر على أن ينطقها، ثم إن مشاهدة أهل البعد لها ناطقة بالتغيظ والزفير وهو أمر غير مألوف لديهم من قبل، أكثر إرهابًا لهم وأشد تبكيتًا وتوبيخًا.

٣- إعراض الله عنهم فلا ينظر إليهم ولا يكلمهم ولا يزكيهم:

من أشد مشاهد العذاب النفسي للمبعدين يوم القيامة إعراض ربهم سبحانه وتعالى عنهم، فلا ينظر إليهم ولا يكلمهم ولا يزكيهم، وذلك لشدة غيظه وغضبه سبحانه وتعالى على أولئك العصاة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٤].

---

(١) تفسير القرآن للسمعاني (٦/١٥٢).

(٢) فتح القدير (٤/٨٦).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧]، قال ابن كثير رحمه الله: «لا يكلمهم كلام لطف بهم، ولا ينظر إليهم بعين الرحمة، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ من الذنوب والأدناس؛ بل يأمر بهم إلى النار»(١).

وقد وردت أحاديث كثيرة لأصناف من الناس لا ينظر إليهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، نذكر منها:

ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ، وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِطَرِيقٍ، يَمْنَعُ مِنْهُ ابْنَ السَّبِيلِ، وَرَجُلٌ بَايَعَ رَجُلًا لاَ يُبَايِعُهُ إِلَّا لِلدُّنْيَا، فَإِنْ أَعْطَاهُ مَا يُرِيدُ وَفَى لَهُ وَإِلَّا لَمْ يَفِ لَهُ، وَرَجُلٌ سَاوَمَ رَجُلًا بِسِلْعَةٍ بَعْدَ العَصْرِ(٢)، فَحَلَفَ بِاللَّهِ لَقَدْ أَعْطَى بِهَا كَذَا وَكَذَا فَأَخَذَهَا**»(٣).

وعن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْمَنَّانُ الَّذِي لَا يُعْطِي شَيْئًا إِلَّا مَنَّهُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْفَاجِرِ، وَالْمُسْبِلُ إِزَارَهُ**»(٤).

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٦٢).

(٢) قال المهلب: «إنما خص النبي صلى الله عليه وسلم هذا الوقت بتعظيم الإثم على من حلف فيه كاذبا؛ لشهود ملائكة الليل والنهار ذلك الوقت». قال ابن حجر: «وفيه نظر؛ لأن بعد صلاة الصبح يشاركه في شهود الملائكة، ولم يأت فيه ما أتى في وقت العصر، ويمكن أن يكون اختص بذلك لكونه وقت ارتفاع الأعمال». ينظر: فتح الباري (٥/ ٢٨٤).

(٣) رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب اليمين بعد العصر (٣/ ١٧٨)، رقم ٢٦٧٢.

(٤) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار... (١/ ١٠٢)، رقم...

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ**»(١).

فإذا حصل مثل هذا لأهل البعد عن الله في عرصات القيامة، أيس الكافر من رحمة الله تعالى وعفوه، واشتد حزنه وأنينه وألمه.

٤- المناداة بالويل والثبور حين مشاهدة كتاب الأعمال:

حينما يأخذ الشقي كتابه الذي سطرت فيه صغائر أعماله قبل كبائرها، ركبه الحزن والهم والغم، فلا يجد حينئذ إلا أن ينادي بالويل والثبور، قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، قال قتادة رحمه الله: «اشتكى القوم كما تسمعون الإحصاء، ولم يشتكِ أحد ظلمًا، فإياكم والمحقرات من الذنوب، فإنها تجتمع على صاحبها حتى تهلكه»(٢).

وكان الفضيل بن عياض رحمه الله إذا قرأ هذه الآية يقول: «يا ويلتاه! ضجوا إلى الله تعالى من الصغائر قبل الكبائر»(٣).

فلما فتح كتابه، ووجد كل صغير وكبير قد سطر فيه، لم يسعه إلا أن يصرخ وينوح بين أهل المحشر قائلًا: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥، ٢٦]. فلا ينفعه حينئذٍ العويل والندم، ولا يفيده التأسف وإظهار الحسرة والألم.

(١) سبق تخريجه، ص ١٨٤.

(٢) جامع البيان (١٥/ ٢٨٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٤١٩).

٥- التأسف والتحسر على التفريط في الحياة الدنيا:

وإذا رأى الظالم أهوال يوم القيامة، وأيقن أن وعد الله حق، وتذكَّر انجرافه خلف ضلالات أهل السوء من الأصحاب والأخلاء، وتركه طريق الاستقامة الذي جاءت به الرسل، ندم أشد الندم، وتأسف وتحسر وحزن، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧]، قال مكي رحمه الله: «واذكر يا محمد يوم يعَضُّ الظالم نفسه، المشرك بربه، على يديه، تندمًا وأسفًا على ما فرَّط في جنب الله، يقول: يا ليتني اتخذت في الدنيا ﴿مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾، أي: طريقًا إلى الجنة، وإلى النجاة من عذاب الله»(١).

غير أن الحسرة والندم لا ينفعان بعد فوات الأوان، ومَن لم يعتبر اليوم بمواعظ الآيات، ويتبصر في خاتمة مَن قد مات، فلن ينفعه يومئذ الأسف والحسرات.

٦- الحسرة والندامة حين باءت محاولات خروجهم من النار بالفشل:

إذا صار الظالمون إلى النار، اعترفوا بذنوبهم واعتذروا بما كتبه الله عليهم من الضلال والشقاء، ثم تدرجوا من الإقرار والاعتذار إلى الرغبة في رحمة الله والخروج من النار، حاكمين على أنفسهم بالظلم إن عادوا للكفر والفجور، فجاءهم الرد الذي أخرسهم وقطع رجاءهم وزاد همَّهم وغمَّهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٥ - ١٠٨]، قال أبو حيان رحمه الله: «ومعنى ﴿ٱخْسَـُٔوا۟﴾ أي: ذلوا فيها وانزجروا كما تنزجر الكلاب إذا ازُّجِرت، ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾، أي: في رفع

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية (٨/٥٢٠٧).

العذاب أو تخفيفه»[١].

فلما رأوا أنه لا جدوى من الأعذار ولا خروج من النار، حاولوا أن يتشفعوا بالملائكة ليخفف عنهم العذاب ولو يومًا واحدًا، فما وجدوا من الملائكة إلا التوبيخ والتبكيت والتنديم، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [غافر: ٤٩،٥٠]، فألزموهم الحجة، ووبخوهم على إضاعتهم أوقات الدعاء، وتعطيلهم أسباب الإجابة، وزادوهم حسرةً وندامة حين قالوا لهم: فادعوا فإنَّا لا نجترئ على الدعاء لكم، ولم يؤذن لنا فيه لأمثالكم، وهذا فيه إقناط لهم عن إجابة دعوتهم[٢].

ولا تزال الملائكة تبكتهم وتنكل بهم؛ ليجتمع بهم عذاب النفس وعذاب الجسد، قال تعالى: ﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [النبأ: ٣٠]، قال ابن جرير رحمه الله: «يقال لهؤلاء الكفار في جهنم إذا شربوا الحميم والغساق: ذوقوا أيها القوم من عذاب الله الذي كنتم به في الدنيا تكذبون، فلن نزيدكم إلا عذابًا على العذاب الذي أنتم فيه، لا تخفيفًا منه، ولا ترفهًا»[٣].

قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «ما أنزلت على أهل النار آية قط أشد منها: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾، فهم في مزيد من عذاب الله أبدًا»[٤].

فإذا تمكن منهم اليأس، وانقطع رجاؤهم من التخفيف أو الخلاص، وظنوا

(١) البحر المحيط (٦/٥١٦).

(٢) ينظر: أنوار التنزيل (٥/٦٠).

(٣) جامع البيان (٢٤/٣٦).

(٤) الدر المنثور (١٥/٢٠٦).

أنهم خالدون مقيمون في العذاب، تمنوا حينئذ الموت والهلاك، ولكن هيهات هيهات، لا موت ولا عدم؛ بل خلود دائم في الحسرة والندم، قال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

قال رسول الله ﷺ: «إِذَا صَارَ أَهْلُ الجَنَّةِ إِلَى الجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ إِلَى النَّارِ، جِيءَ بِالْمَوْتِ حَتَّى يُجْعَلَ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُذْبَحُ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ لاَ مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ لاَ مَوْتَ، فَيَزْدَادُ أَهْلُ الجَنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرَحِهِمْ، وَيَزْدَادُ أَهْلُ النَّارِ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ»(١).

٧- الحزن الشديد حين يناديهم الشيطان مظهرًا خداعه ومكره بهم في الدنيا:

من أعظم ما يهم أهل البعد والضلال ويحزنهم، مناداة الشيطان لهم قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، قال ابن كثير رحمه الله: «يخبر تعالى عما خطب به إبليس لعنه الله أتباعه، بعدما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، فقام فيهم إبليس لعنه الله حينئذ خطيبًا؛ ليزيدهم حزنًا إلى حزنهم، وغبنًا إلى غبنهم، وحسرة إلى حسرتهم»(٢).

وقال محمد بن كعب القرظي رحمه الله(٣): «فلما سمعوا مقالة إبليس هذه في خطبةٍ

---

(١) رواه البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار (٨/١١٣)، رقم ٦٥٤٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/٤٨٩).

(٣) أبو حمزة، محمد بن كعب بن حيان القرظي المدني، الإمام، العلامة، الصادق، من حلفاء الأوس، كان أبوه كعب من سبي بني قريظة، سكن الكوفة، ثم المدينة، توفي سنة تسع عشرة ومائة، وقيل: عشرين، وقيل غير ذلك. ينظر: سير أعلام النبلاء (٥/٦٥)، تهذيب التهذيب (٩/٤٢٠).

يقوم بها عليهم، مقتوا أنفسهم، فنودوا: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠]»(١).

فما صدقهم الشيطان يومًا ما، كما صدقهم ذلك اليوم، وما انكشفت حقيقة أمره، كما انكشفت ذلك اليوم، ولطالما وعدهم ومنَّاهم حتى عدلوا عن هداية الله إلى طاعته، فاستحقوا بذلك ما هم فيه من العذاب، ولائق بهم ما قضى الله به عليهم من الحساب.

الصنف الثاني: العذاب الجسدي:

أما ما ينتظر أهل البعد عن الله من العذاب الجسدي فهو في السُّنة والكتاب أصناف وأشكال، نذكر منه:

أولاً: العذاب الجسدي في المحشر:

ذكر الله ﷻ في كتابه العظيم وفي سُنة رسوله الكريم أصنافًا متنوعة من عقوبات الكفار والعصاة من حين يخرجون من قبورهم إلى أن يصلوا إلى مثواهم الذي قضي لهم به، ويمكن تقسيم أحوال حشر أهل البعد من القبور إلى النار إلى قسمين:

١- أحوال حشر الكافرين:

يحشر الله تعالى الكافرين يوم القيامة زرق العيون، يغشى وجوههم الكدر، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢]، قال البغوي ﵀: «والزرقة: هي الخضرة في سواد العين، فيحشرون زرق العيون سود الوجوه»(٢).

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية (٥/٣٨٠٠).

(٢) معالم التنزيل (٥/٢٩٤).

وعلاوة على ذلك، يحشرهم الله تعالى إليه عطشى تتقطع أعناقهم من شدة العطش، قال تعالى: ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾ [مريم: ٨٦]، قال السعدي رحمه الله: «وأما المجرمون، فإنهم يساقون إلى جهنم وِردًا، أي: عطشى، وهذا أبشع ما يكون من الحالات، سوقهم على وجه الذل والصغار إلى أعظم سجن وأفظع عقوبة، وهو جهنم، في حال ظمئهم ونصبهم يستغيثون فلا يغاثون، ويدعون فلا يستجاب لهم، ويستشفعون فلا يشفع لهم»(١).

وأشد وأفظع مما سبق أن الله يحشرهم إلى جهنم، على وجوههم صمًا وبكمًا وعميًا، قال الباري جل ذكره: ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقد سأل سائل رسول الله ﷺ، فقال: يَا نَبِيَّ اللَّهِ يُحْشَرُ الكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ: «**أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرِّجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»(٢).

وهذا الحشر هو بعد حشرهم إلى الموقف، وهو حشرهم وضمهم إلى النار، وعلى هذا، فهم ما بين حشرين: الحشر الأول من القبور إلى الموقف، والحشر الثاني من الموقف إلى النار، فعند الحشر الأول، يسمعون ويبصرون ويجادلون ويتكلمون، وعند الحشر الثاني، يحشرون على وجوههم عميًا وبكمًا وصمًا، فلكل موقف حال يليق به ويقتضيه عدل الرب وحكمته(٣).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٥٠٠.

(٢) رواه البخاري من حديث أنس رضي الله عنه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٣٤] (٦/١٠٩)، رقم ٤٧٦٠.

(٣) ينظر: مفتاح دار السعادة (٤٨/١).

قال ابن عاشور رحمه الله: «والمقصود من ذلك الجمع بين التشويه والتعذيب؛ لأن الوجه أرق تحملًا لصلابة الأرض من الرِّجل، وهذا جزاء مناسب للجرم؛ لأنهم روجوا الضلالة في صورة الحق، ووسموا الحق بسمات الضلال، فكان جزاؤهم أن حولت وجوههم أعضاء مشي عوضًا عن الأرجل، ثم كانوا ﴿عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا﴾ جزاء أقوالهم الباطلة على الرسول وعلى القرآن، ﴿وَصُمّٗا﴾ جزاء امتناعهم من سماع الحق»[1].

٢- أحوال حشر بعض العصاة:

أخبر الله ورسوله ﷺ عن أنواع من العقوبات لأصناف من العصاة، يعاقبون بها من حين خروجهم من القبور إلى أن يفصل الله تعالى بين الخلق، أولاها بالذكر ما يلي:

حشر أهل الربا:

صوَّر الله في كتابه الكريم مشهد حشر أهل الربا حال قيامهم من القبور بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونًا يخنق»[2].

فيبعثون من قبورهم كحال مَن أصابه الشيطان بمس أو جنون، يخبطون خبط العشواء، فضيحة لهم وعارًا بين أهل المحشر؛ جزاء أكلهم ما حرم الله، ومساواته بما أحل الله.

حشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله:

كما أخبر سبحانه وتعالى عن الذين يكنزون الذهب والفضة وسائر الأموال ولا يؤدون

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/٢١٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٢/٥٤٤).

حق الله تعالى فيها، بأنهم يحرقون بها في أرض المحشر، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم إلى أن يقضي الله تعالى بين الخلق، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة:٣٤، ٣٥]، قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلَا فِضَّةٍ، لَا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا، إِلَّا إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، فَأُحْمِيَ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبِينُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ لَهُ، فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ، إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ**»[١].

وهذه العاقبة الشنيعة تبين خطورة منع زكاة الأموال التي أوجب الإسلام سلّ السيوف وإعلان الحرب على كل مَن امتنع عن أدائها، فليت المتساهلين اليوم في دفع الزكاة يستحضرون مشهد القيامة حين تكوى الجباه والجنوب والظهور، فيستغيثون ولا يغاثون.

حشر أهل الغلول:

من مشاهد الحشر المتضمنة عقوبة عاجلة لأهلها، مشهد حشر أهل الغلول الذين يخونون في المغنم، ويسرقون من الغنيمة قبل قسمتها[٢]، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [آل عمران: ١٦١].

قال أبو هريرة رضي الله عنه: قام فينا النبي ﷺ، فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة (٢/ ٦٨٠)، رقم ٢٤.
(٢) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٣٨٠).

قال: «**لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَهَا ثُغَاءٌ، عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، وَعَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، وَعَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ** [١]**،فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، أَوْ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ**»[٢].

ولما كان أصل الغلول الخيانة في المغنم وغيره[٣]، فإنه يخشى على كل مَن خان أمانته في أخذ مال عام بغير وجه حق، أو تفريط في عمل أو وظيفة كلف بها، أو تهاون في حقوق أمر بحفظها، أن يناله الوعيد الوارد في الحديث، والواجب على كل مسؤول أن يحفظ ما أمر بحفظه، وأن يراقب الله تعالى فيما تحت يده.

حشر مَن يسأل الناس تكثرا:

يحشر الله تعالى مَن يسأل الناس أموالهم بلا حاجة، وليس في وجهه قطعة لحم، قال ﷺ: «**مَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ النَّاسَ، حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ القِيَامَةِ لَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ**»[٤].

قال الطيبي رحمه الله: «هذا يحتمل معنيين: أحدهما أنه يأتي يوم القيامة ساقطًا ذليلًا،

---

(١) الصامت: الذهب والفضة. ينظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال (٥/ ٢٣٤).

(٢) رواه البخاري، كتاب الجهاد، باب الغلول... (٤/ ٧٤)، رقم ٣٠٧٣، ورواه مسلم، كتاب الإمارة، باب غلظ تحريم الغلول، (٣/ ١٤٦١)، رقم ٢٤.

(٣) قال ابن منظور: الغلول: الخيانة في المغنم والسرقة من الغنيمة، وكل من خان في شيء خفية فقد غل، ينظر: لسان العرب (١١/ ٥٠٠).

(٤) رواه البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، كتاب الزكاة، باب من سأل الناس تكثرًا (٢/ ١٢٣)، رقم ١٤٧٤، ورواه مسلم، كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، (٢/ ٧٢٠)، رقم ١٠٤.

لا جاه له، ولا قدر، من قولهم: لفلان وجه في الناس، أي: قدر ومنزلة. والثاني: أن يكون وجهه الذي يتلقى به الناس عظمًا لا لحم عليه، إما أن يكون لعقوبة نالت موضع الجناية، وإما أن يكون علامة وشعارًا يعرف، لا لعقوبة مسته»(١).

والذي يظهر للباحث أن حمل الحديث هنا على الحقيقة أولى من المجاز، فإن مَن أهان نفسه بلا حاجة، وسلب الناس أموالهم مخادعة، استحق أن يسلبه الله تعالى يوم القيامة لحم وجهه الذي قام به في أوساط الناس مظهرًا عليه علامات الفقر والحاجة وهو كاذب.

حشر مَن يقتطع أرض مسلم ظلمًا:

ذكر رسول الله ﷺ أن مَن ظلم ولو شبرًا من الأرض، يطوقه يوم القيامة بسبع أرضين جزاء ظلمه ومجاوزته الحد في حقوق الناس، قال ﷺ: «**مَن ظلم قيد شبر مِن الأرض شيئًا طوقه مِن سبع أرضين**»(٢).

قال الخطابي رحمه الله(٣): «له وجهان: أحدهما أنه يكلف نقل ما ظلم منها في القيامة إلى المحشر فيكون كالطوق في عنقه، والآخر أن يعاقب بالخسف إلى سبع أرضين»(٤).

فكيف تقوى نفس ضعيفة على حمل هذا؟! وكيف يتجرأ عبد يسمع هذا الوعيد على أن يظلم الناس حقوقهم؟!

---

(١) الكاشف عن حقائق السنن (٥/١٥١١).

(٢) رواه البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها، كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض (٣/١٣٠)، رقم ٢٤٥٣.

(٣) أبو سليمان، حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي، من نسل زيد بن الخطاب رضي الله عنه، كان فقيهًا أديبًا محدثًا، وكان يشبه في عصره بأبي عبيد القاسم بن سلام علمًا وأدبًا وزهدًا وورعًا وتدريسًا وتأليفًا، له تصانيف بديعة: منها "معالم السنن" و"إصلاح غلط المحدثين" و"بيان إعجاز القرآن"، مات سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة. ينظر: وفيات الأعيان (٢/٢١٤)، الأعلام (٢/٢٧٣).

(٤) عمدة القاري، محمود بن أحمد العيني (١٢/٢٩٨).

حشر المتكبرين:

يحشر الله المتكبرين يوم القيامة على هيئة حقيرة ذليلة تناسب تكبرهم وازدراءهم الناس في الحياة الدنيا، قال ﷺ: «**يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّى بُولَسَ تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ**[١] **يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الخَبَالِ**»[٢].

هذه بشارة لكل متكبر رد الحق وتعالى على الناس، فإن الله يوم القيامة يضعه ويهينه، جزاء امتناعه على الناس واستحقاره لهم.

حشر النائحة التي ماتت على معصيتها:

أخبر رسول الله ﷺ أمته بخبر النائحة التي ترفع صوتها، وتلطم وجهها، بأن لها يوم القيامة سربالًا من قطران ودرعًا من جرب، قال رسول الله ﷺ: «**النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ**»[٣]، قال ابن عثيمين رحمه الله: «السربال: يعني الثوب، والدرع: ما كان لاصقًا بالبدن، والمعنى: أن جلدها أجرب -والعياذ بالله- والجرب معروف، هو عبارة عن حكة يتشقق منها الجلد، وإذا كان جلدها من جرب، وعليها سربال من قطران، صار هذا أشد اشتعالًا في النار»[٤].

---

(١) قال ابن الأثير: «نار الأنيار: لم أجده مشروحا، ولكن هكذا يروى، فإن صحت الرواية فيحتمل أن يكون معناه نار النيران، فجمع النار على أنيار». ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/ ١٢٦).

(٢) سبق تخريجه، ص ٢٠١.

(٣) رواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه، كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة (٢/ ٦٤٤)، رقم ٢٩.

(٤) شرح رياض الصالحين (٦/ ٤٠٢).

ومَن يتأمَّل في هذه العقوبات الجسدية التي تنال أهل البعد عن الله تعالى يجد تقاربًا كبيرًا بين صفة العذاب وحال أهله في الحياة الدنيا، فالكافر الذي سد سمعه وبصره عن سماع الحق وارتوى من الدنيا، يحشره الله تعالى على وجهه أعمى أصم شديد الظمأ، وصاحب الربا الذي اختلع حب المال قلبه وأزال عقله، يحشره الله تعالى كالمجنون، والمتكبر الذي احتقر الناس، وتعالى عليهم، يحشره الله كأهون ما خلق، وهكذا كل صاحب معصية يجد من العقوبة ما يشابه معصيته، جزاءً وفاقًا.

ثانيًا: العذاب الجسدي بعد الفصل بين الخلق:

إذا فصل الله تعالى بين خَلقه، وتبيَّن فريق الجنة من فريق النار، أمر الله ملائكته بأخذ أهل البعد إلى العقوبة التي أعدها لهم، فمن كان كافرًا بالله تعالى كان فيها خالدًا على الدوام، ومَن كان عاصيًا لله بما دون الكفر، كان له منها بقدر معصيته إن شاء الله أن يعذبه، وقد اشتهرت في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ حال أهل العذاب، وتنوعت فيها الآيات والأحاديث، إلا أن أشهر ما جاء في الكتاب والسُّنة من أصناف عذاب[1] أهل البعد ما يلي:

١- عذاب النار الأليم:

يقاسي أهل البعد عن الله عذاب نار حامية، أهونهم رجل توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه[2]، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾ [النساء: ٥٦]، قال ابن عمر رضي الله عنهما: «إذا احترقت جلودهم بدلوا

(١) ينظر: الجنة والنار، عمر بن سليمان الأشقر، ص ٨٧.

(٢) رواه البخاري من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار (٨/١١٥)، رقم ٦٥٦١.

جلودًا بيضاء أمثال القراطيس»[١].

وحتى يزداد عليهم العذاب والألم، يُدخلهم الله تعالى النار على صورة هائلة ضخمة؛ ليزداد احتراقهم ويعظم ألمهم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «**مَا بَيْنَ مَنْكِبَي الكَافِرِ مَسِيرَةُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ لِلرَّاكِبِ المُسْرِعِ**»[٢].

وعنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «**إِنَّ غِلَظَ جِلْدِ الكَافِرِ اثْنَتَانِ وَأَرْبَعُونَ ذِرَاعًا، وَإِنَّ ضِرْسَهُ مِثْلُ أُحُدٍ، وَإِنَّ مَجْلِسَهُ مِنْ جَهَنَّمَ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَالمَدِينَةِ**»[٣].

فإذا كان كل كافر في النار على هذه الصورة الضخمة الهائلة، فأي نار تلك التي تستوعب جموع الكفر من كل الأمم بهذه الصفات الهائلة التي أخبر بها حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم؟!

٢- التقييد بالسلاسل والأغلال:

يُصفَّد أهل الضلال يوم القيامة في نار جهنم بالسلاسل والأغلال، ويسحبون على وجوههم في النار والحميم، قال تعالى: ﴿ **إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ** ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢]، قال ابن كثير رحمه الله: «﴿ **إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ** ﴾، أي: متصلة بالأغلال، بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم، تارة إلى الحميم، وتارة إلى الجحيم»[٤].

(١) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٣/٩٨٢).

(٢) رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار (٨/١١٤)، رقم ٦٥٥١، ورواه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون...، (٤/٢١٨٩)، رقم ٤٥.

(٣) رواه الترمذي، أبواب صفة جهنم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في عظم أهل النار (٤/٣٣١)، رقم ٢٥٧٧، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث الأعمش، وروى الحاكم في المستدرك نحوه دون الجملة الأخيرة، وقال: على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: المستدرك (٤/٦٣٧)، رقم ٨٧٦٠، صحيح الجامع (١/٤٢٤)، رقم ٢١١٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧/١٥٧).

فلا يكفي أنهم يصرخون في النار ويتقلبون؛ بل فوق ذلك يسحبون على وجوههم في الجحيم مسلسلين لا حول لهم ولا قوة إلا الصراخ والعويل، فتزداد وجوههم تشوُّهًا واحتراقًا.

٣- طعام أهل النار:

وصف الله تعالى مرارة طعام أهل النار وخبثه في مواطن كثيرة من كتابه الكريم:

فأخبر سبحانه أنه طعام سام لا يسمن آكله، ولا يسد رمقه، قال تعالى: ﴿ **لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ** ﴾ [الغاشية: ٦، ٧]، قال ابن جرير رحمه الله: «والضريع عند العرب: نبت يقال له الشِبرِق، وتسميه أهل الحجاز الضريع إذا يبس، ويسميه غيرهم: الشبرق، وهو سُم»[(١)].

وأخبر كذلك عن حالة الضر ومرارة الألم التي تلحق بهم حينما يأكلون من شجرة الزقوم الخبيثة، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ الْأَثِيمِ ۝٤٤ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ۝٤٥ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ** ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٦]، قال ﷺ: «**لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قُطِرَتْ فِي دَارِ الدُّنْيَا لأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ يَكُونُ طَعَامَهُ؟**»[(٢)].

قال الثعلبي رحمه الله: «والزقوم ثمرة شجرة كريهة الطعم جدًّا، من قولهم: يزقم هذا الطعام، إذا تناوله على كره ومشقة شديدة»[(٣)].

---

(١) جامع البيان (٢٤/٣٣١).

(٢) رواه الترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أبواب صفة جهنم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في صفة شراب أهل النار (٤/٣٣٦)، رقم ٢٥٨٥، قال أبو عيسى: حديث حسن صحيح، واختلف حكم الشيخ الألباني على الحديث، فصححه في صحيح الجامع، وضعفه في السلسلة الضعيفة. ينظر: صحيح الجامع (٢/٩٣١)، رقم ٥٢٥٠، سلسلة الأحاديث الضعيفة (١٤/٦٣٣)، رقم ٦٧٨٢.

(٣) الكشف والبيان (٨/١٤٥).

وخص سبحانه مَن حاد عن الصراط المستقيم، وجاء بالذنب العظيم، بتجرُّع صديد أهل النار ونتن لحومهم، قال تعالى: ﴿ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ ﴾ [الحاقة: ٣٥ - ٣٧]، روى ابن جرير رحمه الله، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن الغسلين: صديد أهل النار وما يخرج من لحومهم، وروي عن قتادة رحمه الله أنه شر الطعام وأخبثه وأبشعه[1].

فإذا كان مجرد وصف طعام أهل النار بهذه الصفات أمرًا تقشعر منه الجلود، وتتقزز منه النفوس، فكيف بتذوقه وتجرُّع مرارته على الدوام؟!

٤- شراب أهل النار:

أما شراب أهل النار فليس بأحسن حالًا من الطعام، فهو لا يبرد ظمًا ولا يروي عطشًا، وصف الله تعالى شدة حرارته بقوله: ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٩]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «المُهل: ماء غليظ كدُردي الزيت»[2]، فإذا كانت حرارته تشوي الوجوه، فكيف إذا استقر في الأمعاء والأحشاء؟! وكيف شدة ألمه وهم يتجرعونه على ألم ومضض لا يجدون غيره ولا يغاثون بسواه؟! قال تعالى: ﴿ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴾ [الحج: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٥].

والمقصود أن هذا الماء الحار الكريه الطعم والرائحة لا يجد فيه الكافر ولو أدنى لذَّة، وإنما هو عذاب دائم، إذا قَرُب من وجوههم شواها، وإذا وصل إلى

---

(١) جامع البيان (٢٣/ ٢٤٠، ٢٤١).

(٢) المرجع السابق (٢١/ ٥٥).

أمعائهم قطعها، وما أعظم الوجع والألم فيمن تقطع أمعاؤه من الداخل، لكن مع ذلك تقطع وتعاد كالجلود[(١)].

وذكر الله تعالى صنفًا آخر من شراب أهل النار، وهو ما يُدعى الغَسَّاق، وقرن بينه وبين الحميم في قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ [ص: ٥٧]، وفي قوله تعالى: ﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴾ [النبأ: ٢٤، ٢٥]، قال قتادة رحمه الله: «هو ما يغسق، أي: ما يسيل من القيح والصديد من جلود أهل النار، ولحومهم، وفروج الزناة، من قوله: غَسِقت عينه إذا انصبت، والغسقان: الانصباب»[(٢)].

وقال ابن كثير رحمه الله: «أما الحميم فهو الحار الذي قد انتهى حره، وأما الغساق فهو ضده، وهو البارد الذي لا يستطاع من شدة برده المؤلم»[(٣)].

وجاء في سُنة رسول الله ﷺ ذكر صنف من شراب أهل النار، يشربه مدمنو الخمر الذين أذهبوا عقولهم التي كرَّمهم الله بها، وأهانوا أنفسهم بعدما أعزَّها الله، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ عَلَى اللهِ عز وجل عَهْدًا لِمَنْ يَشْرَبُ الْمُسْكِرَ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الْخَبَالِ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا طِينَةُ الْخَبَالِ؟ قَالَ: «**عَرَقُ أَهْلِ النَّارِ**» أَوْ «**عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ**»[(٤)].

والحاصل أن الله لا يطعم أهل النار ولا يسقيهم لأجل الجوع والعطش، إنما يطعمهم ويسقيهم ليزيد عذابهم، ويعظم ألمهم وتوجعهم، فلا يتلذذون بشيء قط، ولا يرون خيرًا أبدًا.

---

(١) ينظر: تفسير العثيمين، تفسير سورة الكهف، ص ٦٣.

(٢) معالم التنزيل (٧/٩٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/٧٨).

(٤) رواه مسلم من حديث جابر رضي الله عنه، كتاب الأشربة، باب بيان أن كل مسكر خمر... (٣/١٥٨٧)، رقم ٧٢.

٥- لباس أهل النار:

وكما يعذِّب الله أجساد أهل النار بالطعام والشراب، يعذبهم كذلك بلباس لا يقيهم حرها، ولا يصد عنهم من ضرها، إنما هو لباس من نار يزيد العذاب ويضاعف الألم: قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩]، قال سعيد بن جبير رحمه الله: «ثياب من نحاس مذاب، وليس من الآنية شيء إذا حمي أشد حرًّا منه، وسُمي باسم الثياب؛ لأنها تحيط بهم كإحاطة الثياب»[١].

وقال القرطبي رحمه الله: «خيطت وسويت، وشبهت النار بالثياب؛ لأنها لباس لهم كالثياب»[٢].

وأخبر الحق تبارك وتعالى أنه قد أعد للمجرمين الخارجين عن طاعته ثيابًا من قطران شديد الاشتعال، فيجتمع لهم من كل جهة لذع القطران وحرقته وسرعة اشتعال النار فيه، قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٤٩، ٥٠]، قال البغوي رحمه الله: «﴿سَرَابِيلُهُم﴾، أي: قمصهم، واحده سربال، ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ هو الذي تهنأ به الإبل»[٣].

وقال القرطبي رحمه الله: «وذلك أبلغ لاشتعال النار فيهم»[٤].

هذا جملة ما يمكن ذكره من عقوبات أهل البعد عن الله تعالى يوم الحشر،

---

(١) معالم التنزيل (٥/٣٧٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٢/٢٦).

(٣) معالم التنزيل (٤/٣٦٣).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٩/٣٨٥).

فمن أراد النجاة من العقاب، اتخذ لذلك الأسباب، من إيمان بالله ورسوله، واتباع أمر الله ونهيه الذي جاء في كتابه وسُنة رسوله ﷺ، والتقرُّب إلى الله تعالى بصالح الأعمال، ومَن عطل فضائل الأعمال التي جعلها الله سببًا للقرب منه، وتمادى في غيِّه وضلاله وبُعده عن الله، فيخشى عليه من العقوبة إن كان مؤمنًا، وهو معاقَب لا محالة إن كان كافرًا.

الفصل الرابع

القرب من أصناف الخلق
وأثره على القرب من الله

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: القرب من خيار الخلق «أهميته وأسبابه وثمراته».

المبحث الثاني: القرب من القرابات الخاصة «أهميته وأسبابه وثمراته».

المبحث الثالث: القرب من شرار الخلق «خطورته وأسبابه وعاقبته».

تمهيد

يُعدُّ القرب من أصناف الخلق ذا أثر بالغ الأهمية على قضية القرب من الله تعالى، ويختلف هذا الأثر باختلاف طبيعة الطرف الآخر، ونوع العلاقة الإنسانية، أو الروابط البشرية التي تربط بين الطرفين.

فتارة يرتفع مقام العبد ويستقيم أمره ويزداد قربه من الله تعالى بقربه من أرحامه وجيرانه وخيار الخلق الذين يقتدى بهم، وينتفع بطيب ثمار ملازمتهم ومحبتهم.

وتارة أخرى ينطفئ نور الإيمان في قلب العبد، وتسقط نفسه، ببعده عن الأقارب والأرحام والجيران، وقربه من شرار الخلق.

وهذا كله يقتضي تفصيل القول في قضية قرب العبد من أصناف الخلق، ببيان الآثار الحسنة المتعلقة بالقرب من صنف الأخيار حتى تتبع، وبيان الآثار السيئة المتعلقة بشرار الخلق حتى تجتنب، وبيان ما يتعلق بمعاني القرب من الأرحام والجيران والأصحاب.

وهو ما سيناقشه الباحث في هذا الفصل بإذن الله تعالى.

المبحث الأول:

القرب من خيار الخلق «أهميته وأسبابه وثمراته»

- **المطلب الأول**: القرب من الملائكة «أهميته وأسبابه وثمراته»
- **المطلب الثاني**: القرب من الأنبياء والرسل «أهميته وأسبابه وثمراته»
- **المطلب الثالث**: القرب من الأولياء الصالحين «أهميته وأسبابه وثمراته»
- **المطلب الرابع**: موانع القرب من خيار الخلق وعاقبة ذلك

المطلب الأول:

القرب من الملائكة «أهميته وأسبابه وثمراته»

يتوجَّه مفهوم قرب العبد من الملائكة إلى الإيمان بهم وبما جاء من صفاتهم ووظائفهم، ومحبتهم وموالاتهم، واجتناب أذيتهم، والاقتداء بهم في طاعتهم وعبادتهم بحسب الطاقة والجهد، وملازمة الأعمال التي تقتضي حضورهم واجتماعهم واستغفارهم.

أهمية القرب من الملائكة:

يعتبر القرب من الملائكة ذا أهمية بالغة وأثر عظيم على قضية القرب من الله تعالى، وذلك للأسباب التالية:

١- كونهم طائفة كريمة جعل الله تعالى الإيمان بها أصلًا من أصول الإيمان بالله، وقربة عظيمة إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]، قال ابن كثير رحمه الله: «اشتملت هذه الآية الكريمة على جمل عظيمة، وقواعد عميمة، وعقيدة مستقيمة»[١].

وقال الزحيلي رحمه الله: «والإيمان بالملائكة على أنهم أجسام نورانية، لهم مهام عديدة، دأبهم الطاعة، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، منهم حمَلة الوحي، ومنهم الموكَّل بالجنة أو بالنار، ومنهم الموكَّل بالرياح والأمطار، ومنهم سَدَنة العرش، ومنهم مَن يقبض الأرواح، والإيمان بهم أصل للإيمان بالوحي والنبوة واليوم الآخر»[٢].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٨٥).

(٢) التفسير المنير (٢/ ٤٦٠).

وفي حديث جبريل عليه السلام، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال ﷺ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»، قال: صدقت[1].

والحاصل مما سبق أن الإيمان بالملائكة لازم من لوازم القرب من الله، وذلك لأنه ركن من أركان الإيمان بالله تعالى الذي هو أصل القرب من الله وسببه الأعظم.

٢- كونهم قدوة صالحة حسنة، رغَّب الله تعالى المؤمنين وحثَّهم على الاقتداء بهم في عبادتهم وأدبهم وكريم أخلاقهم لمَن أراد الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا** ﴾ [الأحزاب:٥٦]، فكأن الله تعالى يدعو عباده إلى الصلاة على رسول الله ﷺ، كما يصلِّي الله وملائكته عليه، قال السعدي رحمه الله، في معنى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا** ﴾: «اقتداء بالله وملائكته، وجزاء له على بعض حقوقه عليكم، وتكميلًا لإيمانكم، وتعظيمًا له ﷺ، ومحبةً وإكرامًا، وزيادةً في حسناتكم، وتكفيرًا من سيئاتكم»[2].

كما رغَّب رسول الله ﷺ في الاقتداء بهم في عبادتهم واصطفافهم عند ربهم، قال ﷺ: «**أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟**»[3].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «الخلق بحاجة إلى القدوة الحسنة، ممَّن كمّلهم الله بالأخلاق الفاضلة، وعصمهم من الشُّبهات والشهوات النازلة»[4].

---

(١) سبق تخريجه، ص ٦١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٦٧١.

(٣) سبق تخريجه، ص ٢١٩.

(٤) النبوات (١/ ٢٤).

فهذا الترغيب الإلهي والنبوي يجعل القرب منهم بالاقتداء بهم في الطاعة والأدب وكريم الخصال أمرًا مهمًّا يرفع درجة العبد ويُعلي منزلته.

٣- القرب من الملائكة ذو أهمية بالغة وعناية فائقة؛ لأنهم عباد كرام على الله، قال تعالى عنهم: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٥،١٦]، قال السمعاني رحمه الله: «فقوله: ﴿كِرَامٍ﴾ صفة الملائكة، أي: كرام على الله، وقوله: ﴿بَرَرَةٍ﴾، أي: مطيعين»[(١)].

وقال البيضاوي رحمه الله: « ﴿كِرَامٍ﴾: أعزَّاء على الله أو متعطفين على المؤمنين يكلمونهم ويستغفرون لهم، ﴿بَرَرَةٍ﴾: أتقياء»[(٢)].

فإذا اقترب المؤمن من أهل العزَّة والكرامة الذين أحبَّهم الله تعالى وقرَّبهم وأثنى عليهم، ازداد شرفًا وفخرًا وأخلاقًا فاضلة؛ لأن القرب من الكرام كرامة في الدنيا ومغنم في الآخرة.

٤- القرب من الملائكة له أثر عظيم على طمأنينة قلب المؤمن وسروره وارتياحه، فإن العبد المؤمن إذا استشعر تلك المخلوقات العظيمة التي تشاركه الطاعة وتحضر معه مجالس الخير وتدعو له وتصلي عليه، زادت راحة نفسه وسكينتها، ولذلك وصف الله تعالى ليلة القدر التي يكثر فيها نزول ملائكة السماء إلى الأرض بأنها ليلة سالمة تطمئن فيها قلوب العباد بنزول الملائكة الكرام، قال تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر: ٣ - ٥]، قال مجاهد رحمه الله: «هي سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءًا، ولا يُحدث فيها أذى»[(٣)].

(١) تفسير القرآن للسمعاني (٦/١٥٨).

(٢) أنوار التنزيل (٥/٢٨٧).

(٣) روائع التفسير (٢/٦١٧).

وقال عطاء رحمه الله [١]: «يريد: سلام على أولياء الله وأهل طاعته» [٢].

وقال الشعبي رحمه الله [٣]: «هو تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر» [٤].

وقال ابن جرير رحمه الله: «سلام ليلة القدر من الشر كله، من أولها إلى طلوع الفجر من ليلتها» [٥].

هذه أهم الأسباب التي تُعين العبد المؤمن على القرب من الملائكة، فحري بمَن أراد القرب من الله تعالى أن يعتني بها، وأن يبذل كل ما في وسعه لأجلها، كيف لا وهم أهل الطاعة والكرامة، وأهل الخير العظيم للعباد والبلاد!

أسباب القرب من الملائكة:

لما كان القرب من الملائكة أمرًا مهمًّا ذا أثر على قضية القرب من الله، كان من الضروري إبراز أهم الوسائل والأسباب التي تُعين العبد عليه، وهي كما يلي:

١- الإرادة الجازمة والعزيمة الصادقة على التقرب من الله:

فإن الإرادة والعزيمة على القرب من الله تعالى، ورجاء محبته ورضوانه، حافز

---

(١) أبو محمد، عطاء بن أبي رباح أسلم المكي القرشي مولاهم، الإمام، شيخ الإسلام، مفتي الحرم، كان عالمًا بالقرآن ومعانيه، فقيهًا، كثير الحديث، توفي سنة خمس عشرة ومئة. ينظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٧٨)، طبقات المفسرين للأدنه وي، ص ١٤.

(٢) معالم التنزيل (٨/ ٤٩١).

(٣) أبو عمرو، عامر بن شراحيل الشعبي الكوفي، سمع من كبار الصحابة، وكان إمامًا، حافظًا، فقيهًا، متفننًا، ثبتًا، متقنًا، روي عنه أنه كان يقول: ما كتبت سوداء في بيضاء، مات سنة أربع ومائة. ينظر: تهذيب الكمال (١٤/ ٢٨)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٩٤)، تذكرة الحفاظ (١/ ٦٣).

(٤) معالم التنزيل (٨/ ٤٩١).

(٥) جامع البيان (٢٤/ ٥٤٨).

يدفع العبد إلى أن يضرب له في كل مسلك فيه مرضات الله بسهم، وذلك تحقيقًا لقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]، قال ابن عاشور رحمه الله: «ذلك أن شأن الأسباب أن تحصل عندها مسبَّباتها»[(١)].

فمن كان ذا همَّة عالية، وعزيمة صادقة، وحرص شديد على الفوز يوم القيامة، سلك الأسباب التي تحقق له السعادة في الآخرة، وتحرَّى الوسائل التي تضمن له -بإذن الله- بلوغ منازل المقرَّبين.

٢- الإيمان بهم ومحبتهم وموالاتهم:

فهذا منهج أهل الطاعة والإيمان، وطريقة خيار الأمة أهل الفضل والإحسان، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، قال مقاتل بن حيان[(٢)]: «هذا قول قاله الله، وقول النبي ﷺ، وقول المؤمنين، فأثنى الله عليهم لما علم من إيمانهم بالله وملائكته وكتبه ورسله»[(٣)].

فضلًا عن أن الإيمان بالملائكة صفة من صفات أهل التقوى الذين يهتدون بآيات الكتاب وينتفعون بمواعظه، ويحبون أهل الطاعة مِن خَلقه، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ١ - ٣]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الغيب: كل ما أمرت

---

(١) التحرير والتنوير (١٣/ ٢٢).

(٢) أبو بسطام، مقاتل بن حيان النبطي البلخي، كان من العلماء العاملين، ذا نسك وفضل، صاحب سُنة، مات في حدود الخمسين ومائة. ينظر: سير أعلام النبلاء (٦/ ٣٤٠)، طبقات المفسرين للداودي (٢/ ٣٣٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٢/ ٥٧٦).

بالإيمان به مما غاب عن بصرك، وذلك مثل الملائكة، والجنة، والنار، والصراط، والميزان، ونحوها»[(١)].

فمَن آمَن بهم وأحبَّهم وتولَّاهم واقترب منهم أظهره الله تعالى وحفظه بهم، وجعلهم أعوانًا له، ينصرونه على مَن ناوأه وعاداه.

٣- الاقتداء بهم في أقوالهم وأفعالهم:

يعتبر الاقتداء بالملائكة في هديهم وطاعاتهم وحيائهم وحسن نظامهم، والتزام طريقتهم في الأدب مع الله تعالى والخوف والخشية منه، سببًا عظيمًا للقرب منهم والمحبَّة لهم، ولأجل ذلك أخبر الله في كتابه الكريم بجميل صفاتهم، فهم كما نعتهم الله تعالى: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦]، ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٧]، فكأن الله تعالى يرشد عباده حين يذكر صفات الملائكة ويثني عليهم بها إلى التأسِّي بأقوالهم وأفعالهم، قال ابن عاشور ﵀، في قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ [الأحزاب: ٥٦]: «مشير إلى التحريض على الاقتداء بشأن الله وملائكته»[(٢)].

وقد فعل ذلك رسول الله ﷺ، وهو قدوتنا وإمامنا، كما دلَّ على ذلك قوله عن عثمان ﵁: «**أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ**»[(٣)]، فإذا كان هذا فعل رسول ﷺ، وهو إمام المتقين، فأَولى بالأُمَّة من بعده أن تهتدي بهديه وتستنَّ بسُنته.

---

(١) تفسير القرآن للسمعاني (١/٤٣).

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/١٠٣).

(٣) سبق تخريجه، ص ١٩٩.

٤- مداومة ذكر الله تعالى:

إذا داوم العبد المؤمن على ذكر الله تعالى، وبذل الجهد في تمام العبادات والطاعات، كان ذلك أدعى للقرب من الملائكة الكرام، هذا يفهم من قول رسول الله ﷺ للصحابي الجليل حنظلة[1] رضي الله عنه: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ**»[2].

كما يفهم ذلك من قصة أُسَيد بن حضير[3] رضي الله عنه، التي حصلت له حينما كان يقرأ القرآن، قال رضي الله عنه: بينما هو يقرأ من الليل سورة (البقرة) وفرسه مربوط عنده، إذ جالت الفرس، فسكت، فسكتت، فقرأ، فجالت الفرس، فسكت، وسكتت الفرس، ثم قرأ فجالت الفرس، فانصرف، وكان ابنه قريبًا منها، فأشفق أن تصيبه، فلما اجتره، رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها، فلما أصبح حدَّث النبي ﷺ، فقال: اقرأ يا ابن حضير، اقرأ يا ابن حضير، قال: فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى، وكان منها قريبًا، فرفعت رأسي، فانصرفت إليه، فرفعت رأسي إلى السماء، فإذا مثل الظلة، فيها أمثال المصابيح، فخَرَجت حتى لا أراها، قال: «**وتدري ما ذاك؟**»، قال: لا، قال: «**تِلْكَ المَلَائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لاَ تَتَوَارَى[4] مِنْهُمْ**»[5].

---

(١) الصحابي الجليل، أبو ربعي، حنظلة بن الربيع بن صيفي رضي الله عنه، روى عن النبي ﷺ، وكان من كتّابه، أرسله إلى أهل الطائف، مات في خلافة معاوية. ينظر: أسد الغابة (٢/ ٨٤)، الإصابة (٢/ ١١٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب التوبة، باب فضل الذكر والفكر في أمور الآخرة... (٤/ ٢١٠٦)، رقم ١٢.

(٣) الصحابي الجليل، أبو يحيى، أسيد بن حضير بن سماك الأنصاري الأوسي الأشهلي رضي الله عنه، أسلم على يد مصعب بن عمير رضي الله عنه، وهو من النقباء ليلة العقبة، جرح سبع جراحات مع رسول الله ﷺ، حين انكشف الناس يوم أُحد، كان أبو بكر رضي الله عنه يكرمه ولا يقدم عليه واحدًا، مات سنة عشرين. ينظر: الاستيعاب (١/ ٩٢)، أسد الغابة (١/ ٢٤٠).

(٤) لا تتوارى منهم: لا تستتر من الناس. ينظر: عمدة القاري (٢٠/ ٣٦).

(٥) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن (٦/ ١٩٠)، رقم ٥٠١٨.

ففي هذين الحديثين الشريفين دلالة بيِّنة على أن العبد المؤمن إذا أكثر من ذكر الله وقراءة القرآن، لا سيما في جوف الليل، فإنما يستحضر بذلك الملائكة الكرام لشهود مجلسه العامر بذكر الله تعالى.

٥- شهود الجُمع والجماعات:

فهي محضر الملائكة ومكان استقرارها، فيها تجتمع أرواح المؤمنين بأنوار الملائكة المقرَّبين، قال تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴾ [الإسراء: ٧٨]، يعني ما يقرأ في صلاة الفجر من قرآن، تشهده ملائكة الليل والنهار(١)، قال الرسول الله ﷺ: «**وَتَجْتَمِعُ مَلَائِكَةُ اللَّيْلِ وَمَلَائِكَةُ النَّهَارِ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ**»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ وَقَفَتِ الْمَلَائِكَةُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ يَكْتُبُونَ الأَوَّلَ فَالأَوَّلَ، وَمَثَلُ الْمُهَجِّرِ كَمَثَلِ الَّذِي يُهْدِي بَدَنَةً، ثُمَّ كَالَّذِي يُهْدِي بَقَرَةً، ثُمَّ كَبْشًا، ثُمَّ دَجَاجَةً، ثُمَّ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الإِمَامُ طَوَوْا صُحُفَهُمْ، وَيَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ**»(٣).

فالأولى بالمؤمن أن يسابق إلى المجامع التي تحفها الملائكة، وأن يحرص على شهود الطاعات التي تحضر إليها، مع الاهتمام بتمام تلك الطاعات وإحسانها.

٦- المواظبة على القربات التي تصلي الملائكة على أهلها:

فقد جاءت الأدلة الصحيحة التي تخبر بدعاء الملائكة واستغفارها لأهل

---

(١) ينظر: جامع البيان (١٥/٣٣).

(٢) رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴾ (٦/٨٦)، رقم ٤٧١٧، ورواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة...، (١/٤٥٠)، رقم ٢٤٦.

(٣) رواه البخاري، كتاب الجمعة، باب الاستماع إلى الخطبة (٢/١١)، رقم ٩٢٩.

بعض الأعمال الفاضلة التي يحبها الله ورسوله، كملازمة المساجد بعد أداء الصلوات(١)، والدعاء للإخوة بظهر الغيب(٢)، والإنفاق (٣)، وغيرها من القربات التي يحبها الله وتحبها ملائكته الكرام، وتصلي على أهلها، وتدعو لهم.

٧- تجنُّب ما يؤذيهم ويمنع من حضورهم:

تتأذَّى الملائكة الكرام مما يتأذَّى منه بنو آدم، وأعظم ما يؤذيهم ويمنع حضورهم الذنوب والمعاصي وارتكاب المحرمات، عن أبي طلحة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ**»(٤).

قال النووي رحمه الله: «والأظهر أنه عام في كل كلب وكل صورة، وأنهم يمتنعون من الجميع لإطلاق الأحاديث، ولأن الجرو الذي كان في بيت النبي صلى الله عليه وسلم تحت السرير كان له فيه عذر ظاهر، فإنه لم يعلم به، ومع هذا امتنع جبريل صلى الله عليه وسلم من دخول البيت وعلل بالجرو، فلو كان العذر في وجود الصورة والكلب لا يمنعهم لم يمتنع جبريل عليه السلام، والله أعلم»(٥).

وتتأذَّى كذلك من الروائح الكريهة التي يتأذَّى منها المسلمون في مجالسهم ومجامع عبادتهم، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «**مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الْبَقْلَةِ، الثُّومِ، وقَالَ مَرَّةً: مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكُرَّاثَ فَلَا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا،**

---

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة (١/٤٥٩)، رقم ٢٧٢.

(٢) رواه مسلم من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب (٤/٢٠٩٤)، رقم ٨٦.

(٣) سبق تخريجه، ص ١٥٢.

(٤) سبق تخريجه، ص ٢٢٠.

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي (١٤/١١٨).

فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ»[(١)].

فبهذه الوسائل والأسباب يحصل للعبد القرب من الملائكة الكرام، وبقربه من هذه المخلوقات الطاهرة، يتحقق له القرب من الله تعالى، ويفوز بكرامات الله التي وعد بها أولياءه المؤمنين الراجين بلوغَ أعلى المنازل وأرقى الدرجات.

ثمرات القرب من الملائكة:

للقرب من الملائكة الكرام منافع عظيمة وفوائد جليلة، يظفر بها كل مَن طرق أسباب القرب منهم، وجاهد نفسه على الاقتداء بأفعالهم والتأدُّب بأخلاقهم، يُذكر منها ما يلي:

١- تعظيم الله تعالى:

إن من أعظم ثمار القرب من الملائكة ذلك الفيض الإيماني العظيم الذي يملأ قلب المؤمن تعظيمًا وإجلالًا لله تعالى، الذي خلق تلك المخلوقات العظيمة بكثرة عددها وقوة بأسها وتعاقبها في الأرض دونما يشعر بها أحد، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: ٦]، قال البيضاوي رحمه الله: «﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ تلي أمرها، وهم الزبانية، غلاظ الأقوال، شداد الأفعال، أو غلاظ الخُلق، شداد الخَلق، أقوياء على الأفعال الشديدة»[(٢)].

وقال ابن كثير رحمه الله: «طباعهم غليظة، قد نزعت مِن قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله، ﴿شِدَادٌ﴾، أي: تركيبهم في غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج»[(٣)].

---

(١) سبق تخريجه، ص ٢١٥.

(٢) أنوار التنزيل (٥/٢٢٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/١٦٨).

وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١]، أي: لهم أجنحة يطيرون بها؛ ليبلِّغوا ما أمروا به سريعًا، منهم مَن له جناحان، ومنهم مَن له ثلاثة، ومنهم مَن له أربعة، ومنهم مَن له أكثر من ذلك، كما جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ رأى جبريل(١) عليه السلام، ليلة الإسراء، وله ستمائة جناح(٢).

والعبد المؤمن إذا استحضر عظمة ملَك واحد من حمَلة العرش الذين حدَّث عنهم رسول الله ﷺ بقوله: «**أُذِنَ لي أن أُحدِّثَ عن مَلَكٍ مِنْ ملائكةِ الله من حَمَلة العرش: إن ما بين شَحمةِ أذُنِه إلى عاتِقِه مَسيرةُ سبع مئةِ عام**»(٣)، توطنت في قلبه عظمة الله تعالى وجلالته، وحدَّث نفسه قائلًا وواعظًا: إذا كانت هذه عظمة ملَك واحد من حمَلة العرش، فكيف بالعرش؟ وكيف بمَن فوق العرش جلَّ جلاله وتقدَّست أسماؤه؟ وهذه ثمرة عظيمة من ثمار القرب من الملائكة.

٢- خروج العبد من ظلمات الكفر إلى نور الهداية والإيمان:

وهذه نعمة عظيمة تستحق الشكر لله بالطاعة والإنابة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، قال البغوي رحمه الله: «يعني: أنه برحمته وهدايته ودعاء الملائكة لكم، أخرجكم من ظلمة الكفر إلى النور»(٤).

---

(١) رواه البخاري من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، كتاب التفسير، باب ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ (٦/ ١٤١)، رقم ٤٨٥٧، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب في ذكر سدرة المنتهى، (١/ ١٥٨)، رقم ٢٨٠.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٦/ ٥٣٢).

(٣) رواه أبو داود من حديث جابر رضي الله عنه، كتاب السنة، باب في الجهمية (٧/ ١٠٩)، رقم ٤٧٢٧، قال الحافظ ابن حجر في الفتح: إسناده على شرط الصحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: فتح الباري (٨/ ٦٦٥)، صحيح الجامع (١/ ٢٠٩)، رقم ٨٥٤.

(٤) معالم التنزيل (٦/ ٣٦٠).

وقال ابن كثير رحمه الله: «بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم، ودعاء ملائكته لكم، يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين»(١).

فسبحان مَن سخَّر هذه المخلوقات الكريمة العظيمة للصلاة على العباد، والاستغفار لهم، وسؤال الله تعالى لهم دخول الجنة والنجاة من النار.

٣- طمأنينة النفس وسكونها:

إذا استحضر العبد المؤمن قرب الملائكة منه، وحفظها له، ورعايتها لشؤونه، ارتوت نفسه بماء السكينة والطمأنينة، قال تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١]، قال ابن كثير رحمه الله: «للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل، وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار»(٢).

فكم من شر صرفوه عنه وحفظوه منه بأمر الله، وكم من ذنب استغفروا الله له منه، فما أعظم رحمة الله تعالى بعباده ولطفه بهم!

٤- القرب من الله تعالى والاستقامة على طريق أهل الطاعة:

إذا أدرك العبد المؤمن أن الله قد أوكل به حافظًا من الملائكة الكرام يلازمه ويكتب قوله وفعله، ولا يفوته شيء من عمله، كان ذلك أدعى لئلا يملأ صحائف أعماله إلا بالطاعات، ويحذر الوقوع في المعاصي والمنكرات، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٌ ﴾ [الطارق: ٤]، قال الواحدي رحمه الله: «أقسم الله تعالى بما ذكر، أنه ما من نفس إلا عليها حافظ من الملائكة، يحفظ عملها، وقولها، وفعلها، ويحصي ما

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/٤٣٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/٤٣٧).

تكتسب من خير أو شر»(١).

فالواجب على مَن يرجو القرب من الله تعالى، والفوز برضوانه، أن يذكِّر نفسه كل ما غفلت حضور الحافظ، وأن يعظها وينذرها شر المكتوب، وأن يأطرها على فعل الخيرات، ويردعها عن ارتكاب المحظورات، فإن فعل ذلك قرَّبه الله تعالى وأحبَّه وأرضاه.

٥- التواضع ودفع الغرور عن النفس، والحذر من أمراض العجب والرياء:

هذه ثمرة عظيمة من ثمار القرب من الملائكة تظهر من قول الله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، قال ابن كثير رحمه الله: «أي: مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه، لا يتأخرون عنه طرفة عين، وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه»(٢).

فالعاقل إذا تأمَّل سرعة استجابة تلك المخلوقات العظيمة بما وهبها الله من صفات خَلقية وخُلقية من غير استنكاف أو أنفة عن طاعة الله تعالى في عبادة أو وظيفة، تواضَع لله تعالى ولم يستكثر عمله، ولم يعترِه العجبُ والرياء.

وكيف يليق بعبد فقير إلى الله أن يعجبه عمله أو يستكثر طاعته، إذا علم أن لله خلقًا يسبحون له بالليل والنهار ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]، ثم إذا كان يوم القيامة، استحقروا ما قدَّموا، واعترفوا بالتقصير في شكر الله وطاعته، فلم يجدوا حينئذ إلا أن يعتذروا بقولهم: «سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ»(٣).

---

(١) الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٤/ ٤٦٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٦٨).

(٣) رواه الحاكم في المستدرك من حديث سلمان رضي الله عنه، كتاب الأهوال (٤/ ٦٢٩)، رقم ٨٧٣٩، قال الحاكم: =

٦- الشهادة للعبد عند الله تعالى:

تشهد الملائكة الكرام لأهل القرب منهم والمحبة لهم عند الله تعالى يوم القيامة، فيسعد أهل الطاعة والقرب بشهادتهم على صالح الأعمال، ويفرحون بها عند الله يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ [ق: ٢١]، قال عثمان رضي الله عنه: «سائق يسوقها إلى أمر الله، وشاهد يشهد عليها بما عملت»(١).

ويعضد هذا المعنى ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: **«يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاةِ الفَجْرِ وَصَلاةِ العَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟ فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»**(٢).

فهم عليهم السلام يشهدون للمؤمنين بالليل والنهار، ويشهدون لهم كذلك يوم تشخص الأبصار، فالواجب على العبد المؤمن إذا تبيَّنت له هذه الثمرة أن يحرص على تكثير الشهداء الذين يشهدون له عند الله تعالى بكرةً وعشيًّا، فيواظب على حضور الجُمع والجماعات، ويروض نفسه على زيادة القُرَب والطاعات.

٧- الشفاعة للمؤمنين يوم القيامة:

أخبر القرآن الكريم بشفاعة الملائكة بإذن الله تعالى يوم القيامة لمن يرضى عنه

=هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وله شاهد عند الطبراني في الأوسط، من حديث جابر رضي الله عنه، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: فيه عروة بن مروان، قال عنه الدارقطني: ليس بقوي في الحديث، وبقية رجاله رجال الصحيح، وحديث الحاكم صححه الألباني في السلسلة الصحيحة. ينظر: مجمع الزوائد (١٠/٣٥٨)، سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/٦١٩)، رقم ٩٤١.

(١) تفسير عبد الرزاق (٣/٢٣٠).

(٢) رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل صلاة العصر (١/١١٥)، رقم ٥٥٥، ورواه مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاتي الصبح والعصر...، (١/٤٣٩)، رقم ٢١٠.

من الخلق، وأهل القرب من الملائكة بالمحبة والاقتداء أولى الناس بتلك الشفاعة، قال تعالى: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٦]، والمعنى أنهم لا يملكون الشفاعة لأحد حتى يأذن الله بذلك ويرضاه[(١)].

بل إن دعاءهم للمؤمنين حال تسبيحهم أن يغفر لهم، ويقيهم سيئات أعمالهم، ويدخلهم دار كرامته، هم ومَن صلح من آبائهم وأولادهم وزوجاتهم، هو في واقع الحال استشفاع من الملائكة الكرام للعبد المؤمن عند الله، وهذا دليل على رغبتهم العظيمة في نجاة المؤمنين وسلامتهم من العذاب.

٨- دعاؤهم للعبد بظهر الغيب:

يفوز أهل القرب من الملائكة الكرام بدعائهم لهم بظهر الغيب، وسؤال الله تعالى له المغفرة والفوز بالجنة والنجاة من النار، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]، قال ابن كثير رحمه الله: «فقيَّض الله سبحانه ملائكته المقرَّبين أن يدعوا للمؤمنين بظهر الغيب»[(٢)].

ولولا أن هذا الدعاء الصادر منهم عند الله بمكان، ما كان الله تعالى ليذكره ويخبر به عباده المؤمنين في مقام ثنائه عليهم ومدحه لهم بأجلِّ صفاتهم.

٩- الفوز ببشارتهم وتأمينهم من الخوف والفزع، وتسليمهم عليهم:

تعد بشارة الملائكة وتأمينهم للمؤمنين حال الموت، وتسليمهم عليهم

(١) ينظر: تفسير القرآن للسمعاني (٥/٢٩٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/١٣٠).

وتهنئتهم بدخول الجنة، من أعظم كرامات المؤمنين الذين آمنوا بالله وملائكته، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، قال البيضاوي رحمه الله: «﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فيما يعن لهم بما يشرح صدورهم ويدفع عنهم الخوف والحزن، أو عند الموت أو الخروج من القبر، ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾ ما تقدمون عليه، ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ على ما خلفتم»[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، قال مكي رحمه الله: «أي: أمنة من الله لكم، وقوله: ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾، أي: طابت أعمالكم في الدنيا فطاب اليوم مثواكم»[(٢)].

فإذ استقام العبد المؤمن على أمر الله تعالى بفعل ما أمره الله تعالى به، وترك ما نهاه عنه، كان ذا قرب من الله تعالى، وقرب من ملائكته الكرام، وحظي منهم بالبشارة والتحية والسلام، جزاء طاعته واستقامته.

١٠- الفوز برضاهم ومحبتهم:

إذا تشبَّه العبد المؤمن بالملائكة الكرام في الإكثار من الطاعات والتقرب إلى الله بالنوافل بعد الواجبات، أحبَّه الله تعالى وأحبَّته الملائكة، قال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ عليه السلام: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ عليه السلام، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ عليه السلام فِي السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ،**

---

(١) أنوار التنزيل (٥/ ٧١).

(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية (١٠/ ٦٣٩٠).

فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَيُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ»(١).

وعلى ذلك، فإن الواجب على العبد المؤمن الذي يحمل في قلبه همَّ القرب من الله تعالى في الدنيا والآخرة، أن يتخذ من الملائكة قدوة صالحة له، فيجتهد في طاعة ربه والقرب منه، حتى يحبه الله تعالى وتحبه ملائكة السماء، فإنهم إذا أحبوه زادت شفقتهم عليه، وزاد دعاؤهم له، قال السعدي رحمه الله: «فمن محبة الملائكة لهم دعوا الله، واجتهدوا في صلاح أحوالهم؛ لأن الدعاء للشخص من أدل الدلائل على محبته؛ لأنه لا يدعو إلا لمَن يحبه»(٢).

---

(١) سبق تخريجه، ص ١٠١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٧٣٣.

المطلب الثاني:

القرب من الأنبياء والرسل «أهميته وأسبابه وثمراته»

إن من رحمة الله تعالى بعباده أن بعث فيهم أنبياء ورسلًا من أنفسهم يتلون عليهم آيات الله، ويعلمونهم الكتاب والحكمة؛ ليخرجوهم من ظلمات الجهل والكفر إلى نور الهداية والإيمان، فمَن تمسَّك بما جاءوا به من النور والهدى، كان اتصاله وقربه منهم سبيلًا إلى القرب الأعظم من الله تعالى، ومَن فارق هديهم وأعرض عن منهجهم، ضل الطريق وحاد عن السبيل.

وسوف يستعرض الباحث في هذا المطلب قضية الاتصال والقرب من الأنبياء والرسل، ويوليها مزيد عناية واهتمام، مفتتحًا الحديث بمعنى القرب من الأنبياء والرسل، الذي يتبيَّن من خلال التقسيم التالي:

١- قرب معنوي دنيوي:

يتمثل في الإيمان بالرسل، وتصديقهم، وطاعتهم، واتباعهم، ونصرهم، ومحبتهم.

٢- قرب حسي أخروي:

متفرع عن القرب المعنوي الدنيوي، ومترتب عليه، ويراد به قرب المنزلة من الأنبياء والرسل في الحياة الآخرة.

أهمية القرب من الأنبياء والرسل:

حينما يستحضر العبد المؤمن معاني القرب من الأنبياء والرسل يتبيَّن له شأنه العظيم، وتتجلى أمامه أهميته التي تبعث حماسًا في النفوس المؤمنة للمسابقة والمثابرة إلى القرب منهم، وتبرز أهمية القرب من الأنبياء والرسل من خلال الأمور التالية:

١- يعدُّ القرب من الأنبياء والرسل إيمانًا بهم وتصديقًا لهم، وهذا فرع من فروع الإيمان بالله تعالى الذي هو أصل القرب من الله تعالى، قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٨٥]، قال السمرقندي رحمه الله: «يقولون آمنَّا بجميع الرسل ولا نكفر بواحد منهم، ولا نفرق بينهم كما فرَّقت اليهود والنصارى»(١).

وقال رسول الله ﷺ، حين سُئل عن الإيمان بالله: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»، قَالَ: صَدَقْتَ (٢).

وعلى ذلك، فإنَّ قرب العبد من الأنبياء والرسل لازم من لوازم إيمانه بالله تعالى، ومطلب لن ينال العبد منازل القرب من الله تعالى إلا بتحقيقه.

٢- حاجة العبد الضرورية للقرب من الأنبياء والرسل واتباع سُنَّتهم واقتفاء سيرتهم، فهم نجوم الهدى، ومصابيح الدجى، يُخرج الله بهم الناس من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ ﴾ [النور: ٥٤]، قال القرطبي رحمه الله: «جعل الاهتداء مقرونًا بطاعته»(٣).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «والرسالة ضرورية للعباد، لا بدّ لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كلّ شيء، والرسالة روح العالم، ونوره، وحياته، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور، والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تُشرق في قلبه شمس الرسالة، ويناله من حياتها وروحها، فهو في ظلمة، وهو من الأموات»(٤).

---

(١) بحر العلوم (١/٢٤٠).

(٢) سبق تخريجه، ص ٦١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٢/٢٩٦).

(٤) النبوات (١/٢٥).

ومَن ينظر في حال العرب قبل بعثة محمد ﷺ، وما كانوا فيه من جهل وفقر وضلال، ثم يتأمَّل حالهم بعد أن منَّ الله عليهم باتباع الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ، يتبيَّن له الأثر الإيجابي الذي يُحدثه التقرب إلى الرسل بطاعتهم واتباع سُنَّتهم في حياة الناس.

٣- الأنبياء والرسل هم أفضل الخلق باتفاق المسلمين[(١)]، وأحبهم إلى الله، وأقربهم منزلة، ومن هذه الأفضلية المطلقة يستمد المؤمنون بهم والمتبعون لهم أفضليتهم وخيريتهم على سائر الأمم في الدنيا والآخرة.

قال تعالى عن بني اسرائيل الذين آمنوا بالله واتبعوا رسله: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الجاثية: ١٦]، قال ابن كثير: «والمقصود: أنهم كانوا أفضل أهل زمانهم»[(٢)].

وقال ﷻ عن أمة محمد ﷺ: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران:١١٠]، قال أُبَيُّ بن كعب رضي الله عنه: «لم تكن أمة أكثر استجابة في الإسلام من هذه الأمة فمن ثَمَّ قال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾»[(٣)].

٤- القرب من الأنبياء والرسل بالطاعة والمحبة والاقتداء في الحياة الدنيا سبيل للقرب منهم يوم القيامة في المنزلة والمعيّة، وهذا مطلب عظيم تهفو إليه قلوب المؤمنين، ويطمع فيه جملة الموحدين، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ

---

(١) ينظر: دقائق التفسير (١١٦/٣)، والمقصود أفضل الخلق من ذرية آدم عليه السلام، وهذا يفهم من قول شيخ الإسلام: «والأنبياء أفضل الخلق باتفاق المسلمين وبعدهم الصديقون والشهداء والصالحون».

(٢) تفسير القرآن العظيم (٧٤/٣).

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٧٣٣/٣).

أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩]، قال ابن جرير رحمه الله: « ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ بالتسليم لأمرهما، وإخلاص الرضا بحكمهما، والانتهاء إلى أمرهما، والانزجار عما نهيا عنه من معصية الله، ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم ﴾ بهدايته والتوفيق لطاعته في الدنيا من أنبيائه، في الآخرة إذا دخل الجنة»(١).

فكلما كان العبد مطيعًا لله ورسوله، كان قربه من الأنبياء والرسل على قدر ما يحمله في قلبه من تعظيم وامتثال لأمر الله وأمر رسوله.

الأسباب الداعية إلى القرب من الأنبياء والرسل عامة:

على ضوء معنى القرب من الأنبياء والرسل الذي ذكره الباحث في بداية هذا المطلب، يمكن إجمال الأسباب العامة التي تُعين العبد على القرب من الأنبياء والرسل فيما يلي:

١- الإيمان بهم وتصديقهم واتباعهم:

هذا يعدُّ من مسلَّمات العقيدة وأركان الدين الصحيح، قال تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦]، فهذه الآية الكريمة قد اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به، ففيها الإيمان بجميع الكتب المنزلة، والإيمان بالأنبياء عمومًا، وخصوصًا ما نصَّت عليه الآية، وذلك لشرفهم وزيادة فضلهم وإتيانهم بالشرائع الكبار، فالواجب في الإيمان بالأنبياء والكتب أن يؤمن بهم على وجه العموم والشمول، ثم ما عرف

---

(١) جامع البيان (٧/ ٢١٠).

منهم بالتفصيل، وجب الإيمان به مفصلًا[(١)]، فإذا حقق العبد المؤمن هذا الإيمان بمقتضياته ولوازمه فُتح له الباب الذي يلج منه إلى كثير من أسباب القرب من أنبياء الله ورسله.

٢- محبتهم الباعثة على طاعتهم:

هذا سبب عظيم من أسباب القرب من الأنبياء والرسل، والتشبه بهم في صفاتهم وأخلاقهم، والفوز بمعيتهم، قال تعالى: ﴿ **وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ** ﴾ [الحشر: ٩]، أي: الأنصار من كرمهم وشرفهم يحبون مَن هاجر إليهم ويواسونهم ويشاركونهم في الأموال والمهن، ولا يجدون في نفوسهم حسدًا مما قدَّم الله به المهاجرين من المنزلة والشرف والمكانة[(٢)]، فإذا كان هذا الحب وهذا البذل والعطاء للمؤمنين من المهاجرين، فكيف بحبهم لرسول الله ﷺ؟ وكيف كان بذلهم ودفاعهم عنه؟ إن هذا الحب العظيم، وهذا البذل الكريم، هو الذي جعل رسول الله ﷺ يختارهم على قومه بعد أن هداهم الله للإيمان، قال ﷺ: «**أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَرْجِعَ النَّاسُ بِالدُّنْيَا، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى بُيُوتِكُمْ**» قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «**لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا، وَسَلَكَتِ الأَنْصَارُ شِعْبًا، لَسَلَكْتُ وَادِيَ الأَنْصَارِ، أَوْ شِعْبَ الأَنْصَارِ**»[(٣)].

ثم اسمع للمكافأة العظيمة والجائزة الكريمة التي وعد بها رسول الله ﷺ كل مَن كان صادقًا في حبه لله ورسوله، قال أنس رضي الله عنه: سأل رجل سَأَلَ النَّبِيَّ

---

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٦٧.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٨/ ٦٩).

(٣) رواه البخاري من حديث أنس رضي الله عنه، كتاب المغازي، باب غزوة الطائف...، (٥/ ١٥٩)، رقم ٤٣٣٤، ورواه مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوي إيمانه (٢/ ٧٣٥)، رقم ١٣٣.

ﷺ عَنِ السَّاعَةِ، فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «**وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا**». قَالَ: لاَ شَيْءَ، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ، فَقَالَ: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**»(١)، قال الطيبي رحمه الله: «أي ملحق بهم وداخل في زمرتهم»(٢).

وهذا الحديث الصحيح الصريح بشرى عظيمة من رسول الله ﷺ لكل مَن يحمل في قلبه محبة صادقة لنبي الله ﷺ، حتى وإن قصر به العمل.

٣- طاعتهم فيما أمروا به، واجتناب ما نهوا وزجروا عنه:

فأمرهم أمر الله، ونهيهم نهيه، وطاعتهم طاعة له، قال تعالى: ﴿**مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا**﴾ [النساء: ٨٠]، قال ابن جرير رحمه الله، في معنى الآية: «مَن يطع منكم، أيها الناس، رسولي محمدًا ﷺ إليكم، فقد أطاعني بطاعته إياه، فاسمعوا قوله، وأطيعوا أمره، فإنه مهما يأمركم به من شيء، فعن أمري يأمركم، وما ينهاكم عنه من شيء، فعن نهيي»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ**»(٤).

فالقرب من الأنبياء والرسل يتعلق وجودًا وعدمًا بهذه الطاعة، ويزيد وينقص بمقدار امتثال العبد للهدي النبوي، فكلما زاد العبد طاعة للرسول اقترب

(١) رواه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي رضي الله عنه (١٢/٥)، رقم ٣٦٨٨، ورواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب، (٢٠٣٢/٤)، رقم ١٦٢.

(٢) الكاشف عن حقائق السنن (٣٢٠١/١٠).

(٣) جامع البيان (٢٤٥/٧).

(٤) رواه البخاري، كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ (٦١/٩)، رقم ٧١٣٧، ورواه مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية...، (١٤٦٦/٣)، رقم ٣٣.

من صفات الأنبياء والرسل، ولا يزال العبد يقترب ويقترب حتى يظفر بمعيّة هؤلاء الأبرار في دار الفوز والكرامة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩].

٤- الاقتداء بهم في سيرتهم وأقوالهم وأفعالهم:

ليس هناك منهج يقتدى ويهتدى به في الأخلاق والعلم والعمل خير من منهج وطريقة أنبياء الله ورسله في السير إلى الله، قال تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، قال ابن جرير رحمه الله: «قد كان لكم أيها المؤمنون قدوة حسنة في إبراهيم عليه السلام، خليل الرحمن، تقتدون به، والذين معه من أنبياء الله»[(١)].

وقال تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزاب: ٢١]، قال الواحدي رحمه الله: «سُنة صالحة واقتداء حسن»[(٢)].

وما فضَّل الله تعالى القرون الأولى[(٣)] من هذه الأمة، وجعلهم خير القرون، إلا لأنهم خير مَن تمسَّك بكتاب الله تعالى، وخير مَن اهتدى بهدي رسوله الله صلى الله عليه وسلم.

٥- نصرتهم والذَّب عنهم وعن أعراضهم وسُنَّتهم:

يعدُّ نصر الأنبياء والرسل والدفاع عنهم مظهرًا إيمانيًّا تحمله القلوب الطاهرة

---

(١) جامع البيان (٢٢/٥٦٦).

(٢) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ص ٨٦٢.

(٣) عن عمران بن حصين رضي الله عنهما، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**، قال عمران: لا أدري أذكر النبي صلى الله عليه وسلم بعد قرنه قرنين، أو ثلاثة»، رواه البخاري، كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد (٣/١٧١)، رقم ٢٦٥١.

الزكية، وهو أحد الأسباب الباعثة على قرب العبد من ربه وأنبيائه ورسله، ما زال أهله هُم أهل التقوى والإيمان، الفائزون بمجامع الخير في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، قال الراغب رحمه الله: «التعزير: النصرة مع التعظيم»(١).

وما زالت قضية نصر الأنبياء عامة ومحمدٍ ﷺ خاصة، وتوقيرهم، والذَّب عن أعراضهم حاضرة دائمة لمن أراد الله ورسوله والدار الآخرة، خاصة في ظل الظروف الحاضرة التي نطق فيها السفهاء، وتطاول فيها الجهلاء على انتقاص رسالة الرسل والقدح فيما جاءوا به من الحق.

أسباب خاصة تقرِّب العبد من رسول الله ﷺ في الآخرة:

عندما خص المولى سبحانه وتعالى هذه الأمة بخصائص لم يخصَّ بها أحدًا من الأمم السابقة، جعل من أبرزها قرب أولياء هذه الأمة وصالحيها من رسولهم ﷺ في دار الكرامة، فشرع الأسباب الباعثة عليه، ويسَّر الأعمال المؤدية إليه، حسب الباحث منها ما يلي:

١- محبة النبي ﷺ:

دلَّ على ذلك حديثُ السائل عن الساعة الآنِف الذكر، فإن قوله ﷺ: «**أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ**»(٢)، يقتضي قرب أصحابه وإخوانه الذين امتلأت قلوبهم بمحبته وآمنوا به ونصروه وعزروه، ولا يلزم من ذلك أن يكونوا معه في نفس الدرجة والمنزلة.

(١) المفردات، ص ٥٦٤.

(٢) سبق تخريجه، ص ٣٧٤.

فليت العبد المؤمن الذي يرجو القرب من رسول الله ﷺ يجبر تفريطه وتقصيره بتربية نفسه على محبة رسول ﷺ، وليت المؤسسات التربوية الإسلامية تدرك أن تربية أبناء الأمة على محبة رسول الله ﷺ، واتباع سُنته، هو الشرف العظيم، والمنهج السديد الذي يصنع أجيالًا تحمل هموم الأمة، وتبني مجدها، وتعيد لها شرفها وسؤددها.

٢- كثرة الصلاة:

لما كان القرب من رسول الله ﷺ أمرًا جللًا يستحق إرهاق النفس وجلدها بالطاعة لله، كان من أعظم أسبابه كثرة السجود بين يدَي الله، كيف لا وهو العمل الذي أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يتخذه وسيلة للقرب منه، قال تعالى: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴾ [العلق: ١٩]، قال القاسمي رحمه الله: «صلِّ لربك وتقرَّب منه بالعبادة، وتحبَّب إليه بالطاعة»(١).

فإذا أكثر المؤمن من التقرب إلى الله بالسجود الذي هو أحد أركان الصلاة، حظي بمعيّة رسول الله ﷺ، الذي قام استجابة لأمر ربه حتى تفطرت قدماه(٢)، يعضُد هذا المعنى وصية رسول الله ﷺ للصحابي الجليل ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه، حينما سأله مرافقته في الجنة، قال رضي الله عنه: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ فَقَالَ لِي: «**سَلْ**» فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ. قَالَ: «**أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ**» قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ. قَالَ: «**فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ**»(٣).

قال النووي رحمه الله: «فيه الحثُّ على كثرة السجود والترغيب، والمراد به السجود

(١) محاسن التأويل (٩/٥١٤).

(٢) سبق تخريجه، ص ٨٢.

(٣) سبق تخريجه، ص ١١٩.

في الصلاة»[١].

فمَن رغب المعيّة والقرب من رسول الله ﷺ لزمته همَّة عالية وعزيمة صادقة تبلغه ذلك المقام، ووجب عليه أن يجاهد نفسه ويحبسها على كثرة الصلاة التي من أعظم لوازمها السجود.

٣- حسن الخُلق:

لا عجب أن تكون الأخلاق الفاضلة والمكارم الأصيلة سببًا من أسباب القرب من الأنبياء والرسل كافة، ومن رسول الله ﷺ خاصة، فهو صاحبها وإمامها، قال عنه ربه تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، قال مكي: «أي: لعلى أدب عظيم، وذلك أدب القرآن الذي أدَّبه الله به، وهو الإسلام وشرائعه»[٢]، فبهذه الأخلاق العظيمة خضعت له ﷺ قلوب العرب والعجم، وبهذه الأخلاق الفاضلة يقترب منه المؤمنون يوم القيامة، عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، قال: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاَقًا**»[٣]، فهذا مورد عذب، وثمن آخر من أثمان المرافقة والمجالسة في دار الكرامة، يسير على مَن يسَّره الله له، سهل على مَن صبر عليه.

٤- كفالة اليتيم:

رعاية الأيتام والقيام على شؤونهم أمر اعتني به الإسلام واهتم به، وجعله من أعظم مقاصد الشريعة، كافأ الله جل ذكره أصحابه بالقرب من رسول الله ﷺ في

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٤/ ٢٧٤).

(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية (١٢/ ٧٦١٩).

(٣) سبق تخريجه، ص ١٣٠.

مستقر رحمته، قال رسول الله ﷺ: «**وَأَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا**» وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا [(١)].

فبوَّأ الإسلام كافل اليتيم منزلة القرب من رسول الله ﷺ في الجنة، جزاء قربه واتصاله بهؤلاء الضعفاء، ليس بينه وبين رسول الله ﷺ حائل أو حاجز، إلا كما بين السبابة والوسطى، وكأنه قرب بقرب وإحسان بإحسان.

٥- تربية البنات وعولهن:

لا يقل فضل رعاية الفتاة والقيام على مصالحها وحسن تربيتها عن فضل رعاية اليتيم، فكلاهما فيه من الضعف وقلة الحيلة ما يجعله عاجزًا عن تصريف شؤون حياته؛ لذلك تشابه الجزاء في كلتا الحالتين، وفاز بالقرب من رسول الله ﷺ كلا الفريقين، قال ﷺ: «**مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ**» وَضَمَّ أَصَابِعَهُ[(٢)].

بل لا مبالغة إن قيل إن رعاية البنات أعظم أجرًا ومثوبةً عند الله من رعاية اليتيم؛ لأن رعاية البنات وحسن تربيتهن أمر واجب على الولي بادئ الأمر، فضلًا عن أن الفتاة قد لا تجد مَن يرعاها أو يهتم بها حال تقاعس الولي عن مسؤوليته، بعكس اليتيم الذي تعد كفالته من النوافل التي يتسابق إليها كثير من الناس.

فهذه أهم القربات التي ينال بها العبد شرف القرب من رسول الله ﷺ، من تأمَّلها وجدها حاضرة في حياة المؤمنين، يسيرة على مَن يسَّرها الله عليه، ما من عبد مؤمن إلا بوسعه أن يتقرب إلى الله بما يطيقه منها.

---

(١) سبق تخريجه، ص ١٧٩.

(٢) رواه مسلم من حديث أنس رضي الله عنه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الإحسان إلى البنات (٤/٢٠٢٧)، رقم ١٤٩.

ثمرات القرب من الأنبياء والرسل:

إذا صدق العبد في إيمانه وطاعته لله ورسوله، وابتغى أسباب القرب من الأنبياء والرسل بعزيمة قوية وإرادة جازمة، حصلت له فوائد عظيمة وثمرات جليلة، تتجلَّى فيما يلي:

١- الهداية والصلاح في الحياة الدنيا:

فالعبد الذي يلزم طريق الأنبياء والرسل، تستبين له طريق الحق، ويوفق للثبات على منهج الأولياء الصالحين، قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النور: ٥٤]، قال ابن جرير رحمه الله: «وإن تطيعوا أيها الناس رسول الله فيما يأمركم وينهاكم، ترشدوا وتصيبوا الحق في أموركم»(١).

وهذه الهداية للمنهج القويم والثبات عليه هي من أعظم ثمرات طاعة الأنبياء والرسل واتباعهم، مَن أحرزها فاز بمرضات الله، ومَن ضيَّع أسبابها عرَّض نفسه لسخط الله وعقابه.

٢- رحمة الله تعالى لأهل القرب من الأنبياء والرسل:

إن من فضل الله وإحسانه على الخلق أن أرسل إليهم رسلًا يبلغونهم دين الله، فمَن آمن بهم وصدَّقهم وأطاع أمرهم، نالته رحمة الله الواسعة، قال تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣]، قال الرازي رحمه الله: «وهذا الترتيب في غاية الحسن، فإن المقصود من البعثة الإنذار، والمقصود من الإنذار التقوى عن كل ما لا ينبغي، والمقصود من

---

(١) جامع البيان (١٧/ ٣٤٥).

التقوى الفوز بالرحمة في دار الآخرة»[١].

وقال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، أي: «كي يرحمكم الله»[٢]، فجعل الله جل ذكره رحمته ثمرة طاعته ومتابعة رسوله ومحاكاة أقواله وأفعاله ومكارم أخلاقه، والمتبصر في أحوال الناس لا تخفى عليه آثار تلك الرحمة الإلهية على أهل الطاعة والإيمان.

٣- قرب الله ومحبته لأهل القرب من الأنبياء والرسل:

وهذه رتبة عالية لا ينالها إلا مَن صحَّت نيَّته وصدقت عزيمته في قربه من الله ورسوله، فمتى ما ثبتت قدم العبد على طريق الاتباع، وتقلب في رياض السُّنة والكتاب، ترقت نفسه إلى درجة القرب والمحبة من الله، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١]، قال الحسن رحمه الله: «قال أقوام على عهد النبي ﷺ: يا محمد، إنا نحب ربنا، فأنزل الله: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾، وجعل اتباع نبيه محمد ﷺ علمًا لحبه»[٣]، والمقصود أن الله تعالى جعل ثمن قربه ومحبته القربَ من نبيِّه باتباع هديه وسُنته، فمَن حقق ذلك فاز برضوان الله تعالى، وغنم محبته وقربه، وهذا شأن أعظم، ومطلب أسمى، يظهر أثره على العبد في الدنيا قبل الآخرة، فيسدد الله سمعه وبصره وسائر جوارحه، ويؤيده بنصره وعونه وتوفيقه، ويهدي قلبه، وينور بصيرته.

---

(١) مفاتيح الغيب (١٤/١٥٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٤/٢٠٣).

(٣) جامع البيان (٦/٣٢٢).

٤- مرافقة المقرَّبين في جنات الخلد:

أخبر الله تعالى في كتابه الكريم أن طاعته وطاعة رسوله موجبة لمرافقة أهل السعادة الكاملة في جنات النعيم، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩]، قال القرطبي رحمه الله: «أي: هم معهم في دار واحدة، ونعيم واحد، يستمتعون برؤيتهم والحضور معهم، لا أنهم يساوونهم في الدرجة، فإنهم يتفاوتون لكنهم يتزاورون للاتباع في الدنيا والاقتداء، وكل مَن فيها قد رزق الرضا بحاله، وقد ذهب عنه اعتقاد أنه مفضول»[١].

فأهل الطاعة لله ورسوله أسعد الناس بهذه المعيّة، وهذه الثمرة الزاهية الندية، وهي خلاصة ما قبلها من الثمار، وخاتمة الفوائد والآثار، نال أهلها السعادة والكرامة، وأعظم بها من كرامة أن يكون العبد مع النبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين في دار واحدة ونعيم واحد، يرى بعضهم بعضًا، ويزور بعضهم بعضًا.

٥- الشفاعة:

ثبتت شفاعة الأنبياء والرسل يوم القيامة لأهل الإيمان بعد إذن الله تعالى ورضاه، قال المولى جلَّ ذكرُه: ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٦]، قال قتادة رحمه الله: «الملائكة وعيسى ابن مريم، وعزير عليهم السلام، فإن لهم عند الله الشفاعة»[٢].

وقيل: لا تملك لهم الأصنام والأوثان الشفاعة، ولا يقدرون عليها؛ لكن مَن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٢٧٢).

(٢) تفسير عبد الرزاق (٣/ ١٧٩).

شهد بالحق على يقين وبصيرة، تنفع شفاعته عند الله بإذنه ورضاه[١].

وثبت عن رسول الله ﷺ أن الله تعالى يوم القيامة يقول: «**شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**»[٢].

فإذا كان أهل القرب من الرسل والأنبياء في الدنيا هم أهل الطاعة لله ورسله، وأهل الاقتداء والاتباع لهدي الأنبياء، فهم بذلك أولى الناس بهذه الشفاعة، مع تفاوُت آثار الشفاعة فيما بينهم بحسب قربهم وامتثالهم لأمر الله تعالى.

وبعد أن تبيَّنت أهمية القرب من الأنبياء والرسل وأسبابه وثماره، لم يبقَ أمام مَن يرجو القرب من الله تعالى إلا أن تتحرك همَّته وترتفع عزيمته للسير على طريق هؤلاء الأخيار، والنظر في سيرتهم المليئة بالمواقف المشرفة العظيمة، والعمل بالمنهج الرباني الصحيح الذي أنزله الله مع سيدهم وخاتمهم، مع الحذر الشديد من مخالفة ذلك المنهج الذي ساروا عليه وأمروا الناس به ودعوا إليه.

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٧/٢٤٣).

(٢) سبق تخريجه، ص ٢١٥.

المطلب الثالث:

القرب من الأولياء الصالحين «أهميته وأسبابه وثمراته»

العاقل من الناس لا يختار لنفسه إلا مَن يُعينه على الاستقامة والثبات، ويزينه بلباس جميل المحامد والصفات، ويسير به على طريق أهل الهمم العالية والمطالب السامية.

وخير ما يرشد العبد إلى ذلك بعد توفيق الله تعالى، ملازمة أولياء الله الصالحين، والاتصال بأهل التقوى واليقين، فالقرب منهم مغنم الدنيا ومكسب الآخرة، وهذه الملازمة والقرب تفسَّر بأمرين:

الأول: قرب دنيوي:

يتمثل في مجالسة الصالحين وملازمتهم، ومحبتهم في الله تعالى، والاقتداء بهم في طاعاتهم وقرباتهم، وأدبهم وحسن أخلاقهم.

الثاني: قرب أُخروي:

يتمثل في معيتهم، وبلوغ منازلهم التي أعدَّها الله لهم في دار كرامته.

وفي هذا المطلب سيناقش الباحث أهمية هذا القرب وأسبابه وثماره؛ كي يتجلَّى لكل سائر على طريق الله عظيمُ شأن هذا الأمر وجليل مقامه.

أهمية القرب من الأولياء الصالحين:

تبرز أهمية القرب من الأولياء الصالحين من جوانب كثيرة، أهمها ما يلي:

١ - القرب من الصالحين بالمجالسة والمصاحبة والاقتداء، قرب من الله تعالى وطاعة، وذلك لأنه أمر إلهي أوصى الله به المؤمنين وحثَّهم عليه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، قال السعدي رحمه الله: «في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الذين أقوالهم صدق، وأعمالهم

وأحوالهم لا تكون إلا صدقًا، خليَّة من الكسل والفتور، سالمة من المقاصد السيئة، مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة»(١).

فمَن كان مع الصادقين اهتدى، ومَن سار على طريقتهم نجا، ومَن أنعم الله عليه ببطانة صالحة تدله على الخير وتحذِّره الشر رُزِقَ السعادة في الدنيا والكرامة في الآخرة.

٢- القرب من الصالحين دعوة الأنبياء المرسلين ورجاؤهم وتضرعهم إلى ربهم، فإنهم بما فيهم من تقوى وصلاح كانوا يدعون الله تعالى أن يلحقهم بالصالحين، قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٣]، قال ابن زيد رحمه الله: «مع الأنبياء والمؤمنين»(٢).

وقال جلَّ ذكرُه، على لسان يوسف عليه السلام: ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١]، قال عكرمة رحمه الله: «أهل الجنة»(٣).

وقال سبحانه وتعالى، على لسان سليمان عليه السلام: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [النمل:١٩]، قال ابن كثير رحمه الله: «إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك، والرفيق الأعلى من أوليائك»(٤).

فلما كان اللحاق بأولياء الله الصالحين، والدخول في زمرتهم، رجاء أنبياء الله ورسله، دلَّ ذلك على مكانة هذا الأمر عند الله تعالى، وأهميته وعظيم شأنه.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٥٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٨/ ٢٧٨١).

(٣) زاد المسير، ص ٧٢١.

(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٨٣).

٣- القرب من الصالحين له أثر عظيم على أخلاق العبد المؤمن وسلوكه، فالإنسان يتأثر بمن حوله ويحاكيهم في أقوالهم وأفعالهم، والعبد المؤمن إذا اقترب من الصالحين تطبَّع بخصالهم وتخلَّق بأخلاقهم، وكان مثلهم في الإيمان بالله والتقوى، وهذا هو المكسب العظيم، والمغنم الثمين، قال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧]، والمعنى أن الخلة إذا كانت على معصية وفجور انقلبت يوم القيامة عداوة وندامة، إلا الموحدين الذين يخالل بعضهم بعضًا على الإيمان والعمل الصالح؛ إذ لما كانت محبة الله في الدنيا هي الموجبة لمحبتهم وخلتهم، بقيت في يوم القيامة؛ بل كأنها تصير أقوى وأصفى وأكمل وأفضل مما كانت في الدنيا(١).

وقد أكد رسول الله ﷺ تأثُّر الرجل بصاحبه إما سلبًا أو إيجابًا، بحسب الحالة التي يكون عليها ذلك الصاحب، قال ﷺ: «**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**»(٢)، قال المناوي رحمه الله: «أي: على عادة صاحبه وطريقته وسيرته»(٣).

فلا شك أن صاحب الأخلاق الفاضلة الكريمة سيورث مَن حوله جمال الطباع، وكريم الخصال، وصاحب الخلق الرديء سيردي مَن حوله ويفسد دِينه وخُلُقه.

٤- الأولياء الصالحون قلوبهم مليئة بالإيمان، وألسنتهم رطبة بذكر الرحمن، ومجالسهم تغشاها الرحمة، وتتنزل عليها السكنية، وتحفها الملائكة، ويذكرهم الله في الملأ الأعلى، وهذا من أعظم ما يجعل المؤمن يحث الخُطى إلى مجالسهم، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب (٢٧/٢٢٥).

(٢) سبق تخريجه، ص ١٩٣.

(٣) التيسير بشرح الجامع الصغير (٢/٤٠).

﴿وَجْهَهُۥۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ [الكهف: ٢٨]، قال الزحيلي رحمه الله: «أي: جالِس الذين يذكرون الله، ويحمدونه، ويسبحونه، ويكبرونه، ويسألونه، ويدعونه صباحًا ومساءً، أي في كل وقت، سواء كانوا فقراء أو أغنياء، يريدون طاعته ورضاه»[١].

وفي هذا الأمر الإلهي دلالة بيِّنة على سمو مجالسة الصالحين وملازمتهم والتشبه بهم، وأن حبس النفس مع أهل الطاعة والإخلاص هو الميزان الحقيقي الذي يرتقي به العبد عند الله، قال ابن حزم[٢] رحمه الله: «مَن طلب الفضائل لم يساير إلا أهلها، ولم يرافق في تلك الطريق إلا أكرم صديق، من أهل المواساة والبر والصدق، وحسن العشيرة والصبر، والوفاء والأمانة والحلم، وصفاء الضمائر، وصحة المودة»[٣].

أسباب القرب من الأولياء الصالحين:

كلما عصفت بالمؤمن هموم الحياة، كان في حاجة لمن يُعينه على الاستقامة والثبات، ويرشده ويوصيه بأسباب تجاوز الأزمات، ولن يكون له ذلك بعد توفيق الله، إلا بالقرب من الأولياء الصالحين، ولهذا كان لا بدَّ من معرفة الدواعي والأسباب التي تقرب منهم وتقوِّي الصلة بهم، وأشهر تلك الدواعي والأسباب ما يلي:

---

(١) التفسير المنير (٨/٢٦٣).

(٢) أبو محمد، علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي، ابن حزم الظاهري، كان حافظًا، عالمًا بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطًا للأحكام من الكتاب والسنة، انتقل إلى مذهب أهل الظاهر بعد أن كان شافعي المذهب، وكان متفننًا في علوم جمة، عاملًا بعلمه، زاهدًا في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له ولأبيه من قبله، له عدة مصنفات، منها: "المحلى"، و"الأحكام لأصول الأحكام"، و"طوق الحمامة"، توفي سنة ست وخمسين وأربعمائة. ينظر: وفيات الأعيان (٣/٣٢٥)، لسان الميزان (٥/٤٨٨)، الأعلام (٤/٢٥٤).

(٣) الأخلاق والسير، ص ٩٢.

١- الإيمان والعمل الصالح:

الإيمان والعمل الصالح سببان عظيمان من أسباب القرب من الصالحين، والدخول في زمرتهم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩]، قال البغوي رحمه الله: «في زمرة الصالحين، وهم الأنبياء والأولياء، وقيل: في مدخل الصالحين، وهو الجنة»[١].

وقال الرازي رحمه الله: «لندخلنهم في مقام الصالحين، أو في دار الصالحين، والأولى أن يقال لا حاجة إلى الإضمار؛ بل يدخلهم في الصالحين، أي: يجعلهم منهم ويدخلهم في عدادهم، كما يقال الفقيه داخل في العلماء»[٢].

وذلك أن الإيمان والعمل الصالح أخص صفات أولياء الله الصالحين، وكل مَن اتَّصف بصفاتهم تقربوا منه وأحبوا معاشرته ومصاحبته، وكانت خلتهم له من أجل رضا الله تعالى والدار الآخرة، ليس لهم منافع دنيوية أو أغراض شخصية.

٢- طاعة الله تعالى، ورسوله صلى الله عليه وسلم:

طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم هي الأخرى سبب عظيم من أسباب القرب من جملة المنعَم عليهم من النبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، قال السعدي رحمه الله: «كل مَن أطاع الله ورسوله على حسب حاله وقدر الواجب عليه، مِن ذكر وأنثى وصغير وكبير، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾، أي: بالنعمة العظيمة التي تقتضي الكمال والفلاح والسعادة»[٣].

(١) معالم التنزيل (٦/٢٣٤).
(٢) مفاتيح الغيب (٢٥/٣٨).
(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ١٨٥.

فمَن سلك طريق الطاعة لله ورسوله واستقام فيها، أورده الله موارد المقرَّبين، وأدخله مدخل الأولياء الصالحين، وجعله مع الزمرة المباركة في أعلى مقامات الجنة، لا يحجبه عنهم تفاوُت المنزلة بينه وبينهم.

٣- ملازمة مجالس الصالحين ومواطنهم:

تعدُّ ملازمة أولياء الله الصالحين في مجالسهم وحلق ذكرهم من أعظم الأسباب التي تجعل العبد المؤمن على مقربة منهم، فهم مَن نظر الله تعالى إلى مجالسهم العامرة بذكر الله تعالى وطاعته، فأعلى شأنها، وباهى بهم الملائكة، عن معاوية[(١)] رضي الله عنه، قال: خرج رسول الله ﷺ على حَلْقة من أصحابه، فقال: «**مَا أَجْلَسَكُمْ؟**» قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا، قَالَ: «**آللَّهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟**» قَالُوا: وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: «**أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي، أَنَّ اللهَ عز وجل يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ**»[(٢)].

والمؤمن إذا لازم مجالس هؤلاء الأخيار، المليئة بالذكر والعلم والفقه، الخالية من اللغو والغيبة والنميمة، وتقرب منهم بالمحبة الخالصة لله، كان من أولئك الأخيار، وناله من الخير أوفر الحظ والنصيب، قال الشافعي رحمه الله[(٣)]: «أربعة تزيد

---

(١) الصحابي الجليل، أبو عبد الرحمن، معاوية بن أبي سفيان، صخر بن حرب القرشي الأمويّ رضي الله عنهما، أمير المؤمنين، شهد حنينًا مع رسول الله ﷺ، وهو أحد الذين كتبوا له، كان أميرًا عشرين سنة، وخليفة عشرين سنة، مات سنة ستين. ينظر: الاستيعاب (١٤١٦/٣)، أسد الغابة (٢٠١/٥)، الإصابة (١٢٠/٦).

(٢) رواه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن والذكر (٢٠٧٥/٤)، رقم ٤٠.

(٣) أبو عبد الله، محمد بن إدريس المطلبي الشافعي المكي، نزيل مصر، نسيب رسول الله ﷺ، وناصر سنته، أحد أئمة المذاهب الأربعة عند أهل السنة، كان كثير المناقب، جم المفاخر، منقطع القرين، اتفق العلماء قاطبة على ثقته وأمانته وعدالته، وزهده وورعه، ونزاهة عرضه، وعفة نفسه، وحسن سيرته، وعلو قدره، وسخائه، له مؤلفات عديدة، منها: "الرسالة"، و"المسند"، و"الأم"، مات سنة أربع ومائتين، ينظر: طبقات الفقهاء للشيرازي (٧٢/١)، وفيات الأعيان (١٦٣/٤)، تذكرة الحفاظ (٢٦٥/١)، الأعلام (٢٦/٦).

في العقل: ترك الفضول من الكلام، والسواك، ومجالسة الصالحين، ومجالسة العلماء»[(١)]، ولو أن المؤمن يتفكر كيف نالت بركتُهم عبدًا خطَّاء جالسهم لحاجة[(٢)] فغفر الله له، ما فوت على نفسه هذا الفضل العظيم.

٤- سؤال الله تعالى معيتهم:

إذا دعا العبد ربَّه، وسأله بلوغ منازل الصالحين، والانضمام إلى ركبهم، أعانه الله تعالى على اللحاق بركبهم في الدنيا والآخرة، وقد كانت هذه دعوة الصالحين من الأنبياء والمرسلين، قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣]، وقال جلَّ ذكرُه عن سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]، فإذا كان اللحاق بالصالحين والانضمام لركبهم دعوة خيار خلق الله تعالى من الأنبياء والمرسلين، فالمؤمن الذي تنزع روحه لركب الصالحين، وتشتاق نفسه لمعاشرة المتقين، أولى بسؤال الله أن يلحقه بهم، وأجدر أن يبذل الأسباب التي تبلغه منازلهم.

ثمار القرب من الصالحين:

ملازمة الصالحين والقرب منهم إيمان وعلم وهداية، مَن صاحبهم وجالسهم عمَّته بركتهم، ونفعه الله تعالى بخيرهم، فهم قوم كتب الله تعالى لهم ولمن لازمهم السعادة والرضا، وأجرى لهم كثيرًا من الفوائد والمنافع، أشهرها ما يلي:

١- حث العبد على طاعة الله ونهيه عن معصيته:

جمع الله لعباده الصالحين خصال الخير ومكارم الأخلاق التي توجب عليهم

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، ص ٧٤٣.

(٢) رواه مسلم، وسيأتي تخريجه عند ذكره تامًّا في ثمار القرب من الأولياء الصالحين.

حث مَن عاشرهم على طاعة الله، وزجره عن معصية الله، كما في قول يوسف عليه السلام للفتيين: ﴿يَصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، قال سيد قطب رحمه الله: «إنه يتخذ منهما صاحبين، ويتحبب إليهما هذه الصفة المؤنسة؛ ليدخل من هذا المدخل إلى صلب الدعوة وجسم العقيدة»(١).

فهم لمن يقترب منهم ويجالسهم كجونة المسك التي تفوح برائحة الطيب الزكية، لا يعدم حاملها منها فائدة، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «**مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً**»(٢).

فالصالحون إذا زلَّت قدم عبد ثبتوها، وإذا عثرت نفس أقالوها، وهم مرآة صادقة لمن عاشرهم وتقرب منهم، ومَن كان هذا حاله، لم يُعدم منه الخير، ولن يقصر عن إفادة الغير.

٢- محبة الله تعالى وقربه ممن يعاشر الصالحين:

القرب من الصالحين يقتضي محبتهم ومودتهم لأجل الله ورغبة فيما عند الله، وهذا سبب من أسباب قرب الله ومحبته للعبد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**قَالَ اللَّهُ عز وجل وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ**»(٣)، أي: أن محبة الله قد لزمت كما يلزم الواجب للذين تحابوا لأجل الله ولأجل نصرة دِينه

(١) في ظلال القرآن (١٩٨٩/٤).

(٢) سبق تخريجه، ص ١٢٧.

(٣) رواه أحمد في مسند معاذ بن جبل رضي الله عنه (٣٥٩/٣٦)، رقم ٢٢٠٣٠، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: المستدرك (١٨٦/٤)، رقم ٧٣١٤، صحيح الجامع (٧٩٨/٢)، رقم ٤٣٣١.

وإعلاء كلمته[1]، فأعظم بها من ثمرة، وأكرم بها من عاقبة مكتوبة لكل مَن جالس الصالحين، واتصل بهم، وبذل لأجلهم نفسه وماله، ابتغاء وجه الله تعالى ورضوانه.

٣- مَن لازم الصالحين حشره الله معهم:

مَن لازم الصالحين وأحبَّهم وتقرب إليهم صار منهم، وذكره الله معهم، وحشره في جمعهم، يناله ما ينالهم من الخير، ويجري له ما كتبه الله لهم من الكرامة، لا ضير عليه إن لم يدركهم بعمله طالما نيَّته محبتهم، وثمرة فؤاده لهم، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، كيف تقول في رجل أحب قومًا ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ**»[2].

فهذا ترغيب من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعاجل بشرى لكل نفس زكية أحبَّت قرب أهل الطاعة والإحسان، بأن الله تعالى يحشرها مع مَن تحب، ويرزقها معهم الكرامة في دار المقامة، متى ما كان صادقًا في حبه، خالصًا لله ودُّه.

٤- القرب من الصالحين سبيل للتوبة من الذنوب والمعاصي:

القرب من الصالحين فرج من الله تعالى لمن أسرف على نفسه في الذنوب والمعاصي بالتوبة عليه، وغفران زلاته، وإقالة عثراته، إذا اطلع الله تعالى على صدق نيَّته في طلب التوبة والمغفرة، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال في قصة الرجل الذي قتل تسعًا وتسعين نفسًا: «**ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَ فَاعْبُدِ اللهَ مَعَهُمْ، وَلَا**

---

(١) ينظر: التنوير شرح الجامع الصغير (٩/٨).

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب علامة حب الله عز وجل (٣٩/٨)، رقم ٦١٦٩، ورواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب المرء مع من أحب، (٢٠٣٤/٤)، رقم ١٦٥.

تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ، فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ»(١).

والقصة فيها دعوة صريحة لمن يريد التوبة من المعصية، بضرورة استبدال بيئة السوء، ومجالس المعصية واللغو، ببيئة لا يشوبها كدر الإثم وظلام المعصية، وهي تفتح أبواب الأمل أمام المسرفين على أنفسهم بالذنوب والمعاصي، وتبيّن أثر القرب من الصالحين على قبول التوبة وغفران الحوبة.

٥- الفوز ببركة مجالس الصالحين:

مَن تقرب من الصالحين شملته بركة مجالسهم، وأصابه فيض إحسان الله عليهم، فهم قوم لا يشقى جليس جالسهم، ولا يعدم الخير أنيس لازمهم، دل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه، المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، في فضل مجالس الذكر، قال في آخره: «**قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ فَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا، وَأَجَرْتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا، قَالَ: فَيَقُولُونَ: رَبِّ فِيهِمْ فُلَانٌ عَبْدٌ خَطَّاءٌ، إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ، قَالَ: فَيَقُولُ: وَلَهُ غَفَرْتُ هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ**»(٢)، فإذا كان هذا عبد مذنب خطّاء دعته الحاجة إلى أن يجلس في مجالس الصالحين، فأصابته رحمة الله معهم، فكيف بمَن لازم مجالسهم، وتقرَّب إلى الله بقربهم، وذكر الله معهم.

---

(١) رواه مسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة التائب وإن كثر قتله (٤/٢١١٨)، رقم ٤٦.

(٢) رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله، (٨/٨٦)، رقم: ٦٤٠٨، ورواه مسلم واللفظ له، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل مجالس الذكر (٤/٢٠٦٩)، رقم ٢٥.

٦- الثبات على الحق، والصبر على الفتن:

إذا واظب العبد المؤمن على مجالسة الصالحين والاقتداء بهم، رزقه الله تعالى ثباتًا على الحق الذي بين يديه، وصبرًا على الفتن التي تعتريه؛ لأن الله تعالى ذكرُه يقول: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، فيحقق الله أعمال أهل الإيمان ويثبت أقوالهم بشهادة الحق، وينجز وعده الحق بنصرهم وتأييدهم، فمَن تقرب منهم، أصابه ما أصابهم من التأييد والتثبيت حال الفتن، ومَن كان في زمرتهم صبر على البلاء والمحن، قال ابن القيم عن شيخه ابن تيمية: «وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض، أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه، فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطمأنينة»[(١)]، وكيف تتفرق الطرق بمَن رزقه الله تعالى معاشرة أهل الطاعة؟! وكيف يصيب الوهن والقلق مَن تمسَّك بحبال أهل الاستقامة؟!

٧- الاقتداء والتشبُّه بهم:

يغنم المتقربون من الصالحين القدوة الصالحة الحسنة في الأقوال والأفعال والأخلاق، وهذا من أعظم ما يشحذ الهمم، ويربي النفس على مكارم الأخلاق، وخير مَن يُقتدى به من الصالحين بعد الأنبياء والرسل صحابة رسول الله ﷺ، والسلف الصالح من التابعين، الذين تلقوا تعاليم الدين وأحكامه صافية بلا كدر، فكانوا خير قرون هذه الأمة وأفضلها، قال ابن حجر رحمه الله: «فالسعيد مَن تمسَّك بما كان عليه السلف، واجتنب ما أحدثه الخلف»[(٢)].

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب، ص ٤٨.

(٢) فتح الباري (١٣/٢٥٣).

٨- الانتفاع بدعائهم:

التقرب من الصالحين فيه انتفاع بدعائهم في الحضور والغيبة، فهم يحفظون الودَّ، ويرعون العهد، ولا ينسون جلساءهم من دعوة صادقة بظهر الغيب تؤمِّن عليها الملائكة، قال النبي ﷺ: «**دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ، قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ**»(١).

فينال مَن تقرَّب مِن الصالحين خير عظيم، ورزق كريم، فصلاح حالهم واستقامة أمرهم تجعل لدعائهم مكانة عند الله، ودعاؤهم لإخوانهم بظهر الغيب دعوة مستجابة من الله.

٩- الشفاعة له عند الله:

يظفر المتقرِّب من الصالحين بشفاعتهم له عند الله يوم القيامة، وهذه ثمرة عظيمة تدعو للاهتمام بالقرب من الأولياء الصالحين ومجاورتهم، قال رسول ﷺ: «**مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ يَمُوتُ، فَيَقُومُ عَلَى جَنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، لَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا، إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ**»(٢).

وفي صحيح مسلم، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً لِلَّهِ فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ، يَقُولُونَ: رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيَحُجُّونَ، فَيُقَالُ لَهُمْ: أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ، فَتُحَرَّمُ صُوَرُهُمْ عَلَى النَّارِ،**

---

(١) رواه مسلم من حديث أم الدرداء رضي الله عنها، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب (٤/٢٠٩٤)، رقم ٨٨.

(٢) رواه مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، كتاب الجنائز، باب مَن صلى عليه أربعون شفعوا فيه (٢/٦٥٥)، رقم ٥٩.

فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدِ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقَيْهِ، وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ»[١].

وهذه الفائدة العظيمة تحرك عزيمة المؤمن لأن يستكثر من الصالحين، وأن يوطد العلاقة الحسنة بالمتقين، دام أنهم يشفعون له عند الله يوم القيامة، فليس هناك شيء أعظم للعبد في الآخرة من قيام أهل الطاعات والقربات بين يدَي الله تعالى، يناشدونه العفو والغفران لِمَن عاشرهم وجالسهم.

١٠- حفظ وقت المؤمن وعمره من الضياع بلا فائدة:

الأولياء الصالحون عرفوا قيمة الوقت وتبيَّن لهم سرعة انقضائه، فعزَّ عليهم ضياعه وفواته في غير طاعة لله، فمَن تقرب منهم حفظ وقته في غير سهو وغفلة، واستثمر عمره الحقيقي فيما يحقق له السعادة الأبدية والنعيم المقيم، ومَن تجاوزهم إلى غيرهم ضاع وقته بلا فوز ولا فلاح، وذهبت ساعات عمره أدراج الرياح، وإذا قضى العبد عمره في طاعة الله، واعتمد بعد الله على مَن يُعينه على استثماره فيما يعود عليه بالفائدة، وجد بركة ساعاته في حياته وبعد مماته، وتحققت له أسباب الحياة السعيدة، لا تضره قلة ماله، ولا يضير عليه سوء أحواله.

---

(١) سبق تخريجه، ص ٢١٥.

المطلب الرابع:
موانع القرب من خيار الخلق وعاقبة ذلك

إذا حِيلَ بين العبد وبين المؤثرات التي تدفعه إلى أبواب البر، عوقب بأسباب أخرى تؤزه إلى الإعراض عن فعل الخير، وسُلِبَ الرغبة في الإقبال على الطاعة، وهذا يقتضي ضرورة بسط الحديث في تلك المؤثرات التي تصد العبد عن الخير وأهل الخير، ثم اتباع ذلك بالحديث عن أثر ذلك وعاقبته على هداية العبد واستقامته، وفق الترتيب التالي:

أولاً: موانع القرب من خيار الخلق:

تبين للباحث بعد التأمُّل والتدبُّر في الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، أن أشهر موانع القرب من خيار الخلق ما يلي:

١- معصية الله تعالى:

تعدُّ معصية الله تعالى فيما أمر به أو نهى عنه مانعًا عظيمًا من موانع القرب من الأخيار، وشؤمًا على صاحبها في الدنيا، وعارًا في الآخرة، لا يأمن مقترفها فتنة الكفر أو الضلال أو البلاء، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، قال ابن كثير رحمه الله: «﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: في قلوبهم، من كفر أو نفاق أو بدعة، ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: في الدنيا، بقتلٍ، أو حد، أو حبس، أو نحو ذلك»[1].

ويختلف تأثير المعصية لله على قرب العبد من الأولياء الصالحين باختلاف درجتها، فقد تكون مبطلة للقرب من الأولياء بالكلية إذا كانت كفرًا، كالشرك

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٩٠).

بالله وتكذيب الرسل وبغضهم ومبارزة اتباعهم بالعداوة، وقد تؤثر المعصية على درجة القرب من الصالحين دون أن تبطله بالكلية، كحال من يقترف ذنبًا دون الكفر، وحال من يقصر في أداء السنن والمستحبات.

٢- ترك الاقتداء بالأخيار:

ترك الاقتداء بالأخيار في أخلاقهم، وأقوالهم، وأفعالهم، وجميل خصالهم، انحراف خطير عن المنهج الرباني الذي بلغوا به الخيرية، قال تعالى: ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا** ﴾ [النساء: ١١٥]، قال الرازي رحمه الله: «دلت هذه الآية على أنه يجب الاقتداء بالرسول عليه الصلاة والسلام في أفعاله؛ إذ لو كان فعل الأمة غير فعل الرسول، لزم كون كل واحد منهما في شق آخر من العمل، فتحصل المشاقة؛ لكن المشاقة محرمة، فيلزم وجوب الاقتداء به في أفعاله»(١).

وكذلك لما كان سبيل المؤمنين الصالحين ومنهجهم هو الطاعة والاقتداء برسول الله ﷺ، عملًا واعتقادًا، كان التارك لمنهجهم وطريقتهم واليًا لضلاله وبدعته، مفارقًا لطريق أهل الحق خاسرًا لقربهم.

٣- خذلانهم وعدم نصرهم والدفاع عن سنتهم:

يعدُّ التخاذل عن نصر الصالحين نقضًا لدعوى محبتهم ومحبة القرب منهم؛ لأن مَن أحب شيئًا وادعى ولاءه له، نصره ونافح عنه بنفسه وماله، ولذلك عاتب الله مَن رغب بنفسه من أهل المدينة ومَن حولها مِن أهل البوادي عن الخروج مع رسول الله ﷺ للجهاد في سبيل الله، قال تعالى: ﴿ **مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ**

---

(١) مفاتيح الغيب (١١/ ٤٤).

حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦۚ ﴾ [التوبة: ١٢٠]، قال السمرقندي رحمه الله: «يعني: لا ينبغي أن يكونوا بأنفسهم أبر وأشفق من نفس محمد صلى الله عليه وسلم، وأن يتركوا محبته»(١).

والمؤمنون إذا لم يتناصروا ويتظاهروا على الحق، تحقيقًا لقول الله عز وجل: ﴿ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ ﴾ [الأنفال: ٧٢]، ويدافعوا عن مبادئهم المستمدة من كتاب الله وسُنة رسوله صلى الله عليه وسلم، انفرط عقد اجتماعهم، وتفرّقت لُحمة صفهم، واجتمع عليهم أهل الكفر وأعداء الحق، فظهروا عليهم، واستباحوا بيضتهم، وكسروا شوكتهم.

٤- مجالسة أهل الباطل والتأثر بضلالاتهم:

الركون إلى أقوال أهل الباطل، والجلوس في مجالسهم، يبعد العبد عن سبيل المتقين، ويلقيه في أودية الضلال المبين، ولذلك نهى الله تعالى عن الجلوس في مجالس أهل الباطل الذين يستهزئون بآيات الله، ويستخفّون بأمره ونهيه، قال تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٠]، قال السعدي رحمه الله: «يدخل فيه حضور مجالس المعاصي والفسوق التي يستهان فيها بأوامر الله ونواهيه، وتقتحم حدوده التي حدَّها لعباده»(٢).

والبيئة الفاسدة التي يجدها مَن يعاشر أهل الباطل من أخطر المعوقات التي تعيق عن القرب من الله وأوليائه، حتى حالما يظن الجالس معهم أنهم ناصحون

---

(١) بحر العلوم (٢/٨١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٢١٠.

له، حريصون على مصلحته، فهم على خلاف ذلك بما يضمرون من مكر، ويقلبون من حقائق تتفرق بها صفوف المسلمين ويتشتت جمعهم، قال تعالى عن المنافقين: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التوبة: ٤٧]، فما كره الله تعالى انبعاث هذه الفئة الفاسقة إلا لأن خروجهم لن يزيد المؤمنين إلا فسادًا وضررًا وبُعدًا عن الحق، خاصة مع حرصهم الشديد على إفساد وحدة المسلمين وسعيهم بينهم بالفتنة والشر، ووجود أناس ضعفاء العقول يجالسونهم فيسمعون لهم ويغترون بقولهم ويستجيبون لدعوتهم(١)، وقد تحقق هذا القول تمامًا في غزوة أُحد حين انخزل ابن سلول(٢) بثلث الجيش بعد أن أطاعوه واستمعوا لمقولته الباطلة(٣)، فكان لهم كنافخ الكير، وحرموا بسببه طاعة رسول الله ﷺ، وغزوة وجهادًا معه في سبيل الله، وحال مجالس الفاسقين كحال ابن سلول وحزبه، لن تزيد المؤمن إلا بُعدًا عن الحق، وقربًا من الباطل، وخسارة لثمار القرب من أولياء الله الصالحين.

٥- الدَّعة والكسل والتثاقل عن مجالس الخير:

إذا تكاسل العبد عن مجالسة الأخيار، دعته نفسه الأمَّارة بالسوء إلى المعصية، وزهدته في الخير، وبقي وحده يصارع شيطان نفسه وهواه، يصمد تارة ويُغلب أخرى حتى تزل قدمه، ويقع في المعصية التي تبعده عن الله، «**فإنَّما يأكُلُ الذِّئبُ**

---

(١) ينظر: جامع البيان (١١/٤٨٢)، تيسير الكريم الرحمن، ص٣٣٩.

(٢) المنافق عبد الله بن أبي ابن سلول الأنصاري الخزرجي، رأس المنافقين، ومَن تولى كبر الإفك في عائشة رضي الله عنها، كانت الخزرج قد اجتمعت على أن يتوجوه ويسندوا إليه أمرهم قبل مبعث النبي ﷺ، فلما جاء الله بالإسلام، أخذته العزة ولم يخلص الإسلام وأظهر النفاق حسدًا وبغيًا، مات سنة تسع من الهجرة. ينظر: الوافي بالوفيات (١٧/٩)، الأعلام (٤/٦٥).

(٣) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/٦٨).

القاصِيَةَ»[١].

فلا يُؤمن أبدًا على مَن يهجر مجالسة الأخيار النكوص عن الحق، أو الركون لأهل الباطل، فالعبد ضعيف بنفسه، قوي بإخوانه، متى ما فارقهم وأدبر عنهم ضعف وخور، وخسر مَن يدفعه للطاعة والقرب من الله، قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «لصاحب صالح خير من الوحدة، والوحدة خير من صاحب السوء، ومملي الخير خير من الساكت، والساكت خير من مملي الشر»[٢].

٦- الكبر واحتقار الخلق:

الكبر واحتقار الناس وازدراؤهم أمر خطير، وشر مستطير، إذا تمكن في قلب العبد تعاظمت نفسه، واحتقرت مخالطة البسطاء الصالحين من الناس، وأنِفَت عن قبول الحق، وقد منع هذا الداء الكثير من الأمم السابقة من اتباع رسلهم وملازمتهم والقرب منهم، قال تعالى عن قوم نوح عليه السلام: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، قال الألوسي رحمه الله: «وعنوا الذين لا نصيب لهم من الدنيا، أو الذين اتضعت أنسابهم، أو كانوا من أهل الصنائع الدنيئة»[٣].

وتكررت هذه الصورة مرة أخرى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين أبى الزعماء والرؤساء من كفار قريش مجالسته والسماع منه، إلا أن يطرد مَن كان معه من

---

(١) رواه أبو داود، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، كتاب الصلاة، باب التشديد في ترك الجماعة (١/ ٤١٠)، رقم ٥٤٧. قال الحاكم في المستدرك: متفق على الاحتجاج برواته، إلا السائب بن حبيش، وقد عرف من مذهب زائدة [الراوي عن السائب] أنه لا يحدث إلا عن الثقات، وقال الذهبي: زائدة لا يحدث إلا عن الثقات، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: المستدرك (١/ ٣٣٠)، رقم ٩٦٥، صحيح الجامع (٢/ ٩٩٤)، رقم ٥٧٠١.

(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، محمد بن حبان البستي، ص ١٠١.

(٣) روح المعاني (١٠/ ١٠٦).

الضعفاء والفقراء، فنهاه الله تعالى عن ذلك، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٢]، قال ابن جرير رحمه الله: «ذكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ في سبب جماعة من ضعفاء المسلمين، قال المشركون له: لو طردت هؤلاء عنك لغشيناك وحضرنا مجلسك»[(١)].

فأبت عليهم أنفسهم أن يجالسوا رسول الله ﷺ، ويسمعوا منه، بحجة أن مَن حوله هم الضعفاء والفقراء، الذين يرون أن ملازمته معهم لا تليق بهم وهم أهل الشرف والزعامة والأموال، ولو كان يعلم هؤلاء أن القرب من أولئك المؤمنين من الفقراء والضعفاء هو أعزُّ على الله وأشرف منهم، ما دعتهم أنفسهم لاستحقارهم وازدرائهم حتى أبعدهم الله تعالى.

٧- الجهل وعدم المعرفة بحقيقة القرب من الله وأسبابه:

يعتبر الجهل بحقيقة القرب من الله تعالى وأسبابه من أعظم موانع القرب من الصالحين ومعاشرتهم والاقتداء بهديهم، وهذا بلا شك له أثر عظيم على استقامة العبد والتزامه وقربه من الله تعالى، يُستأنس لهذا بقول نوح عليه السلام لقومه: ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾ [هود: ٢٩]، قال ابن جرير رحمه الله: «ولكني، أيها القوم، أراكم قومًا تجهلون الواجب عليكم من حق الله، واللازم لكم من فرائضه، ولذلك من جهلكم سألتموني أن أطرد الذين آمنوا بالله»[(٢)].

---

(١) جامع البيان (٩/٢٥٨).

(٢) المرجع السابق (١٢/٣٨٦).

وما تباعد كثير من الناس عن هدي الأنبياء، وملازمة الأتقياء، ومجالسة الصالحين؛ بل حتى عن حضور الجُمع والجماعات، إلا بسبب الجهل بالله وبما أنزل على رسله، ولا عجب أن تجد فيهم مَن برع في علوم الطبيعة وتميَّز فيها، وهو يجهل من علوم الشريعة ما لا يسعه جهله.

ثانيًا: عاقبة البعد عن خيار الخلق:

يعدُّ البعد عن الأخيار خسارة عظيمة في الدنيا والآخرة، قد لا يشعر العبد بمرارتها إلا حينما يقف بين يدَي ربه عاضًّا يده، متحسرًا على اتباع من لم يُعِنه على الحق ويهدِه إليه، وعلى أن عاقبة البعد عن خيار الخلق تختلف باختلاف شدته ودرجته، إلا أنه يمكن إجمال عواقب البعد عن خيار الخلق فيما يلي:

١- البعد عن الله تعالى:

أعظم عواقب البعد عن خيار الخلق هي البعد عن الله تعالى ومفارقة سبيل المؤمنين الذين يهتدون بهدي ربهم، ويتبعون ما جاءت به رسله، وكثيرًا ما يصف القرآن الكريم مَن فارق منهج الرسل أو كفر بهم، أو ببعضهم بالخروج عن طريق الهدى، والضلال عن منهج أهل الحق، كما في قول الله تعالى: ﴿ **وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا** ﴾ [النساء: ١٣٦]، فمَن يكفر بمحمد ﷺ، أو بغيره من الأنبياء والرسل أو بالملائكة الكرام، ويرد شيئًا من الحق الذي جاءوا، ويفارق الشريعة الغراء التي جاءوا بها، فقد بطل إيمانه وجار عن قصد السبيل ومحجة الطريق إلى طريق الردى والخسران البعيد[1].

وتعد هذه العاقبة السيئة أسوأ العواقب الدنيوية التي تحل بمَن فارق القرب

---

(١) ينظر: جامع البيان (٧/٥٩٥).

من أهل الطاعة من النبيِّين والمرسلين وسائر الأولياء الصالحين، وهي أصل لكل مصيبة تحل بمَن فارق طريق المتقين.

٢- خذلان الله تعالى لمن فارق الأخيار:

يوكل الله تعالى كل مَن نأى عن الحق، وفارق ما عليه المؤمنون من التمسُّك بالدين، والاقتداء بهدي سيد المرسلين، إلى ما تولاه من دون الله، فيخذله عن اتباع سبيل المؤمنين، ويعذبه في الآخرة بنار جهنم وبئس المصير، قال تعالى: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا**﴾ [النساء:١١٥]، فمَن فارق طريق الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ، وابتعد عنه، أبقاه الله حائرًا في الضلال، وتركه وشأنه دون اكتراث له مع ما اختار لنفسه، وخذله عن الخير، وجازاه بالعذاب السعير[١].

٣- ترك القرب من الأخيار سبيل للقرب من الفجار:

إذا تحول العبد عن أهل الطاعة والمعرفة بالله تعالى، كان عرضة لاتباع أهل الباطل وملازمتهم، فالإنسان بطبعه مجبول على حب المخالطة والعزوف عن العزلة، وإذا ما خالط قومًا، تأثر بأخلاقهم وتطبع بطباعهم، قال السعدي رحمه الله: «من أعظم نعم الله على العبد المؤمن: أن يوفقه لصحبة الأخيار، ومن عقوبته لعبده: أن يبتليه بصحبة الأشرار، صحبة الأخيار توصل العبد إلى أعلى عليين، وصحبة الأشرار توصله إلى أسفل سافلين»[٢]، وهذا ملحوظ ملموس في أوساط الناس، فإنك لا تكاد تجد منتكسًا عن الحق إلا وقد تحول عن جلساء الخير، وابتلي بجلساء

---

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٢٠٢، التحرير والتنوير (٥/ ٢٠١).

(٢) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، ص١٤٠.

سوء زيَّنوا له القبيح وقبَّحوا له الجميل، وكم من أناس صالحين اختلطوا بالفاسقين فارتدوا على أعقابهم، وانغمسوا في بحور المعاصي والذنوب حتى ماتوا عليها.

٤- حرب الله لأهل البعد عن الأخيار إذا كان ذلك قائمًا على العداوة لهم:

إذا كان البعد عن الأخيار قائمًا على العداوة والحسد والأذى، أُذن فاعله بحرب من الله تعالى، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ**»(١).

قال السعدي رحمه الله: «فأخبر أن معاداة أوليائه معاداة له ومحاربة له، ومن كان متصديًا لعداوة الرب ومحاربة مالك الملك فهو مخذول»(٢).

ومَن ذا الذي يقوى على حرب مقررة العاقبة، معروفة المصير؟ وأين القوة التي تستحق أن تذكر مع قوة الله تعالى وقهره؟ فإذا كان الأمر كذلك، فإن حرب الله تعالى أمرها عظيم، وعاقبتها وخيمة، لا ناصر لمن حاربه الله، ولا عزة لمن قهره الله.

٥- مفارقة الأخيار خسارة لمحبتهم ووصايتهم:

إذا فارق العبد المؤمن ملازمة سبيل الأخيار، خسر محبتهم ووصايتهم له بلزوم الطاعة والإيمان، والصبر على أداء الفرائض والنوافل، والدعوة إلى الحق، وهذا يقتضي خسران النفس وهلاكها بالمعصية والإثم، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣]، والمقصود: أن الإنسان في خسران ونقصان، وهلاك لنفسه وعمره بالمعاصي، إلا أهل الإيمان والعمل الصالح، الذين يوصي

---

(١) سبق تخريجه، ص ٤٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٨٧.

بعضهم بعضًا بالإيمان والقرآن، والصبر على أداء الفرائض وإقامة أمر الله، فإنهم ليسوا في خسر[١].

ختامًا: نخرج من هذا العرض بضرورة اجتناب المؤمن لكل سبب يفسد عليه القرب من خيار الخلق، بعد أن تبيَّنت الموانع والعواقب، وأن يتحرى بغاية جهده الالتزام بسُنة الأخيار المتقين، وتوطيد العلاقة بأولياء الله الصالحين، والحرص على أن يصيبه من فضلهم وبركتهم الخير الكثير، والعاقل يسعى لما فيه شرفه وكرامته وصيانة عرضه، ويحذر أسباب الشر، وفساد الأخلاق، وفجور الفساق.

---

(١) ينظر: معالم التنزيل (٨/ ٥٢٥).

المبحث الثاني:

القرب من القرابات الخاصة
«أهميته وأسبابه وثمراته»

- **المطلب الأول**: القرب من الأرحام والجيران «أهميته وأسبابه وثمراته».
- **المطلب الثاني**: القرب من الأخلاء والأصحاب الصالحين «أهميته وأسبابه وثمراته».
- **المطلب الثالث**: موانع القرب من القرابات الخاصة وعاقبة ذلك.

المطلب الأول:

القرب من الأرحام والجيران «أهميته وأسبابه وثمراته»

إن بناء مجتمع إسلامي مترابط تسود فيه الرحمة والمحبة والإخاء، وتهيمن عليه روح البذل والعطاء، من أهم مقاصد الشريعة الإسلامية، وتحقيقًا لذلك اهتم الإسلام بتوثيق عُرى المجتمع الإسلامي وتوطيد أواصر المحبة فيه، فجاءت نصوص الشريعة بوجوب حفظ حقوق قرابة النسب وقرابة السكن، أو ما يطلق عليهم مسمى الأرحام والجيران، التي بها يحصل التقارب والتراحم بين أبناء المجتمع المسلم.

ومتى ما قام العبد بأداء حقوق الأرحام والجيران، وأوصل إليهم ما يمكن إيصاله من الخير، ودفع عنهم ما يمكن دفعه من الضر، تحقق له قرب منهم يُرجى به قرب من الله تعالى. وعلى ذلك، فإن قضية القرب من الأرحام والجيران التي ستبحث هنا، قائمة برمتها على مبدأ أداء حقوقهم والإحسان إليهم، وتجنُّب أذيتهم والإساءة لهم.

وتفصيل القول في هذه القضية يتطلب تقسيم الحديث في هذا المطلب إلى قسمين:

القسم الأول: القرب من الأرحام «أهميته وأسبابه وثماره»

فهو عبادة عظيمة، وخلق رفيع، ينضبط به المجتمع، وتسود به المحبة والإخاء، أمر به الله تعالى في كتابه الكريم، وحض عليه الرسول ﷺ في سُنته المطهَّرة، وهو من البواعث العظيمة على قرب العبد من ربه، ونيل محبته ومرضاته.

أهمية القرب من الأرحام:

يستمد القرب من الأرحام أهميته وعظيم شأنه من الأمور التالية:

١- أمر تعبدي، وقربة عظيمة إلى الله، أمر به الأولين والآخرين، وحث عليه عباده المؤمنين في كتابه الكريم، وقرنه بحقه الأعظم الذي من أجله خلق الخلق، وسخَّر لهم ما في الأرض، قال تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

﴿عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١]، قال الضحاك رحمه الله: «واتقوا الله الذي به تعاقدون وتعاهدون، واتقوا الأرحام أن تقطعوها، ولكن بروها وصلوها»(١).

وقال السعدي رحمه الله: «وقرن الأمر بتقواه بالأمر ببر الأرحام والنهي عن قطيعتها؛ ليؤكد هذا الحق، وأنه كما يلزم القيام بحق الله، كذلك يجب القيام بحقوق الخلق، خصوصًا الأقربين منهم؛ بل القيام بحقوقهم هو من حق الله الذي أمر به»(٢).

وقال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦].

قال ابن عاشور رحمه الله: «عطف تشريع يختص بالمعاملة مع ذوي القربى والضعفاء، وقُدم له الأمر بعبادة الله تعالى وعدم الإشراك على وجه الإدماج؛ للاهتمام بهذا الأمر، وأنه أحق ما يتوخاه المسلم»(٣).

وما كان الله تعالى ليقرن هذا الحق وهذا الواجب بحقه سبحانه وتعالى إلا لما له من شأن عظيم عنده، والظاهر -والله أعلم- أنه لما كان أعظم أسباب القرب إلى الله تعالى بعد الإيمان بالله هو العمل الصالح بمجمله، فكأن الآية تحث المؤمنين على أن الإحسان إلى الوالدين خاصة، وإلى الأرحام عامة، هو من خير الأعمال الصالحة التي يتقرب بها العبد إلى ربه.

٢- امتدح الله جلَّ في علاه الذين يصلون ما أمر الله تعالى بوصله، وأثنى عليهم في محكم التنزيل، ونعتهم بالنعوت الحسنة الجميلة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ ٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/٢٠٦).
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ١٦٣.
(٣) التحرير والتنوير (٥/٤٨).

بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [الرعد: ١٩ - ٢١]، أي: أنهم لا يخالفون العهد الذي عاهدوا الله تعالى عليه، ثم زادهم ثناءً ومدحًا، أنهم يصلون الرحم التي أمر الله ﷻ بوصلها وحذَّر من قطيعتها أو إضاعة حقها، وهم مع ذلك يخافون ربهم ويراقبونه، ويخشون ألا يصفح لهم عن ذنب يُناقشونه، فهم وجلون لذلك، خائفون[١].

فهذا الثناء الجميل من الله، وهذا الوصف العظيم يدل على أن صلة الأرحام وحفظ حقها الذي تسود به المحبة والألفة بين الناس هي إحدى علامات رجاحة العقل الذي كرم الله به بني آدم على سائر المخلوقات.

٣- صلة الرحم من أول التكاليف الإلهية التي أنزلها الله لعباده، قال تعالى في سورة (الإسراء) التي هي من أول ما نزل[٢]: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ [الإسراء: ٢٦]، قال البيضاوي رحمه الله: «من صلة الرحم، وحسن المعاشرة، والبر عليهم»[٣].

ومن أول ما دعا إليه رسول الله ﷺ، وحثَّ عليه، قال أبو سفيان[٤] رضي الله عنه، حين سأله ملك الروم عما يأمرهم به رسول الله ﷺ: «**يَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ، وَالصَّدَقَةِ، وَالعَفَافِ، وَالصِّلَةِ**»[٥].

---

(١) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية (٥/ ٣٧٢٤).

(٢) قال ابن مسعود رضي الله عنه، عن الإسراء والكهف ومريم: إنهن من العتاق الأول، وهن من تلادي، رواه البخاري، كتاب التفسير، باب... (٦/ ٨٢)، رقم ٤٧٠٨.

(٣) أنوار التنزيل (٣/ ٢٥٣).

(٤) الصحابي الجليل، أبو سفيان، صخر بن حرب الأموي القرشي رضي الله عنه، أسلم يوم الفتح، وشهد مع رسول الله ﷺ حنينًا والطائف، وأعطاه من غنائم حنين مائة بعير وأربعين أوقية، وكان من أشراف قريش في الجاهلية، مات سنة إحدى وثلاثين، وقيل اثنتين، وقيل أربع. ينظر: الاستيعاب (٤/ ١٦٧٧)، أسد الغابة (٣/ ٩).

(٥) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب صلة المرأة أمها ولها زوج (٨/ ٤)، رقم ٥٩٨٠.

وفي حديث عمرو بن عَبَسة السلمي[١] رضي الله عنه، قال: فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: «**أَنَا نَبِيٌّ**»، فَقُلْتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: «**أَرْسَلَنِي اللهُ**»، فَقُلْتُ: وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ، قَالَ: «**أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللهُ لَا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ**»[٢].

والحديثان فيهما تشابه وتقارب مع ما أمر الله تعالى به في الآية السابقة، فكما أن الآية دلَّت على أن صلة الأرحام تأتي في الأهمية بعد الإيمان بالله، فهذان الحديثان يدلان على أن صلة الأرحام هي من أول ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٤- صلة الرحم صفة المؤمنين الفائزين الذين يبتغون بأعمالهم وجه الله تعالى، قال تعالى: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الروم: ٣٨]، قال ابن عاشور رحمه الله: «عقب بقوله هنا: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾، أي: الذين يتوخون بعطاياهم إرضاء الله وتحصيل ثوابه وهم المؤمنون»[٣].

وهو كذلك صفة المؤمنين الذين يؤمنون باليوم الآخر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»[٤].

---

(١) الصحابي الجليل، أبو نَجِيح، عمرو بن عَبَسة بن عامر السلمي رضي الله عنه، أسلم قديمًا في أول الإسلام ثم رجع إلى بلاده، فأقام بها إلى أن هاجر بعد خيبر، وقيل الفتح، اعتزل عبادة الأوثان قبل أن يسلم، مات في آخر خلافة عثمان. ينظر: الاستيعاب (٣/١١٩٢)، الإصابة (٤/٥٤٥).

(٢) رواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب إسلام عمرو بن عَبَسة رضي الله عنه (١/٥٦٩)، رقم ٢٩٤.

(٣) التحرير والتنوير (٢١/١٠٤).

(٤) سبق تخريجه، ص ٧١.

فهذه الخصال الحميدة هي من أعظم سمات المؤمنين الذين يحسنون إلى الخلق عامة، وإلى القرابة خاصة.

٥- صلة الرحم أمر حثَّ عليه الإسلام ورغَّب فيه حتى مع ذوي الرحم غير المسلم، إذا كان ذلك لا يضاد أحكام الشريعة الإسلامية، ولا يتعارض مع مصالح المسلمين ومنافعهم، عن عمرو بن العاص[١] رضي الله عنه، قال: سمعت النبي ﷺ جهارًا غير سر يقول: «**إِنَّ آلَ أَبِي لَيْسُوا بِأَوْلِيَائِي، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللَّهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ**»، يعني أصلها بصلتها[٢].

فلأهمية هذا الأمر لم يأمر الله تعالى بقطع صلة الرحم الكافرة، وإنما حض المؤمن على الإحسان إليهم، والاجتهاد في دعوتهم إلى الخير، وبذل ما يستطيعه من معروف لهم.

٦- صلة الأرحام من أحب الأعمال إلى الله تعالى، وهذا باعث عظيم على أهميتها ومكانتها في الإسلام، فقد سئل رسول الله ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله، فقال: «**إِيمَانٌ بِاللَّهِ ثُمَّ صِلَةُ الرَّحِمِ**»[٣]، فإذا وفق الله العبد لهذا العمل الجليل، وأعانه على تمامه وإحسانه، كان ذلك سبيلًا لنيل محبة الله تعالى والقرب منه، فضلًا عما ينشأ عن ذلك من المحبة والألفة التي تستقيم بها أحوال الأقارب والأرحام.

---

(١) الصحابي الجليل، أبو عبد الله، عمرو بن العاص بن وائل القرشي السهمي رضي الله عنه، أسلم سنة ثمان قبل الفتح، واستعمله رسول الله ﷺ على عمان، فلم يزل عليها إلى أن توفي رسول الله ﷺ، كان من شجعان العرب وأبطالهم ودهاتهم، مات سنة ثلاث وأربعين. ينظر: الاستيعاب (٣/ ١١٨٤)، أسد الغابة (٤/ ٢٣٢)

(٢) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب يبل الرحم ببلالها (٨/ ٦)، رقم ٥٩٩٠، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب موالاة المؤمنين ومقاطعة غيرهم والبراءة منهم (١/ ١٩٧)، رقم، ٣٦٦.

(٣) رواه أبو يعلى في مسنده، عن رجل من خثعم (١٢/ ٢٢٩)، رقم ١، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: ورجاله رجال الصحيح غير نافع بن خالد الطاحي وهو ثقة، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: مجمع الزوائد (٨/ ١٥١)، صحيح الجامع (١/ ٩٥)، رقم ١٦٦.

أسباب القرب من الأرحام:

إذا علم العبد المؤمن أن القرب من الأرحام موجب للقرب من الله، سارع لمعرفة الدواعي والأسباب التي تعينه على ذلك، وهي وإن كانت يسيرة على من يسَّرها الله عليه إلا إنه ليس هناك عد أو حد لها، فكل ما فيه معروف وإحسان للرحم هو وصل يقرب العبد منها، قال الطبري رحمه الله: «ووصلها: أداء الواجب لها إليها من حقوق الله التي أوجب لها، والتعطف عليها بما يحق التعطف به عليها»[(١)].

وقال النووي رحمه الله: «وأما صلة الرحم: فهي الإحسان إلى الأقارب على حسب حال الواصل والموصول، فتارة تكون بالمال، وتارة بالخدمة، وتارة بالزيارة والسلام، وغير ذلك»[(٢)].

وعلى ذلك، فإنه بعد استحضار فضل القرب من الأرحام بالصلة والإحسان، وسؤال الله سبحانه وتعالى العون على ذلك، يمكن إجمال أسباب القرب من الأرحام في الأمور التالية:

١- المبادرة إلى برِّهم وصلتهم وأداء حقوقهم وتفقُّد أحوالهم وقضاء حوائجهم:

تعد المبادرة إلى قضاء حوائج الأقارب والأرحام نوعًا من أنواع المسارعة في أبواب البر التي أمر الله بها، وحثَّ عليها في قوله تعالى: ﴿ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ ﴾ [البقرة: ١٤٨]، قال القرطبي رحمه الله: «يتضمن الحث على المبادرة والاستعجال إلى جميع الطاعات بالعموم»[(٣)].

---

(١) جامع البيان (١/ ٤٤٠).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (٢/ ٢٦٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ١٥١).

والقريب إذا شاهد من قريبه حرصًا ومبادرة على أداء الحقوق التي أوجبها الله عليه، ورأى منه رغبة في نفعه والإحسان إليه وقضاء حوائجه، كان ذلك سببًا لسعادته وانشراح صدره، ومبادلة قريبه المحبة والمودة والصفاء، وحصول التقارب الذي به يحصل القرب من الله.

٢- توطين النفس على تعاهدهم بالزيارة والهدية:

الواجب على المسلم أن لا تُنسيه مشاغل الحياة وهمومها تعاهد أقاربه بالزيارة والهدية والسلام، فذلك سبب من أسباب القرب من الأرحام، يدخل في عموم أدلة حقوق المسلم على أخيه المسلم[1]، وفضل الزيارة والهدية[2]؛ بل إن أداء حقوق الرحم القريب وإجابة دعوته، وتعاهده بالزيارة والإهداء، ومشاركته في المناسبات والأفراح، ومواساته في المآتم والأتراح، أولى من غيره من عامة المسلمين، حتى وإن شق على المسلم أمر إجابة الدعوة أو الزيارة أو الهدية، إما لبُعد مسافة أو طول سفر، أو انشغالٍ في ظروف الحياة، فإن الواجب عليه أن يجتهد في الإحسان على قدر الاستطاعة ولو باتصال أو رسالة، ويظل التسديد والمقاربة هما المخرج لرفع الملامة عنه والحرج.

٣- العفو والصفح عنهم وتجنُّب خصامهم ومجادلتهم والإساءة لهم:

حث الله سبحانه وتعالى على العفو والصفح عن الناس بوجه عام، وعن ذوي القربى بوجه خاص، ووعد على ذلك بالرحمة والغفران، قال تعالى في قصة أبي بكر رضي الله عنه

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس**»، رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الجنائز، باب الأمر باتباع الجنائز (٢/ ٧١)، رقم ١٢٤٠.

(٢) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الله عز وجل: «**وجبت محبتي للمتحابين في، والمتجالسين في، والمتزاورين في، والمتباذلين في**»، سبق تخريجه، ص ٣٥٧.

ومسطح بن أثاثة رضي الله عنه: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، قال السعدي رحمه الله: «وفي هذه الآية دليل على النفقة على القريب، وأنه لا تترك النفقة والإحسان بمعصية الإنسان، والحث على العفو والصفح، ولو جرى عليه ما جرى من أهل الجرائم»(١).

وإذا كان العبد مأمورًا بالعفو والصفح عن القرابة، والتنازل عن الحقوق وعدم المؤاخذة بالذنب وإزالة أثره من النفس، فإنه من باب أولى مأمور بتجنُّب قطيعتهم، وترك خصامهم أو أذيتهم، حتى إن أساء له أرحامه وجهلوا عليه وقطعوه، قال ﷺ: «**لَيْسَ الوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ، وَلَكِنِ الوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا**»(٢).

ولعل إحسانه إليهم وتحمُّل أذاهم والصبر على قطيعتهم، مع كونه واجبًا يقربه من أرحامه، يكون سببًا لأن يعودوا إلى رشدهم، ويحسنوا إليه كما أحسن عليهم.

٤- إصلاح ذات بينهم:

شرع الله تعالى إصلاح ذات بين الناس، وجعل محبته ورضاه وأجره العظيم ثمنَ تأليفِ القلوب المتنافرة، قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]، قال الألوسي رحمه الله: «خص الصدقة والإصلاح بين الناس بالذكر من بين ما شمله هذا العام، إيذانًا بالاعتناء بهما»(٣).

وكثيرًا ما ينزغ الشيطان بين الأرحام والأقارب ويفرق بينهم لأتفه الأسباب وأحقرها، وعندئذ يستدعي الأمر قيام أهل الخير بإصلاح ما أفسده الشيطان ودعا

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٥٦٥.

(٢) رواه البخاري من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، كتاب الأدب، باب ليس الواصل بالمكافئ (٦/٨)، رقم ٥٩٩١.

(٣) روح المعاني (٣/١٣٩).

إليه، فإذا جنَّد المسلم نفسه لإصلاح أمر أرحامه وقرابته، وسعى لأجل ذلك بجهده وجاهه وماله، كان ذلك سببًا لداوم الصلة وانتفاء القطيعة، واستمرار المحبة والألفة بين الأقارب والأرحام، وحصول الأجر مضاعفًا لمن سعى في إزالة العداوات التي يزرعها الشيطان.

٥- وعظهم وإرشادهم بما يصلح حالهم:

إن دعوة الأقارب وتعليمهم دينهم الذي فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة هو من أعظم ما يحسن به المسلم إلى أقاربه؛ بل هو أمر إلهي ألزم الله رسوله ﷺ، حين بعثه بالحق أن يبدأ به، قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[الشعراء: ٢١٤]، قال الشوكاني رحمه الله: «خص الأقربين؛ لأن الاهتمام بشأنهم أولى، وهدايتهم إلى الحق أقدم»[١].

وهذا يدل على أن دعوة الأقارب من الصلة والبر التي أمر الله بها، وهي بلا شك تزيد من تآلف القلوب واجتماع الكلمة بين الأرحام، وكلما كان الداعية المسلم قدوة حسنة لأقاربه، حليمًا في تعامله، حكيمًا في دعوته، صبورًا على جهل الجاهل منهم، كانت ثمار دعوته أخصب وأجود، وكان ذلك سببًا لحصول التقارب بين الأرحام والأقارب.

٦- الدعاء لهم:

الدعاء للأقارب والأرحام هو من أسهل ما يقرب العبد المسلم منهم، ومن أعظم ما يزيد الصلة بينهم، لا سيما إذا أُخبروا بذلك أو اطلعوا عليه، وهو أمر خص الله به الوالدين، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾

(١) فتح القدير (٤/١٥٨).

[الإسراء: ٢٤]، قال مكي رحمه الله: «أي: وقل: يا رب اعطف عليهما برحمتك كما عطفا عليَّ في صغري فرحماني وربياني صغيرًا»[١].

وخُصت به الذرية كذلك في قول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ ﴾ [الأحقاف: ١٥]، قال ابن جرير رحمه الله: «يقول: وأصلح لي أموري في ذريتي الذين وهبتهم، بأن تجعلهم هداة للإيمان بك، واتباع مرضاتك، والعمل بطاعتك، فوصفه جل ثناؤه بالبر بالآباء والأمهات والبنين والبنات»[٢].

ثم يكون ما سواهما من الأقارب والأرحام تباعًا لهم، خاصة إذا وجد العبد من نفسه تقصيرًا في حقوقهم، وخللًا في صلتهم والإحسان إليهم، قال شيخ الإسلام رحمه الله: «إذا وجد العبد تقصيرًا في حقوق القرابة والأهل والأولاد والجيران والإخوان، فعليه بالدعاء لهم والاستغفار»[٣].

فالواجب على المسلم أن يدعو لقرابته حال حضورهم وحال غيبتهم بالهداية والاستقامة والصلاح، وأن يسأل الله تعالى رزقه برهم وصلتهم والقرب منهم.

٧- الصدقة عليهم:

الصدقة على القريب تكتب عند الله صدقة وصلة رحم، كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، في حديث سلمان بن عامر[٤] رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «**إنَّ**

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية (٦/٤١٧٧).

(٢) جامع البيان (٢١/١٤١).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/٦٩٨).

(٤) الصحابي الجليل، سلمان بن عامر بن أوس الضبي رضي الله عنه، نزل البصرة، ومات بها، وله بها دار قريب من الجامع، مات في خلافة عمر رضي الله عنه، وقيل في خلافة عثمان رضي الله عنه، وقيل في خلافة معاوية رضي الله عنه. ينظر: الاستيعاب (٢/٦٣٣)، أسد الغابة (٢/٥٠٩)، الإصابة (٣/١١٨).

الصَّدَقَةَ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ وَعَلَى ذِى الرَّحِمِ اثْنَتَانِ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ»(١).

وكلما نقب العبد عن ضروريات الأقارب التي تمس إليها الحاجة، وتحرى الأوقات التي يضيق عليهم فيه الحال، كان ذلك أدعى لزيادة القرب منهم، وبناء جسور المحبة والمودة معهم.

وعلى أن ما ذكر هو جامع أسباب القرب من الأرحام، إلا أن المؤمن العاقد العزم على القرب من أرحامه، يبقى ذا عين ثاقبة يبصر بها ما هم إليه أحوج، ويحسن إليهم بمقتضى أحوالهم، ولن يعدم حينئذ مودتهم ومحبتهم والقرب منهم.

ثمرات القرب من الأرحام:

ترتكز ثمار القرب من الأرحام بشكل كبير على درجة الصلة بهم والإحسان إليهم، فكلما كان المؤمن أكثر وصلًا وإحسانًا لقرابته، كانت ثمار ذلك أعظم وأجمع، وقد دلَّت نصوص الشريعة على جملة من الفوائد النفيسة للقرب من الأرحام، أشهرها وأهمها ما يلي:

١- القرب من الأرحام والإحسان إليهم إيمان بالله تعالى وقرب منه:

إذا بذل المسلم الأسباب التي تقربه من أرحامه، أثمر ذلك رسوخًا في إيمانه يزيده قربًا من الله تعالى، هذا مستنبط من قول الرسول ﷺ: «**وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»(٢)، قال الفضيل رحمه الله: «أصل الإيمان عندنا وفرعه وداخله وخارجه بعد الشهادة بالتوحيد، وبعد الشهادة للنبي ﷺ بالبلاغ، وبعد

---

(١) رواه النسائي، كتاب الزكاة، باب الصدقة على الأقارب (٥/٩٦)، رقم ٢٥٨١، ورواه الترمذي وحسَّنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: سنن الترمذي (٢/٣٩)، رقم ٦٥٨، صحيح الجامع (٢/٧١٧)، رقم ٣٨٥٨.

(٢) سبق تخريجه، ص ٧١.

أداء الفرائض، صدق الحديث، وحفظ الأمانة، وترك الخيانة، ووفاء بالعهد، وصلة الرحم، والنصيحة لجميع المسلمين»[١].

٢- مَن وصل الرحم وصله الله:

صلة العبد لرحمه سبيل لوصل الله تعالى له، ومَن وصله الله وصِل إلى كل خير في الدنيا والآخرة، دلَّ على ذلك الحديث القدسي الذي يرويه رسولنا ﷺ عن ربه ﷻ قال: «**خَلَقَ اللَّهُ الخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ لَهُ: مَهْ، قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ العَائِذِ بِكَ مِنَ القَطِيعَةِ، قَالَ: أَلاَ تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ، قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَذَاكِ لَكِ**»[٢]، فهو وصل لائق بالله تعالى على الحقيقة، وهو من باب المجازاة والمقابلة لمن يستحقه[٣]، فمن وصل أرحامه بالبذل والإحسان، وصله الله تعالى وأحسن إليه في الدنيا والآخرة بكل ما يقتضيه معنى الإحسان.

٣- القرب من الأرحام سبب من أسباب دخول الجنة:

إذا بذل العبد ما في وسعه لأقاربه وأرحامه، وأحسن إليهم بما يقدر عليه من الإحسان، كان ذلك سببًا لدخول الجنة والنجاة من النار، فعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، أن رجلًا قال للنبي ﷺ: أخبرني بعمل يدخلني الجنة، قال: «**تَعْبُدُ اللَّهَ لاَ تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ**»[٤].

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب في الأمانات وما يجب من أدائها إلى أهلها (٧/٢٠٢)، رقم ٤٨٨٠.

(٢) سبق تخريجه، ص ٧١.

(٣) ينظر: التنبيه على المخالفات العقدية في الفتح، علي بن عبد العزيز الشبل، ص٣٩.

(٤) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب فضل صلة الرحم (٨/٥)، رقم ٥٩٨٣، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة...، (١/٤٢)، رقم ١٢.

قال النووي رحمه الله: «وتصل الرحم: أي تحسن إلى أقاربك ذوي رحمك بما تيسَّر على حسب حالك وحالهم من إنفاق أو سلام أو زيارة أو طاعتهم، أو غير ذلك»(١).

وتعد هذه الثمرة أطيب ثمار قرب العبد من أقاربه وأرحامه؛ بل هي أطيب ثمار القرب من الله تعالى، فهي الغاية العظمى التي لأجلها تؤتى الطاعات وتجتنب المنكرات، وهي مبتغى كل متقرب إلى الله بالأعمال الصالحات.

٤- صلة الأرحام زيادة في العمر وفيض في الرزق:

أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله يمنُّ على أهل الصلة والإحسان بزيادة العمر، وبسط الزرق، فعن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ**(٢)**، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»(٣).

وقد أجاب العلماء عن تأخير الأجل بوجوه؛ **أحدها**: أن هذه الزيادة بالبركة في العمر والتوفيق في الطاعات، وعمارة الأوقات بما ينفع في الآخرة. **وثانيها**: أن ذلك عائد لما يظهر للملائكة في اللوح المحفوظ، فيظهر لهم في اللوح المحفوظ أن عمره ستون سنة إلا أن يصل رحمه، فإن وصلها زيد له أربعون، وقد علم الله سبحانه وتعالى بما سيقع له من ذلك. **وثالثها**: أن المراد بقاء ذكره الجميل بعد موته(٤).

ولا مانع من حمل المعنى على تلك الوجوه جميعها، فيبارك الله في عمره، ويوفقه للطاعة، ويكتب الله تعالى في كتابه أن يزاد عمره بسبب صلة رحمه، ويبقى ذكره الجميل بعد موته.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١/٢٤٢).

(٢) النسأ: التأخير. والأثر: الأجل، سمى بذلك لأنه تابع الحياة. ينظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم (٨/ ٢١).

(٣) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم (٨/٥)، رقم ٥٩٨٦، ورواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، (٤/ ١٩٨٢)، رقم ٢١.

(٤) ينظر: الكاشف عن حقائق السنن (١٠/٣١٦٠).

وأما زيادة الرزق: فقد يكون المراد ما كتبه الله تعالى وأخبر به الملائكة، فهو يزيد وينقص بحسب الأسباب، فإذا وصل رحمه بسط في رزقه، والله يعلم ذلك، وقد يكون المراد توسيعه وكثرته أو البركة فيه[١].

وعلى كل الأحوال، فإن هذه الثمرة منَّة عظيمة من الله تعالى وهبها سبحانه بحكمته البالغة لمن سابق إلى صلة أهله وأرحامه، وجعلها مكرمة لهم في الدنيا، تطيب بها حياتهم، وتسعد بها نفوسهم.

٥- نصر الله تعالى وعونه لِمَن يصل رحمه:

إذا تحلى المؤمن بالصبر على صلة أرحامه، وقابل إساءتهم وقطيعتهم بالحلم والإحسان، أيده الله تعالى بنصره وتأييده وتوفيقه، فعن أبي هريرة ﵁، أن رجلًا قال: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ، فقال: «**لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ**[٢]**،وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ**»[٣].

فإذا استعان العبد المؤمن بالله تعالى على صلة أرحامه، ولم يعاملهم بمثل ما هم عليه من الإساءة والقطيعة، أعانه الله تعالى ونصره عليهم، وكان حاله معهم كأنما يضع الرماد الحار في أفواههم، وفي الحديث دلالة صريحة على أن صلة العبد وإحسانه لأقاربه وأرحامه ليست مكافأة لهم على جميل فعلوه، إنما هي أمر تعبُّدي يجب على المسلم امتثاله حتى وإن لم يمتثله أقاربه وأرحامه.

---

(١) ينظر: صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/١٧٢)، مجموع الفتاوى (٨/٥٤٠).

(٢) المل: الرماد الحار، والمعنى: كأنما تطعمهم الرماد الحار وهو تشبيه لما يلحقهم من الألم بما يلحق آكِل الرماد الحار من الألم. ينظر: شرح النووي على مسلم (١٦/١١٥).

(٣) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم، وتحريم قطيعتها (٤/١٩٨٢)، رقم ٢٢.

٦- القرب من الأرحام موجب للمحبة والإخاء بينهم:

فكلما تقاربت قلوب الأرحام وتصافت نفوسهم، وقاموا بما أوجبه الله عليهم من الصلة والإحسان، أضفى ذلك على حياتهم راحة واطمئنانًا وسعادة لا تفوقها سعادة، وشاعت بينهم روح المحبة والإخاء، فلا تراهم إلا متآلفين متراحمين، يتواصلون ويتزاورون، فيعم فيهم الخير، وتخف عنهم وطأة المصائب والضير.

والحاصل أن هذه الفوائد والمنافع تبعث على الاهتمام بصلة الرحم، والحذر من القطيعة، وتشعر الإنسان أنه يقوم بدوره المهم في بناء مجتمع مسلم متكافل متكامل، تسود فيه مظاهر الحب والألفة والإخاء، وتترتب فيه العلاقات الأسرية التي تصفو بها حياة الفرد والمجتمع.

القسم الثاني: القرب من الجيران «أهميته وأسبابه وثماره»

لا يختلف القرب من الجيران عن القرب من الأرحام في معناه العام وأهميته وأسبابه، فهو مفهوم يدور معناه حول أداء حقوق الجار، وصيانة عرضه وماله ونفسه، والإحسان إليه، وعدم الإساءة إليه.

أهمية القرب من الجيران:

حضَّ الإسلام على القرب من الجيران، واعتنى به عناية مهمة جدًّا، وجاءت النصوص الكثيرة التي تبين أهمية القرب من الجيران بالإحسان إليهم، وبذل المعروف لهم، وكف الأذى عنهم، وتبرز أهمية هذه القضية من خلال الأمور التالية:

١- قرن الله ﷻ حق الجار بحقه العظيم الذي من أجله خلق الخلق وأوجده، قال تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ ﴾ [النساء: ٣٦]، قال

السعدي رحمه الله: «﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، أي: الجار القريب الذي له حقان: حق الجوار، وحق القرابة، فله على جاره حق وإحسان راجع إلى العرف، وكذلك ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾، أي: الذي ليس له قرابة، وكلما كان الجار أقرب بابًا كان آكد حقًّا، فينبغي للجار أن يتعاهد جاره بالهدية، والصدقة، والدعوة، واللطافة بالأقوال والأفعال، وعدم أذيته بقول أو فعل»(١).

فحقٌّ على المسلم أن يحفظ وصية الله تعالى وأمره، فإن ذلك دليل الإيمان إذا وقر في القلب، وبرهان الأمانة والصدق، وعلامة الأخلاق الفاضلة والشيم الكريمة.

٢- عظم رسول الله ﷺ حق الجار، وأظهر مكانته الجليلة وحقوقه الكريمة التي دعت إليها الشريعة الإسلامية، فجعل رسول الله ﷺ منفعته والإحسان إليه وتجنب أذيته شعار الإيمان بالله واليوم الآخر، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره**»(٢)، وفي رواية: «**فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ**»(٣).

وحض رسول الله ﷺ على إكرامه والإحسان إليه ولو بالشيء القليل، كما في قوله ﷺ: «**يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ، لاَ تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا، وَلَوْ فِرْسِنَ(٤) شَاةٍ**»(٥).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ١٧٨.

(٢) رواه البخاري، كتاب النكاح، باب الوصاة بالنساء (٢٦/٧)، رقم ٥١٨٥، ورواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار، (١/ ٦٨)، رقم ٧٥.

(٣) رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار... (٦٩/١)، رقم ٧٦.

(٤) الفِرسن: عظم قليل اللحم، وهو خف البعير، كالحافر للدابة، وقد يستعار للشاة فيقال: فرسن شاة. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤٢٩/٣).

(٥) رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب... (١٥٣/٣)، رقم ٢٥٦٦، ورواه مسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بالقليل، (٢/ ٧١٤)، رقم ٩٠.

وأوصى أمَّته بضرورة تعاهده بالهدية والصدقة، فقال ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه: «**يَا أَبَا ذَرٍّ إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً**[١]**، فَأَكْثِرْ مَاءَهَا، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ**»[٢].

قال القرطبي رحمه الله: «فالوصاة بالجار مأمور بها مندوب إليها مسلمًا كان أو كافرًا»[٣].

والمؤمنون بالله واليوم الآخر حقًّا هم الذين يقومون بما ندبت إليه الشريعة، وحضَّت عليه، من الإحسان إلى الجيران، والحرص على أداء حقوقهم، وتجنُّب أذيتهم.

٣- مما يدل على أهمية القرب من الجيران والإحسان إليهم مبالغة جبريل عليه السلام في الوصاية بهم، وشدة حرصه على الإحسان إليهم، فعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال رسول الله ﷺ: «**مَا زَالَ جِبْرِيلُ عليه السلام يُوصِينِي بِالْجَارِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ**»[٤]، قال الصنعاني رحمه الله[٥] في شرح الحديث: «ما زال جبريل عليه السلام يوصيني عن الله تعالى في الجار في رعايته والصبر على أذاه والإحسان إليه، حتى ظننت أنه سيورثه، أي: يأمرني بأنه وارث عن أمر الله»[٦].

وتقتضي هذه المبالغة في الوصية بالجار أن يحرص المؤمن على إيصال أصناف

---

(١) المرقة: عادة تكون من اللحم أو من غيره مما يؤتدم به. ينظر: شرح رياض الصالحين (٣/ ١٧٧).

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار والإحسان إليه (٤/ ٢٠٢٥)، رقم ١٤٢.

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ١٨٤).

(٤) سبق تخريجه، ص ٨٦.

(٥) محمد بن إسماعيل بن صلاح الكحلاني، ثم الصنعاني، المعروف بالأمير، إمام كبير مجتهد، أخذ عن علماء صنعاء ومكة والمدينة، وبرع في جميع العلوم، وفاق الأقران، وتفرد برئاسة العلم في صنعاء، له من المصنفات: "سبل السلام"، و"التنوير شرح الجامع الصغير"، و"تطهير الاعتقاد"، مات سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف. ينظر: البدر الطالع (٢/ ١٣٣)، الأعلام (٦/ ٣٨).

(٦) التنوير شرح الجامع الصغير (٩/ ٣٩٧).

الإحسان إليه بحسب ما يقتضيه الحال، وأن يتجنب أذيته أو الإساءة إليه بأي نوع من أنواع الإساءة.

٤- علق رسول الله ﷺ دخول الجنة بسلامة الجار من غدرات جاره وفجراته، قال ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**»[(١)]، قال ابن حجر رحمه الله، في معنى البوائق: «جمع بائقة، وهي الداهية، والشيء المهلك، والأمر الشديد الذي يوافي بغتة»[(٢)].

وفي رواية أخرى بالغ رسول الله ﷺ في نفي الإيمان عن عبد لا يأمن جاره غدره وخيانته، قال ﷺ: «**وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لاَ يُؤْمِنُ**» قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «**الَّذِي لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَايِقَهُ**»[(٣)].

والحديثان فيهما من الترهيب الشديد ما يُشعر بخطر أذية الجار ومنع حقوقه التي أوجبها الله تعالى له وقصر في أدائها كثير من الناس، وهذا يدل بمفهومه على تعظيم أمر الجار وأهمية القرب منه، وضرورة التقرب إلى الله تعالى بالإحسان إليه.

أسباب القرب من الجار:

أعظم ما يجعل المسلم قريبًا من جاره أداء حقوقه وكف الأذى عنه والإحسان إليه بشتى وجوه الإحسان، فإن ذكره مع الوالدين والأرحام واليتامى والمساكين في قول الله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾ [النساء: ٣٦]

---

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الإيمان، باب تحريم إيذاء الجار (١/٦٨)، رقم ٨١.

(٢) فتح الباري (١٠/٤٤٣).

(٣) رواه البخاري من حديث أبي شريح رضي الله عنه، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوايقه، (٨/١٠)، رقم ٦٠١٦.

يقتضي أن له حقًّا واجبًا وإحسانًا كما لهم حقوق واجبة وإحسان، وعلى ذلك فكل ما قد ذكر في أسباب القرب من الأرحام من بر وصلة وإحسان مع كف الأذى وسلامة الصدر والعفو والصفح عنهم وإجابة دعوتهم هي كذلك أسباب للقرب من الجيران، وبر بهم، وصلة لهم.

وقد ذكر أبو حامد الغزالي رحمه الله [١] جملة من الحقوق الواجبة للجار على جاره، تعتبر بعمومها أسبابًا للقرب بين الجيران، ومدعاة للمحبة والمودة بينهم، فقال رحمه الله: «وجملة حق الجار أن يبدأه بالسلام، ولا يطيل معه الكلام، ولا يكثر عن حاله السؤال، ويعوده في المرض، ويعزيه في المصيبة، ويقوم معه في العزاء، ويهنئه في الفرح، ويظهر الشركة في السرور معه، ويصفح عن زلاته، ولا يتطلع من السطح إلى عوراته، ولا يضايقه في وضع الجذع على جداره، ولا في مصب الماء في ميزابه، ولا في مطرح التراب في فنائه، ولا يضيق طرقه إلى الدار، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره، ويستر ما ينكشف له من عوراته، وينعشه من صرعته إذا نابته نائبة، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته، ولا يسمع عليه كلامًا، ويغض بصره عن حرمته، ولا يديم النظر إلى خادمته، ويتلطف بولده في كلمته، ويرشده إلى ما يجهله من أمر دينه ودنياه»[٢].

ثمرات القرب من الجيران:

مَن تقرَّب من جيرانه وأدى حقوقهم وأحسن إليهم بما يقدر عليه، كسب

---

(١) أبو حامد، محمد بن محمد بن محمد الطوسي الغزالي، الإمام الجليل صاحب التصانيف والذكاء المفرط، كان أفقه أقرانه وإمام أهل زمانه، لازم إمام الحرمين، فبرع في الفقه في مدة قريبة، ومهر في الكلام والجدل، له من المصنفات: "إحياء علوم الدين"، و"تهافت الفلاسفة"، و"المستصفى من علم الأصول"، مات سنة خمس وخمسمائة. ينظر: سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٢٢)، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (٦/ ١٩١)، الأعلام (٧/ ٢٢).

(٢) إحياء علوم الدين (٢/ ٢١٣).

حبهم وودهم، وحاز منافع عظيمة في الدنيا والآخرة، أهمها:

١- عمارة القلب بالطاعة والإيمان:

يورث الإحسان إلى الجار عمارة قلب صاحبه بالطاعة والإيمان، والفوز برضا الرحيم الرحمن، ويعدُّ هذا مكسبًا عظيمًا من مكاسب الإحسان إلى الجار والقرب منه، قال ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِي جَارَهُ**»(١)، وفي رواية: «**فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ**»(٢).

فمتى سادت روابط الجوار المبنية على أساس المحبة والرحمة والإحسان، عظم حينئذ إيمان الأمة واشتهرت مظاهره بين الناس، ومتى تقطعت تلك الروابط وتفككت وحل بها الدمار، ضعف إيمان الأمة، وقلَّ تعظيم أمر الله تعالى وأمر رسول الله ﷺ.

٢- القرب من الجيران سبب من أسباب دخول الجنة:

أعظم ثمار القرب من الجيران على الإطلاق نيل رضا الله والفوز بكرامته يوم القيامة، وهي بلا شك غاية كل مسلم يتقرب إلى الله تعالى ويسعى في مرضاته، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رجل: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا قَالَ: «**هِيَ فِي النَّارِ**». قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلَاتِهَا وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنْ الْأَقِطِ(٣) وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا قَالَ: «**هِيَ فِي الْجَنَّةِ**»(٤). وأثوار الأقط: قطع اللبن الجامد المستحجر.

---

(١) سبق تخريجه، ص ٤٢٣.

(٢) سبق تخريجه، ص ٤٢٣.

(٣) أثوار الأقط: جمع ثور، وهي قطع اللبن الجامد المستحجر. ينظر: نيل الأوطار، محمد بن علي الشوكاني (١/ ٢٦٢).

(٤) سبق تخريجه، ص ٢٠١.

فالحديث فيه إشارة إلى أن إيذاء الجار والإساءة إليه يمحقان بركة العمل ويبطلان ثوابه، وأن الإحسان إلى الجار ولو بكف الأذى وحفظ اللسان عمل جليل يقوم مقام النوافل من العبادات التي تُدخل صاحبها الجنة، وترفع مقامه في درجاتها.

٣- الظفر بالخيرية عند الله:

أخبر رسول الله ﷺ بفضل وخيرية المحسنين إلى جيرانهم، المتقربين إلى الله تعالى ببرهم وإكرامهم، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**خَيْرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الجِيرَانِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ**»[(١)].

فإذا بالغ العبد المؤمن في إكرام جيرانه وحفظ حقوقهم وتفقد حوائجهم، حتى يصبح بذلك أكثر الناس برًّا بجيرانه وإحسانًا، جزاه الله تعالى يوم القيامة بالأجر العظيم والعطاء الجزيل حتى يكون أكثر الجيران ثوابًا عند الله، وأعلاهم منزلة.

٤- السعادة في الدنيا والآخرة:

الإحسان إلى الجار وحفظ وده وتجنُّب أذيته ومحبة الخير له سبب من أسباب سعادة العبد في الدنيا والآخرة، قال رسول الله ﷺ: «**مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ: الْجَارُ الصَّالِحُ، وَالْمَرْكَبُ الْهَنِيءُ، وَالْمَسْكَنُ الْوَاسِعُ**»[(٢)].

فالجار الصالح جمع الله تعالى له سعادة الدارين، فهو في الحياة الدنيا منشرح الصدر منبسط الأسارير، يجد لذة الحياة مع جيرانه بعد أن بذل لهم الأسباب التي

---

(١) رواه الترمذي، أبواب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في حق الجوار (٣/٤٩٧)، رقم ١٩٤٤، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: صحيح الجامع (١/٦٢٠)، رقم ٣٢٧٠.

(٢) رواه أحمد في مسند نافع بن الحارث رضي الله عنه (٢٤/٨٦)، رقم ١٥٣٧٢، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: مجمع الزوائد (٨/١٦٣)، صحيح الجامع (١/٥٨٢)، رقم ٣٠٢٩.

تحفظ حقوقهم، وقَطَعَ دواعي البغضاء والشحناء التي تفسد الود بينهم، وإذا كان يوم القيامة رفع الله مقامه وأعلى منزلته، وهيَّأ له أعظم أسباب الراحة والسرور.

٥- القرب من الجيران يورث المحبة والألفة بين الجيران:

الإحسان إلى الجار، ومد يد العون له، والقرب منه، وكف الأذى عنه، والتجاوز عن هفواته، مما يزيد المحبة والألفة والتراحم والتعاطف بين الجيران، فيعيش الناس في محبة ووئام، وتطيب حياة الجيران، ويتماسك المجتمع الإسلامي ويترابط، وتنصرف همم أبناء الأمة للإصلاح والتقدم والرقي.

وبالجملة، فإن حفظ حقوق الأرحام والجيران عامل مهم من عوامل القرب من الله تعالى، ينطوي عليه تربية النفوس على حب الخير والفضيلة، وصقل دوافع الرغبة في الوصول إلى أعلى مراتب الكمال البشري، وهو مطلب عظيم من مطالب الشريعة، وخصلة شريفة من خصال الطباع السليمة والأخلاق الكريمة، به تشتد عُرى القرابة بين الناس، وتقوى أواصر المحبة والمودة، ويزداد القرب من الله تعالى.

المطلب الثاني:

القرب من الأخلاء والأصحاب الصالحين

«أهميته وأسبابه وثماره»

كل إنسان لا بد له من جلساء يخالطهم ويخالطونه، ويستعين بهم بعد الله تعالى في البأساء والضراء؛ لكن العاقل الحصيف لا يخالط من الناس إلا مَن ظهرت فيه رجاحة العقل وعلامات التقوى، فيتكون له من ذلك ثلة من الأصحاب والأخلاء الصالحين الذين لا يملون من القرب ولا ينسون مع البعد، فإذا لازمهم واتصل بهم وتقرب منهم، كان لذلك أثر عظيم على سلوكه وأخلاقه، وحصل له من ذلك فوائد عظيمة في دنياه وآخرته.

وفي هذا المطلب سوف يُبسط القول في حقيقة القرب من الأصحاب والأخلاء الصالحين، ويُبيَّن أثره على قضية القرب من الله، وذلك من خلال بيان أهميته وأسبابه وثماره.

أهمية القرب من الأصحاب والأخلاء الصالحين:

كلما كان المؤمن على علم بأهمية القرب من الأصحاب والأخلاء، نشطت نفسه وارتفعت عزيمته لتحصيل الأسباب والدوافع التي توطد صلته بكل صديق تقي نقي حريص على طاعة ربه، ومَن يتأمَّل نصوص الكتاب والسُّنة تتبين له أهمية ملازمة الأصحاب والأخلاء والقرب منهم، التي يمكن إيجازها فيما يلي:

١- يدخل الأصحاب الصالحون في جملة الأولياء الأتقياء الذين أمر الله تعالى بالقرب منهم وحضَّ على ملازمتهم في قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ

﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ [الكهف: ٢٨]، قال البقاعي رحمه الله: «ومن أراد قانونًا عظيمًا لمن يصاحب ومَن يجانب فعليه بآية الكهف: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾»[1].

وقال سيد قطب رحمه الله: «اصبر نفسك مع هؤلاء، صاحبهم وجالسهم وعلمهم، ففيهم الخير، وعلى مثلهم تقوم الدعوات»[2].

فحبس النفس مع هؤلاء الأخيار الصالحين المخلصين قربة عظيمة إلى الله، تجعل العبد المؤمن ذاكرًا لله تعالى متقلبًا في طاعاته آناء الليل وأطراف النهار، ومهما بلغ المؤمن من التقى والصلاح، فإنه لا غنى له عن مثل هؤلاء الأخيار الذين يعينونه على الطاعة والاستقامة.

٢- القرب من الأصدقاء الصالحين ذو أثر بالغ الأهمية على صقل شخصية العبد وتوجيه سلوكه وتصحيح توجهاته ليكون عضوًا صالحًا في مجتمعه نافعًا لنفسه وأمَّته، ولذلك وجه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ضرورة العناية بانتقاء الأصحاب والأخلاء، فقال صلى الله عليه وسلم: «**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**»[3]، وقال في حديث آخر: «**لاَ تُصَاحِبْ إِلاَّ مُؤْمِنًا، وَلاَ يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلاَّ تَقِيٌّ**»[4].

فإذا طلبت رفيقًا يشاركك في أمر دينك ودنياك، فراعِ فيه خمس خصال؛ العقل: فلا خير في صحبة الأحمق، وحسن الخلق: فلا تصحب مَن ساء خلقه

---

(١) نظم الدرر (٢٢/٤٣٦).

(٢) في ظلال القرآن (٤/٢٢٦٨).

(٣) سبق تخريجه، ص ١٩٣.

(٤) رواه الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أبواب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في صحبة المؤمن (٤/١٨٧)، رقم ٢٣٩٥، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: صحيح الجامع (١/٦٦٤)، رقم ٣٥٤٥.

وتملكه غضبه وشهوته، والصلاح: فلا تصحب فاسقًا لا يخاف الله، فإن مَن لا يخاف الله لا تؤمن غوائله، والزهد في الدنيا: فصحبة الحريص عليها تقود إلى التشبه والاقتداء به، والصدق: لأن الكاذب مثل السراب، يقرب منك البعيد، ويبعد منك القريب(١).

ولا يغيب على العاقل أن هموم الحياة المعاصرة وكثرة مغرياتها تستدعي البحث عن جلساء صالحين، يحركون مشاعر المؤمن نحو تعظيم أمر الله تعالى ونهيه، ويعينونه على تربية نفسه على الاستقامة على دين الله، ويتقاسمون معًا أفراح الحياة وأحزانها.

٣- أخبر الله أن كل خلة وصحبة في الدنيا هي وبال على صاحبها يوم القيامة إلا خلة المتقين الصالحين، فإنهم قد وجدوا بخلتهم أسباب الخير والثواب في الدنيا فبقيت لهم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ **ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ** ﴾ [الزخرف:٦٧]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كل خلة في الدنيا هي عداوة يوم القيامة، إلا خلة المتقين»(٢).

وهذا البيان الرباني حافز عظيم يوجب انتقاء الأصحاب بعناية فائقة، ويستدعي التخلص من كل صحبة تنقلب يوم القيامة عداوة وندامة.

فمن هذه الأسباب الثلاثة الآنفة الذكر يتبين كيف أن صحبة الأخيار والقرب منهم معوّل عليه صلاح الأخلاق واستقامة الأحوال، ويرجى منها صلاح الدين والعقل والخلق، ويتحقق بها كثير من حاجات النفس، فهي بذلك جديرة بالاهتمام، وحرية بأن ترعى وتصان.

---

(١) ينظر: بداية الهداية (١/ ٦٥).

(٢) الهداية إلى بلوغ النهاية (١٠/ ٦٦٩٦).

أسباب القرب من الأصحاب الصالحين:

كان قد سبق في مطلب القرب من الأولياء الصالحين ذكر جملة من الأسباب التي تعين على ملازمتهم ومعاشرتهم[١]، ولأن الأصحاب والأخلاء الصالحين ليسوا إلا خاصة العبد المؤمن وخلاصته من جماعة الأولياء الصالحين، فلا ريب أن كل ما يقرب العبد من الأولياء الصالحين هو أيضًا سبب من أسباب القرب من الأصحاب والأخلاء الصالحين، فمتى ما سأل العبد ربه أن ييسر له أصدقاء صالحين يعينونه على الخير مع محافظته على أسباب الإيمان والطاعة والعمل الصالح والإكثار من مجالسة الأخيار وإظهار الحب والود لهم، فإن الله تعالى سيبعث له نخبة صالحة تكون أكثر قربًا منه وتوددًا إليه، فالأرواح كما قال ﷺ: «**جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ**[٢]**، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**»[٣]، على أنه يجب على المؤمن المحافظة على هؤلاء الخواص بمبادلتهم الحب والإحسان، وحسن الخلق، والصفح عن عثراتهم، وقبول أعذارهم، مع بشاشة الوجه، وسعة القلب وسلامته، ولطف اللسان وحلاوته، والبر والصلة، والزيارة، وإجابة الدعوة، والمشاركة في الأفراح، والمواساة في الأحزان، وغير ذلك من الأسباب والدواعي

---

(١) ينظر: مطلب القرب من الأولياء الصالحين، ص ٣٥٣.

(٢) قال النووي: «قال العلماء: معناه جموع مجتمعة أو أنواع مختلفة وأما تعارفها فهو لأمر جعلها الله عليه، وقيل: إنها موافقة صفاتها التي جعلها الله عليها وتناسبها في شيمها، وقيل: لأنها خلقت مجتمعة ثم فرقت في أجسادها، فمن وافق بشيمه ألفه، ومن باعده نافره وخالفه، وقال الخطابي وغيره: تآلفها هو ما خلقها الله عليه من السعادة أو الشقاوة في المبتدأ، وكانت الأرواح قسمين متقابلين، فإذا تلاقت الأجساد في الدنيا ائتلفت واختلفت، بحسب ما خلقت عليه، فيميل الأخيار إلى الأخيار، والأشرار إلى الاشرار». ينظر: شرح النووي على مسلم (١٦/ ١٨٥).

(٣) رواه البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها، كتاب الأنبياء، باب الأرواح جنود، (٤/ ١٣٣)، رقم ٣٣٣٦، ورواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب البر والصلة والآداب، باب الأرواح جنود مجندة (٤/ ٢٠٣١)، رقم ١٥٩.

التي تقوِّي العلاقة بين الأحبة والأصحاب[١].

ثمرة القرب من الأصحاب والأخلاء الصالحين:

القرب من الأصحاب والأخلاء الصالحين منافعه عظيمة، وفوائده جليلة، فهم من خيار الخلق وأشرفهم، وأحبهم إلى الله، كلامهم ذكر وعبادة، ومجالستهم لا تخلو من الإفادة، ومَن أراد سبر ثمرات القرب من الأصحاب والأخلاء الصالحين سيجدها كثيرة جدًّا، وقد اكتفى الباحث منها بأمثلها حُسنًا، وأجدرها ذكرًا، وهي كما يلي:

١- قرب الأخلاء الصالحين زينة الحياة الدنيا:

فلا فرحة حقيقية، ولا طمأنينة يسعد بها قلب المؤمن إلا في ملازمة الأخلاء الصالحين، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾ [الكهف: ٢٨]، أي: احبس يا محمد نفسك مع الذين يدعون ربهم طرفَي النهار، يريدون وجه الله والدار الآخرة، لا يريدون بذلك أعراض الدنيا الزائلة، ولا تصرف أو تتجاوز عنهم إلى غيرهم، أو تطلب مجالسة الأغنياء والأشراف وصحبة أهل الدنيا على صحبتهم[٢].

فكأن الله تعالى ينبه نبيه ﷺ وأمَّته إلى أن زينة الحياة وجمالها الحقيقي تكون في ملازمة الصالحين من الأصحاب والأخلاء لا في مجالسة الفجار من الأشراف والأغنياء وأهل الجاه.

٢- خلة الأصحاب الصالحين والقرب منهم تبقى في الدنيا وتدوم في الآخرة:

فهي طاعة لأهلها في الدنيا، وأمان وطمأنينة وفائدة يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، فكل خلة

(١) لمعرفة المزيد من أسباب القرب من الأصحاب، يرجع لكتاب آداب الصحبة لأبي عبد الرحمن السلمي.

(٢) ينظر: معالم التنزيل (١٦٦/٥).

يوم القيامة تنقلب وتنقطع إلا خلة المتقين وصحبتهم، فإنها تزداد قوة وفائدة[١]، وذلك لأن خلة المتقين الطائعين قائمة على الحب في الله والاجتماع على طاعة الله، وأما خلة غيرهم فهي قائمة على مصالح الدنيا الفانية، ما تلبث أن تنقطع بانقطاع المصالح الدنيوية وانتفائها، ثم تنقلب يوم القيامة عداوة وملامة.

٣- القرب من الأخلاء الصالحين شرف يعلو بصاحبه إلى أعلى درجات المجد:

ولا يزال المؤمن يناله من فيض ذكرهم الجميل وشأنهم العظيم طالما كان ملازمًا لصحبتهم، مواظبًا على مجالستهم، قال ابن كثير رحمه الله في معرض تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨]: «وشملت كلبَهم بركتُهم، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال، وهذا فائدة صحبة الأخيار، فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن»[٢].

وليس من لوازم الشرف الحقيقي أن يكون للعبد ذكر عند الناس ومكانة، إنما الشرف الحقيقي أن يكون للمسلم ذكر وثناء من الله وملائكته، فمَن رأى من نفسه إقبالًا على ما يرفع ذكره عند الله لزم الطريق وتمسَّك بحبله الوثيق.

٤- الخل الصالح كالمسك الطيِّب، متعدد المنافع كثير الفوائد:

الخل الصالح في طيبه وحسن أثره على أخلاق وسلوك العبد كحامل المسك الذي لا تعدم منه الفائدة أبدًا، قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ: إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً**»[٣]، والواقع يشهد بهذا، فكل من رُزِق سريرة صالحة ونية خالصة وصدق

---

(١) ينظر: البحر المحيط (٣٦/٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١٤٤/٥).

(٣) سبق تخريجه، ص ١٢٧.

توجُّهٍ لله تعالى، كان سلوكه وأخلاقه وتعامله شجرة ظلها ظليل وثمرها وفير، ينعم بها كل مَن عاشره ولازمه وتقرب منه.

٥- القرب من الأخلاء الصالحين يورث محبة الله تعالى:

إذا تقرب العبد المؤمن من صحبة صالحة، ربح محبتهم وحسن عشرتهم، وانتفع بدعوتهم ونصحهم ودلالتهم على الخير، وهذا يستدعي محبة الله تعالى للعبد ورضاه عنه، قال ﷺ، فيما يرويه عن ربه: «**قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ**»[1]، ومن فرط محبة الله تعالى لهم أنهم بمنزلة من الله يغبطهم عليها النبيِّون والشهداء يوم القيامة، عن معاذ بن جبل[2] رضي الله عنه، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: الْمُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمُ**[3] **النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ**»[4].

فهذه بشارة عظيمة لا يعرف قيمتها إلا مَن تذوَّق رحيق المحبة في لله، وحمل في قلبه ود الصالحين ومحبتهم، وجاهد نفسه على مجالستهم والاقتداء بهم والتقرب منهم بكل ما يمكنه فعله من الأقوال والأفعال.

---

(١) سبق تخريجه، ص ٣٩١.

(٢) الصحابي الجليل، أبو عبد الرحمن، معاذ بن جبل بن عمرو الأنصاري الخزرجي رضي الله عنه، أسلم وعمره ثماني عشرة سنة، وهو أحد السبعين الذين شهدوا العقبة، وشهد بدرًا وأحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ، وكان أعلم الصحابة بالحلال والحرام، أرسله رسول الله ﷺ إلى اليمن، فلم يزل بها حتى توفي رسول ﷺ، ثم نزل الشام ومات بها في طاعون عمواس سنة ثماني عشرة. ينظر: الاستيعاب (١٤٠٢/٣)، أسد الغابة (١٨٧/٥).

(٣) غبطت الرجل أغبطه غبطا، إذا اشتهيت أن يكون لك مثل ما له، وأن يدوم عليه ما هو فيه. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٣٣٩).

(٤) رواه الترمذي، أبواب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الحب في الله (١٩٧/٤)، رقم ٢٣٩٠، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: صحيح الجامع (٧٩٥/٢)، رقم ٤٣١٢.

المطلب الثالث:

موانع القرب من القرابات الخاصة وعاقبة ذلك

جدير بعد بسط القول في قضية القرب من القرابات الخاصة ببيان أهميتها وأسبابها وثمارها، أن يُتمم الموضوع بالبحث عن الأسباب والموانع التي كثيرًا ما تحول بين العبد وبين قراباته الخاصة، ثم يُختم الحديث بعد ذلك بذكر جملة العقوبات الدنيوية والأخروية المتوقعة لأهل البعد من القرابات الخاصة، لعل أن يكون فيها من العبرة والعظة ما يجعل البعيد عن قراباته الخاصة يعود إلى رشده ويتوب إلى ربه.

أولاً: موانع القرب من القرابات الخاصة:

تهيمن الموانع والأسباب التي تصرف العبد عن قراباته الخاصة على الروابط الاجتماعية فتقطعها، وتستحوذ على العلاقات الإنسانية فتهدمها، وتحول حياة المجتمع المسلم القوي إلى قطيعة وهجر وعقوق، وهي وإن كانت كثيرة ومتنوعة بتنوع طبيعة القرب، إلا أنه يمكن إجمالها فيما يلي:

١- ضعف الإيمان والتقوى:

فهذا داء خطير شاع وانتشر بين الناس حتى قست القلوب، ونُزعت الرحمة من الصدور، فتجد من الناس مَن قد قطع أقرب الناس إليه، وتخلى عن مسؤولياته تجاه قراباته، ولا جرم أن مَن ضيع تمام العبادة التي بدأ الله بها في قوله تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ ﴾ [النساء: ٣٦]، فإنه لما سواها أضيع، فكيف لا تضيع حقوق

الوالدين والأقارب والجيران والأصحاب، إذا صار الإيمان قلبًا بلا نبض وجسدًا بلا روح؟!

٢- الكبر والتعالي على القرابات الخاصة والأنفة عن أداء حقوقهم:

إذا كان الكبر خُلقًا مذمومًا يبغضه الله ورسوله، فإنه مع القرابات أشد ذمًّا وقبحًا، فكم منع الكبر من حقوق؟! وكم قطع من صلات؟! ولذلك ختم الله تعالى آية حقوق العباد في سورة (النساء) بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]، قال السمعاني رحمه الله: «فإن قيل: أي معنى لهذا بعد هذه الأحكام؟ قيل: لأن الآدمي قد يقصّر في أداء الحقوق تكبرًا، فنهى عنه»(١).

وقال ابن الجوزي رحمه الله: «وإنما ذكر الاختيال هاهنا؛ لأن المختال يأنف من ذوي قراباته، ومن جيرانه إذا كانوا فقراء»(٢).

وهذه المعاني التي ذكرها المفسِّرون واقع مشاهَد في حياة الناس، فقد أصبح الثراء المادي والمكانة والمنصب في كثير من الأحيان هي معايير التقارب والمودة بين الناس، وأُسقطت المعاني الشرعية التي يتقارب بها الناس، فأورث ذلك تباعد الأقارب والجيران والأصحاب، وتكونت نتيجة لذلك طبقات مجتمعية تتقارب من أجل الدنيا وتتقاطع لأتفه الأسباب.

٣- الجهل بثمرات القرب من القرابات الخاصة وعواقب القطيعة والبعد:

إن الباعث الحقيقي على القرب من القرابات الخاصة بالدرجة الأولى هو الرغبة في الثواب والخوف من العقاب، ومتى ما جهل العبد ثمار القرب منهم،

---

(١) تفسير القرآن للسمعاني (١/ ٤٢٧).

(٢) زاد المسير، ص ٢٨٢.

وعواقب البعد عنهم، لم يعد هنالك ما يدفعه إلى أداء حقوق القرابات، فضلًا عن الإحسان إليهم والتودُّد لهم.

ليس هذا فحسب؛ بل قد يقع الرجل بسوء جهله وانطماس بصيرته فيما تنكره الفطرة وتأباه الطباع، فيسب أقرب الناس إليه ويلعنهم، وهو لا يشعر بذلك ولا يعلم، قال ﷺ: «**إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ**» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «**يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ**»[١].

ولو أن كل قاطع رحم يستحضر خسرانه وصل الله، وضياع أسباب القرب منه، وإقدامه على ما يعجل له العقوبة في الدنيا ويورده المهالك في الآخرة، لو يستحضر ذلك ويتدبره بعقله، ما تجرَّأت نفسه على فعل هذه المعصية العظيمة.

٤- الانشغال عن أداء الحقوق والواجبات:

من الناس مَن ينشغل بزخرف الحياة الدنيا ومطالب النفس وشهواتها حتى تصبح نفسه لا تعبأ بحقوق القرابات الخاصة وواجباتها، فتجده لا يحسن لقرابته وجيرانه، ولا يهتم بأصحابه وأخلائه، أو أنه يحسن لبعض قراباته الخاصة، ويترك مَن هم أولى بالصلة والإحسان، فتراه يهتم بأصحابه ويهمل جيرانه وأرحامه، وهذا يخالف المنهج النبوي الذي رسمه رسول الله ﷺ لأمته، حين أخبر مَن سأله عن أحق الناس بحسن صحابته، فقال: «**أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أُمُّكَ، ثُمَّ أَبُوكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ**»[٢]، وعلى ذلك، فالواجب على المسلم ألا ينشغل عن قراباته

---

(١) رواه البخاري من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه (٨/٣)، رقم ٥٩٧٣.

(٢) رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين، وأنهما أحق به (٤/١٩٧٤)، رقم ٢.

الخاصة، وأن يراعي الأول فالأول، وأن يدرك أن رضا الله تعالى مطلب عزيز، لا يدركه مَن كان طبعه وخلقه الانشغال عن أداء حقوق الأقارب والجيران والأصحاب.

٥- الشُّح والبخل:

الشحيح جمع بخلًا وحرصًا يحمله على هجر القريب والصاحب والحبيب، خشية أن يسألوه شيئًا من ماله، فضلًا عن أن يبادر هو من نفسه إلى صلتهم بالمال أو قضاء حوائجهم أو الإهداء والبذل لهم، ولذلك حذَّر رسول الله ﷺ من مرض الشح وأخبر بعاقبته السيئة، وذلك فيما يرويه عنه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أنه قال: «**اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ**»[1]، قال الطيبي رحمه الله: «وإنما كان الشُّح سببَ سفكِ الدماء واستحلال المحارم؛ لأن في بذل الأموال ومواساة الإخوان التحاب والتواصل، وفي الإمساك والشُّح التهاجر والتقاطع، وذلك يؤدي إلى التشاجر والتغاور[2] من سفك الدماء، واستباحة المحارم»[3].

ولما كان الشح والبخل يخرجان من مشكاة واحدة، أخبر رسول الله ﷺ بالعلاقة الحميمة بينهما في قوله: «**إيَّاكم والشُّحَّ، فإنما هَلَكَ مَن كان قَبلَكم بالشُّحِّ: أمرهم بالبُخلِ فبَخِلُوا، وأمرَهم بالقَطيعةِ فقطَعُوا، وأمرَهم بالفُجُور ففَجَرُوا**»[4].

---

(١) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم (١٩٩٦/٤)، رقم ٥٦.

(٢) تغاور القوم: أغار بعضهم على بعض. ينظر: الصحاح (٢/ ٧٧٥).

(٣) الكاشف عن حقائق السنن (١٥٢٦/٤).

(٤) رواه أبو داود، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، كتاب الزكاة، باب في الشُّح (١٢٣/٣)، رقم ١٦٩٨، قال الحاكم في المستدرك: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: المستدرك (٥٧٦/١)، رقم ١٥١٦، صحيح الجامع (٥٢١/١)، رقم ٢٦٧٨.

فإذا رغب العبد عن بذل ما أوجبه الله تعالى عليه، وبخلت نفسه عن الإحسان إلى مَن أمره الله بالإحسان إليه، يكون بذلك قد ألبس نفسه ثياب القطيعة، وأحرق قلبه بنار الخطيئة.

٦- الحسد:

لا يخلو مجتمع من نفوس دنيئة قُضت مضاجعها وضاقت صدورها بغضًا لما يرونه من نعم الله الظاهرة على خلقه، فمِن الناس مَن أعمى الحسدُ بصرَه وبصيرتَه حتى صرفه لأقاربه وجيرانه وأصحابه، فلا رأوا منه خيرًا وإحسانًا ولا سلموا منه شرًّا وعدوانًا، ولا أدل على ذلك مما حصل بين ابنَي آدم عليه السلام، اللذين أخبر الله عنهما في قوله: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ [المائدة: ٢٧]، قال قتادة: «كان أحدهما صاحب زرع، والآخر صاحب ماشية، فجاء أحدهما بخير ماله، وجاء الآخر بشر ماله، فجاءت النار فأكلت قربان أحدهما... وتركت قربان الآخر فحسده»[(١)].

كذلك إخوة يوسف عليه السلام، هم الآخرون حملهم حسدهم لأخيهم على أن يلقوه في غيابة الجُبِّ، ويبيعوه بثمن زهيد بخس، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٧، ٨]، قال السمرقندي: «وكان يوسف أعطف على أبيه، وكان أحب أولاده إليه، فحسده إخوته مما رأوا من حب أبيه له»[(٢)].

والحاصل أن الحسد لا يكون إلا من رجل ضعيف الإيمان قليل الإحسان،

(١) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٤).
(٢) بحر العلوم (٢/ ١٥٢).

استماله الشيطان وأغراه على كراهة أهله وأقاربه، فاحتقنت نفسه وضاق صدره بفضل الله عليهم، فصده ذلك عنهم وأبعده منهم، ومثل هذا أقل شأنًا من أن يقربه الله تعالى أو يكرمه.

٧- منع أداء الحقوق اللازمة أو تأخيرها:

منع حقوق القرابات الخاصة أو تأخيرها سبب من أسباب القطيعة بينهم، وكلما تقادم العهد على حبس تلك الحقوق، زادت العداوة والبغضاء واستعرت نار القطيعة، وهاجت عواصف الهجران، فضلًا عن أن ذلك مخالفة لأمر الله تعالى بسرعة إيصال الحقوق إلى أهلها، قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾ [النساء: ١١]، قال الألوسي رحمه الله: «عدل عن الأمر إلى الإيصاء؛ لأنه أبلغ وأدل على الاهتمام وطلب الحصول بسرعة»(١).

والآية وإن كانت خاصة في صنف واحد من أصناف الأقارب، إلا أن منع حقوق كافة الأقارب والجيران والأصحاب داخل في عموم الأمر بالعدل وأداء الأمانة، والنهي عن الظلم وتحريم الخيانة.

٨- الإصغاء إلى كيد الوشاة وأهل النميمة:

لا يسأم الوشاة وأهل النميمة من التفريق بين الناس، وتكدير صفو محبة الأرحام والجيران والأصحاب، فتتقطع الأواصر، ويتفرق الشمل، وتنهدم علاقات المجتمع المسلم، قال الله تعالى محذِّرا طاعتهم والركون إلى إفكهم: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾ [القلم: ١٠، ١١]، قال البغوي رحمه الله: «﴿هَمَّازٖ﴾: مغتاب يأكل لحوم الناس بالطعن والغيبة.... ﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾ قتات يسعى بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم»(٢).

---

(١) روح المعاني (٢/٤٢٦).

(٢) معالم التنزيل (٨/١٩٢).

وقال رسول الله ﷺ: «فَشِرَارُكُمْ الْمُفْسِدُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ الْمُشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ الْبَاغُونَ الْبُرَآءَ الْعَنَتَ(١)»(٢)، ويزداد الأمر سوءًا حينما يجد الوشاة والنمامون آذانًا مصغية وعقولًا خاوية تصدق ما تجترحه ألسنتهم وتستهويه قلوبهم، فإذا ظفروا بذلك، اشتعلت نار وشايتهم في صلب المجتمعات المتماسكة ففرقتها، وسرت سموم نفاقهم في القلوب المتآلفة فأفسدتها، وتباعد بذلك الأرحام والأقارب والجيران والأصحاب.

٩- سوء الظن:

وهو من أعظم مداخل الشيطان التي يفسد بها العلاقة بين الناس، فإذا طاوع الإنسان شيطانه على ما يزينه من افتراءات وتهم، نشأت الأحقاد وفشت الكراهية في صف الجماعة الواحدة، وهذا بلا شك له عظيم الأثر على القرب من الأرحام والجيران والأصحاب، ولذلك شدَّد القرآن الكريم على ضرورة تحرِّي الصدق واجتناب الظن؛ لما فيه من الضرر على وحدة المسلمين واجتماعهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ [الحجرات:١٢]، قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله؛ لأن بعض ذلك يكون إثمًا محضًا، فليُجتنب كثير منه احتياطًا»(٣).

---

(١) البراء: جمع بريء، والعنت: المشقة والفساد، والهلاك، والإثم والغلط، والخطأ والزنا، والمعنى: الذين يبغون الناس ما شق عليهم مما هم براء منه. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/٣٠٦)، التنوير شرح الجامع الصغير (٥/٥٣١).

(٢) رواه أحمد في مسند أسماء بنت يزيد الأنصارية رضي الله عنها (٤٥/٥٧٦)، رقم ٢٧٦٠١، قال الهيثمي: رواه أحمد وفيه شهر بن حوشب، وقد وثقه غير واحد، وبقية رجال أحد أسانيده رجال الصحيح، وحسَّنه الألباني في صحيح الأدب المفرد. ينظر: مجمع الزوائد (٨/٩٣)، صحيح الأدب المفرد، ص ١٣٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٧/٣٧٧).

فكل ظن فاسد ليس عليه أمارة ظاهرة أو سبب ظاهر وجب اجتنابه والبعد عنه، وكل تهمة باطلة لا دليل عليها حرم اتباعها والركون إليها، فإن ذلك مما يهدم العلاقات الوثيقة، ويقطع الصلات الشديدة، ويباعد بين أفراد المجتمع المسلم.

١٠- الخيانة وانعدام الثقة:

فهي وإن كانت محرمة عمومًا، إلا أنها في حق الأقارب والجيران والأصحاب أسوأ عاقبة وأشد تحريمًا، ولذلك عد رسول الله ﷺ خيانة الجار في أهله من أعظم الذنوب، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**» قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَأْكُلَ مَعَكَ**» قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: «**أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ**»[(١)].

وفي كثير من الأحيان يكون بعض الأقارب أو الجيران أو الأصحاب هم أعلم الناس بأدق أسرار الإنسان، فإذا ما أفشوا سره وأظهروا عورته، سقطت الأمانة بينهم، وحصلت الخيانة، قال الحسن رحمه الله: «إن من الخيانة أن تحدث بسرِّ أخيك»[(٢)].

وإذا سقطت الأمانة وانعدمت الثقة، أثر ذلك على العلاقات الطيبة بين العبد وبين قراباته الخاصة، وحصلت الفرقة والقطيعة، واشتعلت في القلب نار البغضاء والضغينة.

ثانيًا: عاقبة البعد عن القرابات الخاصة:

إذا أتى البلاء ممن يُرجى منه الخير، كان ذلك أشد وقعًا على النفس، وأكثر أثرًا على العبد، وقطيعة الأقارب وهجر الجيران والأصحاب ضرب من ذلك البلاء الذي يفسد أجمل معاني الألفة والمودة التي تكون قائمة بين الناس، وهذا

---

(١) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب قتل الولد خشية أن يأكل معه (٨/٨)، رقم ٦٠٠١.

(٢) الصمت وآداب اللسان، عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، ص ٢١٤.

مؤذن بجملة عظيمة من العواقب الدنيوية والأخروية المختلفة باختلاف درجة القرب ونوعه وأهميته، وتفصيل القول في هذه العقوبات يستلزم تصنيفها إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: عقوبة البعد عن الأقارب والأرحام

ذكر الله تعالى في كتابه العظيم وجاء في سُنة رسوله الكريم عقوبات كثيرة لمن يقطع أرحامه وأقاربه ويبتعد عنهم، أهمها وأشهرها ما يلي:

١- قاطع الرحم فاسق خاسر مطرود من رحمة الله:

قضى الله تعالى في كتابه الكريم بخسارة مَن قطع رحمه وأعرض عنها، وقصر في أداء حقوقها وواجباتها، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦، ٢٧]، قال القرطبي ﵀: «واختُلف ما الشيء الذي أمر بوصله؟ فقيل: صلة الأرحام، وقيل: أمر أن يوصل القول بالعمل، فقطعوا بينهما بأن قالوا ولم يعملوا، وقيل: أمر أن يوصل التصديق بجميع أنبيائه، فقطعوه بتصديق بعضهم وتكذيب بعضهم، وقيل: الإشارة إلى دين الله وعبادته في الأرض، وإقامة شرائعه وحفظ حدوده، فهي عامة في كل ما أمر الله تعالى به أن يوصل، هذا قول الجمهور، والرحم جزء من هذا»(١).

فضلًا عن أن قاطع الرحم ملعون مطرود من رحمة الله، أعمى الله قلبه وبصره، وأصم سمعه، قال تعالى: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣]،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١/٢٤٧).

فهؤلاء المفسدون في الأرض والمقطّعون للأرحام هم الملعونون المبعدون من رحمة الله الواسعة، فهم لا يفهمون مواعظ الله في تنزيله، ولا يتبينون حُججه ولا يتذكرون ما يرون من عبره وأدلته[1].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥]، قال زين العابدين علي بن الحسين[2] رضي الله عنهما: «لا تصحبن قاطع رحم، فإني وجدته ملعونًا في كتاب الله في ثلاثة مواضع[3]»[4].

وما قضى الله تعالى بهذه العقوبة الشديدة لمن يقطع رحمه، إلا لأن القطيعة أمر جلل تمجه النفوس وتشمئز منه القلوب، ويستقبحه الله تعالى ورسوله.

٢- قاطع الرحم عقوبته معجَّلة في الدنيا قبل الآخرة:

تعد قطيعة الرحم والبعد عن الأقارب من المعاصي التي يعجل الله لأهلها نصيبًا من العقوبة في الحياة الدنيا قبل عذاب الآخرة، قال ﷺ: «**مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ**»[5]، وهذا التعجيل هو تعجيل نكاية واعتبار لا تعجيل رحمة وشفقة بهم

---

(١) ينظر: جامع البيان (٢١/٢١٥).

(٢) أبو الحسين، علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي، العلوي، المدني رضي الله عنه، كان فقيهًا فاضلًا ورعًا، يسمى زين العابدين لعبادته، شهد مع أبيه موقعة كربلاء وكان موعوكًا فلم يقاتل ولم يتعرض له، مات سنة أربع وتسعين. ينظر: سير أعلام النبلاء (٤/٣٨٦)، إكمال تهذيب الكمال (٩/٢٩٦).

(٣) جاء لعن قاطع الرحم صريحًا بلفظه في سورة الرعد: ٢٥، ومحمد: ٢٣، ولعله رحمه الله قصد ما جاء بلفظه أو معناه.

(٤) صفة الصفوة (٢/١٠١).

(٥) رواه أبو داود من حديث أبي بكرة رضي الله عنه، كتاب الأدب، باب في النهي عن البغي (٧/٢٦٣)، رقم ٤٩٠٢، ورواه الترمذي وقال: هذا حديث صحيح، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: سنن الترمذي (٤/٢٨١)، رقم ٢٥١١، صحيح الجامع (٢/٩٩٥)، رقم ٥٧٠٥.

عن عذاب الآخرة، قال ابن القيم رحمه الله: «وإن قطع ما بينه وبين الرحم وما بينه وبين الرحمن أفسد عليه أمر دنياه وآخرته، ومحق بركة رحمته ورزقه وأثره»[1].

ولو أن هذه العقوبة التي لم يحدد قدرها كانت كافية عن عذاب الآخرة، لكان ذلك تطهيرًا من الله لهم ورحمة، ولكن الحال غير ذلك، فهم معاقبون في الدنيا معذَّبون في الآخرة.

٣- يقطع الله تعالى مَن قطع رحمه:

قطيعة الرحم صفة من صفات أهل القلوب المريضة، الذين لا يأبهون لأمر الله تعالى، ولا يجتنبون نهيه، فاستحقوا بذلك أن يقطعهم الله تعالى ويغضب عليهم، ومَن قطعه الله تعالى خسر الدنيا والآخرة، قال ﷺ: «**خَلَقَ اللَّهُ الخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ لَهُ: مَهْ، قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ العَائِذِ بِكَ مِنَ القَطِيعَةِ، قَالَ: أَلاَ تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ، قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَذَاكِ**»[2].

فالقاطع لحبال المودة والإحسان بينه وبين قرابته مقطوع من كل خير، محروم من كل فضل، وهذا جزاء له من جنس عمله، وعقوبة تناسب فعله.

٤- قاطع الرحم لا يدخل الجنة:

أعظم عقوبة تنال العبد المؤمن من أهل البعد والقطيعة هي الحرمان من دخول الجنة ودار الكرامة يوم القيامة مع مَن يدخلها من أول وهلة، وإنما يُعاقب في النار على قدر قطيعته وجرمه الذي أتى به، إلا أن يعفو الله عنه، فعن جبير بن

(١) مختصر الصواعق المرسلة، ص٣٥٠.

(٢) سبق تخريجه، ص ٧١.

مطعم رضي الله عنه (١)، أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعُ رَحِمٍ**»(٢).

فيا لحسرة القاطع حين يزف المؤمنون إلى دار الكرامة، ويحتبس هو بقطيعته في نار جهنم وبئس المصير.

٥- قاطع الرحم يجد من الألم كما يجد آكل الرماد الحار:

شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم حال القاطع لمن يحسن إليه بحال مَن يوضع في فمه رماد حار يحرق فمه وأحشاءه، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا قال: يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ، فقال: «**لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ**»(٣)، قال النووي رحمه الله: «ومعناه كأنما تطعمهم الرماد الحار، وهو تشبيه لما يلحقهم من الألم بما يلحق آكل الرماد الحار من الألم، ولا شيء على هذا المحسن؛ بل ينالهم الإثم العظيم في قطيعته وإدخالهم الأذى عليه، وقيل: معناه إنك بالإحسان إليهم تخزيهم وتحقرهم في أنفسهم؛ لكثرة إحسانك وقبيح فعلهم من الخزي والحقارة عند أنفسهم، كمن يسف المل، وقيل: ذلك الذي يأكلونه من إحسانك كالمل يحرق أحشاءهم»(٤).

ولعل هذا الألم والإحراق الذي يجري لهم من العقوبات العاجلة التي تنالهم في الدنيا؛ إذ ظاهر الحديث يشير إلى أن ذلك إنما يكون في الحياة الدنيا.

---

(١) الصحابي الجليل، أبو محمد، جبير بن مطعم بن عدي القرشي رضي الله عنه، أسلم يوم الفتح، وكان من أكابر قريش وعلماء النّسب، قدم على النبيّ صلى الله عليه وسلم في أسارى بدر، فسمعه يقرأ «الطّور»، قال: فكان ذلك أول ما دخل الإيمان في قلبي، مات سنة سبع أو ثمان أو تسع وخمسين. ينظر: الاستيعاب (١/ ٢٣٢)، الإصابة (١/ ٥٧٠).

(٢) رواه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم، وتحريم قطيعتها (٤/ ١٩٨١)، رقم ١٩.

(٣) سبق تخريجه، ص ٤٢١.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/ ١٧٣).

٦- قاطع الرحم عمله محبوس:

لا يرفع إلى الله ولا يؤجر عليه طالما هو غارق في معصية القطيعة والهجر للأقارب والأرحام، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ تُعْرَضُ كُلَّ خَمِيسٍ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ فَلَا يُقْبَلُ عَمَلُ قَاطِعِ رَحِمٍ**»(١)، والمعنى: أن القاطع لقرابته بإساءة أو هجر عمله خاسر لا ثواب فيه، وإن كان صحيحًا؛ إذ إن الصحة لا يلزم منها القبول(٢)، وهذا والله على ما فيه من القبح والشناعة غبن عظيم، وخسران مبين، أن يعلم الإنسان أن قبول عمله مرهون بالصلة والإحسان للقرابة والأرحام، ثم يتمادى في القطيعة والهجران، فكيف لو مات العبد وهو على مثل هذه الحال؟! وكيف يأمن حينئذ على نفسه من سوء الخاتمة؟!

القسم الثاني: عقوبة البعد عن الجيران:

لا شك أن البعد عن الجيران إما بالإهمال وعدم الإحسان، أو بالأذية والخيانة والظلم، عمل مخالف لما أوجبه الله تعالى وأوصى به، وإساءة تقتضي حلول العقوبة على مَن يفعل ذلك، وهي وإن كانت تختلف باختلاف ذلك البعد، إلا أن أشهرها ما يلي:

١- الحرمان من دخول الجنة:

إذا أساء العبد المؤمن إلى جاره بالأذية والظلم والخيانة، حجبه ذلك عن دخول الجنة مع المؤمنين، واستحقَّ بذلك أن يعذِّبه الله تعالى بقدر معصيته ونكرانه، أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ، في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال:

---

(١) رواه أحمد، (١٦/١٩١)، رقم ١٠٢٧٢، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد، ورجاله ثقات، وحسَّنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب. ينظر: مجمع الزوائد (٨/١٥١)، صحيح الترغيب والترهيب (٢/٦٧٤)، رقم ٢٥٣٨.

(٢) ينظر: فيض القدير (٢/٤٢٦).

«**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**»[(١)].

وعندما ذُكر لرسول الله ﷺ امرأة صائمة قائمة تؤذي جيرانها، قال: «**هِيَ فِي النَّار**»[(٢)]، فكأن البر والإحسان مع الله تعالى لا يحجبان العذاب عمَّن يباشر الأذى والإساءة للجيران؛ لأن ذلك خبث يحجب قلب العبد عن كمال الإيمان وحلاوته، حتى وإن كان في الظاهر من أهل القرب إلى الله تعالى.

٢- مقت الناس ولعنهم لجار السوء:

جار السوء مبغوض ممقوت عند الله وعند الناس، يزدرونه ويستعيذون منه ويلعنونه، ولا خير يُرجى فيمن يبغضه الله ويبغضه الناس، قال ﷺ: «**تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ جَارِ السَّوْءِ فِي دَارِ الْمُقَامِ فَإِنَّ جَارَ الْبَادِيَةِ يَتَحَوَّلُ عَنْكَ**»[(٣)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى النبيِّ يشكُو جارَه، فقال: «**اذهبْ، فاصْبِرْ**» فأتاه مرَّتينِ أو ثلاثًا، فقال: «**اذهَبْ فاطرَحْ متاعَكَ في الطريقِ**»، فطرح متاعَه في الطريق، فجعَلَ الناسُ يسألونه، فيخبِرُهم خبَرَه، فجعل الناسُ يلعنُونَه: فعلَ اللهُ بهِ وفعَلَ، فجاء إليه جارُه، فقال له: ارجِعْ، لا ترى مني شيئًا تكرهُهُ[(٤)].

---

(١) سبق تخريجه، ص ٤٢٥.

(٢) سبق تخريجه، ص ٢٠١.

(٣) رواه النسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من جار السوء (٨/٦٦٧)، رقم ٥٥١٧، وأخرجه الحاكم في المستدرك بلفظ: «اللّهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة، فإن جار البادية يتحول»، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: المستدرك (١/٧١٤)، رقم ١٩٥١، صحيح الجامع (١/٢٧٧)، ١٢٩٠.

(٤) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب في حق الجوار (٧/٤٦٢)، رقم ٥١٥٣، وأخرج الحاكم نحوه، وقال: صحيح على شرط مسلم، وسكت عنه الذهبي، ثم ذكر شاهدًا آخر من حديث أبي جحيفة رضي الله عنه، قال عنه: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب عن حديث أبي داود: حسن صحيح. ينظر: المستدرك (٤/١٨٣)، رقم ٧٣٠٢، ٧٣٠٣، صحيح الترغيب والترهيب (٢/٦٨٢)، رقم ٢٥٥٩.

وهذه عقوبة مَن لا يُجدي معه الصبر، ولا ينفع معه الحلم، فهو مَن جنى على نفسه وأوبقها حتى لعنها اللاعنون، ومقتها الأقربون والأبعدون.

القسم الثالث: عقوبة البعد عن الأصحاب والأخلاء الصالحين:

لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يستغني الإنسان عن أصحابه وأخلائه الطيبين الطاهرين؛ لأن المؤمن في حاجة دائمة إلى صديق مخلص يبوح له بسرِّه، ويتشاكى معه همَّه، فإذا ما ابتعد الإنسان عن أصفيائه المخلصين من عباد الله المتقين، كان ذلك صيحة نذير تنبئ بالبعد عن كافة الأولياء الصالحين، مما يجعل العبد صيدًا سهلًا تلتهمه شباك الفجرة الفاسقين، ناهيك عن أن البعد عنهم هو غرم عظيم في الدنيا والآخرة يترتب عليه خسران باب من أبواب محبة الله تعالى للعبد، وفقدان سبب من أسباب الظفر بظله يوم لا ظل إلا ظله، كما أن البعد عنهم يورث خسارة مودتهم وحسن عِشرتهم والانتفاع بعلمهم ونصحهم ومشورتهم ودعائهم.

والحاصل أن الواجب على المؤمن أن يحذر أسباب البعد من القرابات الخاصة، حتى يسعد بالقرب من الله تعالى، ويظفر بما أعده الله لأهل القرب من كرامات ومثوبات، ويقي نفسه ويجنبها الآثار والعقوبات الدنيوية والأخروية المترتبة على قطع الصلات بالقرابات الخاصة.

المبحث الثالث:

القرب من شرار الخلق «خطورته وأسبابه وعاقبته»

- **المطلب الأول**: القرب من الكفار «خطورته وأسبابه وعاقبته».
- **المطلب الثاني**: القرب من الشياطين وسلاطين الضلال «خطورته وأسبابه وعاقبته».

المطلب الأول:

القرب من الكفار «خطورته وأسبابه وعاقبته»

القرب من الكفار خطر عظيم على الإسلام والمسلمين، وخروج عن هدي سيد المرسلين، وخذلان لأخوَّة العقيدة والدِّين، وهو من أشد البلايا وأعظم الرزايا التي ابتليت بها الأمة الإسلامية.

وإن كان لم يرد القرب من الكفار في كتاب الله العزيز صريحًا بلفظه، إلا أنه جاءت ألفاظ ترادفه وتدل عليه، كالموالاة(١) والطاعة لهم، والمحبة والنصرة والمسارعة فيهم، واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٤٤]، قال ابن كثير رحمه الله: «ينهى تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يعني: مصاحبتهم ومصادقتهم ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم»(٢).

وقال تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ [المائدة: ٥٢]. والمعنى: فترى الذين في قلوبهم نفاق وشك في وعد الله بإظهار دينه يسارعون في معونة أهل الكتاب وموالاتهم ونصرتهم، وتأنيسهم وتجميل ذكرهم ومودتهم في الظاهر والباطن من غير نظر فيما يلحقهم من الضرر(٣).

---

(١) الموالاة في اللغة: ضد المعاداة، والوَلْيُ: القُرْبُ والدُّنُوُّ، والوَلِيُّ: ضد العدو وهو الصَّدِيق والنَّصِير، وقيل: التابع والمحب، وعرفت موالاة الكفار بأنها: التّقرّب إلى أيّ نوع منهم أو جميعهم بإظهار المودّة لهم أو الثّقة فيهم أو التّصادق معهم أو الوقوف في صفّهم على أيّ نحو كان. ينظر: لسان العرب (١٥/٤١١)، نضرة النعيم (١١/٥٥٧١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/٤٤١).

(٣) ينظر: معالم التنزيل (٣/٦٨)، المحرر الوجيز (٢/٢٠٤)، محاسن التأويل (٤/١٦٣).

وسيعتنى الباحث في هذا المطلب -بعون الله- بدراسة قضية القرب من الكفار، وذلك ببيان خطورتها على المجتمعات المسلمة، وأسبابها وعاقبتها.

أولاً: خطورة القرب من الكفار:

أصبحت قضية القرب من الكفار ومنحهم غاية الحب والمودة والتأييد عند أهل النفوس المريضة أمرًا طبيعيًّا لا يرون فيه ضررًا على عقيدة المسلم وشريعته.

ولو تأمَّل هؤلاء آيات الكتاب العزيز لتبين لهم ضرر هذه المفسدة العظيمة التي اقترفتها أنفسهم، فهي خيانة عظيمة نهى الله عنها وعظم أمرها، في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧]، قال ابن جرير رحمه الله: «وخيانتهم الله ورسوله كانت بإظهار مَن أظهر منهم لرسول الله ﷺ والمؤمنين الإيمان في الظاهر والنصيحة، وهو يستسرُّ الكفر والغش لهم في الباطن، يدلون المشركين على عورتهم، ويخبرونهم بما خفِي عنهم من خبرهم»(١).

ولعظم شأن هذه القضية وشدة خطورتها على الإسلام والمسلمين تكاثرت آيات النهي والتحذير من قرب الكفار المتمثل في طاعتهم ومودتهم ونصرهم ومعونتهم، قال تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ [آل عمران: ٢٨]، والمعنى أن مَن يصاحب الكفار ويصادقهم ويناصحهم ويسر إليهم بالمودة ويفشي إليهم أحوال المؤمنين، فقد برئ من الله وليس من حزب الله ولا من أوليائه في شيء(٢).

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ

---

(١) جامع البيان (١١/ ١٢٠).

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٥٧)، تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٠).

عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٩]، أي: يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله، في وعد الله ووعيده وأمره ونهيه، إن تطيعوا الذين جحدوا نبوة محمد ﷺ، فيما يأمرونكم به وفيما ينهونكم عنه، فتقبلوا رأيهم ونصيحتهم فيما يزعمون أنهم لكم فيه ناصحون، يحملوكم على الكفر بعد الإسلام، فترجعوا عن إيمانكم ودينكم الذي هداكم الله له، هالكين، خاسرين أنفسكم، ودنياكم وآخرتكم[(١)].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ ﴾ [آل عمران: ١١٨]، أي: لا تتخذوا أولياء وأصفياء تطلعونهم على أمركم وسركم من غير أهل ملتكم[(٢)].

وقال تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥٢]، وذلك لأن المسارعة في نصرتهم وموالاتهم وتعظيم ذكرهم والإعجاب برأيهم هو قرب منهم واصطفاء لهم من دون المؤمنين.

وقال تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ ﴾ [المجادلة: ٢٢]، والمعنى: «لا تجد قومًا جامعين بين الإيمان بالله واليوم الآخر، وبين موادة أعداء الله ورسوله، والمراد بنفي الوجدان نفي الموادة، على معنى أنه لا ينبغي أن يتحقق ذلك، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال، مبالغة في النهي عنه، والزجر عن ملابسته، والتوصية بالتصلب في مجانبة أعداء الله ومباعدتهم، والاحتراس من مخالطتهم ومعاشرتهم»[(٣)].

---

(١) ينظر: جامع البيان (٦/ ١٢٤).

(٢) ينظر: معالم التنزيل (٢/ ٩٥).

(٣) محاسن التأويل (٩/ ١٧٨).

ولو أن هذا الأمر ملتبس على المسلمين غير ظاهر لكان الأمر أهون وطأة وأخف وقعًا؛ لكن الذي يفت الفؤاد ويصهر الأكباد، خلود طائفة من المسلمين إليهم، على الرغم من أن معجزتهم الخالدة كشفت لهم مكر القوم، وأظهرت مآربهم وأغراضهم التي يتطلعون إليها، فما يرجونه ويرقبونه يفوق أمر النصرة والمعونة والتأييد، إنما يريدون هدم الدين وهجر الكتاب والسُّنة واستبدالها بملتهم الباطلة المحرفة الفاسدة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

ثانيًا: أسباب القرب من الكفار:

عند محاولة تصور أسباب القرب من الكفار التي أفقدت الأمة الإسلامية شيئًا من هيبتها وعزتها حتى صارت تابعة لغيرها، سيظهر ما يلي من الأسباب:

١- ابتعاد الكثير من المسلمين عن دينهم وعقيدتهم ومنهجهم الحق المنزل إليهم، وما ترتب عليه من رهبة وهزيمة نفسيه أفقدت الأمة شيئًا من هيبتها ووحدة كلمتها، وجعلت بعض أبنائها يسيء الظن بما بين أيديهم من وحي إلهي حكيم، ويستحسن ما عند أهل الكفر من عقائد باطلة وأفكار مضللة، فنشأ عن ذلك تقارب وتناصر نأى بالأمة عن منهج الهداية والاستقامة، الذي بيَّنه الله للأمة، ودلَّها عليه، وأمرها به، قال تعالى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]، أي: أن القرآن العظيم الذي أنزله الله على نبيه الكريم يهدي إلى طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة، وينجي من المهالك، ويوضح أبين المسالك(١).

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٣/٦٨).

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، والمقصود أن الذي وصَّى الله به عباده وأمرهم بالوفاء به هو طريقه القويم ودينه المستقيم، الذي يستحق أن يتخذوه منهاجًا يسلكونه وطريقًا يبتدرونه، ولا يبغون خلافه دينًا باطلًا يحيد بهم عن طريقه ودِينه الذي شرعه لهم وارتضاه(1).

ومن يتأمَّل حال كثير من الشعوب الإسلامية التي استحسنت أحوال أهل الكفر، واستبدلت أحكام الشريعة الإسلامية بأحكامهم وقوانينهم الوضعية، يتبيَّن له ذلك البعد العظيم الذي آل بحال أبناء الأمة، وصرفها عن منهجها الرباني وشريعتها الغراء.

٣- الخوف والرهبة الناجمة عن ضعف الإيمان وسوء الظن بالإسلام وقلة الثقة بنصر الله، الباعثة على التقرُّب من الكفار خشية حصول مكروه للمسلمين إما بنازلة تنزل بهم، وإما بظهور المشركين فيحتاجون حينئذ لنصرهم ومعونتهم وأمان عداوتهم، قال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٢]، قال الشنقيطي رحمه الله: «ذكر في هذه الآية الكريمة أن الذين في قلوبهم مرض، وهم المنافقون، يعتذرون عن موالاة الكفار من اليهود بأنهم يخشون أن تدور عليهم الدوائر، أي دول الدهر الدائرة من قوم إلى قوم... يعنون إما بقحط فلا يميروننا، ولا يتفضلوا علينا، وإما بظفر الكفار بالمسلمين، فلا يدوم الأمر للنبي ﷺ وأصحابه، زعمًا منهم أنهم عند تقلب الدهر بنحو ما

---

(١) ينظر: جامع البيان (٩/٦٦٩).

ذكر، يكون لهم أصدقاء كانوا محافظين على صداقتهم، فينالون منهم ما يؤمل الصديق من صديقه»(١).

٣- الإقامة بين أظهرهم والسفر إلى بلادهم من غير حاجة ضرورية تستدعي ذلك، خاصة في ظل غياب الدين الذي يدفع الشهوات، والعلم الذي يكشف زيف الشبهات، فانبهر كثير من المسلمين بما لديهم وأعجبوا بما عندهم، مما تولد عنه قناعة ببعض ما هم عليه، أو اتباع لطريقتهم واغترار بمنهجهم، ولشدة ضرر هذا الأمر على الإسلام والمسلمين حرم الله الإقامة في دار الكفر وأمر بالهجرة إلى دار الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧]، قال السعدي رحمه الله: «وفي الآية دليل على أن الهجرة من أكبر الواجبات، وتركها من المحرمات؛ بل من الكبائر»(٢).

والعجب أن كثيرًا من أبناء المسلمين اليوم جعل الهجرة من بلاد الإسلام إلى ديارهم، واستطاب العيش بين أظهرهم وتحت رايتهم.

٤- التشبه بهم في بعض عاداتهم ومحاكاتهم في أعيادهم ومناسباتهم، والتطبع بأخلاقهم وسلوكياتهم، وهذا أمر خطير حذَّر منه رسول الله ﷺ بقوله: «**مَن تَشَبَّه بقومٍ فهو منهم**»(٣). قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وهذا الحديث أقل أحواله أنه

---

(١) أضواء البيان (٢/١٣٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ١٩٦.

(٣) رواه أبو داود من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، كتاب اللباس، باب في لباس الشهرة (٦/١٤٤)، رقم ٤٠٣١، قال شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط المستقيم: إسناده جيد، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١/٢٤١)، صحيح الجامع (٢/١٠٥٩)، رقم ٦١٤٩.

يقتضي تحريم التشبُّه بهم، وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم، كما في قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]»[١]. وقال في موضع آخر: «المشابهة في الظاهر تورث نوع مودة ومحبة وموالاة في الباطن، كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر، وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة»[٢].

والذي قاله شيخ الإسلام رحمه الله ينطبق على حال كثير من أبناء المسلمين اليوم، الذين أعجبوا بعادات الغرب وانبهروا بحضارتهم، حتى استشربتها قلوبهم، فحاكوهم في اللباس والكلام والأسماء والطباع، دون أدنى خوف على انحراف العقيدة الصحيحة التي تربى عليها أبناء المسلمين، ورست جذورها المباركة في نفوس المكلفين.

٥- مداهنتهم ومجاملتهم على حساب تعاليم الشريعة والدين، والله سبحانه وتعالى يقول في محكم تنزيله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٨، ٩]، قال ابن عاشور رحمه الله: «وفعل تدهن مشتق من الْإِدْهَانِ وهو الملاينة والمصانعة، وحقيقة هذا الفعل أن يجعل لشيء دهنًا إما لتليينه وإما لتلوينه»[٣]، ورغم أن هذه الآيات تحكي حالة خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع كفار قريش، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وبذلك لا يجوز لمسلم أن يجامل الكفار أو يصانعهم في بعض أمورهم على حساب الدين والعقيدة، قال السعدي رحمه الله: «فالمطيع لهم مُقْدِم على ما يضره، وهذا عام في كل مكذب، وفي كل طاعة ناشئة عن التكذيب، وإن كان السياق في شيء خاص، وهو أن المشركين طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يسكت عن عيب آلهتهم ودينهم، ويسكتوا عنه»[٤].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/٢٤١).

(٢) المرجع السابق (١/٤٨٨).

(٣) التحرير والتنوير (٢٩/٦٩).

(٤) تيسير الكريم الرحمن، ص ٨٧٩.

٦- اتخاذهم أعوانًا وأنصارًا وأولياء يطاعون ويوادون من دون المؤمنين، وهذا يعد من أعظم أسباب القرب من أهل الكفر، ولذلك غضب الله تعالى على مَن اتخذ الكافرين أولياء ونفى عنهم الإيمان بالله ورسوله وكتابه، قال تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨٠، ٨١]، والمعنى: ولو كان هؤلاء الذين يتولون الذين كفروا من بني إسرائيل يقرون بوحدانية الله ويصدقون رسوله، ما اتخذوهم أصحابًا وأنصارًا من دون المؤمنين، ولكنَّ كثيرًا منهم أهل خروج عن طاعة الله إلى معصيته، وأهل استحلال لما حرم الله من الأقوال والأفعال(١).

قال القرطبي رحمه الله: «يدل بهذا على أن من اتخذ كافرًا وليًّا فليس بمؤمن إذا اعتقد اعتقاده ورضي أفعاله»(٢).

فكيف المخرج لمن تقرَّب من الكفار وتعاون معهم على هدم القيم الإسلامية وهم يسمعون هذه الآية ويقرؤونها؟! وكيف السبيل لمن وادعهم واستنصر بهم حتى على أبناء الأمة الإسلامية القائمة بأمر الله وأمر رسوله ﷺ؟!

٧- الرضا بما هم عليه من الكفر أو الشك في كفرهم، أو التحاكم إليهم من دون شرع الله، فهذا مضادة صريحة لكتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ، فإن الله قد قرر في كتابه فساد مذهبهم وبطلان شريعتهم بعد أن بعث محمدًا ﷺ برسالته

---

(١) ينظر: جامع البيان (٨/٥٩٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٦/٢٥٤).

العالمية الخالدة، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥]، قال أبو السعود رحمه الله: «والمعنى أن المعرض عن الإسلام والطالب لغيره فاقد للنفع واقع في الخسران بإبطال الفطرة السليمة التي فطر الناس عليها»(١).

فمن رضي بشيء من دينهم، أو حكم بشريعتهم دون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أو ادعى مساواة ما معهم لما أنزله الله على رسوله ﷺ، فقد ضلَّ ضلالًا بعيدًا.

ثالثًا: عاقبة القرب من الكفار:

للقرب من الكفار عواقب سيئة وآثار قبيحة على الفرد والمجتمع، أهمها ما يلي:

١- خروج المرء من دين الإسلام:

إذا تقرب الإنسان إلى أهل الكفر بما يوجب الكفر والخروج من الدين عن علم واختيار، صار بذلك من أهل دينهم والتحق بملتهم، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة:٥١]، قال ابن القيم رحمه الله: «إنه سبحانه قد حكم ولا أحسن من حكمه أنه من تولى اليهود والنصارى فهو منهم: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ فإذا كان أولياؤهم منهم بنص القرآن كان لهم حكمهم، وهذا عام خُص منه مَن يتولاهم ودخل في دينهم بعد التزام الإسلام، فإنه لا يقر ولا تقبل منه الجزية؛ بل إما الإسلام أو السيف، فإنه مرتد بالنص والإجماع»(٢).

(١) إرشاد العقل السليم (٢/٥٥).

(٢) أحكام أهل الذمة (١/١٩٥).

وفي هذه الآية تغليظ وتشنيع على كل مَن يتودد إلى الكفار ويتقرب إليهم، لاسيما إن كانت نفسه راضية مطمئنة لما هم قائمون عليه من الكفر والضلال، فهو حينئذ قد خالف أمر الله وأمر رسوله ﷺ، وأصبح من جملتهم، حكمه حكمهم، وعاقبته مثلهم.

٢- ضعف المسلمين وظهور الكافرين:

القرب من الكفار معول هدم لأركان الدين، وكسر لشوكة المسلمين، ومصدر قوة لأهل الباطل على أهل الحق، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٧٢، ٧٣]، قال ابن إسحاق رحمه الله[(١)]: «جعل الله المهاجرين والأنصار أهل ولاية في الدين دون مَن سواهم، وجعل الكافرين بعضهم أولياء بعض، ثم قال: ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ ﴾ وهو أن يتولى المؤمن الكافر دون المؤمن ﴿ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ فالفتنة في الأرض: قوة الكفر، والفساد الكبير: ضعف الإسلام»[(٢)].

وقد أصبح هذا واضحًا وضوحًا لا مرية فيه، فإنه لما تولت شعوب المسلمين طوائف الكفر، وتركوا ولاية بعضهم بعضًا، قلَّت شجاعتهم، وسقطت هيبتهم، فتداعت عليهم أمم الكفر، واستبدوا في استباحة دمائهم واستنزاف ثرواتهم.

(١) أبو بكر، محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي المدني الإمام الحافظ، مصنف المغازي وأحد أوعية العلم، كان ثبتًا في الحديث عند أكثر العلماء، وأما في المغازي والسير فلا تجهل إمامته فيها، مات سنة إحدى وخمسين ومائة. ينظر: وفيات الأعيان (٤/٢٧٦)، تذكرة الحفاظ (١/١٣٠).

(٢) معالم التنزيل (٣/٣٨٠).

٣- حلول غضب الله وسخطه على المتقرِّبين من الكفار:

أعلن الله تعالى غضبه وسخطه على مَن تقرب من أهل الكفر والضلال، وتوعدهم بالعذاب الدائم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ [المائدة: ٨٠]، أي: بئس ما قدموا من عمل لمعادهم في الآخرة، استحقوا به غضب الله عليهم، وخلدوا به في العذاب الأليم، وفوتوا على أنفسهم النزل الكريم[(١)].

٤- الاتصاف بصفات المنافقين:

التقرب من الكفار والتزلف إليهم بالمحبة والطاعة والنصرة صفة من صفات أهل النفاق الذين بشَّرهم الله تعالى بالعذاب الموجع الأليم، قال تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٣٨، ١٣٩]، أي: أخبرْ أهل النفاق وبشِّرهم بالعذاب الموجع يوم القيامة، الذين يتخذون الكفار أنصارًا وأخلاء من غير المؤمنين، ويطلبون منهم المنعة والقوة النصرة التي لا تطلب ولا تلتمس إلا من القوي العزيز الذي يعزهم ويمنعهم[(٢)].

فمن ساء ظنه بالله، وركن لأهل الباطل، واتخذ منهم أعوانًا وأنصارًا من دون المؤمنين، وقع في الفتنة والنفاق الموجب للعذاب الأليم يوم القيامة.

٥- استحقاق عذاب الله وعقابه:

مَن تقرَّب من الكفار قامت عليه الحُجَّة التي تجعله في صنف مَن يستحق

---

(١) ينظر: معالم التنزيل (٣/٨٥)، تيسير الكريم الرحمن، ص ٢٤١.

(٢) ينظر: جامع البيان (٧/٦٠١).

عـذاب الله تعـالى وعقابـه، قـال تعـالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٤٤]، قال ابن كثير رحمه الله: «ينهى تعالى عباده المؤمنين عن اتخاذ ﴿ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، يعني: مصاحبة الكافرين ومصادقتهم ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم، ويحذِّرهم أن يجعلوا لله عليهم حُجَّة في عقوبته لهم»[١].

وقال ابن عاشور رحمه الله: «فالاستفهام مستعمل في معنى التحذير والإنذار مجازًا مرسلًا»[٢].

ولربما كان هذا الضعف الذي أصاب الأمة اليوم هو عقوبة عاجلة من الله، بعد أن تجاوز كثير من أبناء المسلمين حدود ما أمر الله به من العلاقة والصلة مع أهل الملل الباطلة.

ثم بعد هذا العرض، تتبين العلاقة الكبيرة بين القرب من الكفار والبعد عن الله تعالى، فمن سقط في حمأة القرب منهم كسر حاجز الولاء والبراء، وارتد على دبره بعدما تبين له الحق، وفارق منهج التعامل مع غير المسلمين القائم على أصول الكتاب والسُّنة، والمؤمن لا يستقيم دينه ولا يرضى عنه ربه إلا بموالاة أهل الإيمان ومعادة أهل الكفر، فهم وإن ابتسموا لنا وأظهروا المليح من القول قلوبهم تكاد تميز من الغيظ على الإسلام والمسلمين، وما يحدث لأبناء المسلمين اليوم من قتل وتشريد وتعذيب شاهد صريح على ما يضمره أهل الكفر من حسد وغل وحقد على أمة الإسلام.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٤١).

(٢) التحرير والتنوير (٥/ ٢٤٣).

المطلب الثاني:
القرب من الشياطين وسلاطين الضلال
«خطورته وأسبابه وعاقبته»

يعد القرب من الشياطين الغاوين والسلاطين الضالين مانعًا عظيمًا من موانع القرب من الله تعالى وسببًا عظيمًا من أسباب الضلال عن الحق، فمَن تقرب منهم وأطاعهم أضلوه، ومَن تتبع خطواتهم أهلكوه.

وسوف يكون الحديث في هذا المطلب عن خطر القرب من الشياطين وسلاطين الضلال وأسبابه وعواقبه؛ لأن الجهل بذلك أحد دواعي طاعتهم واتباعهم.

أولاً: القرب من الشياطين «خطورته وأسبابه وعاقبته»:

يدور مفهوم القرب من الشياطين حول طاعتهم والركون إليهم واتباع سبيلهم واتخاذهم أولياء من دون الله، مع الأخذ بعين الاعتبار أن من الإنس شياطين ومن الجن شياطين، فكما أن في الجن مردة وغواة استشرى أذاهم وعظم كيدهم، كذلك في الإنس من خلع لباس الحياء من الله، ووهب نفسه لشياطين الجن يؤزونهم على الضلال والإضلال، ولذلك أخبر الله تعالى بعداوة كلا الفريقين لأهل الطاعة والإيمان، قال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا** ﴾ [الأنعام: ١١٢]، قال قتادة رحمه الله: «إن من الجن شياطين، ومن الإنس شياطين يوحي بعضهم إلى بعض»(١)، فهما يشتركان في الوسوسة والإغواء وتزيين الباطل، ولهذا يجب الحذر من كلا الفريقين واتخاذ الأسباب المانعة لكيدهما ومكرهما.

---

(١) تفسير عبد الرزاق (٢/٦٢).

خطورة القرب من شياطين الإنس والجن:

أما شياطين الجن، فليس هناك خطر أشد على الإنسان من طاعتهم والقرب منهم بعد أن أظهر سيدهم وحامل لوائهم عداوته وحسده، وأخذ على نفسه الوعد ببذل قصارى جهده هو وجنده في سبيل صد الإنسان عن اتباع سبل الهداية والاستقامة.

فهو القائل عن نفسه كما في محكم التنزيل: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: من قبل الآخرة فأشككهم فيها، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أرغبهم في الدنيا، ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ أشبه عليهم أمر دينهم، ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ أشهي لهم المعاصي»(١).

وهو الذي حذَّر الله عداوته ونهى عن اتباع خطواته في مواضع كثيرة من كتاب الله الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر: ٦]، قال ابن عطية رحمه الله: «وقوله: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، أي: بالمباينة والمقاطعة والمخالفة له باتباع الشرع»(٢).

وهو الذي ذم اللهُ تعالى مَن اتخذه صاحبًا تُقدم طاعته وأمره على أمر الله تعالى ونهيه، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴾ [النساء: ٣٨]، قال الشوكاني رحمه الله: «والقرين: المقارن، وهو الصاحب والخليل، والمعنى: من قبل من الشيطان في الدنيا فقد قارنه فيها، أو فهو قرينه في النار، فساء الشيطان قرينًا»(٣).

ناهيك عن حضوره الدائم وقربه الشديد من قلوب البشر، يجلب عليهم

(١) معالم التنزيل (٣/٢١٨).
(٢) المحرر الوجيز (٤/٤٣٠).
(٣) فتح القدير (١/٧٤٦).

بخيله ورجله، ويدلس عليهم بحيله ومكره، حتى إذا ما استحكمت له حلقات الفرص أضل وأغوى وأشقى.

وأما شياطين الإنس، فلا عجب إن قيل إنهم أشد خطرًا وفتكًا من شياطين الجن، فشياطين الجن على أقل حال تبينت للخلق عداوتهم، إنما شياطين الإنس كثيرًا ما يتربصون بأهل الطاعة، مستخفين بلباس الصالحين، يُحسب أنهم صحاب ناصحون، وحقيقتهم كذبة منافقون.

وقد حذَّر الله تعالى عباده الركون إلى شياطين الإنس، ونهى عن طاعتهم واتباع أمرهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، أي: ولا تطِع مَن شُغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ومتاعها، وكانت أعماله وأفعاله سفهًا وتفريطًا وضياعًا، لا تكن مطيعًا له ولا محبًّا لطريقته، ولا تغبطه على ما هو فيه[(١)].

وأخبر جلَّ في علاه بمبلغ مرادهم وغايتهم، في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧]، قال ابن جرير ﷺ: «ويريد الذين يطلبون لذات الدنيا وشهوات أنفسهم فيها ﴿أَن تَمِيلُوا۟﴾ عن أمر الله تبارك وتعالى، فتجوروا عنه بإتيانكم ما حرم عليكم وركوبكم معاصيه، ﴿مَيْلًا عَظِيمًا﴾ جورًا وعدولًا عنه شديدًا»[(٢)].

فهم دعاة على أبواب جهنم يهتدون بغير هدي الله، ويستنون بغير سُنة رسول الله ﷺ «**قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ**»[(٣)].

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٥٤).

(٢) جامع البيان (٦/ ٦٢١).

(٣) رواه مسلم من حديث حذيفة ﷺ، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين... (٣/ ١٤٧٦)، رقم ٥٢.

وهم نفخة الكير الذين أخبر عنهم رسول الله ﷺ، بقوله: «**إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً**»(١).

والحاصل أن أصناف الشياطين شرها عظيم، ومكرها جسيم، ولذلك أمر الله تعالى عباده باتقاء شرها وضلالها بشدة الاعتصام واللجوء إليه، كما في قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١ - ٦]، قال قتادة رحمه الله: «إن من الناس شياطين، ومن الجن شياطين، فتعوذ بالله من شياطين الإنس والجن»(٢).

فينبغي للمسلم أن يكثر من الاستعانة بربه واللجوء إليه بالدعاء أن يصرف عنه شرهم وفتنتهم، وأن يداوم على ذكر الله تعالى بالليل والنهار، وأن يجتنب المجالس التي يُظن أنها لا تخلو منهم، وأن يطرق كل سبب يباعد بينه وبينهم، فإنه من اتخذ الأسباب فتحت له الأبواب.

أسباب القرب من شياطين الإنس وشياطين الجن:

لن ينجو الإنسان من كيد الشياطين ومكرهم، ولن يحصل له البعد عنهم إلا بمعرفة الدواعي والأسباب التي تقرب منهم، وبتأمُّل الآيات التي أخبر الله بها عن الشياطين، يمكن إجمال الأسباب التي تقرب العبد من شياطين الإنس والجن فيما يلي:

١- الكفر بالله:

أعظم سبب من أسباب القرب من الشياطين الكفر بالله تعالى، فأهل الكفر هم حزب الشيطان ورهطه، استعبدهم الشيطان وصيَّرهم له جنودًا وسدنة، قال

(١) سبق تخريجه، ص ١٢٧.

(٢) تفسير عبد الرزاق (٣/٤٧٨).

تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾ [الأعراف:١٧٥]، قال الشوكاني رحمه الله: «عند انسلاخه عن الآيات أي لحقه فأدركه وصار قرينًا له أو فأتبعه خطواته، ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾ المتمكنين في الغواية، وهم الكفار»(١).

فكل من يكفر بآيات الله وينبذها وراء ظهره بعد أن يمنَّ الله عليه بعلمها، يصير صيدًا سهلًا للشيطان يركبه ويدركه حتى يصيره أحد جنوده وأتباعه.

٢- طاعة أمرهم واتباع مشورتهم:

كلما كان الإنسان تابعًا مطواعًا للشياطين، كان إليهم أقرب وبهم عن الله أبعد، يستدل لذلك بقول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴾ [مريم:٤٤]، قال القرطبي رحمه الله: «أي: لا تطعه فيما يأمرك به من الكفر، ومن أطاع شيئًا في معصية فقد عَبَده»(٢).

والآية خطاب عام لكافة الناس، فكل مَن أطاع شيطانًا واتبع أمره ونهيه إنسيًّا كان أو جانًّا أصبح قريبًا منه ثاويًا في حزبه، بعيدًا عن حزب الله وأهل طاعته.

٣- الغفلة عن ذكر الله:

أخبر الله تعالى عباده المؤمنين أن الشياطين تخنس وتنقبض مع استدامة ذكره، فإذا ما غفل قلب العبد وانشغل عن طاعة ربه، هجمت عليه الشياطين ونأت به بعيدًا عن سبيل المهتدين، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴾ [الزخرف: ٣٦]، قال البغوي رحمه الله: «أي: مَن يعرض عن ذكر الرحمن

---

(١) فتح القدير (٢/٣٧٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١١/١١١).

فلم يَخَف عقابه، ولم يرجُ ثوابه... نسبب له شيطانًا ونضمه إليه ونسلطه عليه، ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ لا يفارقه، يزين له العمى ويخيل إليه أنه على الهدى»[(١)].

وحظ العبد من قرب الشياطين على قدر حظه من الغفلة عن ذكر الله تعالى، فكلما زاد ذهول القلب واستعجام اللسان وتعطُّل الجوارح عن ذكر الله تعالى وتقديسه، كان العبد أكثر قربًا وملازمة لشياطين الإنس والجن، ولهذا نهى الله تعالى عن طاعة الغافل عن ذكر الله تعالى المفرط في أمره؛ لأن في طاعته اقتداءً بفعله واستجابة لدعوته، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، أي: أن الله نهى رسوله عن طاعة الذين يغفلون عن ذكر الله؛ لأن غرورهم وفساد أنفسهم شغل قلوبهم، وأغفلهم الله تعالى عن ذكره، وإذا فرغ القلب من ذكر الله تعالى سكنه الشيطان[(٢)].

والواجب على العبد المسلم أن يجتهد على أن يكون لسانه رطبًا بذكر الله تعالى، وأن يحصن نفسه من هذه المخلوقات الخبيثة بما شرعه الله تعالى من ذكر مطلق أو مقيد، فيواظب على أذكار الصلوات وأذكار الصباح والمساء، وأذكار النوم والاستيقاظ، وغيرها من الأذكار التي أمر الله بها وحض عليها.

٤- الوقوع في المعاصي والذنوب:

الإنسان في هذه الحياة كائن بين قربين؛ قرب من الله، وقرب من شياطين الإنس والجن، فكلما زادت طاعته وامتثاله لأمر الله، زاد قربًا من الله تعالى وبُعدًا عن شياطين الإنس والجن، وإذا ما أفرط في المعاصي والآثام، كان على مقربة من الشياطين قاصيًا من الله، يدل على هذا قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ

---

(١) معالم التنزيل (٧/٢١٣).

(٢) ينظر: زهرة التفاسير (٩/٤٥٢٣).

﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ [آل عمران: ١٥٥]، قال السعدي رحمه الله: «يخبر تعالى عن حال الذين انهزموا يوم أُحد، وما الذي أوجب لهم الفرار، وأنه من تسويل الشيطان، وأنه تسلط عليهم ببعض ذنوبهم، فهم الذين أدخلوه على أنفسهم، ومكنوه بما فعلوا من المعاصي؛ لأنها مركبه ومدخله، فلو اعتصموا بطاعة ربهم لما كان له عليهم من سلطان»(١).

وخير ما يعين العبد على اجتناب المعاصي ثبات معاني الإيمان في قلبه، والإكثار من الطاعات والقربات التي يحبها الله تعالى، واستحضار شؤم المعصية وما يتبعها من هم وغم وشدة قلق ومفارقة لطريق المتقين واتباع لسبل الشياطين.

٥- الإصغاء لدعوات الشياطين والانجراف مع إغراءاتهم:

فإنهم لا يزالون بالعبد يزينون له القبيح ويزخرفون له الذميم حتى يدركوه، فإذا أدركوه وانتصروا عليه، تخلوا عنه وتبرؤوا منه وقت حاجته إليهم، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦]، قال ابن جرير رحمه الله: «كمثل الشيطان الذي غر إنسانًا، ووعده على اتباعه وكفره بالله النصرة عند حاجته إليه، فكفر بالله واتبعه وأطاعه، فلما احتاج إلى نصرته أسلمه وتبرأ منه»(٢).

والأولى بالمؤمن أن يحذر دعواتهم، وأن يجتنب كل سبيل يوصل إليهم، فلا يتبع خطوات شياطين الجن، ولا يصاحب أو يجالس شياطين الإنس.

٦- إهمال اللجوء إلى الله تعالى والاستعاذة من شرورهم:

إذا غفل قلب المؤمن وفرط في اللجوء والاعتصام بالله تعالى من فتنة شياطين

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ١٥٣.

(٢) جامع البيان (٢٢/٥٤١).

الإنس والجن، تسلطت عليه وخيمت على قلبه، ولذلك أمر الله تعالى بالاستعاذة منهم على وجه العموم في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ [الناس: ١ - ٤].

وأمر سبحانه بالاستعاذة منه عندما يلحق بالإنسان فتنة أو فساد أو غضب، قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٦]، قال ابن عطية رحمه الله: «والنزغ حركة فيها فساد، وقلما تستعمل إلا في فعل الشيطان؛ لأن حركاته مسرعة مفسدة»[(١)].

بل أمر الله تعالى بالاستعاذة منه حتى عند التقرب إليه بتلاوة القرآن التي تعد من أجل الطاعات، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨]، يعني إذا أردت أن تقرأ القرآن في الصلاة وغيرها فاستعذ بالله[(٢)].

فإذا أهمل العبد هذه الجوانب، واعتمد على ثقته بنفسه أو اغتر بحسن علمه وعمله، أصابته فتنة الشياطين، وخانه اعتماده واتكاله على غير الله.

٧- الإفراط ومجاوزة الحد في المباحات:

إذا تجاوز العبد حدَّه في طعامه وشرابه ولباسه وسائر ما أباحه الله، كان ذلك سببًا من أسباب هيمنة الشيطان وسيطرته عليه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٧]، قال الشوكاني رحمه الله: «فإن هذه الجملة تعليل للنهي عن التبذير، والمراد بالإخوة: المماثلة التامة، وتجنب مماثلة الشيطان ولو في خصلة واحدة من خصاله واجب، فكيف فيما هو أعم من

---

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٤٩١).

(٢) ينظر: بحر العلوم (٢/ ٢٥٠).

ذلك، كما يدل عليه إطلاق المماثلة، والإسراف في الإنفاق من عمل الشيطان، فإذا فعله أحد من بني آدم فقد أطاع الشيطان واقتدى به»[١].

وقد أصبحت قضية التبذير وإنفاق الأموال بغير وجه حق من أعظم البلايا التي ابتليت بها الأمة في العصور الحاضرة، فتباهى الناس في المآكل والمشارب والمساكن حتى ركبتهم الشياطين، تأمرهم بالبخل والشُّح عن الإنفاق في أوجه الخير فيذعنون، وتزين لهم الإسراف والتبذير في المباحات والمحرمات فيستجيبون.

عواقب القرب من شياطين الإنس والجن:

ذكْرُ عواقب القرب من شياطين الإنس والجن أبلغ في زجر الناس عن طاعتهم والميل إليهم، والعاقل إذا نظر في العواقب اعتزل موجباتها، وهجر مبرراتها، ومَن ينظر بعين العبرة والعظة يظهر له أن القرب من الشياطين بالطاعة والاتباع هو أصل لكل عاقبة سيئة، إلا أنه يمكن ذكر أشهر تلك العواقب فيما يلي:

١- الوقوع في المعاصي والذنوب:

لا يزال الشيطان يزين الشر لأوليائه ويرغبهم فيه، ويقبح لهم الخير ويخوفهم منه، حتى ينزل بهم إلى ميدان المعصية الفسيح، فإن ظفر من العبد بالكفر والشرك كان ذلك غاية مطلبه ورجاه، قال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الحشر: ١٦]، قال السعدي رحمه الله: «أي: زين له الكفر وحسَّنه ودعاه إليه، فلما اغتر به وكفر، وحصل له الشقاء، لم ينفعه الشيطان، الذي تولاه ودعاه إلى ما دعاه إليه؛ بل تبرَّأ منه»[٢].

---

(١) فتح القدير (٣/٣٠٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٨٥٣.

وإن لم يظفر منهم بالشرك، تدرج بهم في المعاصي والذنوب، وأمرهم بالفواحش والمنكرات، وكره لهم ما يحبه الله ويرضاه، وزين لهم ما يشتهيه هو ويهواه، قال تعالى، محذّرا عباده شره: ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٨، ١٦٩]، أي: يأمر بالمعاصي والآثام وكل ما استفحش من الأقوال والأفعال كالزنا وغيره(١).

ولا عجب أن يتخذ من الملذات والشهوات مطية يجر بها أولياءه على غفلة منهم إلى الوقوع في كثير من المعاصي والآثام، قال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ [فصلت: ٢٥]، قال الشوكاني رحمه الله: «فإن المعنى: زينوا لهم ما بين أيديهم من أمور الدنيا وشهواتها، وحملوهم على الوقوع في معاصي الله بانهماكهم فيها، وزينوا لهم ما خلفهم من أمور الآخرة، فقالوا لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار»(٢).

فيبقى هؤلاء المغرورون غارقين في زخرف الدنيا وشهواتها، مفتونين برونقها وبهائها، متناسين الجزاء والحساب في الآخرة حتى يحل بهم غضب الله تعالى، وعظيم عقابه.

وما نراه في حاضرنا اليوم من استهانة بالمحرمات، واستمراء للفواحش والمنكرات هو مظهر من مظاهر التزيِّين والإغراء الذي خدع به شياطين الإنس والجن كثيرًا من الناس.

---

(١) ينظر: جامع البيان (٣/ ٤٠).
(٢) فتح القدير (٤/ ٦٧٣).

٢- حرمان العبد نِعَم الله تعالى:

من أعظم عقوبات القرب من شياطين الإنس والجن حرمان العبد النِّعم الإلهية والمنن الربانية، وقد كان أبونا آدم عليه السلام أول من عوقب بهذه العقوبة، فبعد أن نال منه الشيطان الطاعة بالأكل من الشجرة، حرم ما كان فيه من النعيم العظيم، وأهبط إلى الأرض، يصارع وذريته عدوه إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [البقرة: ٣٦]، والمعنى: فأخرج الشيطان آدم وزوجه عليهما السلام مما كان فيه من رغد عيش الجنة، وسعة نعيمها، وإنما أضاف الله إخراجهما من الجنة إلى الشيطان وإن كان الله هو المخرج لهما؛ لأن خروجهما منها كان عن سبب منه[(١)].

وليس من الضروري أن يكون الحرمان الذي يلحق بالعبد أثر طاعته للشيطان حرمانًا حسيًّا؛ بل قد يغدق الله على العبد من النعم الحسية ويُحرم نعمًا معنوية عظيمة كالهداية والتوفيق والحياة الآمنة المطمئنة والراحة النفسية والبدنية.

٣- الخسران المبين في الدنيا والآخرة:

عندما يختار العبد بإرادته طريق الباطل على طريق الحق، ويتبع باختياره سبيل شياطين الإنس والجن، فهو بمحض إرادته قد رضي لنفسه الخسارة العظيمة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١١٩]، قال الرازي رحمه الله: «فمَن رغب في ولايته فقد فاته أشرف المطالب وأجلها بسبب أخس المطالب وأدونها، ولا شك أن هذا

---

(١) ينظر: فتح القدير (١/ ٥٧١).

هو الخسار المطلق»[١].

ولو أن أولياء الشيطان أعطوا أنفسهم فرصة للتفكر في وعوده الباطلة، وأحسنوا تمييز الطيب من الخبيث، وتذكَّروا سوء العاقبة، ما كانوا ليهلكوا أنفسهم، ويخسروا سعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

٤- انعكاس الأمور وتبدُّل الأحول حالما يتبيَّن زيف الشياطين وينكشف أمرهم:

إذا انكشف زيف الشيطان سقطت حينئذٍ الولاية والمحبة والصداقة بينه وبين أتباعه، وحلت مكانها البراءة والعداوة والبغضاء، فلا يجد حينها المغرور بالآمال الفارغة والوعود الزائفة إلا أن يقول لصاحبه وقرينه الذي أضله: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨]، والمعنى: «يا ليت حصل بيني وبينك بُعد على أعظم الوجوه»[٢].

وقد صور القرآن مشهد انكشاف الحقائق وتحولَ فرحة الظالم في الدنيا وسعادته بقرنائه من الشياطين إلى حسرة وندامة وملامة، في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩]، قال الرازي رحمه الله: «كما بيَّنا أن الظالم غير مخصوص بشخص واحد؛ بل يعم جميع الظلمة، فكذا المراد بقوله: ﴿فُلَانًا﴾ليس شخصًا واحدًا؛ بل كل من أطيع في معصية الله»[٣].

(١) مفاتيح الغيب (١١/ ٥٠).

(٢) المرجع السابق (٢٧/ ٢١٤).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٤/ ٧٦).

والمقصود: أن الظالم بشركه بالله يعض يوم القيامة على يديه تأسفًا وتحسرًا وحزنًا وأسفًا، يقول: يا ليتني اتخذت مع الرسول طريقًا، بالإيمان به وتصديقه واتباعه، ولم أتخذ فلانًا وهو الشيطان الإنسي أو الجني حبيبًا مصافيًا، عاديت أنصح الناس لي، وأبرهم بي وأرفقهم بي، وواليت أعدى عدو لي، الذي لم تفِدني ولايته إلا الشقاء والخسارة والخزي والبوار[1].

٥- نسيان ذكر الله تعالى:

إذا أطاع العبد الشياطين واقترب منهم، تثاقلت نفسه أداء الطاعات وفعل الصالحات، حتى يصبح لا يقدر ولو على أسهلها وأيسرها فعلًا وأعظمها وأكبرها أجرًا، فيقسو قلبه ويتمرد على فطرته وينسى ذكر ربه، قال تعالى: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المجادلة: ١٩]، قال سيد قطب رحمه الله: «والقلب الذي ينسى ذكر الله يفسد ويتمحض للشر»[2].

ومن ينظر بعين البصير في هذه الآية، وفي قول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦]، يتبين له أن الغفلة عن ذكر الله قد تكون سببًا للقرب من الشيطان، وقد تكون عقوبة، وهذا يدل على فضيلة الذكر وأهميته.

٦- إشعال فتيل العداوة والبغضاء بين الناس:

لا يرضى الشيطان أن يرى بني آدم على أُلفة واجتماع، لا سيما أهل السُّنة والجماعة الذين عصمهم الله تعالى من الوقوع في البدع والمنكرات، فإذا ما ظهر له

---

(١) ينظر: تيسير الكريم الرحمن، ص ٥٨٢.

(٢) في ظلال القرآن (٦/٣٥١٣).

بُعد غواية الناس عن عبادة الله أو الوقوع في البدع والمنكرات، انتقل إلى التحريش والتأليب مستعينًا بأوليائه من شياطين الإنس، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩١]، قال قتادة رحمه الله: «كان الرجل يقامر على أهله وماله، فيقمر ويبقى حريبًا[١]، سليبًا، فيكسبه ذلك العداوة والبغضاء إلى ماله في يدي غيره»[٢].

وقد أيدت سُنة رسول الله ﷺ هذا الخبر الإلهي وأكدته، فعن جابر رضي الله عنه، قال: سمعت النبي ﷺ، يقول: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ**»[٣].

ومن يتأمل قصة الشيطان مع ابني آدم عليه السلام وقصته مع يوسف عليه السلام وإخوته، يتبين له عظيم وشايته بين الناس، ويجد العبرة والعظة التي تقيه مكره وكيده وإفساده ذات البين.

٧- الغواية والضلال عن الحق:

إذا تقرب العبد من الشيطان بالولاء والطاعة، صرفه عن سبيل الحق، وقصد به طريق الضلال والفساد، وذلك لأن اتباع الحق مراد الله ورسوله، والسير في طريق الباطل مراد الشيطان، قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠]، أي: يريد أن يصد أولياءه المتحاكمين إلى الطاغوت عن سبيل الحق والهدى، فيميل بهم ويجور بهم عنها جورًا شديدًا[٤].

---

(١) محروب، وحريب، وقد حرب ماله: أي سلبه. ينظر: أساس البلاغة (١/١٧٨)

(٢) الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٢/٢٢٧).

(٣) رواه مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان... (٤/٢١٦٦)، رقم ٦٥.

(٤) ينظر: جامع البيان (٧/١٨٩).

فمَن تمسَّك بمراد الله ورسوله نجا، ومَن اعتزلها وتلقف غيرها غوى، قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥]، أي: فلما أدركه الشيطان وصار له قرينًا أصبح من الضالين الكافرين(١).

٨- الصد عن سبيل الله تعالى:

كلما غفل المؤمنون عن الحق، وابتعدوا عن الهدى، سارعت شياطين الإنس والجن إلى تزيين المنكرات، وترغيب العباد في ملاذ الدنيا وحثهم على اتباع الهوى والشهوات، قال تعالى على لسان هدهد سليمان عليه السلام: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل: ٢٤]، أي: منعهم بتزيينه الباطل أن يهتدوا إلى سبيل الحق الذي بعث به أنبياءه فيسلكونه(٢).

وصور صد الشياطين عن سبيل الله متنوعة ومتعددة فقد يكون عامًّا بالصد عن الدين بالكلية، وقد يكون خاصًّا بالصد عن بعض أحكام الدين وتشريعاته، وتخذيل الناس عن فعل المعروف، وإشاعة الباطل، ونشر الشهوات المحرمة والشبهات، وما شابه ذلك.

٩- هداية أتباعه إلى عذاب السعير:

يسوق الشيطان جموعه التي احتشدت حوله، وجعلت رقابها بيده إلى المصير المظلم والعذاب المؤلم، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ

---

(١) ينظر: الكشاف، ص ٣٩٦.

(٢) ينظر: جامع البيان (١٨/ ٤٠).

﴿كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ٣ كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٣، ٤]، قال ابن كثير رحمه الله: «يضله في الدنيا، ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير، وهو الحار المؤلم المزعج المقلق»(١).

فكيف يغتر عاقل لبيب بعدو حذَّر الله غوائله ونهى عن اتباع خطواته وطاعته، ليس له قصد إلا إغراء شيعته حتى يدخلهم نار جهنم وبئس المصير، وقد كان الأجدر بالعبد أن يحذر خطره ويحترز من عداوته التي أخطره الله بها وأنذره مغبتها.

١٠- تخويف أوليائه وإدخال الحزن والهم إلى قلوبهم:

وهذه إحدى ركائز منهجه الخطير الذي رسمه لإضلال الناس وصدهم عن سبيل الله، فهو لا يفتأ يخوف أولياءه ويصور لهم عواقب زائفة يهتمون لها ويحزنون بها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، قال ابن كثير رحمه الله: «أي: يخوفكم أولياءه، ويوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة»(٢)، وأعظم ما يخوف به الشيطان أولياءه الأذى البدني الناجم عن الإقدام في سبيل الله ومجاهدة أعداء الله تعالى، وهو المذكور في الآية السابقة الذكر، أو الفقر الناتج عن صرف المال في النفقات الواجبة والمستحبة، كما قال تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وهما أصلان متلازمان من أصول العقيدة والإيمان، لن يهدم الدين بأعظم منهما.

١١- خذلان الأولياء والتخلي عنهم:

عندما تشتد المصائب على أولياء الشيطان وتعصف بهم عواصف المحن،

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٣٩٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٧٢).

تشخص أبصارهم حينئذ فيمَن بسط لهم الوعود وأعطاهم على ذلك العهود، ولكن هيهات هيهات أن يفي الخذول الخائن بعهد أو ميثاق، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٩]، قال مكي ﷺ: «أي: يسلمه لما ينزله به من البلاء ويخذله فلا ينجيه منه»(١)، وقال البغوي ﷺ: «وحكم هذه الآية عام في حق كل متحابين اجتمعا على معصية الله»(٢).

وقد ظهر خذلانه وتخليه عن أوليائه من كفار قريش في يوم بدر بعد أن وعدهم بنصره لهم، ورغّبهم في قتال رسول الله ﷺ، فلما أوبقهم ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨]، فهذا طبعه وعادته مع أوليائه وأهل ملّته، وهذا فعله بمن ركن له وأمن مكره.

ثانيًا: القرب من سلاطين الضلال «خطورته وأسبابه وعاقبته»:

لا يعمم حديث الباحث في هذه الفقرة على مَن يأتي السلاطين لمصلحة دينية كأمر بالمعروف أو نهي عن منكر أو رد مظلمة أو تخويف من عاقبة، مع عدم إعانتهم على ظلم، أو مجاملتهم في جرم، أو انشغال بما قد يكونون فيه من لهو ولعب، فهذه بلا شك مصلحة شرعية تحتاج من يقوم بها ويتولى أمرها، قال الشوكاني ﷺ: «ولا يخفى على ذي عقل أنه لو امتنع أهل العلم والفضل والدين عن مداخلة الملوك، لتعطلت الشريعة المطهرة؛ لعدم وجود مَن يقوم بها، وتبدلت تلك المملكة الإسلامية بالمملكة الجاهلية في الأحكام الشرعية من ديانة ومعاملة، وعم الجهل وطم، وخولفت أحكام الكتاب والسُّنة جهارًا، لا سيما من الملِك

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية (٨/٥٢١٢).

(٢) معالم التنزيل (٦/٨١).

وخاصته وأتباعه، وحصل لهم الغرض الموافق لهم، وخبطوا في دين الإسلام كيف شاؤوا، وخالفوه مخالفة ظاهرة، واستبيحت الأموال واستحلت الفروج، وعطلت المساجد والمدارس، وانتهكت الحرُم، وذهبت شعائر الإسلام»[(١)].

إنما قصَد الباحث هنا مَن يتقرب إلى سلاطين الضلال بطاعتهم في معصية الله، وموافقتهم على ما لا يرضاه الله، ومشاركتهم في مجالس اللغو واللهو لأي غرض من أغراض الدنيا، كما قد جاء في خبر فرعون مع السحرة الموعودين منه بالأجر والقرب، قال تعالى: ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٣، ١١٤]، قال ابن جرير رحمه الله: «قال فرعون للسحرة؛ إذ قالوا له: إن لنا عندك ثوابًا إن نحن غلبنا موسى؟ نعم، لكم ذلك، وإنكم لمن أقربه وأدنيه مني»[(٢)].

فهذا القرب يعد كالقرب من شياطين الإنس؛ لأن السلطان الفاسق هو في الحقيقة شيطان إنسي تسلط عليه إبليس حتى صار أحد جنوده وأعوانه، فهو يغري ضعاف النفوس بماله أو يقهرهم بقوة سلطانه حتى يكونوا له تبعًا، فيطيعونه ويداهنونه ويتزلفون إليه ويطلبون رضاه ومودته بسخط الله وغضبه، وهذا قرب مذموم يصد الناس عن سبيل الله، ويورثهم الذل والعار والشنار.

خطورة القرب من سلاطين الضلال:

سلاطين الضلال شر ووبال على أمة الإسلام، مَن فُتن بهم أضلوه، ومَن أطاعهم واتبع أهواءهم أهلكوه، حذَّر رسول الله ﷺ من الدخول عليهم

---

(١) الفتح الرباني (٩/ ٤٦٧١).

(٢) جامع البيان (١٠/ ٣٥٥).

والجلوس معهم بقوله: «وَمَنْ أَتَى أَبْوَابَ السُّلْطَانِ افْتَتَنَ»(١)، قال ابن مفلح رحمه الله(٢): «وهو محمول على مَن أتاه لطلب الدنيا، لا سيما إن كان ظالمًا جائرًا، أو على مَن اعتاد ذلك ولزمه، فإنه يخاف عليه الافتتان والعجب»(٣).

والمقصود أن القرب من هذه الطائفة بالطاعة والمجالسة والمؤانسة خطره عظيم على الدين والأخلاق والسلوك، فما سلم من النفاق قلب رجل لازمهم، وما صلح دين مَن أصاب من دنياهم، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إِنَّ عَلَى أَبْوَابِ السُّلْطَانِ فِتَنًا كَمَبَارِكِ الْإِبِلِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تُصِيبُونَ مِنْ دُنْيَاهُمْ إِلَّا أَصَابُوا مِنْ دِينِكُمْ مِثْلَهُ»(٤).

وقال أبو حامد الغزالي رحمه الله: «فالداخل عليهم إما أن يلتفت إلى تجملهم فيزدري نعمة الله عليه، أو يسكت عن الإنكار عليهم فيكون مداهنًا لهم، أو يتكلف في كلامه كلامًا لمرضاتهم وتحسين حالهم، وذلك هو البهت الصريح، أو أن يطمع في أن ينال من دنياهم وذلك هو السحت»(٥).

---

(١) رواه الترمذي، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أبواب الفتن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب... (١٠٧/٤)، رقم ٢٢٥٦، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع. ينظر: صحيح الجامع (١٠٧٩/٢)، رقم ٦٢٩٦.

(٢) محمد بن مفلح القاقوني شمس الدين المقدسي الراميني، ثم الصالحي الفقيه الحنبلي، أعلم أهل عصره بمذهب الإمام أحمد بن حنبل، كان بارعًا فاضلًا ذا حظ من زهد وتعفف، متقنًا في علوم كثيرة ولا سيما في الفروع، اشتغل في الفقه وبرع فيه إلى الغاية، من تصانيفه: "الآداب الشرعية الكبرى"، مات سنة ثلاث وستين وسبعمائة. ينظر: الدرر الكامنة (٢٦١/٤)، الأعلام (١٠٧/٧).

(٣) الآداب الشرعية (٤٥٨/٣).

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان، باب مباعدة الكفار والمفسدين والغلظة عليهم، فصل مجانبة الظلمة (٣٣/١٢)، رقم ٨٩٦٤.

(٥) إحياء علوم الدين (٦٨/١).

وشواهد القرآن التي تبين دأب أهل الضلال من الزعماء والرؤساء لصد الناس عن دين الله الذي جاءت به رسله واضحة وضوح الشمس، فلربما امتد خطرهم حتى يصرفوا الناس عن الدين بالكلية، إما تحت سطوة القوة والقهر، كما فعل فرعون مع السحرة حين قال: ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٤]، قال ابن جرير رحمه الله: «وإنما قال هذا فرعون، لِما رأى من خذلان الله إياه، وغلبة موسى عليه السلام، وقهره له»(١).

وإما بإلقاء الشبهات التي من شأنها تشكيك الناس فيما جاء به الأنبياء والرسل من وحي إلهي، كما قال تعالى في ثنايا قصة صالح عليه السلام مع قومه ثمود: ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦]، فهذا استفهام أريد به الجحود والإنكار والسخرية والاستخفاف؛ لأنهم كانوا يجحدون إرساله إليهم (٢).

وكما قال جل ذكره في قصة شعيب عليه السلام: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٠]، أي: يقول الأشراف لمن هم دونهم تثبيطًا لهم عن الإيمان: تخسرون لاستبدالكم ضلالته بهداكم، أو تخسرون فوائد البخس والتطفيف؛ لأنه ينهاكم عنهما ويحملكم على الإيفاء والتسوية(٣).

فيتبين بما سبق ما في مخالطة السلاطين الفساق وطاعتهم من الفتن وأنواع

---

(١) جامع البيان (١٠/٣٦٣).

(٢) ينظر: البحر المحيط (٤/٤٢٢)، تفسير القرآن للسمعاني (٢/١٩٤).

(٣) ينظر: الكشاف، ص ٣٧٤.

الفساد على دين مَن يتبعهم ويطرق أبوابهم للمجالسة والمخالطة، والسلامة من هذا ترك معاشرتهم والقرب منهم حفاظًا على الدين والأخلاق، فقد كان بعض السلف ﵏ يحذِّرون أشد التحذير من أبواب السلاطين[1] على أنه كان فيهم مَن هو ملتزم بشرع الله تعالى، فماذا لو رأى أئمة السلف ركون كثير من الناس لطغاة هذا الزمان من السلاطين والرؤساء والحكام؟!

أسباب القرب من سلاطين الضلال:

ما فُتن مفتون بحب القرب من سلاطين الضلال، إلا وقد حُجب عقله عن اتباع الحق بسبب من الأسباب الآتية:

١- ضعف الديانة:

فصاحب الدين الهش الضعيف لا يتورع عن مخالفة أمر الله تعالى، القائل في محكم التنزيل: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: ١١٣]، قال ابن كثير ﵀: «لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بباقي صنيعهم»[2].

وقال القاسمي ﵀: «﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾، أي: أنفسهم بالشرك والمعاصي، أي: لا تسكنوا إليهم، ولا تطمئنوا إليهم؛ لما يفضي الركون من الرضا بشركهم وتقويتهم، وتوهين جانب الحق»[3].

وهذا المرض العضال أساس لكل مصيبة تبتلى بها الأمة؛ إذ لو كان المجُالس للحكام الظلمة صاحب ديانة ما سكت عن منكراتهم، وما رضي أن تنتهك حرمات الله وهو يسمع قول رسول الله ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ،**

(١) ينظر: الآداب الشرعية (٣/٤٥٧).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/٣٥٤).

(٣) محاسن التأويل (٦/١٣٤).

فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»[(١)]، وكيف يكون هذا منكرًا بقلبه على أقل حال وهو يغشى مجالسهم ليلًا ونهارًا، يؤاكلهم ويشاربهم ويلاطفهم ويأنس بقربه منهم؟! قال الشنقيطي ﷺ: «واعلم أن الحديث الصحيح[(٢)] قد بين أن أحوال الرعية مع ارتكاب السلطان ما لا ينبغي ثلاث؛ **الأولى**: أن يقدر على نصحه وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، من غير أن يحصل منه ضرر أكبر من الأول، [فآمره] في هذه الحالة مجاهد سالم من الإثم ولو لم ينفع نصحه، ويجب أن يكون نصحه له بالموعظة الحسنة مع اللطف؛ لأن ذلك هو مظنة الفائدة. **الثانية**: ألا يقدر على نصحه لبطشه بمن يأمره، وتأدية نصحه لمنكر أعظم، وفي هذه الحالة يكون الإنكار عليه بالقلوب، وكراهية منكره، والسخط عليه، وهذه الحالة هي أضعف الإيمان. **الثالثة**: أن يكون راضيًا بالمنكر الذي يعمله السلطان، متابعًا له عليه، فهذا شريكه في الإثم»[(٣)].

٢- الخوف من سطوته وقهره:

قد يبلغ من قهر السلطان الظالم وجبروته أن يجيبه بعض الناس ويطيعوه ويتزلفوا إليه خوفًا منه، وعلى أن الله قد أمر بطاعتهم في كتابه الكريم حين قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، إلا أن هذه الطاعة مقيدة بطاعة الله تعالى؛ إذ لا طاعة له إلا بما يرضي الله، فإن عصى الله فلا

---

(١) رواه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان... (١/ ٦٩)، رقم ٧٨.

(٢) يعني بذلك قول النبي ﷺ: «**إنه يُستعمل عليكم أمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع**»، قالوا: يا رسول الله، ألا نقاتلهم؟ قال: «**لا، ما صلوا**»، رواه مسلم من حديث أم سلمة ﷺ، كتاب الإمارة، باب وجوب الإنكار على الأمراء... (٣/ ١٤٨١)، رقم ٦٣.

(٣) أضواء البيان (٢/ ٢١٠).

سمع له ولا طاعة، قال رسول الله ﷺ: «**السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى المَرْءِ المُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ**»(١).

قال النسفي رحمه الله في معنى الآية: «ودلَّت الآية على أن طاعة الأمراء واجبة إذا وافقوا الحق، فإذا خالفوه فلا طاعة لهم»(٢).

فإن كان ما يأمر به الأمير أو السلطان يرضي الله تعالى، كانت طاعته طاعة لله ورسوله ﷺ، وإن كان أمره ونهيه يخالف مراد الله ومراد الرسول ﷺ، كان اتباعه حينئذٍ أمرًا منهيًّا عنه، مهما بلغت قوته وعظم سلطانه ونفوذه.

٣- الطمع في المال أو المنصب:

وهذا باعث عظيم من بواعث القرب من سلاطين الضلال والطاعة لهم، فكم من رجل سكت عن معصية السلطان ورضي بظلمه خوفًا على منصبه الذي تبوأه، وكم من فاسق دعته نفسه لموافقة السلطان على منكر طمعًا في عطاياه وهباته، قال أبو حامد الغزالي رحمه الله: «ففي أخذ الأموال منهم حاجة إلى مخالطتهم ومراعاتهم وخدمة عمالهم واحتمال الذل منهم والثناء عليهم والتردد إلى أبوابهم وكل ذلك معصية»(٣).

والواجب على المؤمن أن يستغني بالله وحده، وأن لا يذل نفسه ويتبعها هواها لأجل منصب رخيص أو حفنة مال خبيث.

٤- حب الظهور والاشتهار:

تتطلع بعض النفوس الخبيثة إلى مجالسة الأمراء والوزراء رغبة في أن يشار

---

(١) رواه البخاري من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية (٩/ ٦٣)، رقم ٧١٤٤.

(٢) مدارك التنزيل (١/ ٣٦٨).

(٣) إحياء علوم الدين (٢/ ١٣٩).

إليهم بالبنان، وأن يراهم الناس في حاشية السلطان، والأسلم للمرء في دينه أن يترك طلب الشهرة والشرف، لا سيما وهي محظورة حتى في المباح، فكيف بمن يطلبها بطاعة أهل الفسق؟ قال ابن حجر رحمه الله: «فكل شيء صير صاحبه شهرة فحقه أن يجتنب»[1].

هذه فيما يظهر للباحث عامة الأسباب التي يتزلف بها ضعاف النفوس إلى سلاطين الضلال، وإن كان هناك من أسباب أخرى فهي لا تخرج في مجملها عن معنى ما ذُكر.

عاقبة القرب من سلاطين الضلال:

مَن نظر إلى عاقبة القرب من سلاطين الضلال التي أخبر عنها القرآن، وتفكَّر فيما حل بهم، انصرف عن باب كل سلطان جائر، وتحاشى الركون إليه، وأشهر العقوبات التي يعاقب الله بها أهل الطاعة والقرب من زعماء الضلال، كما بيَّنها الله في كتابه ما يلي:

١- الحرمان من اتباع المنهج القويم:

مَن اتبع الفساق من الكبراء والأمراء، حرم اتباع منهج الأنبياء، ومنع الهداية إلى سبيل الأتقياء، قال تعالى في معرض الحديث عن جدل الأتباع والمتبوعين: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١]، أي: قال الأتباع من الضعفاء للقادة والرؤساء المتبوعين المستكبرين: كنا نتبع أمركم في الدنيا، ونطيعكم

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٣١٠).

بمعصية الله وترك ما جاءت به الرسل، فهل أنتم دافعون عنا شيئًا من العذاب عوضًا عن ذلك الاتباع؟ فرد المستكبرون بكل حسرة وندامة: لو هدانا الله لدعوناكم إلى الهدى، فلما أضلنا دعوناكم إلى الضلالة[١].

وتعدُّ قصة فرعون مع قومه خير شاهد على أن طاعة السلطان في الباطل تمنع اتباع الحق، فقد ظل فرعون يدعو قومه إلى عبوديته من دون الله، وألزمهم رأيه الفاسد، وتدبيره الكاسد، فلما أطاعوه واتبعوا أمره خسروا اتباع الحق الذي جاء به موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٦، ٩٧]، قال ابن جرير رحمه الله: «يعني: أنه لا يُرشِدُ أمرُ فرعون مَن قَبِله منه، في تكذيب موسى إلى خير، ولا يهديه إلى صلاح؛ بل يورده نار جهنم»[٢].

والحاصل أن مَن أتى سلطانًا جائرًا وتقرب منه، هو بين أمرين كلاهما مرّ: إما إن يطيعه ويتابعه في ضلاله وفسقه فيخسر دينه، وإما أن يعصيه ويخالف أمره، ولربما خسر حينئذ نفسه، أو خسر على أقل الأحول ما يرجوه من آثار القرب والمجالسة، والسلامة من كلا الأمرين في البعد عنهم، واجتناب مجالسهم، إلا بما فيه مصلحة للإسلام والمسلمين.

٢- الهلاك بالعذاب في الحياة الدنيا:

لقد فاض كتاب الله العزيز بقصص هلاك الطغاة من الرؤساء والمرؤوسين الذين أفسدوا البلاد واستعبدوا العباد، قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ

(١) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية (٥/٣٧٩٥)، معالم التنزيل (٤/٣٤٣).

(٢) جامع البيان (١٢/٥٦١).

أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، فأهلك الله تعالى الأتباع والمتبوعين، ولم يغنِ أحد عن أحد شيئًا، فقوم لوط عليه السلام أرسل عليهم حجارة، وقوم صالح عليه السلام أخذتهم الصيحة، وقارون خسف الله به الأرض، وفرعون وقومه أغرقوا في اليم، وليس بعزيز على الله تعالى أن يهلك كل زعيم ظالم مع مَن أطاعه واشترى رضاه بمعصية الله، فإنه جل ذكره قد أنذر الناس بعد ذكر هلاك قوم لوط بقوله: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]، قال قتادة، وعكرمة رحمهما الله: «يعني ظالمي هذه الأمة، والله ما أجار الله منها ظالمًا بعد»[1].

٣- ورود التابع والمتبوع عذاب جهنم يوم القيامة:

هذه أعظم عقوبة تنال الظالمين من الرؤساء والسلاطين وأتباعهم الضالين، قال تعالى عن فرعون وأتباعه: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ [هود:٩٨]، أي: يتقدم قومه يوم القيامة وهم يتبعونه ويسيرون خلفه حتى يدخلهم نار جهنم وبئس المصير[2]، كما كان يقود عقولهم التي وهبها الله لهم في الدنيا ويعطل أفكارهم بأقواله الباطلة.

وقال تعالى عن كفار قريش: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩]، روى ابن جرير رحمه الله عن عمر، وعن علي رضي الله عنهما، قالا: «هما الأفجران من قريش: بنو

---

(١) معالم التنزيل (٤/ ١٩٤).

(٢) ينظر: بحر العلوم (٢/ ١٤١).

المغيرة، وبنو أمية، فأما بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين»[١].

فلا يأمن عذاب الله كل مداهن أو معاشر لسلطان جائر، فإن الله تعالى عزيز ذو انتقام، إن أمهل ظالمًا هنا، جمع له يوم القيامة بين عقوبتين: عقوبة ظلمه لنفسه بترك الحق واتباع الباطل، وظلمه لغيره من الناس بسكوته ومجاراته لسلطان فاسق يتسلط على الناس، ويبخسهم حقوقهم وأشياءهم.

٤- الحسرة والندامة والملامة يوم القيامة:

تحل الحسرة والندامة بالأتباع والمتبوعين يوم القيامة، حين يختصمون ويتقاذفون الدعاوى والتهم، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ:٣١-٣٣]، قال السعدي رحمه الله: «ذكر هنا حالهم في ذلك اليوم، وأنك لو رأيت حالهم إذا وقفوا عند ربهم، واجتمع الرؤساء والأتباع في الكفر والضلال، لرأيت أمرًا عظيمًا وهولًا جسيمًا، ورأيت كيف يتراجع، ويرجع بعضهم إلى بعض القول»[٢].

---

(١) جامع البيان (١٣/٦٦٩)، قال الحاكم في المستدرك: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. ينظر: المستدرك (٢/٣٨٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص ٦٨١.

فليحذر كل متقرب بالطاعة والمداهنة لوزير أو أمير ظالم مثل هذه العواقب، وليتقوا الله تعالى في أبناء الأمة، فإن الحكام والأمراء في حاجة لمن يذكّرهم بالله تعالى، ويبين لهم أخطاءهم، ويدلهم على ما فيه صلاح الأمة، لا في حاجة لمن يزيدهم خبالًا وفسقًا، فمن أتى سلطانًا يريد بيان الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتحذير من ظلم الناس فقد نصح له، ومن أتاهم لينعم بقربهم ويأنس بمجالستهم ويسكت عن فسقهم وضلالهم مع علمه بذلك، فقد خان الله ورسوله، واستحق بذلك خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

الخاتمة

وفيها:

أهم النتائج والتوصيات

الخاتمة

وفي الختام، أحمد الله سبحانه على الإعانة والتمام، وأشكره جلَّ في علاه على بلوغ المرام، فلولا فضله وجميل إحسانه ما كنت لأحظى بما حرَّرت، ولولا لطفه وعظيم امتنانه ما كنت لأكتب ما سطرت، فله الحمد وله الشكر، وله الثناء الحسن، ثم بعد الحمد والشكر والثناء، أحرر ما يأتي:

أولاً: أهم النتائج والفوائد التي منَّ الله بها على الباحث

١- القرب من الله تعالى منزلة عظيمة ينالها العبد بإيمانه وعمله الصالح، ويترقى في درجاتها بجميل إحسانه.

٢- المقرَّبون هم السابقون إلى الله تعالى بالإيمان والعمل الصالح فرضه ونفله، المجتنبون للمحرمات والمكروهات، المقتصدون في المباحات، الحائزون أعلى المقامات.

٣- ينقسم قرب الله تعالى من خَلقه إلى قرب خاص من أوليائه، إما بذاته، وإما بصفاته المقتضية نصره وعونه وتأييده، وقرب عام من سائر خَلقه بعلمه وقدرته وإحاطته.

٤- تنبع أهمية القرب من الله تعالى من حيث كونه أمر الله تعالى، وصفة أهل المنازل العالية من أولياء الله تعالى وأصفيائه من الملائكة والنبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين.

٥- مَن أراد القرب من الله أخذ بأسبابه وموجباته المتمثلة في الإيمان بالله، والعمل الصالح، وحسن الخُلق، واجتنب موانعه ومعوقاته، المتمثلة في الكفر بالله تعالى، والذنوب والمعاصي، وسوء الخُلق.

٦- يتمتع أهل القرب من الله بأجمع الصفات الجليلة التي يحبها الله ورسوله، ويعظم لأهلها الفضل والعطاء في الدنيا والآخرة.

٧- جمع الله للمقرَّبين بين سعادة الدنيا ونعيم الآخرة، فهم لا يزالون يتقلبون في كرامات الله الدالة على رضوانه، في حياتهم الدنيوية والبرزخية، إلى أن ينزلهم ربهم الفردوس الأعلى من الجنة.

٨- أهل البعد عن الله تعالى هم أهل الضلال والشقاق والخذلان، يعاقبهم الله تعالى بأصناف شتى من العقوبات في الحياة الدنيا وفي حياة البرزخ، ثم إذا بعثهم يوم القيامة أدخلهم نار جهنم خالدين فيها وبئس المصير.

٩- يقتضي القرب من خيار الخلق: الإيمان بِمَن أمر الله بالإيمان به منهم، ومحبتهم ونصرتهم ومجالستهم والاقتداء بهم في سيرتهم.

١٠- يعد القرب من الملائكة والأنبياء والرسل ذا أهمية بالغة؛ لأن ذلك أصل من أصول الإيمان، فضلًا عن كونهم قدوة صالحة يقتدى بهم.

١١- القرب من الأولياء الصالحين ذو أثر عظيم على أخلاق العبد المؤمن وسلوكه.

١٢- اختص الله أمة محمد ﷺ بجملة من الأسباب التي تقرب أبناءها من رسولهم ﷺ.

١٣- يعد القرب من الله تعالى ومعيّة المقرَّبين منه أعظم ثمار القرب من خيار الخلق.

١٤- إذا ترك العبد محبة الأخيار، واجتنب مجالستهم ومخالطتهم والاقتداء بهم، كان ذلك باعثًا على البعد عنهم، يعاقب عليه بالبعد عن الله والخسارة في الدنيا والآخرة.

١٥- يتمثل القرب من القرابات الخاصة في أداء حقوقهم والإحسان إليهم، واجتناب أذيتهم، ومجالسة خيارهم والاقتداء بهم.

١٦- القرب من القرابات الخاصة تكليف إلهي أمر الله به، وحثَّ عليه، وامتدح القائمين به، وهذا يدل على أهميته، وعظمة شأنه، وأثره على قضية القرب من الله.

١٧- القرب من شرار الخلق خيانة عظيمة، وعائق يصرف العبد عن القرب من الله.

ثانيًا: أهم التوصيات والمقترحات التي ظهرت للباحث:

١- الباحث يوصي نفسه وإخوته من طلبة العلم بتقوى الله ﷻ، وبذل قصارى الجهد في اتخاذ أسباب القرب من الله تعالى، بالإيمان والعمل الصالح فرضًا ونفلًا، واجتناب المحرمات والمكروهات، والاعتدال في المباحات.

٢- يوصي إخوته من العلماء والخطباء والدعاة ببيان معاني القرب من الله، وأسبابه وثماره، وآثاره الجليلة على الفرد والمجتمع، من خلال المواعظ والخطب والمحاضرات.

٣- يوصي إخوته من طلبة العلم والباحثين بدراسة موضوع القرب من الله تعالى في السُّنة النبوية دراسة موضوعية.

٤- يوصي العلماء والدعاة بتبني مشروع دروس «سلسلة القرب من الله» نظريًّا وتطبيقيًّا، في المساجد وحلقات التحفيظ للكبار والصغار، فهم أهل لمثل هذا العمل الجليل الذي يُعوّل عليه بناء جيل صالح يسارع في الخير ويسابق إلى البر.

قائمة المصادر والمراجع

- أحكام القرآن، تأليف: أبي بكر، القاضي محمد بن عبد الله العربي، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية- بيروت.

- أحكام أهل الذمة، تأليف: محمد بن أبي بكر، شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: يوسف بن أحمد البكري، شاكر بن توفيق العاروري، رمادي للنشر- الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

- إحياء علوم الدين، تأليف: أبي حامد، محمد بن محمد الغزالي، دار المعرفة - بيروت، ١٤٠٢هـ.

- الأخلاق والسير، تأليف: محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي، تحقيق: إيفا رياض، دار ابن حزم.

- الآداب الشرعية، تأليف: عبد الله، محمد بن مفلح المقدسي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعمر القيام، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ.

- آداب الصحبة، تأليف: أبي عبد الرحمن السلمي، تحقيق: مجدي فتحي السيد، دار الصحابة للتراث- طنطا، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تأليف: أبي السعود، محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

- أساس البلاغة، تأليف: أبي القاسم، محمد بن عمر الزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

• الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تأليف: أبي عمر، عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

• أسد الغابة، تأليف: أبي الحسن، علي بن محمد بن الأثير الجزري، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية – بيروت.

• الإصابة في تمييز الصحابة، تأليف: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

• إصلاح الوجوه والنظائر، تأليف: الحسين بن محمد الدامغاني، تحقيق: عبد العزيز سيد الأهدل، دار العلم للملايين- بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٣م.

• أضواء البيان، تأليف: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، دار عالم الفوائد.

• إعلام الموقعين عن رب العالمين، تأليف: محمد بن أبي بكر، شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية - ييروت، ١٤١٧هـ.

• الأعلام، تأليف: خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين- بيروت، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٢م.

• إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، تأليف: محمد بن أبي بكر، شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عزير شمس، دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ.

• اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تأليف: أبي العباس، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق وتعليق: الدكتور: ناصر عبد الكريم العقل، مكتبة الرشد - الرياض.

• إكمال المعلم بفوائد مسلم، تأليف: أبي الفضل، عياض بن موسى اليحصبي، تحقيق:د. يحْيَى إِسْمَاعِيل، الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع- المنصورة، الطبعةالأولى، ١٤١٩هـ.

• أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تأليف: أبي سعيد، عبد الله بن عمر البيضاوي، دار إحياء التراث العربي- بيروت.

• أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، تأليف: أبي بكر، جابر بن موسى الجزائري، مكتبة العلوم والحكم- المدينة، الطبعة: الثالثة.

• الإيمان الأوسط، تأليف: أبي العباس، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: محمود أبو سن، دار طيبة للنشر- الرياض، الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ.

• الإيمان، تأليف: أبي العباس، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، المكتب الإسلامي، الطبعة الخامسة، ١٤١٦هـ.

• بحر العلوم، تأليف: أبي الليث، نصر بن محمد السمرقندي، تحقيق وتعليق: محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، وزكريا عبد المجيد النوتي، الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

• البحر المحيط، تأليف: أبي حيان، محمد بن يوسف الأندلسي، تحقيق: الدكتور: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

• بداية الهداية، تأليف: أبي حامد، محمد بن محمد الغزالي، تقديم وتحقيق

وتعليق: الدكتور محمد زينهم محمد عزب، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ.

• البدر الطالع، تأليف: محمد بن علي الشوكاني، دار الكتاب الإسلامي- القاهرة.

• بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تأليف: جلال الدين، عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية- بيروت.

• بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، تأليف: أبو عبد الله، عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية، الطبعة الرابعة، ١٤٢٣هـ.

• تاج العروس، تأليف: السيد محمد مرتضي الزبيدي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت.

• تاريخ مدينة دمشق، تأليف: علي بن حسن بن عساكر الشافعي، تحقيق: عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، ١٤١٥هـ.

• التحرير والتنوير، تأليف: محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٨٤م.

• تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، تأليف: أبي العلا محمد عبد الرحمن المباركفوري، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

• تدريب الراوي: تأليف: جلال الدين السيوطي، تحقيق: نظر محمد الفاريابي، مكتبة الكوثر- بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ.

• تذكر الحفاظ، تأليف: شمس الدين، محمد بن أحمد الذهبي، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

• التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، تأليف: أبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق ودراسة: الدكتور: الصادق بن محمد بن إبراهيم، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع- الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥ هـ.

• الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، تأليف: عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، ضبطه وخرج أحاديثه وآياته: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ.

• التسهيل لعلوم التنزيل، تأليف: أبي القاسم، محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، ضبطه وصححه وخرج آياته: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

• تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، تأليف: محمد بن إسماعيل الصنعاني، اعتنى به: محمد بن جبريل الشحري، مكتبة الإمام الوادعي - صعدة، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.

• التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، دار باوزير.

• تفسير ابن فورك من أول سورة المؤمنون - آخر سورة السجدة، تأليف: أبي بكر محمد بن الحسن بن فورك، دراسة وتحقيق: علال عبد القادر بندويش، جامعة أم القرى - السعودية، الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ.

• تفسير الجلالين، تأليف: جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي، تحقيق: فخر الدين قباوة، مكتبة لبنان - بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣.

• تفسير الحجرات - الحديد، تأليف: محمد بن صالح العثيمين، دار الثريا للنشر والتوزيع- الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

• تفسير العثيمين، سورة الكهف، تأليف: محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي - السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

• تفسير الفاتحة والبقرة، تأليف: محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي- السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ.

• تفسير القرآن العظيم، تأليف: أبي الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ.

• تفسير القرآن العظيم، تأليف: أبي محمد عبد الرحمن بن محمد الرازي، ابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز - السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

• تفسير القرآن: تأليف: أبي المظفر، منصور بن محمد السمعاني، تحقيق: ياسر ابن إبراهيم، وغنيم بن عباس، دار الوطن- الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

• التفسير القيم، تأليف: تأليف: محمد بن أبي بكر، شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية - بيروت.

• تفسير المراغي، تأليف: أحمد بن مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده- مصر، الطبعة الأولى، ١٣٦٥ هـ.

• تفسير المنار، تأليف: محمد رشيد رضا، دار المنار - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٦٦هـ.

• التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، تأليف: الدكتور: وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر - دمشق، الطبعة العاشرة، ١٤٣٠ هـ.

• تفسير آيات من القرآن الكريم، تأليف: محمد بن عبد الوهاب التميمي، تحقيق: الدكتور: محمد بلتاجي، جامعة الإمام محمد بن سعود - السعودية.

• تفسير عبد الرزاق، تأليف: أبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، دراسة وتحقيق: د: محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

• تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تأليف: الحسن بن محمد النيسابوري، ضبطه وخرج آياته وأحاديثه: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية– بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

• تفسير مجاهد، تأليف: مجاهد بن جبر، تحقيق: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل، دار الفكر الإسلامي الحديثة– مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

• تقريب التهذيب، تأليف: أبي الفضل، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد عوامة، دار القلم– دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤١١هـ.

• التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تأليف: أبي عمر، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي، تحقيق: مجموعة من العلماء، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية – المغرب.

• التنبيه على المخالفات العقدية في فتح الباري

• التنوير شرح الجامع الصغير، تأليف: محمد بن إسماعيل الصنعاني، تحقيق:الدكتور:محمد إسحاق محمد إبراهيم، مكتبة دار السلام - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٢ هـ.

• تهذيب التهذيب، تأليف: أبي الفضل، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، مجلس دائرة المعارف النظامية– الهند، الطبعة الأولى، ١٣٢٥هـ.

• تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تأليف: أبي الحجاج، جمال الدين يوسف المزي، تحقيق: الدكتور: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

- تهذيب اللغة، تأليف: أبي منصور، محمد بن أحمد الأزهري، الدار المصرية للتأليف والترجمة،
- التوضيح لشرح الجامع الصحيح، تأليف: أبي حفص، عمر بن علي الأنصاري، المعروف بابن الملقن، تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.
- التوقيف على مهمات التعاريف، تأليف: عبد الرؤوف بن تاج العارفين المناوي، الناشر: عالم الكتب -القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تأليف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ.
- التيسير بشرح الجامع الصغير، تأليف عبد الرؤوف المناوي.
- جامع الأصول، تأليف: أبي السعادات، المبارك بن محمد ابن الأثير، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة الحلواني، مطبعة الملاح، مكتبة دار البيان، ١٣٨٩هـ.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تأليف: أبي جعفر، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: الدكتور: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- جامع العلوم والحكم، تأليف: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤١٩هـ.

• الجامع لأحكام القرآن، تأليف: أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٥٣هـ.

• الجامع لشعب الإيمان، تأليف: أبي بكر، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: مختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

• الجنة والنار، تأليف: الدكتور: عمر بن سليمان الأشقر، دار النفائس - الأردن، الطبعة السابعة، ١٤١٨هـ.

• الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تأليف: أبي زيد، عبد الرحمن بن محمد الثعالبي، تحقيق: محمد علي معوض وعادل أحمد عبد الموجود، عبد الفتاح أبو سنة، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

• الداء والدواء، تأليف: محمد بن أبي بكر، شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، دار عالم الفوائد - مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.

• الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تأليف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تحقيق: الدكتور: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

• درء تعارض العقل والنقل، تأليف: أبي العباس، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، جامعة الإمام - السعودية، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ.

• الدرر الكامنة، تأليف: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، إحياء التراث العربي، ٢٠١٢م.

• دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية، تأليف: أبي العباس، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، جمع وتقديم وتحقيق: الدكتور: محمد السيد الجليند، مؤسسة علوم القرآن – دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.

• الذيل على طبقات الحنابلة، تأليف: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق: الدكتور: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة العبيكان – الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

• رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه، تأليف: محمد بن أبي بكر، شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الله بن محمد المديفر، عالم الفوائد.

• روائع التفسير، تأليف: عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، جمع وترتيب: طارق عوض الله محمد، دار العاصمة – السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

• روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تأليف: محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.

• الروح، تأليف: محمد بن أبي بكر، شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد أسكندر يلدا، دار الكتب العلمية– بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.

• روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تأليف: أبي حاتم، محمد بن حبان البستي، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية.

• زاد المسير في علم التفسير، تأليف: أبي الفرج، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي، ودار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

• زاد المعاد في هدي خير العباد، تأليف: محمد بن أبي بكر، شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.

• الزهد، تأليف: أبي عبد الله، عبد الله بن المبارك المروزي، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ.

• زهرة التفاسير، تأليف: أبي زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى، دار الفكر.

• السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، تأليف: محمد بن أحمد، الخطيب الشربيني، مطبعة بولاق (الأميرية) - القاهرة، ١٢٨٥هـ.

• سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف- الرياض، الطبعة الثانية.

• سلسلة الأحاديث الضعيفة، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف- الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ.

• سنن ابن ماجه، تأليف: أبي عبد الله، ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، تحقيق:محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.

• سنن أبي داود، تأليف: أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ومحمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ.

• سنن الترمذي، تأليف: أبي عيسى، محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي- بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦هـ.

- سنن النسائي، المؤلف: أبي عبد الرحمن، أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث، دار المعرفة – بيروت.
- سوء الخلق، المؤلف: محمد بن إبراهيم بن أحمد الحمد، در ابن خزيمة، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ.
- سير أعلام النبلاء، تأليف: شمس الدين، محمد بن أحمد الذهبي، مؤسسة الرسالة– بيروت، الطبعة الحادية عشرة، ١٤١٧هـ.
- السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة، تأليف: محمد الصوياني، مكتبة العبيكان – الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ.
- السيرة النبوية، تأليف: أبي محمد، عبد الملك بن هشام، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ الشلبي، دار إحياء التراث العربي– بيروت.
- شرح السنة، تأليف: الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، المكتب الإسلامي– بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
- شرح العقيدة الطحاوية، تأليف: محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، تحقيق: الدكتور: عبد الله بن عبد المحسن التركي، وشعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.
- شرح العقيدة الواسطية، تأليف: محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي – الرياض، الطبعة السادسة، ١٤٢١هـ.
- شرح حديث النزول، تأليف: أبي العباس، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، المكتب الإسلامي– بيروت، الطبعة السادسة، ١٤٠٢هـ.

• شرح رياض الصالحين، تأليف: المؤلف: محمد بن صالح العثيمين، مدار الوطن للنشر- الرياض، ١٤٢٦هـ.

• شرح صحيح البخاري لابن بطال، تأليف: أبي الحسن، علي بن خلف المعروف بابن بطال، ضبط وتعليق: ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ.

• الشريعة، تأليف: أبي بكر، محمد بن الحسين الآجُرِّيُّ، تحقيق: الدكتور: عبد الله الدميجي، دار الوطن - الرياض، الطبعة الأولى١٤١٨هـ.

• الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تأليف: إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار الملايين - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ.

• صحيح ابن حبان، تأليف: أبي حاتم، محمد بن حبان البستي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

• صحيح الأدب المفرد، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة الدليل- الجبيل، الطبعة الرابعة، ١٤١٨هـ.

• صحيح البخاري، تأليف: أبي عبد الله، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

• صحيح الترغيب والترهيب، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف- الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

• صحيح الجامع الصغير زيادته، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ.

• صحيح سنن أبي داود، تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف- الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

• صحيح مسلم بشرح النووي، تأليف: أبي زكريا، محيي الدين يحيى بن شرف النووي، مؤسسة قرطبة، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

• صحيح مسلم، تأليف: أبي الحسين، مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

• صفة الصفوة، تأليف: تأليف: أبي الفرج، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: محمود فاخوري، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ.

• الصمت وآداب اللسان، تأليف: أبي بكر، عبد الله بن محمد ابن أبي الدنيا، تحقيق: أبي إسحاق الحويني الأثري، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

• طبقات الحفاظ، تأليف: جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ.

• طبقات الشافعية الكبرى، تأليف: أبي نصر، عبد الوهاب بن علي السبكي، تحقيق: الدكتور: محمود محمد الطناجي، والدكتور: عبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.

• طبقات الفقهاء، تأليف: أبي إسحاق الشيرازي، تحقيق: الدكتور: إحسان عباس، دار الرائد العربي- بيروت.

• الطبقات الكبرى، تأليف: محمد بن سعد الهاشمي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

• طبقات المفسرين، تأليف: أحمد بن محمد الأدنه وي، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم- المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

• طبقات المفسرين، تأليف: جلال الدين، عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ.

• طبقات المفسرين، تأليف: شمس الدين، محمد بن علي الداوودي، دار الكتب العلمية- بيروت.

• طريق الهجرتين وباب السعادتين، تأليف: تأليف: محمد بن أبي بكر، شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، عالم الفوائد - مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.

• عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، تأليف: محمد بن أبي بكر، شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: إسماعيل بن غازي مرحبا، عالم الفوائد - مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.

• عقيدة الحافظ تقي الدين عبد الغني عبد الواحد المقدسي، تأليف: عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي، أبو محمد تحقيق: عبد الله بن محمد البصيري، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

• عمدة القاري شرح صحيح البخاري، تأليف: أبي محمد، محمود بن أحمد العيني، دار الفكر.

• غرائب التفسير وعجائب التأويل، تأليف: محمود بن حمزة الكرماني، تحقيق: شمران العجلي، دار القبلة، ومؤسسة علوم القرآن، جدة، بيروت.

• الغوامض والمبهمات، تأليف: أبي القاسم، خلف بن عبد الملك بن بشكوال، تحقيق: محمود مغراوي، دار الأندلس الخضراء- جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

• فتح الباري شرح صحيح البخاري، تأليف: أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، أخرجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.

• فتح الباري شرح صحيح البخاري، تأليف: عبدالرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، تحقيق: محمود بن شعبان بن عبد المقصود، وآخرون، مكتبة الغرباء الأثرية - المدينة النبوية، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.

• الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني.... حققه: محمد صبحي حلاق، الناشر: مكتبة الجيل الجديد- صنعاء.

• فتح القدير، تأليف: محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء.

• الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، تأليف: أبي العباس، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، حققه وخرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان- دمشق، ١٤٠٥هـ.

• في ظلال القرآن، تأليف: سيد قطب إبراهيم الشاربي، دار الشروق - بيروت- القاهرة، الطبعة الثانية والثلاثون، ١٤٢٣هـ.

• فيض القدير شرح الجامع الصغير، تأليف: عبد الرؤوف بن تاج العارفين المناوي، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩١هـ.

• القاموس الفقهي لغة واصطلاحا، تأليف: سعدي أبو جيب، دار الفكر- دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ.

• القاموس المحيط، تأليف: محمد يعقوب الفيروزبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة - بيروت، مؤسسة الرسالة -،الطبعة الثامنة، ١٤٢٦هـ.

• الكاشف عن حقائق السنن، تأليف: الحسين بن عبد الله الطيبي، تحقيق: الدكتور: عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

• الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية (نونية ابن القيم)، تأليف: محمد بن أبي بكر، شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد بن عبدالرحمن العريفي، وناصر بن يحيى الجنيني، وعبدالله بن عبدالرحمن الهذيل، وفهد بن علي المساعد، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع - مكة، الطبعةالأولى ١٤٢٨هـ.

• كتاب التعريفات، تأليف: علي بن محمد الجرجاني، تحقيق وضبط وتصحيح: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ.

• كتاب العين، تأليف: أبي عبد الرحمن، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: الدكتور: مهدي المخزومي، والدكتور: إبراهيم السامرائي.

• الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، علق عليه وخرج أحاديثه: خليل مأمون شيحا، دارالمعرفة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٣٠هـ.

- الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أبي إسحاق، أحمد بن محمد الثعلبي، تحقيق: أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
- اللباب في علوم الكتاب، تأليف: عمر بن علي بن عادل الدمشقي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية- دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- لسان العرب، تأليف: أبي الفضل، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي، دار صادر - بيروت.
- لسان الميزان، تأليف: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.
- المبدع شرح المقنع، تأليف: إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد ابن مفلح، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تأليف: علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي.
- مجموع الفتاوى، تأليف: أبي العباس، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف - المدينة المنورة، ١٤١٥هـ.
- محاسن التأويل، تأليف: محمد جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلميه - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.

• المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تأليف: أبي محمد، عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

• مختار الصحاح، تأليف: محمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة لبنان- بيروت، ١٩٨٦م.

• مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة،، اختصره: محمد بن محمد بن عبد الكريم، شمس الدين ابن الموصلي، تحقيق: سيد إبراهيم، دار الحديث - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

• مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تأليف: محمد بن أبي بكر، شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة السابعة، ١٤٢٣هـ.

• مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تأليف: أبي البركات، عبد الله بن أحمد النسفي، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

• مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، تأليف: أبي الحسن، علي بن سلطان الهروي القاري، خرج حديثه وعلق عليه: صدقي محمد جميل العطار، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ.

• المستدرك على الصحيحين، تأليف: أبي عبد الله الحاكم، محمد بن عبد الله النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ.

• مسند أبي يعلى، تأليف: أبي يعلى، أحمد بن علي التميمي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث - دمشق، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ.

• مسند أحمد بن حنبل، تأليف: أبي عبد الله، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، تحقيق: شعيب الأرنؤط، وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

• المصباح المنير، تأليف: أحمد بن محمد الفيومي، تحقيق: الدكتور: عبد العظيم الشناوي، دار المعارف، الطبعة الثانية.

• معالم التنزيل في تفسير القرآن، المؤلف: تأليف: أبي محمد، الحسين بن مسعود البغوي، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع- الرياض، ١٤٠٩هـ.

• معالم في الطريق، تأليف: سيد قطب الشاربي، دار الشروق، الطبعة السادسة، ١٣٩٩.

• المعجم الكبير، تأليف: أبي القاسم، سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، الطبعة الثانية.

• معجم اللغة العربية المعاصرة، تأليف: الأستاذ الدكتور: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، الطبعة الأولى - القاهرة، ١٤٢٩هـ.

• معجم المؤلفين، تأليف: محمد رضا كحالة، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي- بيروت.

• المعجم الوسيط، تأليف: مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة، ١٤٢٥هـ.

• معجم مقاييس اللغة، تأليف: أبي الحسين، أحمد بن فارس القزويني الرازي، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ.

• مفاتيح الغيب، تأليف: أبي عبد الله، محمد بن عمر، فخر الدين الرازي، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.

• مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، تأليف: محمد بن أبي بكر، شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٩هـ.

• مفردات ألفاظ القرآن، تأليف: أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٣٠هـ.

• المقاصد الحسنة في بيان الكثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، تأليف: أبي الخير، محمد بن عبد الرحمن السخاوي، صححه: عبد الله محمد الصديق، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

• الموسوعة العربية العالمية، تأليف: مجموعة من العلماء والباحثين، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع- الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ.

• موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، تأليف: مجموعة من الباحثين، دار الوسيلة للنشر.

• ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تأليف: أبي عبد الله، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة- بيروت.

• النبوات، تأليف: أبي العباس، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، أضواء السلف- الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ.

• نزعة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، تأليف: أبي الفرج، عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة- بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.

• نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تأليف: أبي الحسن، إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتاب الإسلامي - القاهرة.

• النهاية في غريب الحديث والأثر، تأليف: أبي السعادات، المبارك بن محمد الجزي، ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، المكتبة الإسلامية.

• نوادر الأصول في أحاديث الرسول ﷺ، تأليف:، أبي عبد الله، محمد بن علي بن الحسن، الحكيم الترمذي، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار الجيل - بيروت، الطبعة الأولى،١٤١٢هـ.

• نيل الأوطار، تأليف: محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق: عصام الدين الصبابطي، دار الحديث -القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ.

• الهداية إلى بلوغ النهاية، تأليف: أبي محمد، مكي بن أبي طالب القيسي القرطبي، تحقيق: مجموعة رسائل جامعية، بجامعة الشارقة، كلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، الطبعة الأولى، ١٤٢٩ هـ.

• الوابل الصيب من الكلم الطيب، تأليف: محمد بن أبي بكر، شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: سيد إبراهيم، دار الحديث - القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٩ م.

- الوافي بالوفيات، تأليف: صلاح الدين، خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق واعتناء: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تأليف: أبي الحسن، علي بن أحمد بن محمد الواحدي، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، والدار الشامية - دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.
- الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تأليف: أبي الحسن، علي بن أحمد بن محمد الواحدي، تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تأليف: أبي العباس، حيدر بن محمد بن خلكان، تحقيق: الدكتور: إحسان عباس، دار صادر- بيروت، ١٣٩٨هـ.

فهرس الموضوعات

إهداء ٥

تقديم الشيخ الدكتور/ عائض بن عبد الله القرني........................ ٦

أهمية الموضوع ١٠

أسباب اختيار الموضوع ١١

أهداف البحث ١٣

الدراسات السابقة.. ١٣

حدود الدراسة ١٣

منهج البحث.. ١٣

منهجية الباحث في البحث.. ١٣

الفصل الأول:

القرب والمقربون مفهومه، وأنواعه، وأهميته

تمهيد.. ٢٠

المبحث الأول: مفهوم القرب والمقربين ٢١

المطلب الأول: مفهوم القرب والمقربين في اللغة.. ٢٢

المطلب الثاني: معاني القرب في القرآن الكريم ٢٦

المطلب الثالث: مفهوم القرب من الله والمقربين في القرآن الكريم........ ٣٣

المبحث الثاني: أنواع القرب ٤٦

المطلب الأول: قرب الله تعالى من خَلقه ٤٧

المطلب الثاني: قرب الخلق من الخالق ٦١

المطلب الثالث: القرب بين الخلق ٦٥

المبحث الثالث: منزلة وأهمية القرب من الله ومقام المقربين............ ٧٨

المطلب الأول: منزلة القرب من الله وأهميتها ٧٩

المطلب الثاني: مقامات المقربين عند الله تعالى ٨٦

الفصل الثاني:

القرب من الله أسبابه وموانعه

تمهيد.. ٩٤

المبحث الأول: أسباب القرب من الله تعالى ٩٥

المطلب الأول: الإيمان بالله ٩٦

المطلب الثاني: العمل الصالح ١١٢

المطلب الثالث: حُسن الخُلق ١٢٨

المبحث الثاني: أسباب البُعد عن الله تعالى ١٥٤

المطلب الأول: الكفر بالله ١٥٥

المطلب الثاني: المعاصي والذنوب ١٦٩

المطلب الثالث: سوء الخُلق ١٩٨

الفصل الثالث:

صفات المقرَّبين من الله، وثمرات القرب، وعاقبة البعد عن الله

تمهيد ٢٠٤

المبحث الأول: صفات المقرَّبين من الله تعالى ٢٠٥

المطلب الأول: صفات الملائكة المقرَّبين ٢٠٦

المطلب الثاني: صفات الرسل والأنبياء ٢٢٢

المطلب الثالث: صفات أولياء الله الصالحين ٢٥٧

المبحث الثاني: ثمرات القرب من الله تعالى ٢٦٦

المطلب الأول: ثمرة القرب من الله في الحياة الدنيا ٢٦٧

المطلب الثاني: ثمرة القرب من الله عند الموت ٢٧٧

المطلب الثالث: ثمرة القرب من الله في البرزخ ٢٨٩

المطلب الرابع: ثمرة القرب من الله في الآخرة ٢٩٥

المبحث الثالث: عاقبة البُعد عن الله تعالى ٣٠٣

المطلب الأول: عاقبة البُعد عن الله في الحياة الدنيا ٣٠٤

المطلب الثاني: عاقبة البعد عن الله عند الموت ٣١٩

المطلب الثالث: عاقبة البُعد عن الله في البرزخ ٣٢٣

المطلب الرابع: عاقبة البُعد عن الله في الآخرة ٣٢٧

الفصل الرابع:

القرب من أصناف الخلق وأثره على القرب من الله

تمهيد.. ٣٥٠

المبحث الأول: القرب من خيار الخلق «أهميته وأسبابه وثمراته» ... ٣٥١

المطلب الأول: القرب من الملائكة «أهميته وأسبابه وثمراته»........... ٣٥٢

المطلب الثاني: القرب من الأنبياء والرسل «أهميته وأسبابه وثمراته».... ٣٦٩

المطلب الثالث: القرب من الأولياء الصالحين «أهميته وأسبابه وثمراته» ٣٨٤

المطلب الرابع: موانع القرب من خيار الخلق وعاقبة ذلك ٣٩٧

المبحث الثاني: القرب من القرابات الخاصة «أهميته وأسبابه وثمراته» ٤٠٧

المطلب الأول: القرب من الأرحام والجيران «أهميته وأسبابه وثمراته» . ٤٠٨

المطلب الثاني: القرب من الأخلاء والأصحاب الصالحين ٤٣٠

المطلب الثالث: موانع القرب من القرابات الخاصة وعاقبة ذلك ٤٣٧

المبحث الثالث: القرب من شرار الخلق «خطورته وأسبابه وعاقبته» . ٤٥٢

المطلب الأول: القرب من الكفار «خطورته وأسبابه وعاقبته» ٤٥٣

المطلب الثاني: القرب من الشياطين وسلاطين الضلال ٤٦٥

الخاتمة ٤٩٣

أولاً: أهم النتائج والفوائد التي منَّ الله بها على الباحث ٤٩٤

ثانيًا: أهم التوصيات والمقترحات التي ظهرت للباحث ٤٩٦

قائمة المصادر والمراجع ٤٩٧